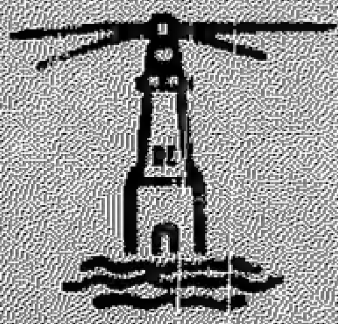


ﷺ

محمد

خاتم المرسلين

دكتور شوقى ضيف



دار المعارف

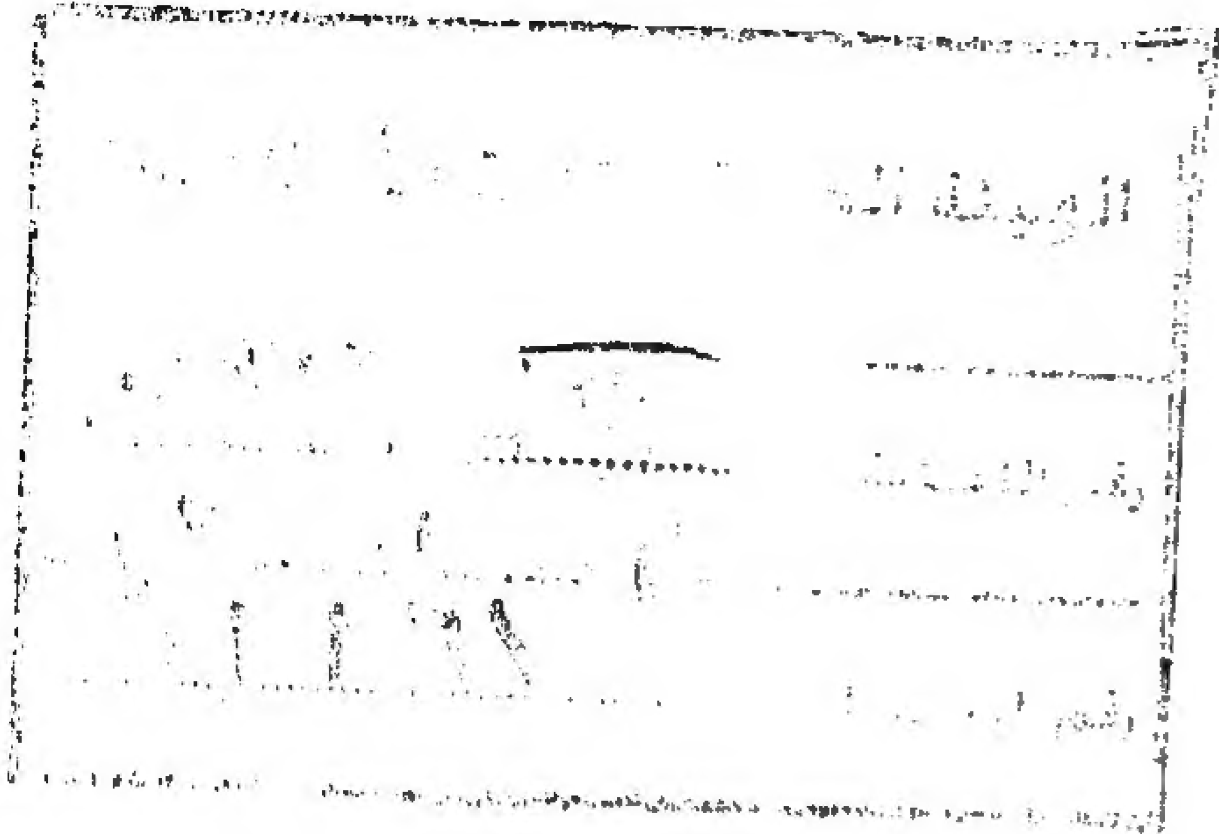
مُحَمَّد

خَاتَمُ الْمُرْسَلِين

تصميم الغلاف : **منال بدران**

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع

دكتور شوقى ضيف





محمد ﷺ

خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله الـذى أنعم علىَّ أن أكتب الصفحات التاليـة عـن حياة أعظـم رسول أهداه الله إلى البشرية، وهيهات أن أوفيه بعض حقّه. وإن حياتـه لا تخفى منها خافية فى طور طفولته وشبابه حين كان يبتعد عن عبادة الأصنام ولهو الشباب، وفى طور اقترانه بخديجة، وكان اقترانه بها موفَّقًا سعيدًا، وعاشا حياة زوجية هنيئة، شغل نفسه فيها بالتجارة، وأكبرت قريش فيه الصدق والأمانة ولقَّبْته «الأمين»، ووصفته خديجة حينئذ قبل مبعثه بأنه كان يصل ذوى الرحم ويكفل الضعيف ويكسب الفقير ويكرم الضيف ويعين على نوائب الحق. وإذا كانت هذه خصاله قبل مبعثه، فما بالنا به وقد أصبح نورًا مضيئًا لأمته وله يقول الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، فهو دائما لأمته رحمة ورفق ورأفة لا يذم أحدًا ولا يعيبه أى عيب ويعفو ويصفح حتى عن أعدائه.

ولما أنزل الله عليه الوحى وأخذ يدعو قريشا إلى توحيد الله ونبذ الأوثان والأصنام التى توارثتها عبر مئات السنين هالت الكثرة من أهلها دعوته، وتسلَّلت منها فئة آمنت بوحدانية الله ورسالة رسوله المصطفى. وشبَّت معركة قاسية من إيذاء مشركى قريش للرسول وأتباعه المؤمنين، ولما اشتد أذاهم أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى أرض الحبشة فى السنة الخامسة من مبعثه، وفيها أَمِنوا على دينهم عند ملك الحبشة المسيحى وأقاموا بخير دار. ولم يهاجر الرسول معهم فقد بقى بمكة يبلغ رسالته متلقيا أذى قريش دون جزع، وفى ذلك تتضح رحمته بأصحابه وتفانيه فى إبلاغ عقيدة الإسلام. وبينما قريش تشتد فى إيذاء الرسول والمؤمنين إيذاء عنيفا إذا وفْدٌ من أشرافها يلقى أبا طالب عم الرسول قائلين له:

إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا لا نصبر على تسفيه ابن أخيك أحلامنا وعيب آلهتنا. فإما أن تكفّه عنا وإما أن ننازلك وإياه فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. وذكر أبو طالب ما قالوه للرسول. فقال له فى إصرار: "والله – يا عم – لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله – أو أهلك دونه – ما تركته". فقال له أبو طالب: "قل ما أحببت، فلن أسلمك – والله – لشئ أبدا". ومضت الأيام وقريش لا تكفُّ عن أذاها للرسول والمسلمين.

وتُوفّى أبو طالب كما توفيت بعده سريعا خديجة فاشتدّ بالرسول البلاء من حرمانه منهما. ورأى أن يذهب إلى ثقيف بالطائف على بعد نحو خمسين ميلا من مكة يدعو أهلها إلى دين الله لعلهم يجيبونه، ولقى نفرا من سادتها لم يحسنوا لقاءه وهزئوا به، فانصرف عنهم، وسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم يرشقونه بالحجارة حتى دميت رجلاه، وعاد إلى مكة داعيا أن يخرج من أصلاب ثقيف من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا. وأخذ الرسول يعرض نفسه ودينه على القبائل فى مواسم الحج فيجد منهم ازورارًا إلا ما كان من أهل يثرب فإن نفرًا منهم بايعه على دينه ونصرته، وأرسل معهم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليدعُوًا إلى الإسلام، وانتشر فى يثرب، وجاء منها إلى الرسول فى موسم الحج التالى وفد كبير، فبايعوه بيعتهم الكبرى، وأمر الرسول – بنظره الصائب – الصحابة بالهجرة إلى المدينة، ثم هاجر إليها، وبدأ فيها ببناء مسجده متخذًا منه دار عبادة وتعليم وقضاء ومشورة للمسلمين.

ومن بواكير أعماله فى المدينة التى تدل على أنه كان رجل دولة وسياسة أنه كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار سماهما فى صدره أمة، وكان ذلك إرهاصًا واضحا ببدء تكوين الأمة الإسلامية التى أصبحت – فيما بعد – إمبراطورية ضخمة، وضمَّن هذا الكتاب دستورًا للأمة الإسلامية الناشئة. وحرىّ برجال القانون فى عصرنا أن يتدارسوه ويشرحوا بنوده القانونية المُثْلَى. وقرَّر الدستور أن اليهود فى المدينة جزء من الأمة، وأقرَّهم على دينهم عملاً بقوله تعالى: ﴿لاَ

إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ﴾ وأقرَّ – فيما بعد – مجوس الخليج العربى عبدة النار على دينهم الوثنى، وبذلك تقرَّرَت حرية العقيدة فى الأمة الإسلامية إلى أقصى حد. وجعل الرسول للأمة الإسلامية مبدأين أساسيين: مبدأ الأخوة كما قال الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وبقول الرسول: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه"، ومبدأ المساواة التامة أمام الله فلا وسطاء بين الناس والله من كهنوت كما فى اليهودية والمسيحية، والناس متساوون دون أى جاه أو عصبية أو قومية أو طبقية ولا فرق بين عربى وأعجمى ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى.

وفُرضت الزكاة وما يتبعها من الصدقة، وبهما حلَّ الإسلام مشكلة الفقراء والأغنياء إلى الأبد. وجعل الله الكعبة قبلة الصلاة فى الفرائض الخمس اليومية، وبذلك وحَّد بين المسلمين فى جميع بقاع الأرض. وهاجم المستشرقون الرسول لكثرة حروبه فى الجزيرة وكانت ضرورية لنشر الإسلام، ووُضعت لها سبعة قوانين رحيمة لم تعرف الأمم الغربية فى حروبها أحدها حتى اليوم، واتضح أن ما سُمِّى سرايا حربية إنما كان فى جملته بعوثًا للدعوة إلى الإسلام.

ويكرِّر الله فى القرآن أنه موجَّه للجنس البشرى جميعه كما فى قوله لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وكان الرسول شديد الإيمان بذلك مما جعله يبشِّر أصحابه مرارًا بأنهم سيفتحون العالم، كما جعله يدعو الملوك من حوله إلى الإسلام: ملك إيران وإمبراطور بيزنطة وحاكم مصر وملك الحبشة. وإن ما فى تعاليم الإسلام من الحرية الدينية المكفولة لجميع الشعوب، وما فيها من العدل والإخاء والمساواة كل ذلك يهدف إلى وحدة الشعوب وأنه دين عالمى. ولى فى عالميته كتاب تُرجم إلى الإنجليزية والفرنسية.

وحمل بعض المستشرقين على زواج الرسول من عائشة لخبر كاذب يقول إنها كانت فى سن التاسعة، والثابت أنها كانت فى نحو العشرين من عمرها. وحملوا على تعدد زوجاته وكنَّ جميعا أرامل ما عدا عائشة، وتزوج بغير واحدة

منهن - كما بيّنت فى غير هذا الموضع - لأسباب اجتماعية وسياسية. وأكرم الإسلام المرأة إلى أبعد حد، إذ جعل الزواج بين الرجل والمرأة ميثاقا يُعقد أمام الله، كما جعل للنساء حقوقًا على الرجال اجتماعية ومالية لم تتوفر لهن عند أمة غربية حتى اليوم. ومن حسن معاملة الرسول للنساء اليهوديات أنه بعد انتصار رجال جيشه على يهود خيبر حرّم عليهم زواج المتعة باليهوديات، وفى ذلك دليل قاطع بأنه محرّم فى الإسلام.

ومن المواقف الحضارية للرسول ﷺ أن كثيرين من أهل مكة كانوا يعرفون الكتابة بسبب عملهم فى التجارة، وكان من يعرفونها فى المدينة قليلين لاشتغالهم بالزراعة، وكثر أسرى قريش فى غزوة بدر، وكان فداء الأسير القرشى من ألف إلى أربعة آلاف، فجمع الرسول من الأسرى من يعرفون الكتابة، وقال لهم إنّ كلاً منكم يستطيع أن يفدى نفسه من الأسر بتعليم عشرة من غلمان المدينة الكتابة، وتعلمها منهم كثيرون وهو عمل حضارى عظيم.

ومن أعمال الرسول ﷺ البالغة الرحمة أنه فتح مكة قهرًا ولم يحلّ فيها السبى والغنيمة، إذ قال لا سبى ولا غنيمة بمكة، وحارب بعدها هوازن، وكان سيدها وقائد جيشها مالك بن عوف أمر الرجال باصطحاب نسائهم وأولادهم معهم، فلما هُزِموا أسر جيش الرسول النساء والأولاد واصبحوا سبيًا، وجاء الرسول وفْدٌ منهم يُعلن إسلامه، فردّ عليهم النساء والأولاد.

وظل الرسول ﷺ طوال حياته فى مكة والمدينة يعيش معيشة زهد وتقشف، ومنذ موقعة خيبر تكثر أمواله، وكان يجعلها لإعداد جيشه وللفقراء والمساكين، وحياته لا تتغير لا هى ولا حياة زوجاته، فدائما زهد وشظف، ومرّت الأيام وهن يتحمّلْنها، حتى إذا تكاثر مجئ الأموال بعد خيبر وفُتِحت مكة صارحنه بأنهن منصرفات معه عن متاع الدنيا، وأنه ينبغى أن يتيح لهن شيئا من الترف وزينة الحياة، وغضب واعتزلهن شهرا ونزل القرآن يُخيِّرُهنّ بين قبول معيشته الزاهدة وفراقه لهن، ورضين حياته وحياتهن الزاهدة المتقشفة، وانتقل إلى الرفيق الأعلى وهو مضطجع على حصير.

وكان دائما يدعو أصحابه إلى أن يكونوا عدولا رحماء بالإنسان والحيوان وأن يكون إيمانهم عقلانيًّا بصيرًا بتدبير الله للكون الدال على وحدانيته، وأن لا يؤمنوا بخرافة أو سحر أو تنجيم أو كهانة أو شعوذة. وحدث أن كُسِفت الشمس يوم وفاة ابنه إبراهيم فقال بعض الصحابة إنها كسفت حزنا عليه، فجزع لهذه الخرافة وأسرع فخطب الصحابة قائلا: "أيها الناس: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يكسفان لموت أحد".

ولم يحط الرسول ﷺ نفسه بأى هالة قدسية طوال رسالته، ولا حاول أن يقوم بمعجزة سوى معجزة القرآن، ودائما يقرِّر أنه ليس إلا بشرا مثل أى صحابى، ويعمل مع الصحابة نفس أعمالهم دون أى ترفُّع، فقد نقل معهم حجارة مسجده فى بنائه، وحفر معهم الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب، وكان لا يستشعر أى عظمة ويقول للصحابة إنى لا أختلف عنكم فى شئ، وكان يمنعهم من الوقوف له تجلّةً حين يخرج عليهم، كما كان يمنعهم من الإسراف فى الثناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى بن مريم وقولهم إنه ابن الله. ودائما كان يقول لأصحابه إنما أنا عبد مثلكم من عباد الله آكل كما تأكلون وأجلس كما تجلسون.

ورجعت فيما كتبت من الصفحات التالية إلى القرآن الكريم ففيه تشريعات الدين وكثير من الغزوات، وتوقفت فى الفصل الثالث عشر لكتابة كلمة عن القرآن وذكرت فى إعجازه وجها لم يتنبه إليه الأسلاف، ورجعت إلى كتب الحديث وإلى كتب السيرة النبوية وفى مقدمتها سيرة ابن هشام والطبقات الكبرى لابن سعد وإلى كتاب عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزى. ومما رجعت إليه من المؤلفات الحديثة كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل وكتاب نور اليقين فى سيرة سيدنا محمد سيد المرسلين للشيخ محمد الخضرى، كما رجعت إلى كتابات المستشرقين. وكل ما حاولت كتابته عن الرسول العظيم وحياته إنما هو إلمامة قاصرة بجوانب سيرته وما أعظمه من رسول

اختاره الله لإبلاغ خاتمة رسالاته الإلهية إلى البشرية لسعادتها فى الدنيا والآخرة. صلوات الله وسلامه عليه إلى أبد الآبدين. والله أسأل أن يلهمنى السداد فى الفكر والقول والعمل بمنّه وكرمه.

القاهرة فى ١٥ من يناير سنة ٢٠٠٠

شوقى ضيف

تمهيـــــد

بدأتُ الحديث عن سيرة الرسـول ﷺ العطرة بحديث ذكرتُ فيه الموقع الجغرافي للجزيرة العربية وعصرها الجاهلي وما كان به من وثنية وكهانة، كما ذكرتُ العالم في عصر البعثة النبوية، واليهودية والنصرانية والحنيفية دين إبراهيم. وبالمثل تحدثتُ في إيجاز عن إبراهيم وبنائه مع ابنه إسماعيل للكعبة وانتقال سِدانتها إلى قبيلة جُرْهم فقبيلة خُزاعة وتحوُّلها الى قُصَيّ وقريش، وازدهار التجارة بمكة، وإخفاق غزوة أبرهه الحبشي لها، وما كان من ولائها على العرب لأنها حامية الكعبة وما بها من أصنامهم المقدسة .

وانتقلتُ إلى الحديث عن سيرة الرسول ﷺ من مولده إلى نهاية حياته مما يميِّزها عن سيرتي رسولي اليهودية والنصرانية، إذ لا نعرف عن حياة موسى إلا أشياء قليلة ذكرتها التوراة وذكرها القرآن قبل مبعثه، ولا نعرف شيئا عن أيامه الأخيرة قبل موته ولا موضع قبره، وعيسى عاش ثلاثين سنة قبل مبعثه ولا نكاد نعرف عنها إلا ما ذكر القرآن من كلامه في المهد، وإلا بعض أخبار غامضة مثل رحلته مع أمه مريم إلى مصر. أما الرسول ﷺ فحياته بجميع تفاصيلها مسجَّلة عند مؤرخي سيرته، وهي تذكر نسبَه الشريف من جهة أبيه عبد الله بن عبد المطلب كبير سادة قريش، وبالمثل من جهة أمه آمنة بنت وهب القرشية، ولم تطل مدة زواج عبد الله بآمنة إذ توفي سريعا بيثرب في عودته من تجارة له بالشام في أثناء حمل آمنة بابنها .

وتقدمت بها أشهر الحمل، ووضعته في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول وأرسلت توًّا إلى جدّه عبد المطلب تبشِّره به ، فجاء إليها مسرورا وسماه محمدا. ويذكر مؤرخو السيرة بعض خوارق حدثت في ميلاده أو قبله، إرهاصًا بأنه الرسول المنتظر، ولم أورد ذكر شيء منها لأنها رُوِيت بعد زمن طويل من

ميلاده، ولها نظائر تُذكر فى صباه مثل شق الملائكة لصدره فى طفولته كما تُذكر له خوارق فى رحلته إلى الشام مع عمه فى الثانية عشرة من عمره مثل تظليل الغمام له ومَيْل شجرة بظلّها عليه وبشرى بحيرا بنبوته. وكل تلك المعجزات الحسِّية يُراد بها التنبُّؤ بأنه رسول الأمة، ومعروف أنه لم يعتمد فى رسالته على معجزات حسية تماثلها. ومن أعظم معجزاته فى نبوّته أنه لم يأت بمعجزة سوى القرآن الكريم بتعاليمه الإلهية وبلاغته الباهرة وإشعار قارئه بأنه فى الحضرة الإلهية.

وكانت أم محمد آمنة مُتعبة، فأرضعته أسبوعا ولم تلبث جارية عمه أبى لهب أن ساعدتها فى رضاعته. وكان أشراف مكة يعشون بمن يولد لهم مع مراضع بدويات كنّ يَفِدن على مكة لحمل الرُّضّع إلى بواديهم وتنشئتهم فيها، وجاءت مكة مراضع بنى سعد واختارت آمنة منهن لطفلها حليمة السَّعدية. وظل محمد فى بادية بنى سعد حتى بلغ خمس سنوات، وكان لهذه النشأة البسيطة فى البادية أثرها فى محمد إذ تعود أن يطيل النظر فى الكون من حوله: فى السماء ليلا وما يبزغ فيها من قمر ونجوم ونهارا وما ترسل فيه الشمس من أشعة ساطعة. وكان يعيش معيشة حرة خالية من أى قيد، وينام مبكرا ويصحو مع أشعة الفجر الرمادية ويُطعَم طعاما بسيطا من اللبن والتمر أحيانا. وعاد إلى مكة وشوارعها الضيقة، ولم يعد ينام فى خيمة بل فى بيت مرتفع. وحملته أمه وهو فى السادسة من عمره إلى يثرب لزيارة أخوال أبيه، ورأى فيها النخيل والزروع والبساتين وقنوات المياه، والناس تختلف حياتهم الزراعية عن حياة بادية بنى سعد تمام الاختلاف. وفى عودته توفيت أمه فى الطريق، ورجع إلى مكة محزونا. ولم يلبث أن توفى جدُّه وكفله عمه أبو طالب وعاش مع أبنائه. وأخذ يتردد على أسواق مكة، وكان عمه تاجرا يتردد على الشام فسأله أن يصحبه فى تجارته إليها وصحبه، وهو فى الثانية عشرة من عمره.

وما بلغ محمد هذه السِّنّ حتى اتسعت مداركه، فقد رأى فى طفولته حياة البادية وعاشها، ورأى فى صباه بيثرب حياة الزرّاع وعاشها، ورأى فى مكة حياة

التجار وعروضها وعاشها، ورأى مدن الشام وحدائقها. وكل ذلك أتاح لمحمد معرفة بحياة البدو والزرّاع والتجار وحياة مدن الحجاز ومدن الشام. ويمكن أن نجعل رؤيته حِلْف الفضول في دار عبد الله بن جُدْعان سيد بنى تَيْم ختام المرحلة الأولى من حياته، إذ رأى بنى هاشم وبنى المطلب وعشيرتى زهرة وتيم يجتمعون عند ابن جدعان ويعقدون حلفا سمّوه حلف الفضول، تعاقدوا فيه أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها إلا أعانوه على من ظلمه حتى تُردُّ مظلمته، وقد شهده الرسول ﷺ وهو غلام، وامتدحه وهو رسول، وقال: "ما أحبّ أن لى به حُمْر النّعم، ولو أنى دعيت فى الإسلام إليه لأجبت".

والمرحلة الثانية من حياة الرسول مرحلة شبابه، وكان فى أوائلها يَرْعى غنم أهله وأهل مكة، وكأنما استعادت ذاكرته أيام نشوئه فى بادية بنى سعد ورعيه فيها غنم أبويه من الرضاع، ونظن ظنّا أنه لم يطُل مقامه فى الرّعْى، وأنه انتقل إلى العمل فى التجارة إذ كانت أسرته أسرة تجّار. وجعله عمله فى التجارة يَفِد على أسواق مكة، ورأى فى سوق عكاظ قسّ بن ساعدة الإيادى أسقف نجران على بعير يعظ الناس ورَوَى بعض موعظته. ووصلته التجارة بالسيدة خديجة بنت خويلد وكانت ذات شرف وجمال ومال كثير، وقد كان يتجر لها فى مالها بعض رجال قريش، وقدموا لها محمدا فاستأجرته فى بعض تجارات صغيرة، فجاءها بربح كثير. وعرف عمُّه أبو طالب أنها تعدُّ لتجارة لها مع قوافل الصيف، فسألها أن تعهد بها لمحمد فرحَّبت به، وعاد من تجارته لها بربح وافر لم تعهده، فاغتبطت وزاد فى اغتباطها أن ماجاء به من عروض التجارة ربحت فيه أيضا ربحا وافرا. وازداد إعجابها به، وتمنّت فى نفسها لو اقترن بها هذا الشاب القرشى الشريف المفرط فى الصدق والأمانة. وكانت ذات عقل راجح، فعرّفت صديقة لها برغبتها فى الاقتران به، ولقيته، ووجدت منه قبولا حسنا، فعرّفتها والتقت به، وقالت له: يا بن عمّ إنى قد رضيت بك لقرابتك إلىّ ومكانتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، وهى كلمات فى استقبال محمد وأنها ترضى به زوجا تدلّ على سداد عقلها، وتمت مراسيم الزواج سريعا. وعاش الزوجان المتحابان

معيشة هنيئة، وأسلمت له تجارتها وتدبير مالها، ونال فى سرعة احترام قريش له، وذلك لصدقه فى التعامل وشدة أمانته حتى لقَّبوه بالأمين. وكانت خديجة بجانب ثرائها ذات جمال وحصافة عقلية ممتازة، فعاشت سعيدة مع محمد وملأت عليه دنياه سعادة، ورزقا فى السنوات العشر الأولى من زواجهما بستة أبناء: ولدين توفيا سريعا وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

وكان أهم حادث له فى هذه المرحلة السعيدة من حياته بناء قريش الكعبة واختصام عشائرها فيمن يكون لها شرف حَمْل الحجر الأسود المقدس إلى موضعه، واشتدّ الجدال بين العشائر فى ذلك طوال أربعة أيام، واتفقت العشائر على أن تجعل الحكَمَ بينها أول داخل من باب المسجد، فكان أولَ من دخل منه محمد، فلما رأوه قالوا – بصوت واحد – إنه الأمين، ونحن نرتضيه. فطلب رداء واسعا وضع الحجر فيه، وطلب إلى كل عشيرة أن تحمله من طرف، فحملته العشائر إلى موضعه، ووضعه بنفسه فيه. والحادث يدلّ على مكانته فى قريش وتلقيبهم له بالأمين وحسن رأيه ودقة حكمه.

وأخذ محمد فى نهاية هذه المرحلة الثانية السعيدة من حياته يتحنَّث أى يتعبَّد لربه طوال شهر رمضان من كل سنة، واختار لتحنُّثه واختلائه بعبادة ربه غارا بجبل حِراء ، وهو يبعد عن مكة بنحو ثلاثة أميال. ولم تكن خديجة زوجة ثرثارة فتركته يخلو فيه لنفسه لعبادة ربه كما يريد، ودائما كانت تعدّ له الزاد أياما وترسله إليه، وهو غارق فى عبادته لربه، وتأملاته فى الكون من حوله. وتقول السيدة عائشة إن أول ما كان من تباشير الوحى رُؤًى صادقة كان يراها فى النوم، ولا يلبث أن يراها واقعة فى اليقظة.

وبلغ الأربعين من عمره، فأيقظه من نومه فى السابع عشر من رمضان ملاك فى صورة رجل واقف أمامه وفى يده صحيفة وبادره بقوله: ﴿اقْرَأْ﴾. فأجابه: ما أنا بقارئ. فضمّه إليه وعصره عصرًا شديدًا حتى بلغ منه الجهد، وأرسله وقال له ثانية: ﴿اقْرَأْ﴾. فقال: ما أنا بقارئ. فعصره عصراً شديداً حتى بلغ منه

الجهد، ثم أرسله وقال له: ﴿اقْرَأْ﴾. فقال له: ماذا أقرأ؟ فقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وقرأ الآيات وانصرف الملاك. وفزع محمد فزعا شديدا، وانطلق إلى خديجة بمكة وأنبأها بالحادثة وهو يرتجف وَجَلاً، فهل ما رآه بغار حِراء شيطان لكهانة أو ملاك لنبوة؟ وطمأنته خديجة، وقالت له: أبشرْ يا ابن عمّ إنك نبيّ هذه الأمة. وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان متحنّفا – وقيل بل كان نصرانيا – وقصّ عليه الرسول الحادث، فقال له: إن كنت صدقتنى فإن هذا هو الناموس (أى جبريل) الذى كان ينزل على موسى. وبشره بالنبوة. وانقطع الوحى عنه فترة قليلة وعاد إليه الوحى وتتابع.

ويمضى الرسول فى المرحلة الثالثة من حياته يدعو إلى الإسلام سرًّا طوال ثلاث سنوات معرِّفًا من يدخله بتعاليمه الكبرى، وفى مقدمتها الإيمان بوحدانية الله والصلاة له والإيمان باليوم الآخر وبالملائكة والرسل ورسالته النبوية، ودخله صفوة من المسلمين الأولين فى مقدمتها أبو بكر. وأُمر الرسول بالدعوة إلى الإسلام جهرا، وبادرت كثرة قريش بمعارضته، وكان أبو جهل أشدهم عداء له، ووسَّطوا له عمه أبا طالب ليثنيه عن دعوته، فقال قوله المشهور: "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته". وممن كان يبادره بالعداوة عقبة بن أبى مُعَيْط وآذوا أصحابه المستضعفين من العبيد والإماء إيذاء عنيفا، وكان أبو بكر الصدِّيق يشتريهم ويحررهم.

وعلم عمّ الرسول حمزة وكان من أبطال قريش وفرسانها أن أبا جهل آذى الرسول عند الصفا فغضب غضبا شديدًا، وجاء إليه فضربه بقوسه فشجَّه شجَّة قوية، وأعلن له ولمن حوله أنه على دين محمد، وذهب إلى ابن أخيه فأعلن إسلامه، وعز الإسلام به، وكفّت قريش عن بعض ما كانت تؤذى به الرسول. ولما اشتد إيذاء قريش للصحابة أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة (المسيحية)، فلقيهم النجاشى لقاء كريما، وأقاموا عنده فى أحسن جوار.

ومضى الرسول فى دعوته إلى عقيدة الإسلام. وأدت الظروف عمر بن الخطاب أن يذهب إلى بيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد غاضبا لما علم من إسلامهما، ورأى عندهما صحيفة فيها أوائل سورة الحديد، فقرأها وشعر فى أثناء قراءتها أنه فى الحضرة الإلهية، فأعلن إسلامه مما يشهد بهذا الوجه من إعجاز القرآن، فإن من يسمعه يشعر كأن الله حاضر معه فيستجيب له. وذهب إلى الرسول معلنا إسلامه.

وتقول كتب السيرة النبوية أنه شاعت حينئذ قصة الغرانيق وأن الرسول قرأ فى الكعبة سورة النجم على جمع فيه بعض مشركى قريش، فلما بلغ قول الله فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ أتبعها بقوله: تلك الغرانيق العُلا، وإن شفاعتهن لتُرتجى. والغرانيق جمع غرنوق: من طير الماء. ومعاذ الله أن ينطق الرسول بهاتين الكلمتين فى وصف آلهة قريش الوثنية. وهى قصة دسَّها على السيرة النبوية الطاهرة بعض أعداء الإسلام ورواها عنهم بعض مؤرخى السيرة فى غفلة من أن الرسول – كما قال الله فى نفس سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾، وقال فى سورة المائدة: ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فكيف يكون معصوما بل كيف يكون رسولا وينطق كفرًا؟ وما أشدها من فرية كاذبة.

وبلغ من عداء قريش للرسول ﷺ أن اتفق من بها من المشركين على مقاطعة محمد ومن يحميه من بنى هاشم وبنى المطلب وأن تعمل قريش على جوعهم فلا يشترى أحد منهم شيئا لهم ولا يبيع أحد منهم لهم شيئا، ولا يتزوج أحد منهم من قريش. وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى الكعبة لأول سنة سبع من البعثة وأمروهم بالنزول فى شعب أبى طالب بالجبال المحيطة بمكة. وظلّوا فى الشعب سنتين إلى أن بادر نفر من قريش إلى الصحيفة فنقضها، وعاد الرسول وبنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة.

وعادت قريش إلى إيذاء الرسول وصحبه، وتحدَّته بطلب معجزات حسية كما تشهد بذلك أواخر سورة الإسراء. وتوفى أبو طالب وخديجة، ورأى محمد

أن يعرض الإسلام على كبراء الطائف من ثقيف فأغروا به عبيدهم وسفهاءهم يصيحون به ويرشقونه بالحجارة، فعاد إلى مكة. وكأنما أراد الله أن يعزّيه عن هذه الحادثة، فكتب له حادث الإسراء ليلا إلى بيت المقدس على البراق مع جبريل وصلاته فيه، وكتب له أيضا حادث المعراج وصعوده فيه إلى السموات السبع ولقاء بعض الرسل، وهبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، وصلى بهم فيه. ويزعم بعض المستشرقين وأعداء الرسول أن قصة الإسراء والمعراج قصة خرافية، ورددتُ على ذلك بأن القرآن أشار إليها فى مطلع سورة الإسراء. وكانت السيدة عائشة تقول إن الإسراء والمعراج جميعا كانا بالروح فقط، واختلف العلماء هل كانا بالروح فقط، أو كانا بالروح والجسد معا، وسواء كان الإسراء والمعراج رحلتين فى المنام أو فى اليقظة فلا جناح على من يعتقد أحد الرأيين، ويشهد للرأى بالروح فقط التنويم المغناطيسى ويشهد للرأى بأنهما كانا بالجسد والروح معا انتقال الأصوات فى هذا العصر على الأثير مسافات بعيدة فى نفس اللحظة، وانتقال الأشخاص فى الرحلات الفضائية إلى كواكب بعيدة عن الكرة الأرضية بعدا هائلا، والله سبحانه قادر على أن يجعل الإسراء والمعراج لرسوله فى المنام أو فى اليقظة. وصلاة الرسول بالأنبياء فى الإسراء والمعراج ترمز إلى وحدة الديانات السماوية وأنها انتهت إلى دين الإسلام الذى يهيمن عليها والذى يضع عن اليهود والنصارى ما يثقلهما فى ديانتيهما من بعض الأوامر والنواهى الشديدة كما ذكر الله ذلك فى سورة الأعراف.

ومضى الرسول يعرض نفسه والإسلام على القبائل فى مواسم الحج، والتقى فى أحد المواسم بستة من الخزرج من أهل يثرب وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وعادوا إلى يثرب، وأخذوا يدعون قومهم من الخزرج والأوس إلى الإسلام. واستدار العام وأقبل موسم الحج ، فقدم فيه من الأنصار اثنا عشر رجلا: عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، ولقيهم الرسول ﷺ وأعلنوا إليه إسلامهم، وبايع كلاًّ منهم على أن لا يشرك بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصى الرسول فى

معروف. وبعث الرسول معهم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليعلّما من أسلم من يثرب القرآن وليدعُوَا إلى الإسلام. وقاما بمهمتهما خير قيام، حتى إذا استدار العام وجاء موسم الحج قدم على الرسول من يثرب ثلاثة وثمانون رجلا وامرأتان وبايعوه البيعة الثانية الكبرى.

وبهذه البيعة الكبرى تنتهى المرحلة الثالثة من حياة الرسول التى عُنى فيها بدعوة أهل مكة إلى الإسلام طوال ثلاثة عشر عاما، ودخلته طائفة من قريش، وكانوا قليلين بالقياس إلى كثرتها التى ظلّت معارضةً فى عنف للإسلام. ومنذ هذه البيعة الكبرى من أهل يثرب أخذ الرسول يأمر أصحابه بالهجرة إليها، وهاجر مثلهم وبدأ المرحلة الرابعة من حياته.

وكانت معه فى مكة فئة قليلة فأصبحت معه مدينة كبيرة وسكانها من الخزرج والأوس ومن نزل بها من المهاجرين، وكان أول ما عُنى الرسول به بعد استقراره فى يثرب بناء مسجده، وكان ينقل إليه الحجارة وجعل قبلته من اللّبِن وسقُفه من الجريد وعمُده من جذوع النخل، ولما أتم بناء المسجد جعله دار عبادة وعلم وقضاء وتشاور. وبنى بجواره بيوته: وكانت تسع حُجَر وكان سقفها من جريد النخل. وكان بجوار المدينة ثلاثة حصون لثلاث قبائل يهودية هم بنو قَيْنُقاع وبنوالنّضير وبنو قُرَيْظة، نزلوا بها حين طردهم الرومان من فلسطين. ورأى الرسول ببصيرته النافذة أن يسمّى أتباعه فى يثرب من المهاجرين والأنصار أمة، وهو عمل من أعظم أعماله وكان بدء تكوُّن الأمة الإسلامية ، التى أصبحت فيما بعد من أمم العالم الكبرى. وبحق جعل عمر – فى خلافته – الهجرة بدء تاريخ الإسلام. وسرعان ما جعل الرسول لهذه الأمة دستورا فيه المسلمون من المهاجرين والأنصار أمة واحدة يتكافل أفرادها. ويقرِّر الدستور حرمة الحياة وتحريم القتل وجعل عقوبته القصاص لا الأخذ بالثأر، كما يقرر أن اليهود فى المدينة جزء من الأمة وبقاءَهم على دينهم وأموالهم، وبذلك أقرَّ الدستور حرية العقيدة، وهو جدير بأن يتدارسه رجال القانون فى عصرنا ويشرحوا مبادئه العالمية العظيمة.

وبذلك أصبح للإسلام أمة في الأرض، وستتسع في عصر الرسول ﷺ حتى تشمل الجزيرة العربية جميعها، ثم يتضاعف اتساعها فيما بعد حتى تصبح إمبراطورية إسلامية من أواسط آسيا شرقا إلى إسبانيا غربا. وأخذ الرسول يعيش بيثرب في أمة إسلامية خالصة، ووضع لها مبدأين :مبدأ الإخاء الصادق بين المسلمين ومبدأ المساواة التامة.

فأما الإخاء فقد قال الله فيه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقال الرسول ﷺ : "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى". ومن أعظم صوره مؤاخاة الأنصار من الخزرج والأوس للمهاجرين القادمين عليهم من مكة ، وقد تركوا فيها سكناهم وأموالهم، فوسعوهم في بيوتهم وأشركوهم في أموالهم وتوارثوها معهم دون ذوى الرحم من الأقارب إلى أن ألغاها الله بعد موقعة بدر في قوله: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ﴾. وبقيت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فيما عدا التوارث، إذ ظلت بينهما بقية حقوق الأخوة وخاصة المواساة.

وأما المساواة فقد دعا الرسول والإسلام بقوة إلى أن أفراد الناس متساوون جميعاً أمام الله، ولا وسيط بينهم وبينه من أحبار وقساوسة وأساقفة ورهبان وغيرهم، وألغى الإسلام ما وجده من طبقات في الأمة بإيران والهند، فلا سيد ومسود ولا قومية ولا عصبية ولا طبقية. ويقول الرسول في خطبته بحجة الوداع: "لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ،ولا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى". وبذلك ألغى الإسلام – لأول مرة في التاريخ – الجنسية والعنصرية والقومية والعصبية واللون، ولا انتماء إلا للدين.

ولم يستشعر الرسول طوال رسالته أى هالة قدسية أو زمنية من سلطان أو مُلك، وكان يردّد للصحابة أنه بشر وأنه لا يفترق عن أى صحابى، ومن قوله: إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد. وكان

يجالس أصحابه من الفقراء والمساكين ويؤاكلهم ويعود مرضاهم. ودائما كان يدعو أصحابه لاحترام آدمية المساكين والبشر جميعا.

والله يأمر المسلمين بالزكاة مرارًا وتكرارًا فى القرآن الكريم وفرضها الرسول على المسلمين فى السنة الأولى للهجرة، وهى صورة عظيمة من العدالة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء بحيث يعطى الغنى من ماله سنويًا للفقراء حقًّا معلومًا دون أى قهر أو حرمان من ماله وتصرفه فيه. وبذلك حلّ الإسلام مشكلة الفقراء والأغنياء فى المجتمعات الإسلامية مع جعله الزكاة وما يتبعها من الصدقة عبادة كعبادة الصلاة، تملأ قلوب المسلمين طمأنينة وسعادة.

وتزوج الرسول بالسيدة عائشة فى العام الأول للهجرة، وفُرض الأذان للإعلام بأوقات الصلاة، وكانت القبلة فيها إلى بيت المقدس حتى خمسة عشر شهرًا من مقامه بالمدينة، فجعلها إلى الكعبة بيت عبادة إبراهيم وابنه إسماعيل، ويزعم بعض المستشرقين أنه بدّلها حين رأى اليهود ينقضون مهادنته، وليس ذلك بصحيح فإن الله هو الذى بدّلها للرسول والمسلمين فى سورة البقرة ليكتمل استقلال الإسلام.

وليس لليهودية ولا النصرانية قبلة معينة فى الصلاة ، بخلاف الإسلام فلأتباعه قبلة الكعبة التى توحّد بينهم، والتى يتجهون إليها مع الصلاة خمس مرات كل يوم. وفُرض الصيام فى السنة الثانية للهجرة، وفُرضت زكاة الفطر، واحتدم الجدل مع اليهود، ونزل يثرب وفد من نصارى نجران، وكأنما اجتمع بها مؤتمر للديانات السماوية الثلاث، وحاجّ الرسول اليهود كما حاجّ نصارى نجران وأفحمهم.

وتكثر الحروب فى هذه المرحلة الرابعة لحياة الرسول، ويقارن بعض المستشرقين بين حياته وحياة المسيح فيقولون إن المسيح عاش حياة روحية زاهدة، وأن حياة محمد تبدّلت فى المدينة فانصرف عن الزهد وعاش لتكوين دولة والمتاع بالحياة، ومعروف أن المسيح عاش فى سنوات رسالته الثلاث حياة محن وآلام

انتهت برفع الله له وإنقاذه، ولم يكن مجتمعه ولا بيئته في حاجة إلى نظام سياسي أو اجتماعي إذ كان النظامان قائمين في مجتمعه وفي الدولة الرومانية، أما مجتمع الرسول فكان فيه فراغ هائل للنظامين مما جعله يجاهد في فرضهما على مجتمعه، ومع ذلك فإن عيسى إذا كان عاش ثلاث سنوات في محن فإن الرسول عاش بمكة ثلاث عشرة سنة في محن، ولو أنه مكث بها سنوات الهجرة العشر إلى نهاية حياته لما كُتب للإسلام أن ينتشر ولا أن يصبح دينا ضخما. وقد ظل الرسول في يثرب – كما كان في مكة – يعيش معيشة روحية زاهدة متقشفة.

ومن الخطأ أن يذكر مؤرخو السيرة النبوية للرسول سبعا وعشرين غزوة وسبعا وأربعين سَرِيَّة أى كتيبة حربية، والصحيح أنه إنما حارب في تسع غزوات، وكان يسير في بعضها لعقد محالفات مع بعض القبائل فسمّى مؤرخو السيرة هذه المسيرات غزوات، ونفس الغزوات التسع لم يحارب في ثلاث منها، وهي: الأحزاب وقريظة وفتح مكة، ولم تكن السرايا كتائب للحرب إنما كان بعضها للاستطلاع ومعرفة نية قريش في غزو الرسول وبعضها لنشر الإسلام والدعوة إليه. ولذلك رأيت أن تُسمَّى بعوثا لا سرايا.

ووضع الله ورسوله لحروبه سبعة قوانين حضارية رحيمة، وأول قانون فيها أن لا تكون عدوانية بل تكون دائما ردًّا لعدوان. وثاني قانون أن أسرى الحروب لا يقتلون. والقانون الثالث أنه لا يمثّل بقتلاهم. والقانون الرابع أنه لا توضع الأغلال في رقاب الأسرى. والقانون الخامس إبطال الأخذ بالثأر ووضع قانون القصاص مكانه. والقانون السادس تحريم قتل الصبية والنساء والشيوخ والرهبان. والقانون السابع تحريم نهب زروع الأعداء. واستشعر المسلمون هذه القوانين في جميع حروبهم بحيث نستطيع أن نقول إن حروب الرسول والمسلمين كانت دائما حروبا حضارية رحيمة، بخلاف حروب المسيحيين حتى الحرب العالمية الماضية.

وأعدت قريش في السنة الثانية للهجرة جيشًا كبيرًا للهجوم على الرسول ويثرب، وعلم به الرسول وخرج إليه بجيشه في شهر رمضان، والتقى به هو

وجيشه عند آبار بدر، وكانت تقام فيها سنويًا سوق. وهُزمت قريش هزيمة ساحقة قُتل فيها سبعون من صناديدهم، وأُسر سبعون، وبين من قُتلوا عُتاة أعداء رسول الله فى مكة: أبو جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط والنَّضر بن الحارث، وجعل الرسول فداء الأسير من ألف إلى أربعة آلاف حسب قدرته المالية، وأطلق سراح فقرائهم.

وكان بمكة بسبب التجارة كثيرون يعرفون الكتابة بخلاف المدينة، فرأى الرسول أن يستغلّ الكتّاب من الأسرى فى تعليم غلمان المدينة الكتابة، وجمع الكاتبين فى الأسرى وقال لهم إن كلاً منكم يستطيع أن يفدى نفسه من الأسر بتعليم عشرة من غلمان المدينة الكتابة، ورحَّب نفر منهم بذلك، وتعلمها منهم زيد بن ثابت فى طائفة من غلمان المدينة. وهى فكرة للرسول حضارية عظيمة.

ولما عاد الرسول من بدر إلى يثرب أخذ اليهود بدلا من تهنئته بنصره يتحرشون به وبالمسلمين، فصمَّم بعض الصحابة على قتل حمقاهم وقتلوهم وجمع الرسول اليهود فى سوق بنى قَيْنُقاع – وكانوا صاغة وصناع أسلحة – وقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله أن يُنْزل بكم مثل ما أنزل بقريش من النقمة فى بدر، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنى نبىٌّ مرسل. فأجابوه: لا يغرَّنك يا محمد أنك لقيت فى بدر قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس. وعرف الرسول أنهم يُبيِّتون له وللمسلمين شرًّا وأنهم نقضوا العهد الذى بينه وبينهم. وتصادف أن أنصارية جلست إلى صائغ تفاوضه فى حِلْية، واعتدى عليها يهودى فقتل مسلم الصائغ فقتلوه ولم يرفعوا الأمر إلى الرسول كما يوجب الدستور ليحكم بالقصاص. وعرف بنو قَيْنُقاع أن الرسول والمسلمين لابد أن يحاربوهم فدخلوا حصونهم وأغلقوها، فحاصرهم الرسول والمسلمون خمسة عشر يوما، وشفع فيهم عبد الله بن أُبَىّ فأمر الرسول بجلائهم عن يثرب فجلوا إلى الشام. وسار الرسول بعد جلائهم خمس مسيرات استكشافية سماها مؤرخو السيرة غزوات. وتزوَّج على بفاطمة كما تزوَّج الرسول بحفصة بنت عمر فى شعبان من السنة الثالثة للهجرة وكانت صوَّامة

قوّامة. وتحدثت هنا عن القرآن الكريم وسوره المكية والمدنية وهيمنته على التوراة والإنجيل، وعرضت وجها من إعجازه لم يتنبّه إليه الأسلاف.

وأخذت قريش تستعد للحرب؛ لغزوة أُحُد في شوال من السنة الثالثة للهجرة واشتركت فيها بعض القبائل، وصحب النساءُ الجيش. وعلم الرسول ﷺ بإعداد قريش لهذا الجيش، وعقد مجلسا حربيا للتشاور في لقائهم بيثرب أو لقائهم خارجها، واتفق المجلس على لقاء الجيش القرشي خارج يثرب، وخرج الرسول مع الجيش إلى جبل أُحُد وعسكر فيه، ورجع عبد الله بن أبي مع صحبه من اليهود والمنافقين، فلم يشتركوا في المعركة، وأقبل الجيش القرشي واصطفَّ الفريقان، وأوصى الرسول ﷺ الرماة أن لا يتركوا أماكنهم. وانهزمت قريش في الجولة الأولى وأبلى فيها حمزة عم الرسول بلاء عظيما، وقُتل جميع حملة لواء قريش من بني عبد الدار. وكانت هند زوجة أبي سفيان وعدت وحشيا الحبشي إن قتل حمزة - قاتِل أبيها في بدر - بحربته مكافأة كبيرة، ورصده ورماه بحربته وخرَّ البطل صريعا. ولما رأى خالد بن الوليد الرماة يتركون أماكنهم كرَّ عليهم، وانقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة ومثّلتْ هند بحمزة، وصنع صنيعها بالقتلى بقية النساء القرشيات. وأصابت الرسول بعض إصابات طفيفة، وكان طلحة ممن دافع عنه دفاعا عظيما. وانصرفت قريش فَرِحة بما تم لها في أُحُد من نصر، وتوعدت الرسول اللقاء على رأس الحول في بدر.

ورجع الرسول إلى يثرب، ولما صلّى الصبح أمر بلالا أن ينادي في الصحابة أن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج إلا من شهد القتال بالأمس، ومضى الرسول بأصحابه حتى بلغ حمراء الأسد، وأمرهم بجمع الحطب في النهار حتى إذا جاء الليل أمر كل رجل منهم أن يوقد نارا واشتعلت النيران وملأت الأرجاء حتى كان يخيل لمن يراها أن جيش المسلمين ألوف وأعداد لا تحصى. وكان جيش أبي سفيان لا يزال قريبا، وكان يتشاور في الرجوع إلى حرب الرسول، فلما جاءه الخبر بأن الرسول قريب منه وأنه في آلاف كثيرة أسرع بجيشه إلى مكة. ونجح الرسول في هذه الخدعة الحربية أعظم نجاح إذ أعاد إلى

أصحابه الثقة فى بطولتهم وأن الجيش القرشى لا يزال يرهب أن يكون مصيره مصير جيش بدر.

وحدثت خيانات من قبائل لصحابة له ذهبوا فى نفر منهم لهدايتهم. وحدثت بعوث ومسيرات للرسول وحُرِّمت الخمر تحريما باتًا. وشمت بالرسول بنو النَّضير قبيلة اليهود الثانية فى يثرب بعد هزيمة جيشه فى أحد، وحاولوا الغدر به، فحاصرهم وأجلاهم عن يثرب، وقسَّم أموالهم وزروعهم بين المهاجرين. وقد يعجب بعض الناس لإجلاء الرسول بنى قَيْنُقاع وبنى النَّضير عن المدينة. والإجلاء مكتوب على اليهود من قديم، فقد أجلى سرجون الثانى ملك آشور جزءًا منهم عن فلسطين سنة ٧٤١ ق.م وطردهم بختنصر من ديارهم سنة ٥٨٦ ق . م وبالمثل تيتوس إمبراطور روما سنة ٧٠ للميلاد وطردهم منها نهائيا الإمبراطور هادريان سنة ١٣٥ للميلاد.

وتزوج الرسول بزينب بنت خزيمة ثم بأم سلمة ثم بابنة عمته زينب بنت جحش، ويحمل عليه بعض المستشرقين لزواجه من زينب وهم مخطئون خطأ شديدًا. وحدثت بعوث ومسيرات للرسول ﷺ ، ثم كانت غزوة الأحزاب فى شهر شوال للسنة الخامسة وفيها تأليب اليهود لقريش على الرسول وإعداد قريش جيشا ضخما لحرب الرسول وإشراكها فيه غطفان وبعض القبائل. وحفر الرسول ﷺ الخندق حول المدينة واشترك فى الحفر، وفيها كان نقض بنى قُرَيْظة لعهد الرسول، ورجوع المنافقين إلى يثرب، ومجىء جيش الأحزاب وحيلولة الخندق بينهم وبين جيش الرسول ويثرب. وقَتل على بن أبى طالب عمرَو بن عبد وَدّ، وأقامت قريش والأحزاب أمام الخندق قريبا من شهر وليس بينهم وبين جيش المسلمين إلا الرمى بالنبل والحصا، وأخذوا ييأسون من أن تنشب معركة بينهم وبين المسلمين. وفى هذه الاثناء أخذ نعيم بن مسعود يخذّل بنى قريظة وأبا سفيان عن الحرب. وهبَّت على الأحزاب ريح عاتية أهلكت بعض الخيل والإبل ولم تعد تستمسك لهم خيام ولا تثبت لهم قِدْر ولا تشتعل نار، فارتحلت قريش والقبائل جميعا. ويئست قريش أن تغزو الرسول ويثرب بعد هذه الغزوة.

وأمر الله رسوله بحرب بنى قريظة فنادى فى أصحابه لحصارهم، وحاصرهم الرسول بضعا وعشرين ليلة، واستسلموا لحكمه، فحكّم سعد بن معاذ فيهم، فحكم بقتل الرجال وسَبْى الذرارى والنساء، ونُفِّذَ حكمه، وقسّم أموالهم: للفارس ثلاثة أسهم وقيل سهمان وللراجل سهم. وحُكْم سعد بن معاذ على بنى قريظة بقتلهم جميعا لنقضهم عهدَ رسول الله كان ملوك اليهود يصنعونه بأعدائهم فى صورة أشد عنفا، ففى الإصحاح الثانى عشر بسفر الملوك الثانى أن داود أخرج شعب مدينة ربة ووضعهم تحت مناشير ونواريج وفئوس من حديد، وطرح منهم جماعة فى موقد كبير للآجر – وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون فلم يكن يكتفى بالقتل بل كان يمثّل بهم ويطرح طائفة منهم فى الموقد الكبير للنار.

وتحدث بعوث متعددة ومسيرتان للرسول ﷺ ، ويغزو بنى المصطلق وينتصر عليهم ويتزوج جويرية بنت سيدهم لتحرير سَبْيهم، ويعتنقون الإسلام، وتضطر عائشة للتأخر عن الجيش فى عودته إلى يثرب، ويكون إفك كاذب عليها ويبرئها الله منه تبرئة إلهية عظمى.

ورأى الرسول ﷺ رؤيا فى النوم أنه دخل المسجد الحرام حالقا رأسه، فقصّها على أصحابه واستبشروا واشترى بُدْنًا (نوقا) هَدْيًا للكعبة، واستنفر المسلمين لقضاء عُمْرة، وأحرم معه نحو ألف وخمسمائة، وكان إحرامه من ذى الحليفة، ولبس ثياب الإحرام، ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب وأمر المسلمين أن يجعلوا السيوف فى أغمادها. وعسكر مع الهدى وجماعته عند شجرة الحُدَيْبِيَة بالقرب من مكة، وجرت الرسل بينه وبين قريش إلى أن جاءه سهيل بن عمرو، فصالحه على أن ينصرف فى هذا العام ويعود فى العام التالى معتمرا ويدخل هو وأصحابه مكة بلا سلاح والسيوف فى القُرُب ويقيمون بها ثلاثة أيام ويخرجون. ويظلّ هذا الصلح عشرة أعوام يأمن فيها الناس بعضهم بعضا ومن جاء من الكفار إلى الرسول مسلما يردُّه إلى قريش ومن جاء من المسلمين إلى قريش مرتدا لا يردُّوه إلى المسلمين. وارتضى الرسول معاهدة سهيل بن عمرو للصلح، ونَحَر

هَدْيَه وتبعه الصحابة ينحرون هَدْيَهم. وعاد إلى المدينة ولم يردَّ على قريش من هاجَرْنَ إلى يثرب من المسلمات.

وأعدَّ الرسول ﷺ جيشا ممن كان معه فى الحديبية لغزو خيبر، وكان عداد الجيش ألفا وأربعمائة راجل ومائتى فارس، خرج إليها فى المحرم من السنة السابعة للهجرة ،وكانت ثلاث مناطق على رءوس الجبال: النّطاة والشّق والكتيبة، وبدأ بالاستيلاء على حصون النّطاة وانتقل منها إلى حصون الشق. وفيها صنع لنساء اليهود وبناتهم مكرمة عظيمة إذ حرم على رجال جيشه زواج المتعة باليهوديات، وكان يهود خيبر جمعوا فيها نساءهم وذراريهم، واستولى بعدها على منطقة الكتيبة، وجعلها الخمس الذى يستحقه من مغانم خيبر، وقسَّم النطاة والشق على أفراد الجيش ،وجاءته صفية بنت حُيَىّ بن أخطب زوجة كنانة بن أبى الحقيق الذى قتله الجيش مرحبة به، فاصطفاها لزواجه بها بعد إسلامها وتحريره لها. وأهدته زينب بنت الحارث اليهودية زوجة سلام بن مشكم المقتول شاة مسمومة، وبمجرد أن طعمها عرف أنها مسمومة، فامتنع عن أكله لها. وعرف أهل فدك اليهود ما حصل لخيبر فاستسلموا له، وفى طريقه منها إلى يهود وادى القرى بَنَى بصفية. وفتح وادى القرى مثل خيبر قهرًا. وعاد إلى المدينة، وتزوج بها أم حبيبة بنت أبى سفيان. واتخذ فى مسجد المدينة من حينئذ المنبر.

وأرسل كتبَه إلى أمراء العرب: شمالا إلى الغساسنة وجنوبا إلى ملوك اليمن، وأسلم نصارى نجران وحاكما عُمان وأمير البحرين وأهلها، وأمر الرسول أن يدفع المجوس هناك الجزية مثل أهل الكتاب. ويقرِّر القرآن مرارًا أن الإسلام دين عالمى وأن الرسول ﷺ مُرسل إلى الناس كافّة، مما جعل الرسول يدعو ملوك الدول الأجنبية إلى الإسلام: ملك الحبشة وملك فارس وقيصر الروم والمقوقس حاكم مصر، ورحب الأخير بحامل كتابه إليه وبعث له بهدية. ونرى مؤرخى السيرة – لغفلتهم – يروون فِرية على الرسول دسَّها اليهود، وهى أن أحدهم سحره، وكأنهم لم يقرءوا آية سورة المائدة: ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فكيف يكون رسولا ومعصوما ويسحره يهودى! وهى فرية واضحة.

وتكون بعوث ثم تحدث عمرة القضاء ويدعو إليها الرسول ويخرج إليها مع أصحابه في ذى القعدة من السنة السابعة ويدخلون مكة وتتركها لهم قريش، ويؤدون فيها مناسك العمرة من إحرام وطواف وسعى ونحر هَدْى إلى الكعبة، ويتزوج الرسول ميمونة بنت الحارث، وذُكر هنا - بالتفصيل - زوجات الرسول. وأقبل إلى المدينة خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص وأعلنوا للرسول إسلامهم.

وتحدث بعوث وغزوتان: أولاهما غزوة مؤتة الموجهة إلى الروم في الشام بجمادى الآخرة من سنة ثمان، وأوصى الرسول الجيش أن يتمسك بقوانين الحرب الإسلامية الحضارية فلا يغدر أحدهم بعدوٍ ولا يخون فى غنيمة ولا يقتل امرأة ولا صبيا ولا راهبا ولا كبيرا فانيا، ولا يقلعُوا شجرة. وفوجيء الجيش فى مؤتة بفلسطين بأعداد لا تحصى من جيش الروم ودارت المعركة فاستشهد أمراء الجيش الثلاثة: زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبى طالب، وأنقذ خالد بن الوليد الجيش وعاد به إلى المدينة. ورأى الرسول بعد هذه الغزوة أن يرهب القبائل النصرانية فى الشمال، فأرسل إليهم حملة بقيادة عمرو بن العاص فأغار عليهم ودوَّخهم، وعاد بجيشه إلى المدينة.

وهاجر من مسلمى قريش إلى الرسول أبو بصير فلم يقبل هجرته إليه، لما جاء فى معاهدة الحديبية من أن من يقدم على الرسول من قريش يرده إليها، فخرج إلى البحر الأحمر فى طريق قوافل قريش وانضم إليه نفر من قريش ممن أسلموا مثله ولا يستطيعون الهجرة، فقطعوا الطريق على القوافل القرشية، فاستجارت قريش بالرسول وطلبت منه أن يقبلهم عنده، وبذلك نقضت قريش شرط إرجاع من يهاجر مسلما إليها، وكتب الرسول إليهم أن يقدموا عليه.

ثم حدثت فرصة ذهبية للرسول فإن قريشا حاربت مع حليفتها قبيلة بكر بن عبد مناة قبيلة خُزاعة حليفة الرسول، فنقضت بذلك عهدها معه، وسرعان ما أعدَّ الرسول جيشا ضخما لغزو مكة مكوَّنًا من عشرة آلاف واتجه به فى العاشر

من رمضان سنة ثمان من الهجرة إلى مكة مصمِّمًا على فتحها، ولقيه في الطريق عمه العباس مسلما مهاجرا إليه فصحبه غازيا معه. وعسكر الرسول بجيشه في مَرِّ الظهران على بعد خمسة أميال من مكة، ولم تكن قريش تعلم شيئا عن جيش الرسول، ولكن ما إن عسكر في مر الظهران حتى علمت بقدومه في جيش ضخم، فتشاوروا وصمّموا على منعه وحربه. وركب العباس عم الرسول بغلته وتجول بها آملا أن يلقى أحدا من قريش ليعلمه بجيش الرسول وأنها لن تستطيع أن تمنعه من دخول مكة، وإذا هو يلتقى بأبى سفيان زعيم قريش فيفد به على الرسول ﷺ مساء، ويبيت أبو سفيان مع صديقه العباس ويفد به على الرسول صباحا فيعلن إليه إسلامه، ويكرمه الرسول فيجعل المنادين في مقدمة الجيش ينادون: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. وتجمع قوم من قريش ليقاتلوا فبلغ ذلك الرسول فرتّب جيشه، وأمر خالد بن الوليد بدخول مكة من أسفلها، ولقى عكرمة بن أبى جهل وجماعة معه يريدون القتال، فقاتلهم وقتل منهم ثلاثة عشر رجلا فكفُّوا، وهو دليل للعلماء القائلين بأن مكة فتحت قهرا. ودخل الرسول مكة وهدم أصنام الكعبة، وأسلمت قريش، وقال الرسول لرجالها: اذهبوا فأنتم الطلقاء. أى المحررون من الأسر، مما يدل على أن مكة فتحت قهرا، وحرَّر أهلها، وهى مكرمة له عظيمة، وخُصَّتْ بأنه لن يحدث فيها سَبْى ولا غنيمة بأمر الرسول ﷺ. وأرسل الرسول ﷺ بعوثا حول مكة تدعو إلى الإسلام، وبعث خالد بن الوليد إلى العُزّى، وكان لها صنم بنخلة تعظّمه قريش والعرب فهدمه. وبعث زيد بن سعد إلى صنم مناة بين مكة والمدينة فهدمه.

وعلم الرسول ﷺ أن قبائل هوازن تستعد لحربه بقيادة مالك بن عوف وانضمام ثقيف إليه. وقاتلها وجعلت هوازن له كمينا في مضيق وانهزم المسلمون في الجولة الأولى بسببه، ثم كرَّ الرسول والمسلمون وهزموا هوازن، وأرسل غنائمها إلى الجِعرّانة. وحاصر الطائف ورفع الحصار. وجاءه وفد من هوازن، فردَّ عليهم نساءهم وهى مأثرة كريمة له. ووزّع غنائم هوازن وأكرم في

أعطياته المؤلَّفة قلوبهم، ونزل إلى مكة لقضاء عمرة من الجعرانة، وولّى عتاب بن أسيد الشاب مكة، وبعث عمرو بن العاص إلى ابنى الجُلُنْدى بعُمان فأسلما، وأخذ الجزية – حسب تعاليم الرسول – من المجوس.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة وبُشِّرَ بمولد مارية القبطية لابنه إبراهيم واغتبط به، وتصادف أن جاءته وحفصة غائبة عن بيتها فلقيها فيه، ولم تلبث حفصة أن جاءت إلى بيتها، وغضبت للقاء الرسول مارية فيه، وحاول أن يسترضيها وأنبأت صديقتها عائشة وتحزبتا عليه، ونزلت فى ذلك الآيات الأولى من سورة التحريم. وتحزَّبت زوجات الرسول عليه لأخذه لهن بالتقشف فى المعيشة مع كثرة غنائمه من خيبر وغير خيبر، وخيَّرهُنَّ بين الطلاق والرضا بمعيشته المتقشفة فأرتضينها جميعا.

وأرسل بعوثا لجباية الزكاة. ثم كانت غزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة أعدَّها لحرب الروم واستنفر لها القبائل، وبلغ جيشه ثلاثين ألفا ومعهم اثنا عشر ألف بعير وعشرة آلاف فرس. ووصل بالجيش إلى مدينة تبوك فى شمال الحجاز، وعلم أن جيش الروم تراجع من منطقة البلقاء فى الأردن، وكان الجو حارا حرارة شديدة، فرأى العودة إلى المدينة، وكان ثلاثة تخلفوا عن الغزوة فيهم كعب بن مالك، وأقر بذنبه هو وصاحباه، فأجَّلهم رسول الله حتى ينزل القرآن الكريم بقبول توبتهم، وبعد مدة غير قليلة تاب الله عليهم.

وجاء إلى المدينة وفد ثقيف فى رمضان من سنة تسع وأسلمت ثقيف، وهدم المغيرة بن شعبة صنم اللاّت. وأسلم حينئذ كعب بن زهير وأنشد الرسول مدحةً له، فأهداه بردته، وكانت نهاية عبد الله بن أبى. وأَبْدَى الرسول ﷺ فى مرضه تسامحا عظيما له مع ماكان من نفاقه وكثرة أخطائه، وحضر جنازته. وجاء موعد الحج فى السنة التاسعة، وكره الرسول أن يحج إذ لا يزال فى مكة والجزيرة بعض الوثنيين فأناب عنه فى الحج لهذه السنة أبا بكر. ونادى على بن أبى طالب فى الناس بصدر سورة براءة وبما فيها من تحريم دخول المشركين المسجد الحرام. وأسلموا جميعا سريعا فى مكة والجزيرة العربية بعد حجة أبى بكر.

وأقبلت إلى المدينة وفود عربية كثيرة تعلن إسلامها منها وفد المنذر بن ساوى أمير البحرين ووفد الجارود وعبد القيس النازلة على الخليج العربى ووفد طيئ. وأكرم الرسول سفَّانة بنت حاتم الطائى، ووفَد على الرسول أخوها عَدِىّ، وكان نصرانيا فأعلن إسلامه. وتعاقبت الوفود فى سنة عشر من اليمن وغير اليمن وأسلمت نجران النصرانية. وتوفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فى ربيع الأول سنة عشر للهجرة وعمره ستة عشر شهرا، وحزن الرسول لوفاته وقال: "تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب".

ثم كانت حجة الوداع فى ذى الحجة من سنة عشر، ويذكر مؤرخو السيرة كما تذكر كتب الحديث أنه أذَّنَ فى الناس بالحج، وحجَّت معه جموع لا تحصى، وخرج من المدينة للحج فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ومعه زوجاته وأهله وعامة المهاجرين والأنصار ومن حج معه من القبائل. وأحرم من ذى الحليفة وسار إلى مكة يُلَبِّى والناس قد أحرموا ويلبُّون معه، وساق معه الهَدْى إلى الكعبة مائة بدنة، وقرن الحج إلى العمرة، وكان يصلى طوال الطريق قصرًا. ودخل مكة من أعلاها، ودخل المسجد الحرام، وبدأ فيه بالطواف ثم سعى بين الصفا والمروة، وأقام بالأبطح ثلاثة أيام حتى يوم التروية فركب إلى منى، وصلى بها الظهر وبات بها وصلى فيها الصبح وركب منها بعد طلوع الشمس إلى عرفة وجعلها موقف المسلمين جميعا، وبعد صلاة الظهر والعصر بها مجتمعين خطب الناس خطبة حجة الوداع المشهورة. وركب إلى المزدلفة وصلى بها المغرب والعشاء وجمع منها حصا العقبة، وصلى بها الصبح وركب إلى منى وحلق شعره وتقدَّم إلى المنحر بها فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده، وترك نحر بقية المائة لعلى بن أبى طالب لينحرها. والنحر ذكرى لأضحية إسماعيل حين همَّ أبوه بذبحه كما هو معروف، وطاف طواف الإفاضة ثم عاد إلى منى وقضى بها أيام التشريق، ورمى الجمار فى أيام التشريق: سبع حصيات كل جمرة، وأيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر وهو عيد الأضحى، وطاف بالكعبة قبل الرحيل.

ونقف قليلا عند الأوامر والنواهي التي ضمَّنها خطبته في حجة الوداع، وأولها حرمة الدماء والأموال والأعراض، وتحريم الربا، وأداء الأمانة، وتحريم طلب الثأر، وحكم القتل، وتحريم النسيء وهو تأجيل بعض الأشهر الحرم، والتوصية بالمعاملة الرفيقة للنساء، وواجبات الأخوة بين المسلمين، والنهي عن الشقاق بينهم، وإبطال العنصرية إبطالا نهائيا فلا عربي وغير عربي ولا أبيض ولا أسود. ونزلت على الرسول في عَرَفة آية الدَّيْن (البقرة ٢٨٢) وآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي بما أُنزل في القرآن من أوامر ونواه وما أوجب الرسول منها في الحديث. وتمسك أصحاب المذهب الظاهري بهذه الآية في إبطال الإجماع والقياس وخالفتهم المذاهب الفقهية الكبرى في الأخذ بهما.

ومرض الرسول ﷺ ، وشكا من الصداع، واستأذن زوجاته في أن يمرَّض ببيت عائشة، وخرج إلى البقيع ليلا لتوديع الشهداء، واشتد به المرض، فأمر أن يصلي بالناس أبو بكر. ثم كان يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى وصدمة عمر حين سمع الخبر وخطاب أبي بكر للناس، واستخلافه للرسول وخطبته. وبعد إعداد الرسول ﷺ للدفن دخل الناس يصلون عليه جماعات ثم دخلت النساء ثم دخل الصبيان.طيَّب الله مثواه إلى يوم الدين.

الفصل الأول

الجزيرة العربية والعالم قديما

١

الموقع الجغرافى

شغل العرب من قديم جزيرتهم فى الجنوب الغربى لآسيا، وهى شبه جزيرة، وسمّوها جزيرة لأن الماء يحيط بها من ثلاث جهات، إذ تُطلُّ فى الغرب على البحر الأحمر. وفى الشرق على الخليج العربى وخليج عُمان، وفى الجنوب على خليج عدن والمحيط الهندى ويتسمَّى عنده باسم بحر العرب، وتتغلغل صحراؤها فى الشمال على حدود فلسطين وسوريا غربا والعراق شرقا، وتسمى شرقا بادية السماوة وغربا بادية الشام. وتنزل بها – وخاصة فى الغرب – الأمطار شتاء فتنمو بها النباتات والمراعى، مما هيأ للعرب أن يقيموا فى أعاليها الغربية إمارة تَدْمُرْ، وقضى عليها الرومان فى القرن الثالث للميلاد. وفى جنوبيها صحراء النفود التى تبتدئ من واحة تيماء، وتشغل مساحة واسعة، إذ تمتد شرقا نحو ثلاثمائة ميل وهى تمتلئ بكثبان الرمال الحمراء والمراعى الخضراء. وبالقرب من تيماء قرية دومة الجندل، وحين تقترب من العراق تمد ذراعا لها متجهًا إلى الجنوب فتفصل بين نجد والبحرين بفيافٍ واسعة تسمى الدَّهْناء، وتحيط باليمامة وتتصل بالربع الخالى، وهو صحراء قاحلة شديدة الاتساع، إذ يبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع، وتندمج فيها غربا صحراء الأحقاف فاصلة بين اليمن من جهة ونجد والحجاز من جهة ثانية. وتحفُّ بهذه الصحارى على الخليج العربى البحرين وهى

تشمل الآن الكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر، وكانت جنوبيها عُمان وتمتد على الخليج العربى وخليج عمان وبحر العرب أو المحيط الهندى، ومن قرى البحرين هجر والقطيف والخط، ومن قرى عُمان مسقط وصُحار ودَبا. وإذا اتجهنا بعد عمان على المحيط الهندى غربا لقينا إقليم ظفار ومهرة والشِّحر ومعناه الساحل، ثم إقليم حضرموت، ثم اليمن فى الجنوب الغربى للجزيرة، ويتألف سطحها من ساحل خصب على البحر الأحمر هو تهامة اليمن وجبال موازية لها هى امتداد سلسلة جبال السَّراة ثم هضبة تُفضى إلى نجد ورمال الأحقاف وبها كثير من الأودية والسهول والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية؛ مما أتاح لسكانها أن يقيموا فيها قديما دولا ذات حضارة راسخة منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد، ومن مُدنها عدن وزَبيد وصنعاء ونَجْران، وتنمو فى جبالها وجبال حضرموت وظفار أشجار الكندر، وهو اللُّبان الذى اشتهر به جنوبىّ بلاد العرب.

وساحل الجزيرة على البحر الأحمر يسمى تهامة، وقد يضيق وقد يتسع إلى خمسين ميلا وكان العرب يسمونه الغَوْر لانخفاض أرضه، وهى أرض رملية شديدة الحرارة صيفًا، ونشأت على طولها موانئ مثل الحديِّدة ميناء صنعاء، والشُّعَيْبة وجُدَّة ميناءا مكة، وينبع ميناء المدينة أو يثرب، والوجه ميناء الحِجْر عاصمة الثموديين منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وتُسمَّى الآن مدائن صالح نبيِّهم، وربما كانت هذه الميناء الموضع الذى أرسى فيه إليوس جالوس القائد الرومانى حاكم مصر بجيشه سنة ٢٤ قبل الميلاد، وهى الغزوة التى أراد أن يفتح بها بلاد اليمن التى كان يُسمِّيها مؤرخو اليونان والرومان العربيةَ السعيدة، وباءت الحملة بالفشل الذريع.

وتمتد فى شرقى تهامة من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال السَّراة فاصلة بين تهامة وهضبة نجد مكوِّنة إقليم الحجاز المعروف بكثرة أوديته وحَرَّاته، وإذا وُجدت فى هذه الحرَّات والأودية آبار وعيون آذنَتْ بالحياة فيها مثل وادى مكة وحرَّة أو واحة يثرب، وشماليها إلى الشرق واحَتا خَيْبَر وفَدَكْ وشماليها وادى

القُرى، وفى الشمال من السلسلة «مدين» قرية النبى شعيب وقومه. ومن قرى الحجاز المهمة الطائف على بعد نحو خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقى من مكة، قامت على جبل غَزْوان تحفُّ بها أودية وآبار كثيرة هيَّأت لمملكة نباتية مزدهرة فيها. وشمالى وادى القرى واحة تَبُوك، وشماليها واحة دومة الجَنْدل. ونشأت فى الشمال الغربى لسلسلة جبال السراة إمارة عربية فى بطرا منذ القرن الثالث قبل الميلاد وظلّت حتى قضى عليها الرومان نهائيا سنة ١٠٦م.

وخلف سلسلة جبال السراة شرقا نجدٌ الفسيحة التى تنحدر من الغرب إلى الشرق وتصل إلى حوض الفرات والحيرة وبها أسَّس العرب إمارة لهم منذ القرن الثالث الميلادى، وظلّت حتى شملتها الفتوح الإسلامية. وتمتلئ نجد بكثبان الرمال الحمراء والمراعى، وإذا اقتربت من العراق مدَّت ذراعًا لها نحو الجنوب تسمى صحراء الدَّهْناء، وهى تفصل بين البحرين وواحة اليمامة الخصبة بزروعها، ومن قراها الحِجْر وهى أكبرها. وليس فى نجد جميعها نهر وهى نجود أو كثبان ومرتفعات وأودية غير ذات زرع إلا ما قد ينبت فيها من الكلأ أو المراعى. ولندرة الأمطار بها سموها غَيْثًا وحَيًا (من الحياة) واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم، وإذا غابت الأمطار أجدبت الأرض وحلّ الهلاك على الأنعام والناس. ولذلك كان أساسا فى حياة أهل نجد الارتحال بحثا عن مرعى جديد لإبلهم وأغنامهم وما قد يكون عندهم من خيل، فلم يعرفوا الاستقرار ولا الاطمئنان لنزول حضارة فى خيامهم الراحلة أبدا؛ إنهم بدو عاشوا على الرحلة الدائمة إلا من عاش منهم فى واحة أو فى اليمن وزروعها. والنخلة أهم الأشجار فى واحات الجزيرة. وفى بوادى نجد تنمو بعض الأزهار مثل العَرار وبعض الأشجار مثل السِّدر والحنظل وخاصة الغَضا، وهو ضرب من الأثل، وسُمِّى به أهل نجد فيقال أهل الغضا. ومناخ الجزيرة فى جملته حارٌّ شديد الحرارة وخاصة فى الصيف، وتكثر فى نجد رياح السَّموم الصيفية التى تشوى الوجوه، وألطف رياحهم الرياح الشرقية ويسمونها الصَّبا.

٢

العصر الجاهلى

لا يدل العصر الجاهلى على جميع الأطوار التاريخية للجزيرة العربية فى عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده، إنما هو اصطلاح يطلق على الطور التاريخى الأخير للجزيرة العربية قبل الإسلام، وهو لا يتجاوز مائة وخمسين عاما قبل البعثة النبوية – كما لاحظ الجاحظ فى أوائل كتابه الحيوان – مستدلا على ذلك بأن الشعر الجاهلى لا يتغلغل فى التاريخ إلى أكثر من قرن ونصف. ويؤكد ذلك أنه ليس بين أيدينا أخبار ومعلومات عن الجزيرة بعد تدمير الرومان لبطرا فى الشمال الغربى وتدمر فى الشمال، إنما المعلومات والأخبار تأخذ فى شئ من الوضوح بالنصف الثانى من القرن الخامس الميلادى. وكلمة الجاهلية ليست مشتقة من الجهل المضاد للعلم، إنما هى مشتقة من الجهل بمعنى السّفه والغضب والطيش، فهى تقابل كلمة الإسلام التى تدل على الطاعة والخضوع لله.

إمارة الغساسنة

وفى هذه الحقبة نلتقى بإمارات عربية فى أقصى الشمال وأقصى الشرق وأقصى الجنوب، وهى بالترتيب إمارة الغَساسِنة فى شرقى الأردن ولم يتخذوا لهم حاضرة معينة إلى ظهور الإسلام، فتارة تكون حاضرتهم الجابية أو الجولان أو جِلّق بالقرب من دمشق؛ وفى ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدوًا يرحلون بخيامهم وإبلهم وأنعامهم. ويبدو أن الدولة البيزنطية ساعدت على قيام هذه الإمارة لتكون حاجزا بينهم وبين البدو وغاراتهم وليؤيدوها فى حروبها ضد الفرس وعرب الحيرة المسمَّون باسم المناذرة.

إمارة المناذرة

وقد ساعد الفرس على تأسيس إمارة المناذرة فى الشرق ليتخذوهم درعا يحميهم من غارات البدو، ولكى يتحولوا جنودا فى جيشهم ضد البيزنطيين والغساسنة، وكانوا ينزلون فى الخيام أولا، ثم تحولوا إلى قرية الحِيرَة التى يرويها

نهر الفرات. وكلمة الحيرة تعريب لكلمة حرتا السريانية ومعناها المخيم أو المعسكر. وكانت تغلب على المناذرة النزعة البدوية مثل الغساسنة، وأكثر سكانها كانوا من القبائل العربية، وكان ينزل معهم فيها العِباديون من النصارى. وفي أقصى الجنوب قامت إمارة كِنْدة، ويبدو أن عشيرة من قبيلة كندة بحضرموت نزلت في شمالى الجزيرة بقبيلة بنى أسد قديما، واستطاعوا أن تكون لهم فيها الرياسة، ومن أمرائهم حُجْر والد امرئ القيس الشاعر المشهور. ولا نمضى طويلا في النصف الثاني من القرن السادس الميلادى حتى تختلّ أداة الحكم في الإمارات الشمالية الثلاث، إذ قتلت قبيلة أسد حُجْرا الكندى، وأنهت بذلك إمارة كندة في الشمال.

واختلفت الدولة البيزنطية مع المنذر أمير الغساسنة ونَفَتْهُ إلى صقلية سنة ٥٨١م، وثار ابنه النعمان عليهم ولقى نفس المصير سنة ٥٨٤م. وتمزقت دولة الغساسنة وتجزأت إلى إمارات، وضاق كسرى الثاني ملك الفرس بالنعمان أبى قابوس فاستدرجه إلى عاصمته المدائن وقتله، ونصب على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى، وبذلك انتهت إمارة المناذرة.

هجرات القبائل اليمنية

ويُجمع نَسَّابو العرب على أن قبائل الغساسنة وكندة في بنى أسد ولَخْم التى منها المناذرة جميعها ترجع إلى أصول يمنية، فإن الدولة الحِمْيَرية حين ضعفت في اليمن وحضرموت، وخاصة بعد سيل العرم الذى خرَّب سد مأرب هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال، من ذلك تنوخ ولخم في الحيرة وإياد التى قصدت عشائر منها حوض الفرات، وانتقلت عشائر كثيرة من الأزد إلى عُمان، وظلّت بعض عشائرهم في اليمن، وهاجرت عشائر من كندة إلى منازل بنى أسد في الشمال كما مرَّ بنا، وهاجرت بجيلة إلى جنوبى الطائف، وهاجرت طيئ الحضرمية إلى جَبَلَيْ أجأ وسَلْمى في الشمال، والأوس والخزرج إلى يثرب، وهاجر الغساسنة إلى الشمال، ونزلت جنوبيهم قُضاعة وجُهينة وعاملة وبهراء وجذام وبَلِيّ، ونزلت قبيلة كلب شمالىّ دومة الجندل، ونزلت عذرة بالقرب من تيماء، واستقرت خُزاعة قبيل الإسلام في منطقة مكة.

ويقابل هذه القبائل القحطانية اليمنية، قبائل عدنانية مُضرية، من أهمها قريش فى مكة، وثقيف فى الطائف، وبنى حنيفة فى اليمامة، وتميم وضبة فى صحراء الدهناء، وعبد القيس فى البحرين، وبكر فى الشمال الشرقى وعشائرها عجل وذُهل وشيبان، وتجاور قبيلة بكر قبيلة تغلب وتتوغل أكثر من بكر فى الشمال الشرقى، وبجوارها النمر، وكانت تنزل قبيلة أسد فى شمال نجد وتمتد عشائرها إلى تيماء، وبالقرب من مكة كِنانة وهُذَيْل، وفى نجد قَيْس عَيْلان ومن أهم قبائلها هوازن وسُلَيْم وعامر وعشائرها كُلَيْب ومُزَيْنة وقُشَيْر وسعد، وشمالى المدينة غطفان وفرعاها ذُبْيان وعَبْس.

القبائل العدنانية

وكل هذه القبائل فيما عدا قبائل القرى والواحات كانت قبائل ظاعنة راحلة وراء مساقط الغيث وأماكن الكلأ والعشب، وبذلك كانوا بدوًا راحلين لا يعرفون الاستقرار، إنما يعرفون الرحلة وقطع المسافات البعيدة والتعرض فيها للمخاطر والحروب. ولا نبالغ إذا قلنا إن حياتهم كانت حروبا مستمرة، حتى ليكاد يوصف كل عربى بدوى فى الجاهلية بأنه مقاتل باسل شاكى السلاح، وهم دائما قاتلون أو مقتولون، ولذلك كان أكبر قانون آمنوا به قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة، ومثله التمسك بتقاليد القبيلة وأعرافها والتعصب لها عصبية مقدسة فى السلم والحرب. وكانوا ديمقراطيين بحق فلا يتميز سيد القبيلة من أفرادها إلا بنجدته وكرمه وحميَّته للجوار وتحمله أكبر قسط فى الديات، وهو الذى يقود القبيلة فى الحرب ويَعْقد الصلح. وخطأ أن يُظن أن حياة العرب فى القرى كانت تختلف عن حياة البدو فى نجد، فقد شبت الحروب فى يثرب بين الأوس والخزرج وكانت بينهما أيام حربية مشهورة مثل أيام القبائل فى نجد. وحرىٌّ أن نعرف أن اليمن التى كانت تسود فيها حضارة راسخة زمن المعينيين والسبئيين ، لما كفروا بربهم – كما فى سورة سبأ – أرسل الله عليهم سيل العَرِم فدمَّر سدَّ – أو خزان – مأرب، وبدَّلهم بجنتيهم وزروعهما وثمارهما جنتين تنبت فيهما أشجار البادية من الخمط أو شجر الأراك، والأثل والسِّدْر أو شجر الغَضَا، وكأنها أصبحت جزءًا من صحراء نجد، واستولى عليها الأحباش سنة ٥٢٥

قبائل بدوية

قانون الأخذ بالثأر

حياة العرب فى القرى

للميلاد ثم الفرس سنة ٥٧٠ للميلاد إلى أن جاء الإسلام. ونمت فيها قبائل مثل خَثْعم وخولان ومَذْحج وزَبيد وهَمْدان ومراد، وكأنما أصبحت الجزيرة العربية جميعها فى العصر الجاهلى قبائل بدوية.

الوثنية

وكثرة العرب الجاهليين فى الجزيرة العربية كانت وثنية تعتقد أن قوى إلهية تنبعثُ فى الكواكب وبعض مظاهر الطبيعة من صخور وأشجار، وتعبَّدوا لأصنام وأوثان كثيرة، وفى القرآن ذِكرٌ لبعض آلهتهم كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ واللات: الشمس، والعُزّى: الزهرة، ومناة: صخرة على ساحل البحر الأحمر بين المدينة ومكة، وربما دلّ اسمها على أنها كانت إلهة الموت أو إلهة القضاء والقدر، ويقول الله جلّ شأنه: ﴿وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، ووَدّ: القمر، ويؤلف مع اللات والعزى الثالوث المقدَّس عند أهل اليمن: الأب والأم والابن . وكان سواع صنم هذيل وكنانة، ويغوث صنم مَذْحج ومراد وهوازن، ويعوق صنم هَمْدان ونسر معبود حِمْيَر. وفى كتاب الأصنام لابن الكلبى تفصيل واسع عن الأصنام وعُبَّادها من القبائل. وكان العرب مع عبادتهم لآلهة وثنية متعددة يؤمنون بأن الله هو الرب الأعلى، وفى ذلك يقول القرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾. وكانت ديانة الفرس المجوسية وما يتصل بها من عبادة النار شائعة قبل الإسلام فى تميم وعُمان والبحرين والقبائل الشرقية.

الشعر الجاهلى

وكان الشعر مزدهرا فى العصر الجاهلى، فلكل قبيلة شعراؤها الذين يتحدثون عن مفاخرها وأمجادها الحربية الحماسية، وكانوا ينظمونه فخرا ومديحا وهجاء واعتذارا ورثاء ووصفا للطبيعة، ويزعمون أن لكل شاعر رَئِيًّا أو ماردا من الجنّ ينفث الشعر على لسانه، ويرونه فوق طاقة البشر العاديين، كما كانوا يظنون أن له تأثيرا يشبه تأثير السحر، فيهدِّدون خصوم القبيلة بهجائهم، وكأنما كانوا يظنون أنه لعنات تصيبهم، نرى ذلك عند زهير وغيره من شعرائهم. وكان

حظ القبائل المُضرية من الشعر أكثر من حظ القبائل اليمنية، وكانوا يتناشدونه في أسواقهم، ويعرضونه فيها على حكام يحكمون للمتفوق منهم على منافسيه.

الكهّان

وكانت – في الجاهلية – طائفة تُدْعَى بالكهّان تزعم معرفة المغيَّبات بما سُخِّر لها من الجنّ الذين يكشفون لها الغيب وما يأتي به الغد، والواحد منهم يسمى كاهنا، ولكل كاهن تابعه – كما يزعمون – من الجن يخبره بما يريد. وكانوا يفزعون إلى الكهّان لاستشارتهم في الأمور الخطيرة والمهمة كإعلان حرب أو قعود عن نصرة أحلاف أو لكشف عن فعل إنسان أو تفسير حلم، وقد يتنبّئون لهم بحدوث غزو أو بوقوع كارثة، وقد يقصدونهم للحكم في منافرة. وتحتفظ كتب الأدب والتاريخ بطائفة من أقوالهم المسجوعة، وكانوا يعمدون فيها إلى الألفاظ الغريبة والموهمة ليتسع فيها عند السامعين التأويل.

وأد البنات

وكانوا يئدون الأطفال وخاصة الإناث – لضيق معيشتهم – دون شفقة . وكانت النساء – مثل العبيد – لا حقوق لهن والرجل يتزوج منهن بأى عدد، وإذا مات عنها زوجها ورثها أهله كما يرثون متاعها.

خصال العرب

وللعرب – في الجاهلية – كثير من الخصال الكريمة وتجمعها كلمة المروءة التى تضم مناقبهم الحميدة من مثل الكرم وإكرام الضيف والحلم والوفاء وحماية الجار والعزة والشعور بالكرامة وإغاثة الملهوف والعفو عند المقدرة والأنفة وإباء الضيم والهوان والشجاعة في الحرب والفروسية.

٣

العالم فى عصر البعثة النبويَّة : أوائل القرن السابع الميلادى

إذا اتجهنا إلى شرقي الجزيرة العربية لقيتنا إيران وسكانها من الفرس الساسانيين وكانت عاصمتهم المدائن (طيشفون) على نهر دجلة، وكانت في حرب من حين إلى آخر مع الدولة البيزنطية، وساعدوا في إمارة الحيرة العربية

لتكون درعا لهم ضد أعراب نجد، ولتساعدهم فى حروبهم ضد الدولة البيزنطية. وبالمثل اتخذت الدولة البيزنطية إمارة الغساسنة فى شرقى الأردن لنفس الغرضين السالفين. وكانت دولة الفرس قد أخذت فى الضعف منذ أوائل القرن السابع الميلادى، وكان الفرس مجوسا وثنيين يعبدون النار ويؤمنون بالديانة الزرادشتية وعقيدتها التى تجعل للعالم إلهين: مَزْدا إله النور والخير، وأهرمن إله الظلمة والشر والتى تزعم أن النار طاهرة مقدسة؛ ولذلك أقام لها الفرس المعابد فى كل مكان، إلى غير ذلك من تعاليم ضمَّنها زرادشت فى كتابه الأفستا منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد. وظهرت عندهم فى القرن الثالث الميلادى ديانة المانوية لداعٍ يُسمَّى مانى مزج فيها بين الزرادشتية والمسيحية والبوذية. وفى أواخر القرن الخامس ظهر عندهم داع جديد هو مَزْدَك وكان يؤمن بإلهى الخير والشر وتقديس النار ودعا دعوة شديدة إلى العكوف على اللذات والشهوات.

وثنية الفرس

وكانت دولة كويتا تحكم – منذ القرن الرابع الميلادى – الأفغان وحوض السند وبعض أجزاء من الهند، وكانت برهمية، وازدهرت فى عهدها اللغة السنسكريتية وأُلِّفت المهابهارتا والرامايانا وهما مجموعتان رائعتان من القصص والأشعار والحكم، وقضى على هذه الدولة الهون. وفى القرن السابع الميلادى انتشرت البوذية فى الهند من الصين ولقيت قبولا من أهلها وانتشرت معابدها فيها على الرغم من مقاومة البراهمة الهنود لها. وكان الأمراء فى الصين يقاتل بعضهم بعضا إلى أن وحَّدتهم أسرة سو وضعفت، وخلفتها أسرة تانج سنة ٦١٨ وظلت بها ثلاثة قرون، وهى التى أدخلت البوذية فى كوريا واليابان، ومضت البوذية تتغلغل فى اليابان وتؤثر فى حياتها ومُثلها آثارا عميقة.

دولة كويتا فى الهند

البوذية

الصين

وإذا اتجهنا من الجزيرة إلى الشمال الغربى التقينا بالإمبراطورية البيزنطية، وقد تأسَّست بيزنطة سنة ٦٦٠ قبل الميلاد، وأعاد قسطنطين إمبراطور روما بناءها، وسمَّاها باسمه القسطنطينية. وفى سنة ٣٩٥ للميلاد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين: شطر غربى باسم الإمبراطورية الرومانية الغربية، وشطر شرقى باسم الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية. وبينما

بيزنطة

أخذ القسم الغربى فى التدهور أخذ القسم الشرقى فى الازدهار، وبلغ أقصى اتساعه فى عهد جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، إذ ضمَّ إليه صقلية والشمال الإفريقى من تونس إلى المحيط ومصر وجزءًا من إيطاليا. وتولى بعده أباطرة ضعاف إلى أن ولى سنة ٦١٠ للميلاد هرقل (٦١٠-٦٤١م) وصمَّم على النهوض بدولته سياسيا وعسكريا، وكان الفرس الساسانيون - منذ سنوات قليلة - استولوا على الشام ومصر، فأعلن عليهم الحرب، واستخلصهما منهم وردَّهما إلى إمبراطوريته، وسيسقطهما العرب من يديه ويستولون عليهما فى بواكير فتوحهم الإسلامية. وكانت تشيع فى إمبراطورية بيزنطة الثقافة الإغريقية أو الهيلينية، كما كانت تشيع فيها الديانة المسيحية، وخاصة المذهب الأرثوذكسى الذى ترأسه كنيسة بيزنطة.

الأرثوذكسية والكاثوليكية

وبينما كانت بيزنطة أرثوذكسية كانت روما - ولا تزال إلى اليوم - كاثوليكية وكانت تشيع مذهبها الكاثوليكى فى ديارها وعملت على نشره فى ديار الفرنجة بفرنسا وغربى نهر الراين. ولم يكن وسط أوربا وشرقها محدَّد الملامح، وكانت به حروب متصلة بين الصقالبة والألمان. وكانت تعيش فى إنجلترا دويلات يستقل بعضها عن بعض، ونزلت بها سيول من الألمان ودول الشمال الأوربى وسيطرت عليها طويلا، ولم يكن لها شأن يُذكر فى القرن السابع الميلادى. أما إسبانيا فكانت فى القرن السابع الميلادى تحت حكم القوط، وكانوا يحكمون فرنسا حتى حوض نهر اللوار، وغادروها إلى إسبانيا فى القرن الخامس الميلادى، وكانوا قبائل متبربرة من الألمان وغيرهم فزاحموا شعب الوندال فيها وزحزحوهم إلى الجنوب ونسب إليهم باسم "فاندالوسيا" وعرَّبه العرب إلى الأندلس حين فتحوها. وظل القوط يحكمون إسبانيا مُتّخذين طليطلة - كما اتخذتها روما قبلهم - عاصمة لها، وكان كثيرون من أهل إسبانيا مسيحيين تبعا لروما حين اعتنقت المسيحية، إذ ظلت تحتلها طويلا وأشاعت فيها لغتها ونزلها كثير من أُسرها، ودخلها القوط ولم يتنصَّروا سريعا، إذ لم يعتنقوا الكاثوليكية إلا سنة ٥٨٧ للميلاد.

إنجلترا

أسبانيا

٤

اليهودية والنصرانية والحنيفية

أ – اليهودية

كان اليهود فى العصر الجاهلى منتشرين فى اليمن والحجاز، هاجروا إليهما من موطنهم فى فلسطين فرارا من اضطهاد قياصرة الرومان الذين كانوا يسيطرون على ديار الشام، ومعروف أن القيصر طيطوس Titus هدم لهم الهيكل المقدس سنة ٧٠ للميلاد وأن هدريان بعده طردهم من فلسطين سنة ١٣٥ للميلاد، فلجأ كثيرون منهم إلى اليمن وإلى واحات الحجاز فى يثرب وشمالى يثرب. واستطاعوا فى اليمن أن يجعلوا فى القرن السادس الميلادى أحد ملوكها يعتنق اليهودية وهو ذو نواس، ودفعوه إلى التنكيل بنصارى نجران، وحَفَر شقوقا أو أخاديد فى الأرض وملأها نارا وألقى بهم فيها، وسجَّل الله عليه وعلى أصحابه هذه الجريمة النكراء قائلا: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. وسرعان ما انتقمت دولة الحبشة المسيحية لإخوانهم فى نجران، فقضت على دولة ذى نواس واستولت على اليمن، وظلت فيها نحو خمسين عاما إلى أن خلَّصها الفرس منهم سنة ٥٧٠ للميلاد، وظلوا بها حتى مجئ الإسلام.

يهود اليمن

وأهم من يهود اليمن يهود واحات الحجاز: يَثْرب وخَيْبَر وفَدَك ووادى القُرى وتَيْماء، وكان لهم فى يثرب ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقاع وبنو النَّضير وبنو قُرَيْظة، ونزل بيثرب بعدهم قبيلتان من اليمن هما الأَوْس والخزرج وفرضتا على اليهود سيادتهما. وكان اليهود يشتغلون بالزراعة فى واحة يثرب والصياغة ونسج الأقمشة والحدادة وصنع الأسلحة، وعملوا دائما على الإيقاع بين الأَوْس والخَزْرَج، وكثيرا ما اشتبكتا فى حروب. وتعرَّب يهود يثرب، فكانت العربية

يهود الحجاز

لغتهم اليومية، ونظموا بها أشعارا روتها كتب الأدب العربي، ومع ذلك كانوا يحتفظون بلغتهم العبرية القديمة، وكانوا يتدارسون بها التوراة والمِشْنة والزَّبور (مزامير داود) فى دار ندوة لهم بيثرب تسمى المدراس. وعلى نحو ما تعرَّب يهود يثرب تعرَّب يهود فدك وخيبر ووادى القرى وتيماء، ونظم الشعر فيها غير شاعر، وأهم شعرائهم السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء.

ب – النصرانية

كانت النصرانية معروفة فى اليمن منذ القرن الرابع الميلادى، إذ كان القياصرة وملوك الحبشة المسيحية يُرسلون إليها بعثات دينية تبشيرية، وانتشرت فى نجران بحيث كانت أهم مواطنها اليمنية، ومرت بنا نكبة الملك اليمنى لها واستيلاء الأحباش على اليمن، وقد بنى أبرهة واليهم فى مدنها كنائس متعددة من أشهرها كنيسة القليس فى صنعاء، وهى تعريب لكلمة **Eclysia** اليونانية ومعناها الكنيسة، ويقال إنه "نقشها بالذهب والفضة والفُسَيْفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر.. ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة". وعمَّت النصرانية بجنوب اليمن فى نجران. فى اليمن

وانتشرت النصرانية فى الشمال الغربى للجزيرة وشرقى الأردن بين الغساسنة والقبائل العربية فى جنوبيهم مثل عاملة وجُذام وقُضاعة وكلب ودومة الجندل وطيىء، وكانوا على مذهب اليعاقبة أتباع يعقوب البرادعى المتوفَّى سنة ٥٧٨ للميلاد، وكانوا يذهبون إلى أن للمسيح طبيعة واحدة، ومن أجل ذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة أو الطبيعة الإلهية، إذ فى عقيدتهم أنه اتحدت فى المسيح الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية أى البشرية. وشاعت النصرانية فى بعض قبائل العراق مثل تغلب وإياد، وبالمثل شاعت فى الحيرة إمارة المناذرة اللخميين الوثنيين، واعتنقها بينهم العباديون، ويبدو أنهم ميَّزوا أنفسهم بهذا الاسم من الوثنيين، فهم عباد الله، ولم يكونوا يعاقبه مثل عرب الشمال الغربى للجزيرة، بل كانوا نساطرة نسبة إلى نسطوريوس **Nestorius** المتوفى عام فى الشمال الغربى فى تغلب والحيرة

٤٥١ وكان بطريرك القسطنطينية (٤٢٨-٤٣١م) وذهب إلى أن للمسيح طبيعتين طبيعة إلهية بوصفه ابن الله، وطبيعة بشرية بوصفه ابن مريم العذراء، وتُسمَّى الأولى أقنوم اللاهوت والثانية أقنوم الناسوت. وتنصَّر أخيرا من الهيئة الحاكمة آلِ المُنذِر آخرُ حكامهم على الحيرة أبو قابوس النُعمان بن المنذر (٥٨٠-٦٠٢م) واستدرجه كِسْرى الثانى ملك الفرس إلى المدائن عاصمته وقتله. وبذلك انتهى حكم دولة المناذرة فى الحيرة كما مرَّ بنا.

رقيق نصرانى بمكة

وكان بمكة فى العصر الجاهلى بعض الرقيق الحبشى النصرانى – وربما كانوا كثيرين كما كان بها بعض الروم النصارى وبعض الجوارى الروميات، وأيضا كان بها عبدان نصرانيان من عين التمر بالعراق. وتنصَّر نفر من قريش فى أواخر العصر الجاهلى منهم ورقة بن نوفل (فيما قيل)، وبالمثل نفرٌ فى يثرب، وينبغى أن لا نبالغ فى تصور من تنصروا من العرب فى الجاهلية، وحقا ذكر كثير من شعرائهم فى أشعارهم الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة، غير أنهم ظلوا لا يتعمقون فى المسيحية. وأهم شعراء الجاهلية المسيحيين عدىّ بن زيد العِبادى فى الحيرة غير أننا لا نجد عنده فكرة التثليث المعروفة فى النصرانية، وهى أساس العقيدة المسيحية. وانقسم المسيحيون إزاءها فرقا كثيرة من أهمها الفرقتان المار ذكرهما، وهما اليعاقبة والنساطرة، واشتهرت معهما النحلة الملكانية التى تذهب إلى أن كلمة الله اتحدت فى عيسى أو بناسوته فى بطن مريم، وصار بذلك ابنا لله. والثالوث عند المسيحيين هو الأب أصل الوجود والابن المسيح والروح القدس. ومن فرقهم بين العرب فى الجاهلية الركوسية وكانوا يقولون بأن الله اتحد بمريم فى حملها بعيسى، وبذلك كان الثالوث المسيحى عندهم الأب والابن ومريم، تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيرا.

التثليث والفرق المسيحية

جـ – الحنيفية بمكة

الحنيفية نسبة إلى إبراهيم الخليل الذى عاش فى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، ولُقِّب بالحنيف من الحنف وهو الميل، ويقصد بالحنيف المائل عن دين قومه

الوثنيين وعبادتهم للأصنام والأوثان إلى عقيدة التوحيدلله، واشتهر بذلك نفر فى القبائل المختلفة مثل خالد بن سنان فى بنى عبس. واشتهر بمكة نفرٌ بأنهم حنفاء فى أواخر العصر الجاهلى شكُّوا فى دين قومهم الوثنى ومالوا إلى الإيمان بالله ووحدانيته، ولذلك سُمُّوا أحنافا. وذكر منهم ابن إسحاق أربعة هم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جَحْش، وعثمان بن الحُوَيْرث وزيد بن نُفَيْل، ويقول ابن إسحاق إنهم اجتمعوا فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم (لعله العُزَّى) فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شئ! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضرّ ولا ينفع؟ التمسوا لأنفسكم دينا، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. فأما ورقة فاستحكم فى النصرانية، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، وهاجر مع المسلمين إلى الحبشة مع زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان، وهناك تنصّر، وخَلَف رسول الله بعده على أم حبيبة، وتنصّر عثمان بن الحويرث، وأما زيد بن نفيل فتوقّف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية، واعتزل الأوثان، وكان لا يأكل مما ذُبح على الأوثان والنُّصب، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد ربَّ إبراهيم، ونادى فى قريش بعيب دينهم الوثنى. وكأنه كان بين القرشيين فى أواخر العصر الجاهلى نفرٌ يتطلع إلى الحنيفية دين إبراهيم، وكانوا يُسمُّون من التمس دين إبراهيم وحجّ البيت حنيفا، ويقول الله لرسوله فى سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى ملة الإيمان بالله ووحدانيته، ولذلك سُمِّيت ملة الإسلام الحنيفية، وفى الحديث النبوى: "أحبُّ الأديان إلى الله الحنيفية".

الحنفاء

الفصل الثانى

مكة والكعبة وقريش
قبل الإسلام

١

موقع مكة

تقع مكة فى منتصف طريق القوافل الممتد بحذاء البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب بين فلسطين واليمن فى واد متسع شقَّته الطبيعة فى جبال السَّراة التى تحجز بين صحراء نجد فى الشرق وساحل البحر الأحمر المُسمَّى تهامة فى الغرب. والوادى تَحُفُّ به جبال صخرية، ويأخذ شكل هلال طوله ضعف عرضه، وتنتهى الجبال شرقا بجبل أبى قُبَيْس وغربا بجبل قُعَيْقعان، ويُسمَّى قاع الهلال المكون لمكة باسم البِطاح جمع بطحاء: المكان المتسع فى قاع الوادى، وفيه الكعبة المقدسة وبئر زمزم، وما وراء البِطاح مما يتصل بالجبال حول مكة يُسمَّى الظواهر.

والمسافة بين مكة والبحر الأحمر تبلغ نحو سبعين كيلومترا، ومرفؤها عليه قرية الشُّعَيْبة فى الجاهلية وقرية جُدَّة فى الإسلام إلى اليوم، ومن قديم يصلها هذا المرفأ بأريتريا والحبشة فى شرقى إفريقيا. ومع أن مكة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٨٠ مترا، فإن جوها أو مناخها فى الصيف حارٌّ حرارة شديدة، حتى ليصف ابن بطوطة الرحَّالة حرارتها فيه بأن حصباءها تشبه صفائح محمَّاة. وليس فيها ولا بقربها ماء جارٍ، ولذلك ليس فيها نخيل واحات الحجاز ولا أزهارها،

فهى وما حولها من الجبال جرداء، ويقلُّ فيها الماء قلة شديدة، لولا بئر زمزم الذى يَسْقى من يلوذ بها، وهو ما جعل سقاية الحجاج فيها فيما بعد من الوظائف المقدسة.

وطبيعىٌّ أن لا يكون للمملكة النباتية فى مكة مكان، إذ لا نبات ينبت فيها إلا بعض أشجار البادية مثل الثمام والإذخر. والوحشة والعزلة شديدتان فوق جبالها ومنحدراتها إلى صحراء نجد ولا تسمع صوتا مطربا لطائر، فأنت لا تسمع هناك إلا صفير الرياح الهوجاء يصكُّ أذنيك، ولا ترى إلا صخور الجبال السوداء، وكأنها فحم احترق من طول تلظِّيه بلهب حرارة الصيف الكاوية، وبَرْدُ مكة مثل حرِّها شديد قاسٍ فى برودته.

ومكة إذن بلدٌ قاحل تحيط به صخور الجبال من كل جانب إلا فى منافذ ثلاثة: منفذ يصلها بالطريق المؤدى إلى فلسطين فى الشمال، ومنفذ يصلها بالطريق المؤدى إلى اليمن فى الجنوب، وثالث يصلها بالطريق المؤدى إلى البحر الأحمر.

٢

مكة وبناء إبراهيم للكعبة

أ - تاريخ مكة

تاريخ مكة فى القديم يرجع إلى آلاف السنين، ويبدو أن القوافل التى كانت تمر بها صاعدة إلى الشمال ومنحدرة إلى الجنوب اتخذتها ملاذا لراحتها بسبب ما كان بها من بعض الآبار، فكانوا ينزلون بها يوما أو يومين أو بعض الأيام، ثم يبرحونها. وربما نزلتها قبيلة جُرْهم فى هذا التاريخ القديم.

التعريف بإبراهيم

وأول معرفة تاريخية حقيقية تصلنا عنها نزول إبراهيم الخليل أبى الأنبياء فيها بزوجته هاجر المصرية وابنها إسماعيل، وتركهما سريعا عائدا إلى مستقره فى

فلسطين، وكان يختلف إليهما من وقت بعيد إلى وقت آخر. وقد ولد إبراهيم بالعراق لأب صانع لتماثيل الآلهة التي كان يعبدها قومه، ولما شبّ عن الطوق أخذ يَعجَب لأبيه وقومه كيف يعبدون هذه الآلهة التي يصنعها أبوه بيده، وأخذ يراجع أباه وقومه فى هذه العبادة الضالة، ويقول القرآن مصورا بحثه عن ربه الحقيقى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَم يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وطالت عليه مراجعة أبيه وقومه، وهم ينكرون ما يسمعون منه. وانتهز إبراهيم يوما فرصة من قومه، إذ زاروا آلهتهم وتركوها وراءهم، فعمد إليها بفأسٍ يحطِّمها حتى حطمها جميعا ما عدا كبيرها، وعلّق الفأس برقبته. ورآها القوم محطَّمة فبُهتوا وتشاوروا فى الفاعل وأجمعوا على أنه إبراهيم الذى ينهاهم عن عبادتها، ورجعوا إليه يسألونه: هل هو الذى دمَّرها؟ فقال لهم: بل دمَّرها جميعا كبيرها والفأس لا تزال معلقة برقبته. وأخذ يعنّفهم على عبادة ما لا ينفعهم شيئا ولا يضرهم، فأجمع أمرهم على أن يحرِّقوه بالنار. وسألوا ملكهم النمرود أن يأذن لهم أن يحرقوه، فأمر بإحراقه وأعدّوا له النار وألقوه فيها، واستسلم لهم متوكلا على ربِّه، يقول الله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أى دون أى حرارة أو إحراق له.

في فلسطين

وظل قوم إبراهيم يحاجُّونه ويجادلونه وينكرون عبادته لله وحده، ويئس منهم، فأمره الله أن يغادرهم إلى فلسطين، ووعده - كما فى كتابهم المقدس - أن يجعل منه أمة كبيرة ويباركه ويعظم اسمه. وصدع إبراهيم لأمره وأخذ زوجته سارة ابنة عمه وابن أخيه أو أخته لوطا وكل ما ملكا من مقتنيات، وأتوا إلى

في مصر

أرض فلسطين، وبنى بها مذبحا للرب. وحدث جَدْبٌ شديد بفلسطين – فرحل بسارة إلى مصر، وكانت جميلة، وخشى على نفسه أن يقتلوه ويأخذوها منه، فقال لها: قولى لهم إنك أختى، ومَثَلَتْ لدى ملك مصر وأُعجب بها، وهمَّ أن يتزوَّجها فعرَّفتْه أنها ليست أخت إبراهيم إنما هى زوجته، فاستدعاه ولامه لزَعْمِه أنها أخته، وأهداهما أموالا وهدايا كثيرة، وأمر أن يشيعهما رجاله وكل ما كان لهما. والمَظْنون أن هذه الزيارة لإبراهيم وزوجته سارة إلى مصر كانت فى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. واقتنت زوجته لها جارية مصرية تسمى هاجر. وكانت سارة لا تزال عقيما ولم تنجب لإبراهيم ولدا منذ رجوعها من مصر، وكان قد مضى على أوبتهما منها عشر سنوات، فأشارت سارة على إبراهيم أن يدخل على هاجر لعله يُرزق منها بولد، فارتضى قولها، وأنجبت سريعا له ابنا فسمَّاه إسماعيل. وأخذت سارة تغار منها غيرة شديدة ولما بلغ إسماعيل الثالثة عشرة حملت سارة بابنها إسحاق، وبشَّره الله به من زوجته سارة، وقال له عنه: إنى أُكثِّر نسله كثيرا جدا، إذ يلد اثنى عشر رئيسا، وأجعله أمة كبيرة. وفى الإصحاح الحادى والعشرين من سِفر التكوين أن غيرة سارة أم إسحاق من هاجر المصرية وابنها إسماعيل اشتدت إلى أقصى حد، فقالت لزوجها إبراهيم : اطرد هاجر وابنها إسماعيل من خيامك. وشعر أن الحياة لن تطيب بوجود زوجتيه معا، فصمَّم على أن يبتعد بهاجر وابنها واتجه إلى الجنوب حائرًا أين يتركهما حتى وصل إلى وادى مكة، فرأى أن يتركهما فيه وترك لهما ما يتعيَّشان به حينا، وعاد أدراجه من حيث أتى. ونفد الماء من القربة التى خلفها إبراهيم لها، واشتد بها وبابنها العطش، وأخذت تَسْعى بين الصفا والمروة تلتمس الماء وإسماعيل يبكى – وجعل الإسلام هذا السعى أحد أركان الحج ذكرى عزيزة للمسلمين –، فسمع الله صوتهما – كما فى الإصحاح الحادى والعشرين – ونادى ملاك الله هاجر من السماء، فقال لها: يا هاجر لا تخافى لأن الله قد سمع كلامكما، قومى، احملى الغلام وشُدِّى يديك به ، لأن الله سيجعله أمة كبيرة، وهداها إلى بئر قريبة منها، هى بئر زمزم، فحملت قِرْبتها إليها وملأتها ماء، وارتوت منها هى وابنها. وكل

إبراهيم وسارة وهاجر

هاجر وإسماعيل

ما مرَّ بنا عن إبراهيم ونزوله بإسماعيل وزوجته هاجر بمكة يرويه المؤرخون الإسلاميون كما يرويه سفر التكوين فى العهد القديم، مما يدل على أن تاريخ مكة فى القديم يبدأ مع تاريخ إبراهيم فى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. ويذهب بعض الباحثين إلى أن قبيلة جرهم سبقت الخليل إبراهيم وإسماعيل فى النزول بها، وأكثر الروايات على أن إبراهيم نزل بها مع هاجر زوجته وإسماعيل ابنه، ثم نزلت بها سريعا جرهم حين رأت ماءً ينبع فيها هو ماء زمزم.

ويرتبط إبراهيم بقصة رؤياه ذبح أحد ابنيه إسماعيل أو إسحق عن أمر ربه، وأنه همَّ بذلك فى اليقظة، وطاوعه ابنه حين ذكر له أمر ربه، وبينما إبراهيم يحاول تنفيذ ذلك وإلقائه بابنه على الأرض أرسل له الله ملكا فى نفس اللحظة ناداه: لقد صدقت الرؤيا التى رأيتها فى الحُلْم، وإن ذلك لبلاء مبين لك، وقد فدينا ابنك بكبش عظيم، رآه إبراهيم قريبا منه فذبحه فدية لابنه. ومؤرخو المسلمين يختلفون فيه هل هو إسماعيل، وحدثت هذه القصة فى منى بمكة، أو هو إسحاق وحدثت القصة فى فلسطين، وفى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين أنه إسحاق. ولم يصرح القرآن الكريم فى القصة باسمه، غير أن تتابع القصة فيه يدل على أنه إسماعيل، إذ تمضى بهذه الصورة: وقد سارا معا: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. وبعد أن فرغ الله من بيان هذه القصة المتصلة برؤيا إبراهيم وفدائه لابنه قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهى بشرى ثانية لإبراهيم، بعد بشراه بغلام حليم أى بإسماعيل مع قصة رؤياه لذبحه، ولو كانت الرؤيا لذبح إسحاق لذكر اسمه أولا، ولم يقل جلَّ شأنُهُ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ دون ذكر اسمه.

ب – بناء الكعبة

يبدو أن مكة كان بها مـن أقدم العصـور بنـاء لعبادة الله، إذ يزعـم بعض المفسرين أن آدم أول من بنى بها الكعبة وأن الطوفان قضى عليها، وبذلك يكون إبراهيم وإسماعيل مجدِّدين لها، وسواء صحت أسطورة بناء آدم أو لم تصح فإنه من المؤكد أن إبراهيم وإسماعيل بنياها فى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، إذ سجّل ذلك القرآن الكريم فى قوله عزّ شأنه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾. وكان إبراهيم يتردد من وقت إلى آخر على إسماعيل وأمه فى مكة، فأمره الله أن يبنى بها بيتا لعبادته بمعاونة ابنه إسماعيل، وأخبره بذلك فى زيارة له، فرحّب إسماعيل بالفكرة، وقال له : إنى معين لك، وسُرَّ إبراهيم، وأخذ يبنى البيت فى مكانه الحالى وسط المسجد الحرام، وفى سفر التكوين أن مبنى عبادته لله هو ويعقوب كان يسمى بيت الله. أما هذا البيت فى مكة فكان يُسمَّى أيضا الكعبة فى القرآن الكريم، ولا نعرف بالضبط متى أطلق هذا الاسم على بيت الله فى مكة ولا من أطلقه.

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة

وكان إبراهيم يبنى وإسماعيل ينقل إليه الأحجار ويناولها له، ولما ارتفع البناء عن قامة إبراهيم وصار أعلى من أن تطوله يده جاء إسماعيل لأبيه بحجر كبير يقف عليه للبناء، فاستخدمه ودار به حول البناء حتى أكملاه. حينئذ توجّه إبراهيم وإسماعيل إلى الله يدعوانه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وتقبّل الله دعاءهما واستجاب لهما، فجعل البيت كعبة يحج إليها الناس من قريب ومن بعيد، وأرسل إلى إبراهيم مَلَكا يعلّمه مناسكَ الحج، ويأمره أن يطهِّر البيت للطائفين والقائمين والرُّكَّع السُّجود وأن ينادى للناس بالحج فيأتوه رجالا وركبانا. وقد يكون فى ذلك دليل على أن جرهما كانت فى مكة وحولها حينئذ. ويقول الله مشيدا ببناء إبراهيم للكعبة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾. والله - جَلَّ شأنه - يقول إن أول بيت أُسِّس للناس كى يعبدوا ربهم فيه هو البيت الذى ببكة أى مكة، ومعنى ذلك أن الكعبة أقدم بيت عبادة صحيحة بدليل قوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾، وقد بناها إبراهيم حوالى سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، وبنى سليمان بيت المقدس فى القرن العاشر قبل الميلاد، فالكعبة تسبقه بنحو تسعة قرون. ويقول الله إن هذا البيت فيه آيات بيِّنات دالة على قدسيته، منها (مقام إبراهيم) ويُراد به المسجد الحرام محل قيام إبراهيم للصلاة، ومنها أن من دخله كان آمنًا، وأَمْنُ الإنسان على نفسه وحياته أعزُّ شئ لديه. وفى زاوية من مبنى الكعبة يُرَى حجرٌ أسود، ولا يُعرف أصله، ويقال إنه نزل من السماء على جبل مكة أبى قبيس، وكأنه نَيْزَكٌ، ورآه إبراهيم فى سقوطه فوضعه فى مكانه من الكعبة. ومن قديم للكعبة غطاء كسوة لها، وكانت قريش تكسوها دائما فى الجاهلية.

إشارة الله ببناء إبراهيم للكعبة

وكان إسماعيل أول سادن أو خادم للكعبة، وتزوج فتاة من قبيلة جرهم، ورُزق منها باثنى عشر ولدا، وهم آباء العرب المستعربة، وكانت جرهم من العرب العاربة اليمنيين أبناء يعرب بن قحطان. ويمتُّ إسماعيل من ناحية أمه هاجر إلى مصر ومن ناحية أبيه إبراهيم إلى العراق مسقط رأسه وإلى فلسطين. وعاش إسماعيل بمكة طويلا إذ يقال إنه عاش مائة وثلاثين عاما. وفى مبنى بالقرب من الكعبة قبره وقبر أمه هاجر، وفى مبنى آخر الصخرة التى اعتلاها إبراهيم حين ارتفع البناء عن قامته، وأتاحت له أن يتمَّه ويكمِّله.

إسماعيل وسدانة الكعبة

٣

سِدانة الكعبة بعد إسماعيل

خَلَفَ إسماعيل على سِدانة الكعبة ابنه نابت يؤيده إخوته الأحد عشر وأخواله من جرهم، ويبدو أن السِّدانة بعد نابت خرجت من يد إخوته إلى

مكة مركز للقوافل والحج

أخوالهم من جرهم عن رضا منهم، واستحالت مكة سريعا إلى مركز مهم للقوافل المتجهة من اليمن إلى فلسطين شمالا والمنحدرة إلى اليمن جنوبا وإلى العراق شرقا وإلى البحر الأحمر غربا. وكان عرب الجزيرة يرحلون إلى الكعبة للحج منذ إبراهيم، ويشير الله إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى يقصدونه معظّمين له، ولا ينصرف عنه قوم فى عام إلا ويخلفهم قوم آخرون. ومعروف أنه لم يكن بين الناس فى الجزيرة شريعةٌ ولا ضربٌ على أيدى الظلمة والجناة ولا انتصاف منهم ولا رد للحقوق إلى أهلها، فجعل الله البيت لهم أَمْنًا يصد القوىَّ فيه عن الضعيف ولا ينتهك له مالاً، ويرى الشخص قاتل أخيه فلا يمد إليه يدا بسلاح ولا يحاول أن يؤذيه أقل إيذاء لأنه فى بيت الله وحرمه. ويكرر الله فى القرآن هذه المِنّة العظيمة لأهل مكة منذ بُنيت فيها الكعبة، كما جعلها سوقا تجارية تُجبى إليها الثمرات من الشمال والجنوب، مما جعل مكة أشبه بقافلة تجارية كبيرة مقيمة، وتخرج منها القوافل مُيمِّمة اليمن أو الشام أو العراق، وتعود محمَّلة بعروض التجارة.

جرهم وأصنام الكعبة

ونعجب أشد العجب، إذ تتحول جرهم بالكعبة من بيت لعبادة الله إلى بيت لعبادة الأصنام، ومعروف أنها يمنية وأن اليمن كانت وثنية تتعبَّد لثالوث من الكواكب هو اللات رمزا للشمس ووَدّ رمزًا للقمر والعُزّى رمزًا للزهرة. وليس بين أيدينا ما يدل على أن جرهما تبعت دين إبراهيم ووحَّدت ربها وربما دعاها إلى دينه وعصته كما عصاه قومه وبقيت على عبادة الأوثان، أو ربما استجابت له ودخلت فى دينه ثم بعد قليل من الزمن أو كثير عادت إلى دينها الوثنى، وكأنها لم تستطع الإيمان بالله ووحدانيته، أو لم تستطع عقولها أن تسمو هذا التسامى فعادت إلى عبادة اللات ووَدّ والزهرة الرامزة إلى كواكب تبصرها العين ليل نهار. ويؤكد أن عبادة الأصنام شاعت من قديم فى بلاد العرب: مكة وغير مكة، أن نجد هيرودوت المؤرخ اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد يذكر أن بلاد العرب تعبد إلها يُسمَّى اللات، وذكر ديودور الصقلى الكعبة التى تعظمها العرب، ويقول مكسيموس تياروس فى القرن الثانى للميلاد إن العرب يعبدون

إلها يرمزون إليه ببناء مستطيل (يريد الكعبة) فيه حجر أسود. وجاء الإسلام، وللعرب فى الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، وكان من أكبرها اللات. وظل سَدَنَةُ جرهم يتولون أمر الكعبة، وتنبأ لها آخر سدنتها من جرهم مضاض بن عمرو أن سِدانتها ستخرج من يدها إلى قبيلة يمنية نزلت بجوار مكة تسمى خُزاعة، وكان بالكعبة غزالتان من ذهب لعلهما أهديتا إليها، كما أُهدى إليها طائفة من الأموال، فرأى أن يعمّق حفر زمزم وأن يدفن فيها الغزالتين والأموال، ودفنهما فى قاعها وأهال عليهما الرمال آملا أن يعود أمر سدانة الكعبة إليه وإلى قبيلته، وخرج من مكة مع قبيلته وبنى إسماعيل، أخرجتهم جميعا من مكة خزاعة ومن ساعدها من بنى كنانة. ووليت خزاعة البيت وتوارث أبناؤها سدانته، ولم تحاول جرهم العودة إلى مكة وسدانة البيت الحرام، بل تركته وتركت مكة يائسة، وتولت خزاعة سِدانته واحدا وراء واحد حتى منتصف القرن الخامس الميلادى.

خزاعة تتولى سدانة الكعبة

٤

قُرَيْش – غزو الحبش لها – انتعاش تجارتها

قريش من القرش، وهو التجمع. ويقول علماء النسب إنهم أولاد النّضر بن كنانة وهو الجد الثانى عشر للرسول ﷺ فى سلسلة نسبه إلى عدنان. ويبدو أن هذه القبيلة خرجت من مكة مع جرهم حين أخرجتها قبيلة خزاعة، غير أنها لم تذهب بعيدا عن الحرم، بل ظلت عشائر من حوله متفرقة غير متجمعة إلى أن جمّعها قُصَىّ بن كلاب الجد الرابع للرسول، ولذلك سُمّيت قريشا.

ويُقال إن كلابا كان قد أنجب ولدا قبله سمّاه زهرة وتُوفّى وقُصَىّ صغير، وتزوجت أمه بعد أبيه شخصا من قُضاعة فنقلها مع قصى إلى منازل قبيلته جنوبى فلسطين. وشبَّ قُصَىّ فى هذه القبيلة، وحدث أن وقع شجار بينه وبين شاب من قضاعة فعيَّره بأنه ليس من قضاعة. وسأل قُصَىّ أمه، فقالت له الحقيقة وأن قبيلة أبيه كلاب عند مكة، فرحل إليها وتعرف فيها على أخيه زهرة، وارتفع شأنه بين

الشباب من أمثاله لشمائله الطيبة، وتعرّف إلى سيد خزاعة سادن الكعبة حُلَيْل بن حُبْيْشة وأعجب به، وزوّجه ابنته حُبىّ. ولما حضرته الوفاة أوصى له بسدانة الكعبة وبذلك انتقلت سدانة الكعبة وولاية مكة إلى قُصَىّ، واجتمعت فيها عشائر قبيلته فى منتصف القرن الخامس الميلادى وسُمّى أهلها منذ هذا التاريخ قريشا.

قصى وسدانة الكعبة

وأمر قُصَىٌّ عشائر قريش ببناء دورهم حول الكعبة بعد أن أخرج خزاعة منها، وبنى فيها دارا واسعة سمّاها دار الندوة ليجتمع فيها سادة قريش من حين إلى حين للتشاور فى أمور الحرب والسلم وما يكون من صلح أو خصام أو زواج أو فراق أو سفر وترحال، وجمع فى يده حجابة البيت وهى مفتاحه، والرفادة، إذ فرض على قريش أن تجمع أموالا سنويًّا لإطعام الحجاج وخاصة المحتاجين منهم، والسقاية إذ كانت آبار مكة قليلة فعرض على قريش أن ترويهم بمياه فى قِرَب يؤدونها إلى الحجاج، وجمع أيضا فى يده اللواء وله قيادة الحرب مع رياسته لدار الندوة. وبذلك جمع قُصىّ فى يده كل مناصب الشرف فى شئون الدين والدنيا بمكة.

مناصب السدانة

وأوصى قُصَىّ أن يتولى هذه المناصب بعده ابنه عبد الدار، غير أن أخاه عبد مناف وأبناءه هاشما وعبد شمس والمطلب ونوفلا نازعوا عبد الدار وأبناءه فى تلك المناصب، واتفقوا على أن تبقى الحجابة واللواء والندوة بأيدى بنى عبد الدار، والسقاية والرفادة بأيدى بنى عبد مناف. وكان هاشم كبير إخوته، فجعلوا له سقاية الحجاج ورفادتهم أو إطعامهم مما يجمعه من قريش، وهو الذى سنّ لقريش رحلة قوافلها شتاء إلى اليمن، وصيفا إلى الشمال: الشام ومصر. وازدهرت تجارة مكة ازدهارا عظيما، وعقد هاشم معاهدة حسن جوار ومودة مع الإمبراطورية البيزنطية ومع أمير غسّان فى شرقىّ الأردن، وعقد أخوه: عبد شمس معاهدة تجارية مع الحبشة، وعقد أخواهما نوفل والمطلب معاهدتين مع الفرس ومع حِمْير فى اليمن. وكانت القوافل تأتى من الجنوب محمّلة بالبخور والطيب واللُّبان والجلود وثياب عدن وتوابل الهند والصمغ والعاج ورقيق إفريقية، وتحمل من

هاشم وازدهار التجارة

الشمال الأسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية. وفي إحدى رحلات هاشم ومروره بيثرب أعجب فيها بفتاة خزرجية فتزوجها وأنجب منها ولدا سماه شيبة، وعادت أمه به إلى يثرب.

ومات هاشم فخلفه أخوه المطلب في مناصبه. وزار المدينة وكان ابن أخيه شيبة بلغ أشُدَّه، فطلب إلى والدته أن يحمله معه إلى مكة، وقبلت وأردفه على بعيره وظن أهل مكة أن معه عبدًا فسمُّوه عبد المطلب، وغلب هذا الاسم عليه فدُعي به ونُسي اسمه شيبة الذى سُمِّي به منذ ولادته. وتُوفِّي عمّ عبد المطلب فخلفه على مناصبه من السقاية والرفادة. وكانت تشيع في مكة أساطير عن بئر زمزم التي طمرها مضاض بن عمرو الجرهمي وطمر فيها غزالتي الذهب وسيوف مضاض، وأخذ عبد المطلب يبحث عن بئر زمزم ويحفر أمكنة في الحرم حتى واتاه الحظ يوما، ونبع له ماؤها واستمر في الحفر حتى وجد الغزالتين والسيوف، واستشار القداح عند هُبَل، فخرجت بالغزالتين للكعبة والسيوف لعبد المطلب، فضرب السيوف بابا للكعبة، وجعل غزالتي الذهب حلية للحرم، وفاضت زمزم بماء وفير يُسْقَى منه الحجاج.

حفر بئر زمزم

وكان عبد المطلب قد نذر إن رزق عشرة أبناء وشبّوا عن الطوق أن يذبح أحدهم لآلهة قريش، وتحققت أمنيته، فجمع أبناءه العشرة وذهب بهم إلى صاحب القداح بالكعبة، فكتب على عشرة قداح أسماءهم، فخرج قدح عبد الله أصغر أبنائه. وحزن عبد المطلب وهمَّ أن يذبح ابنه عبد الله فتوسلت إليه قريش أن يبقيه حتى يسأل في النذر وفدائه عرّافة يثرب، فأشارت عليهم أن يأتوا بعشرة من الإبل ويضربوا عليها القداح فإن خرجت عليه زادوها عشرا وضربوا القداح عليه وظلت تخرج عليه، حتى إذا بلغوا بالإبل مائة خرجت القداح عليها، ونُحرت الإبل جميعها طعاما سائغا مستطابا لأهل مكة.

نذر عبد المطلب

وكانت الحبشة المسيحية قد استولت على اليمن سنة ٥٢٥ للميلاد كما مرَّ بنا في حديثنا عن النصرانية في الجزيرة، وبَنَى واليها على اليمن أبرهةُ كنيسةً وأمَّل أن ينشر بها المسيحية في اليمن والجزيرة العربية، غير أن أهل اليمن

قاطعوها وقاطعها معهم العرب الوثنيون. وعرف أنهم يحجّون سنويا إلى الكعبة بمكة، فرأى أن يهدمها حتى لا يحجُّوا إليها أبدا، وأعدَّ لذلك جيشا كبيرا يتقدمه راكبا فيلا ضخما. ووصل جيشه الحبشى إلى ضواحى مكة، وأرسل إلى أهلها من يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وأنه إنما أتى بجيشه لهدم الكعبة، ولم تكد رسله ترجع إليه حتى فشا فى جيشه الحبشى وباء أخذ يموت منه كثيرون، واضطر أن يعود سريعا مدحورا إلى عاصمة اليمن صنعاء، ومات أبرهة عند وصوله إليها مصابا بنفس الوباء. وقصَّ القرآن الكريم هذا الحادث بقوله فى سورة الفيل مخاطبا الرسول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أى جماعات ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أى حبَّات مما يشبه حجارة من طين، وقيل إنها كانت تحمل ميكروب الجدرى وأن قروحه انتشرت فى الجيش، فلم يدخل مكة ولا هدم حجرا من أحجارها ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ هذا الوباء ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أى جعلهم مثل ورق زَرْعٍ أكلت البهائم أطرافه وتناثر من أفواهها وتحت أقدامها، كما صنع الجدرى بجيش الحبشة، فتساقط منهم الجلد واللحم وباءوا بخُسرانٍ مبين.

غزو أبرهة لمكة

وزاد هذا الحادث مكة فى نفوس العرب الوثنيين تقديسا فوق تقديس، وزادت قوافلها التجارية التى تشق طرقها جنوبا إلى اليمن وشمالا إلى الشام ومصر وشرقا إلى الحيرة وإيران تجلّةً فوق تجلة، فكانت لا تُمَسّ بأى أذى. وانتعشت تجارة مكة، ودانت لها القبائل العربية، إذ كانت راعية الكعبة وما بها من أصنامهم المقدسة، وكان لكل قبيلة صنم واحد إن لم يكن صنمان أو أكثر؛ مما أكّد مكانة قريش وزعامتها على العرب، إذ كانت تقوم على كعبتهم المقدسة وأعيادهم الدينية، كما كانت تقوم على أهم أسواقهم التجارية كسوق عكاظ ومِجَنّة وذى المجاز. ولم تكن أسواقا تجارية فحسب، بل كانت أيضا أسواقا تُعرض فيها سلع الشِّعر، ويتبارى فيها الشعراء ويُحكم للمتفوق ببراعته. وبذلك هيَّأت مكة فى الجاهلية لحركة أدبية كبيرة سيطرت فيها لغتها – بحكم مكانتها الدينية – على لهجات القبائل، وأصبحت لغة الأدب الرفيعة.

انتعاش التجارة

الفصل الثالث

محمد من الميلاد
إلى الزواج من خديجة

١

الميلاد والرضاع

عاشت مكة – بعد اندحار أبرهة والجيش الحبشى – فى رخاء عظيم، وكانت تعيش على التجارة التى ازدهرت فيها، وكان بها تجار أثرياء ثراءً مفرطًا، وكان بها فقراء فقرًا شديدًا، وكان أهلها يتجرون فى الأقمشة والروائح والحبوب والعبيد الأرقاء، وكانوا يعرفون البيع العاجل والآجل وأنواع المضاربات، وكانت النساء تشترك مع الرجال فى التجارة، وكان الأثرياء يُثقلون على العبيد فى الأعمال.

وكان سيد قريش التاجر الكبير عبد المطلب يتمتع فيها بمكانة عظيمة، ورأى أن يزوِّج ابنه عبد الله – وكان من أجمل شباب مكة – فتاة من بنى زهرة: آمنة بنت وهب، وفرحت به وفرح أبوها بهذه المصاهرة الكريمة لأسرة سيد قريش، وتمّ زفاف العروسين سريعا. وكان شباب قريش يشغف بالتجارة والخروج إليها فى رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، وخرج عبد الله مع بعض رفاقه القرشيين فى رحلة الصيف. وفى طريق عودته من الرحلة رأى أن يزور أخوال أبيه بنى النجار بيثرب، وقيل بل ذهب إليها ليمتار تمْرًا مما

عبد الله بن عبد المطلب

بها من حدائق النخيل، ومرض عند أخواله، فتركه رفاقه ومضوا إلى مكة. وسألهم عبد المطلب عن ابنه، فقالوا له إنهم خلفوه مريضا بيثرب، فأرسل إليه أخوه الحارث ليرافقه في عودته، وذهب إليه سريعا، ولم يكد يلمّ بيثرب حتى عرف أن أخاه عبد الله تُوفِّيَ، ورجع إلى أبيه بمكة يَنْعَى إليه وإلى زوجه وأهله أخاه عبد الله.

وحزنت زوجه آمنة بنت وهب حزنا شديدا وتقدمت بها أشهر الحمل، وهى تشكو إلى الله بثّها وحزنها، ووضعت ابنها يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول، ورأت عيناه النور من حوله، وأرسلت أمه إلى جده عبد المطلب من ينبئه بأن طفلا ولد له، فامتلأ سرورا، وجاء إلى آمنة مُسْرِعًا، وأخذ ينظر إلى حفيده باسما، ولم يلبث أن حمله، وانطلق به إلى الكعبة يباركه فيها، وردّه إلى أمه، وسماه: محمدا. واختلف المؤرخون فى عام مولده، وجمهورهم يرى أنه كان عام فيل أبرهة سنة ٥٧٠ للميلاد. ولما كان اليوم السابع لميلاده، ويُسمَّى عند العرب يوم العقيقة، أَوْلَمَ جده عبد المطلب ابتهاجًا به وليمةً لقريش ذبح فيها جَزورا، ودعا إليه كثيرين من أهلها، فحضروا وطعموا، وهنّأوه بحفيده. مولد محمد

وأرضعت آمنة وليدها سبعة أيام، وكانت متعبة، فأرضعته ثُوَيْبة جارية عمه أبى لهب أياما قلائل، وكانت أرضعت قبله عمَّه حمزة بضعة أيام، فهو أخوه فى الرضاعة. وكان من عادة أشراف قريش أن يبعثوا بأطفالهم الرُّضَّعِ إلى إحدى نساء البادية من حولهم، ليقضوا فيها مدة الرضاعة فى حضانة إحدى نساء البدو، إذ كانوا يعتقدون أن جو البادية أصحُّ من جو مكة وأحسن أثرًا فى نمو الأطفال. وجاء مكة النساء المراضع من بنى سعد – إحدى قبائل بنى بكر من هوازن – يلتمسْنَ أطفال الأشراف من قريش لإرضاعهم. وكان حظ مرضعة منهن تسمى حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية زوجة الحارث بن عبد العُزَّى السعدى أن أقبلت على محمد تود لو ترضعه، ورضيت أمه آمنة أن تكون هى المرضعة السعدية له، وانطلقت به مع زوجها وقومه إلى بادية بنى سعد. وأخذت حليمة ترضعه مع طفل لها يسمى عبد الله أخاه فى الرضاعة، حتى إذا أتم سنتين فى الرضاعة حليمة مرضعة محمد

فطمته. وأخذ ينمو مع إخوته: عبد الله أخيه فى الرضاعة والشيماء وأُنَيْسة. ورأت حليمة بعد فطامه أن تعود إلى أمه آمنة، وعادت به إليها، وسألتها أن تتركه معها ومع إخوته فى الرضاعة لسنتين أخريين، ولم تزل حليمة بها حتى رضيت برحيله معها وعادت به إلى خيامها، وأخذ يلعب ويلهو مع إخوته خلف الخيام. ولما بلغ نحو الثالثة من عمره قصَّ أخوه عبد الله قصة عجيبة على أبويه، قال: إنه كان مع محمد وراء غنم للأبوين، فرأى رجلين عليهما ثياب بيض، أضجعا محمدا وشقّا بطنه وأخرجا منه مضغة سوداء. والقصة ضعيفة السند إذ رواها الطفل عبد الله أخو محمد فى الرضاعة وهو فى الثالثة من عمره ومعروف أن محمدا لم يلتمس خوارق فى رسالته فأولى أن لا يلتمس خوارق فى طفولته، ويبدو أنها نُسِجَتْ تعليقا على الآية القرآنية: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ والآية إنما تشير إلى شرح الله صدر محمد بالرسالة النبوية الربانية.

وظل محمد فى الرضاع مع إخوته من بنى سعد إلى الخامسة من عمره، وتعوّد أن ينام فى أول الليل، ويستيقظ مع أنوار الصباح، ويرى طلوع الشمس وأضواءها تعمُّ البادية طوال النهار من كل جانب، والرجال يعملون قليلا ويعودون إلى خيامهم ويجلسون أمامها القرفصاء، وكان يخرج مع إخوته ليرى الأغنام وهى تنتف بأفواهها الكلأ والأعشاب من جلد الرمال، وكلبا ينبح هنا وهناك، وفى كل جانب من حوله بحر من الرمل ليس له ساحل، ولا ظِلَّ هناك بل دائما أضواء الشمس المحيطة المستقرة، وتنطفئ الشمس مساء وتنطفئ معها الحياة، وتعود إلى الوجود كل صباح. وتتكرَّر الأيام والليالى متماثلة متشابهة. وتُصمِّم حليمة على العودة بمحمد إلى أمه آمنة، وفرحت به إذ رأته معها فى الدار، وجزتها – وجزاها جده – خير الجزاء.

ودار العام، فرأت أمه آمنة أن تخرج بابنها محمد إلى يثرب فى الصيف لتزور معه قبر أبيه عبد الله، وأخذت معهما جارية زوجها: أم أيمن ورأى محمد البيت الذى مات أبوه فيه والمكان الذى دفن به، وغمره حزن شديد على أبيه. وظل مع أمه شهرا فى يثرب عند أخوال جده من بنى النجار، ونَعِمَ بطبيعة المدينة وما

محمد مع أمه فى يثرب

يجرى فيها من قنوات المياه وما يحفُّ بها من جنات النخيل والحدائق التى تملأ البصر بهجة، وأهلها لا يعيشون مثل بدو بنى سعد على رعى الأغنام، وإنما يعيشون على الزراعة وما يجنونه من النخيل، وهم أيضا ليسوا مثل بنى سعد يتخذون بيوتهم من الخيام، وإنما يتخذونها من المنازل المبنية المرتفعة والحصون. وعزمت أمه آمنة على العودة إلى مكة ومعها أم أيمن، ولم يلبثوا أن فوجئوا بعاصفة ملتهبة من عواصف الصحراء، ومرضت آمنة، وربما لم تتحملها، ولم تلبث أن توفيت فدفنتها أم أيمن فى الأبواء، وتبعد عن المدينة نحو خمسة وعشرين ميلا. واستأنفت رحلتها مع محمد، والحزن تكتظ به نفسه شاعرا فى أعماقه بيُتْمِه الكامل لفقده أبويه جميعا.

٢

فى كفالة عبد المطلب وأبى طالب

عادت أم أيمن مع محمد إلى مكة وأخذت تخدمه وترعاه رعاية طيبة منذ السادسة من عمره، وكفله جده عبد المطلب لمدة سنتين فى آخر حياته، وكان يحنو عليه فيهما حنوًّا شديدا لوفاة أبويه. وكان من عادته أن يتخذ له مجلسا بجوار الكعبة يلقى فيه من يؤمونه من رجال قريش، وكان يُفْرَشُ لجلوسه فيه فراش، ويجلس أبناؤه حول الفراش، وكان يخص محمدا بجلوسه معه على الفراش حبا له وإعزازا. وكان لا يأكل طعاما إلا أشركه معه فيه، ودائما كان يوصى أم أيمن به بمثل قوله: لا تغفلى عن ابنى. ولما أحس دُنُوَّ أجله أوصى به عمه أبا طالب شقيق أبيه من أمه وأبيه معا فكفله بعده. وحزن محمد – لموت جده – وهو فى الثامنة من عمره وحزن أهله، إذ عدّوا موته خسارة كبيرة لهم، ووزعت وظائفه الدينية بين ولدين من أبنائه، فأعطيت إلى ابنه العباس سقاية الحجاج، وأسندت إلى أبى طالب الرفادة، وهى جمع الإعانات المالية من أثرياء مكة وشرائه بها طعاما للفقراء من الحجاج ضيوف آلهتهم.

وانتقل محمد إلى بيت عمه أبى طالب وأخذ يعيش مع أبنائه، ويشترك معهم فى حياتهم وفى ألعابهم كعادة الصبية من لداته، وحاطه عمه أبو طالب أتمّ حياطة. ولاحظ يوما محمدا حين قُدّم الفطور إليه وإلى أبنائه أنهم يتناهبون الطعام ويكفّ محمد يده، فرأى أن يعزله عنهم فى الفطور وأن يجعل له طعامه على حدة. وفى بعض أيامه كان يأتى بئر زمزم فيرتوى منه.

ومضت الأيام بمحمد بطيئة، وهو يلعب بمكة قريبا من داره مع الصبية من أبناء عمه وغيرهم. ولما بلغ العاشرة أخذ يختلف إلى سوق مكة ويرى التجار وهم يعرضون بضائعهم، وكان أهل مكة يعدُّون وصول قوافل التجارة من رحلة الشتاء فى اليمن ورحلة الصيف فى الشام وأحيانا من العراق أيام أعياد لهم، يخرجون فيها لاستقبالها، وكان يخرج معهم غلمانهم للفرجة عليها، كما كان يخرج معهم محمد. وكان عمه أبو طالب الذى يرعاه تاجرا، وكان محمد كثيرا ما يتمنى أن يصحبه معه فى إحدى رحلاته التجارية بهذه القوافل، وكان يُكثر من أسئلة الراحلين فيها عن فيافى الصحراء التى يقطعونها والمدن والبلاد التى ينزلون بها، وكان شغفه برؤيتها يزداد من حين إلى حين، وكان كثيرا ما يسأل عمَّه عنها وعما زاره من البلاد، وكان يذكر له أمنيته فى أن يصحبه فى إحدى رحلاته.

رحلة محمد مع عمه إلى الشام

وجاءت الفرصة، ومحمد فى الثانية عشرة من عمره، إذ عزم عمه مع بعض شيوخ قريش على الاشتراك فى قافلة تجارية ذاهبة فى الصيف إلى الشام، فتوسَّل إليه أن يصحبه معه، وتردد أبو طالب فى أخذه معه لصغر سنه، ثم رأى أن يحقق لابن أخيه اليتيم رغبته إرضاء له، وسُرَّ محمد بذلك. وأَمَره ذات يوم بالاستعداد للرحلة فى الغد، وذهب أبو طالب بابن أخيه إلى القافلة، وقد امتطى بعيرا وأردفه وراءه، ومضت القافلة تقطع الفيافى صاعدة إلى الشام، وينظر محمد فى الصحراء حوله، فلا يرى إلا بحرًا من الرمال ليس له ساحل، ولا شجر ولا ظل، ويُزيغ البصرَ ضوء الشمس نهارا فى كل جانب، ويضيء القمر بضيائه الشاحب للقافلة مسيرتها الدائبة، وأغلب الظن أن محمدا رأى فى رحلته شمال الحجاز أطلال بعض المدن التى دمَّرها الله لقوم الرسولين صالح وشعيب لعصيانهم ربهم. ولم تتوقف

القافلة فى فلسطين بل مضت مصعدة إلى الشمال، وبلغت بمحمد بلدة بُصْرى من أعمال مدينة دمشق وكان بها سوق يؤمُّه الناس من البلاد المحيطة القريبة والبعيدة للاتجار والبيع والشراء. وكان بجواره دير لراهب عربى من قبيلة عبد القيس على الخليج العربى يُسمَّى بحيرا، وكان نسطوريا مثل رهبان العراق يؤمن بأن للمسيح طبيعتين: طبيعة إلهية وطبيعة بشرية كما مرَّ بنا فى الفصل الأول. وقدم هذا الراهب لرجال القافلة طعاما لعله زيت وبعض الخبز، ورأى معهم محمدا، وربما سأله الغلام عن دينه المسيحى ورهبنته. ويجعل مؤرخو السيرة النبوية من لقاء محمد لهذا الراهب قصة يذكرون فيها أنه رأى فيه علامات النبوة بل علامات الرسالة الإلهية، وحذَّر أبا طالب من رؤية اليهود له حتى لا يرموه بسوء لما يعلمون فى التوراة من أمر رسالته. ويبالغ بعض المستشرقين فى تصور هذا اللقاء بين محمد وبحيرا الراهب، إذ يزعمون أنه عرَّفه العقيدة المسيحية، وليس ذلك فحسب، بل عرَّفه قصص جميع الأنبياء المذكورين فى الكتاب المقدس، مما ذكره فى القرآن الكريم، وهو افتراء شديد البهتان، إذ كيف يعقل أن غلاما لقى راهبا لقاء عابرا فى أثناء رحلته مع قافلة قرشية وعرف منه كل ما جاء فى الكتاب المقدس عن الأنبياء. وكان من حظ بحيرا الراهب أن خلَّد اسمه لقاؤه بمحمد، وإلا لضاع اسمه كما ضاعت أسماء مئات الرهبان قبله وبعده. وعاد محمد مع عمه إلى مكة، وعادت معهما قافلتهما.

بحيرا الراهب

وحدث حين بلغ نحو الخامسة عشرة من حياته أن نشبت حرب الفِجار، سمِّيت بذلك لأنه كان فيها قتال فى الشهر الحرام الذى حرَّم العرب على أنفسهم فيه القتال، وسببها أن عروة الرحال من هوازن ضمن عيرا تحمل بَزًّا ومسكا وغيرهما للنعمان بن المنذر كى تصل إلى أسواق مكة، وفى حوار له مع البرَّاض الكنانى قال له البراض أتحميها على كنانة، وكانت تنزل بجوار مكة وحليفة لقريش، فقال له عروة: نعم وعلى الخلق جميعا، فأسرَّها البرَّاض فى نفسه، وانتهز منه غفلة وقتله، وأخذ عِيره أو قافلته، فشبَّت الحرب بين هوازن من جهة وكنانة ومعها قريش من جهة ثانية، وظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين أربع سنوات

حرب الفجار

فيما يقال. وذكر محمد هذه الحرب – وهو رسول – فقال: حضرتها مع عمومتي ورميتُ فيها بأسهم، ولا أحب أني لم أكن فعلت.

وعقب انتهاء حرب الفجار تداعت قبائل من قريش إلى حلف لنصرة كل مظلوم بمكة، واجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وزُهْرة وتَيْم فى دار عبد الله بن جُدْعان سيد بنى تيم، وتعاهدوا أن ينصروا المظلوم بمكة حتى يُرَدُّ إليه حقه، وسمَّتْ قريش هذا الحلف حلف الفضول، لأنه يرد الحق إلى أصحابه المظلومين. ويُروى عن الرسول فى أثناء رسالته أنه قال: لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حلفا لو دُعيت إليه فى الإسلام لأحببت: تحالفوا أن تُرَد الفضول على أهلها وأن يأخذوا على يد الظالم.

حلف الفضول

٣

رَعْى الغنم – التجارة

أ – رعى الغنم

كان محمد فى صباه وأوائل شبابه يرعى غنم أهله وأهل مكة، وكان قد عرف رعيها مبكرا فى بادية بنى سعد مع إخوته فى الرضاعة، فلما رجع من رحلة الشام أخذ يرعاها لبعض أهله وبعض القرشيين على قراريط، والقيراط معيار فى الوزن يقال إنه أربع قمحات. ورُوِىَ عنه ﷺ أنه قال: ما من نبى إلا وقد رعى الغنم، وعنه أنه قال: بُعِثَ داود وهو راعى غنم، وبعث موسى وهو راعى غنم، وفى سورة طه أن الله – جلّ شأنه – سأل موسى عن عصا بيده فقال: ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى﴾ أى أنه يعتمد عليها ويهش بها الشجر ضاربا له فيتساقط ورقُه ليأكله غنمه الذى يرعاه. ويبدو أن محمدا ظل يرعى الغنم حتى بلغ نحو العشرين من عمره، وانتقل منه إلى العمل فى التجارة.

ب – التجارة

وكان محمد قد نشأ بمكة فى أسرة تاجرة، وكان عمه أبو طالب الذى يعيش فى بيته تاجرا، وكان يغدو ويروح بين تجار مكة وأبنائهم وكان ينظر إليهم وخاصة إلى من يرحلون مع القوافل للتجارة فى غير قليل من الإعجاب، وكان قد فُطِرَ على الزهد فى المال وطلبه للاستمتاع بالحياة، فاكتفى فى آخر صباه وأوائل الشباب برعيِ الأغنام وما تدرُّه عليه من مال قليل. ولا شك أن نفسه فى شبابه كانت تحدثه أحيانا بالعمل فى التجارة مثل لداته من شباب قريش، ولم يكن ذا مال كثير يستطيع الاستقلال به فى التجارة، فرأى أن يشترك مع أحد شباب قريش واختار شابا يسمى السائب بن أبى السائب، فاشترك معه فى بضائع يبيعانها لبعض التجار على أن يقتسما ما يكتسبانه، وأثنى عليه لأصحابه – فيما بعد – وقال إنه كان شريكا سمحا فى خلقه معى ومع من يشترون مِنّا البضائع، وجاءه يوم فتح مكة، فعرف له رفقته القديمة ورحَّب به وأثنى عليه، وكان مما قاله فيه: نعم الشريك السائب كان لا يشارى ولا يمارى أى لا يجادل ولا يلجُّ فى جداله. وكان عمل محمد بالتجارة دافعا له أن يفد على أسواق مكة، وخاصة على سوق عكاظ، وحدّث أنه رأى فيه قُسّ بن ساعدة الإيادى أسقف نجران على بعير يعظ الناس وروى موعظة له.

أسقف نجران

واشتهر محمد بين التجار بأمانته ولُقِّبَ بلقب «الأمين»، وأخذ كثيرون منهم يرغبون فى أن يعمل لهم، وكان ممن سمع به السيدة خديجة بنت خويلد، وكانت ذات شرف ومال كثير، وتزوجت مرتين فى بنى مخزوم، وتوفيا عنها وورثتهما وزاد مالها ثراء على ثراء، وكانت راجحة العقل، فخطبها بعض كبار قريش فردَّتهم، وعملت على تنمية ثروتها، فكانت تستأجر رجالا من قريش ليتجروا فى مالها، وتصادف أن استأجروا لها محمدا فأرسلته إلى سوق حُباشة بتهامة مع بعض مال لها واستأجرت معه رجلا آخر، ربما كان السائب السابق ذكره، فكانا يعودان إليها بربح وفير عرفت فيه ما يتميز به محمد من أمانة وصدق. وكانت تُعِدُّ بعض الرجال للخروج مع تجارتها فى رحلة الصيف إلى الشام، وبلغ محمد

الأمين وتجارته لخديجة

الخامسةَ والعشرين من عمره، فقال له عمه أبو طالب – وقد علم أن خديجة تجهِّز لخروج تجارة لها مع قوافل الصيف – يا ابن أخى إنك تعرف أننى قليل المال وقد اشتدَّ علينا الزمن فهل تمانع فى أن أسأل خديجة أن تختارك هذا الصيف لتتجر فى مالها بالشام، فقال له: اصنع ما تحب. فذهب أبو طالب إلى خديجة، وعرض عليها أن تستأجر محمدا، فرحَّبت بعرضه، وقالت له إنى سمعت عنه صدق حديثه ووفرة أمانته، ورأيت منه ذلك فى استئجارى له بسوق حُباشة فى تهامة، وسأعطيه ضعف ما يأخذه الغرباء منى. ورجع العم إلى محمد يبشره بقبولها استئجاره ومضاعفة أجره، ويقول له إن هذا الرزق ساقه الله إليك. ورأت خديجة أن ترسل معه فى رحلته غلامها ميسرة.

وانطلقت القافلة فى رحلة الصيف بمحمد وميسرة وما معهما من عروض التجارة مصعدة إلى الشام ومن حولها الصحراء المترامية، والقافلة تمعن فى السير بمسالكها الوعرة، والشمس ترسل بأشعتها الملتهبة، والقمر يتهادى بأضوائه الشاحبة، ومحمد يستمتع بلذة التأمل فى الكون وما فيه من جمال، وهى لذة بدأها منذ نشأ فى بادية بنى سعد. ومرَّت القافلة بديار ثمود ومدين التى رآها فى رحلته مع عمه، وهو فى الثانية عشرة من عمره، ومرَّ بمدن فلسطين، وسمع أجراس الكنائس، ولابد أنه فكر فى العقائد الدينية وخاصة عقيدة قريش الوثنية، وعقائد أهل الديانات من النصارى واليهود، ويبدو أنه رفض الوثنية من صغره، إذ أُثر عنه قوله إنه لم يسجُد لصنم قبل مبعَثِه ولا عَبَدَ اللات والعُزَّى معبودى قريش ولا غيرهما من آلهة العرب الوثنيين فى الجاهلية. وبلغت القافلة بُصْرى من أعمال دمشق كقافلة عمه السابقة ونزلت بالقرب من دير بحيرا، وتحدث محمد مع بعض رهبانه فيما يقال. واختلف إلى سوق بصرى عارضا ما معه من تجارة خديجة وربح فيها ربحا وافرا، أكثر مما ربحه من استأجرتهم قبله لتجارتها، وابتاع لخديجة ما طلبته من المعروضات فى السوق. وعاد إلى مكة وقت الظهيرة، وتصادف أن كانت خديجة فى غرفة بأعلى دارها مع نفيسة بنت منية وبعض صواحبها، ونزلت إليه حين دخل منزلها واستقبلته استقبالا طيبا، وقصَّ عليها أخبار رحلته وما ربح

من تجارته وما جاءها بـه مـن معروضـات الشـام، وكـانت تسـمع حديثـه منصتـة مغتبطة، وزاد في اغتباطها أن ما جاء به من عروض التجارة ربحت فيه ضعف ما كانت تربحه ممن كانت تستأجرهم لتجارتها قبله، فضاعفت الأجر الـذى سمّتـه لـه شاكرة ومثنية.

٤

الزواج من خديجة

كانت خديجة سيدة شريفة تحسن وزن الأمور وتصريفهـا فـى إحكـام ودقـة ورويّة، وكانت قد بلغت سن الأربعين، وحاول خِطْبتها بعض كبـار قريـش شـرفًا ونسبًا فردَّتهم جميعا، وكانت أكثر نساء قريش مالا، وحين تحدث إليها محمد بعـد رحلته أعجبت بأمانته وازدادت معرفتها به لما كـانت تسـمع مـن حسـن خلقـه، وكأنما أراد الله لها الكرامة والخير، فودَّت لو أن هـذا الشـاب القرشـي الشـريف طلب خطبتها إذن ما كانت لتردّه. وعرفت ذلك منها نفيسة بنت منيـة صاحبتهـا وأنها ترغب فى الاقتران به، فعرضـت عليهـا أن تذهـب إليـه حاملـة رغبتهـا فـى الزواج به ولقيته، وتحدثت إليه وقالت فى تضاعيف حديثها لـه: لمـاذا لا تـتزوج؟ وما يمنعك من الزواج؟ فقال لها: ما بيدى من المال ما أتزوج به، فقالت له: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيـب؟، فقـال لهـا: ومَنْ هي؟ وكيف لى بذلك؟ فأجابته: خديجة أوسط نساء قريـش نسـبا وأعظمهـن شرفا وأكثرهن مالا، وكان قد شعر لها بشيء من المودّة، غير أنه لم يكن يفكـر فـى أن يخطبها للاقتران بها لما يعرفـه مـن ردهـا لأشـراف قريـش، وسـأل نفيسـة هـل ترضى به؟ فأجابتـه علـيَّ ذلـك، فـأعلن لهـا قبولـه لـلزواج منهـا. وأنبأتهـا نفيسـه بموافقته، والتقت به سريعا، وقالت له: "ابن عَمّ إنى قد رضيـت بـك لقرابتـك لى ومكانتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك". وسُرَّ محمد وذكـر ذلك لأعمامه، وحدَّدَت له الوقت الـذى يحضـرون فيـه لخطبتهـا والـزواج منهـا

وعرّفت عمها عمر بن أسد وأهلها به، لأن أباها خويلدا كان قد مات قبل حرب الفجار، مما يكذّب ما يُرْوَى من حضوره زواجها.

وكانت عادة أشراف الجاهلية إذا اجتمع الأهل لاقتران زوجين أن يُقدم الزوجَ إلى العروس وأهلها أبواه أو أحد أعمامه وأقربائه، ولما اجتمع الأهل قام عم محمد: أبو طالب، فخطب خديجة لابن أخيه محمد قائلا: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ونسل إسماعيل، وجعلنا حَضَنَة بيته وسدنة حرمه، وجعله حرما آمنا.. ثم إن ابن أخى محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل نُبْلاً وفضلاً وشرفًا، وإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظل زائل.. وقد خطب إليكم رغبة فى خديجة، وبذل لها من الصداق عشرين بَكْرَة (ناقة). وأجابه عمها عمر بن أسد: هذا الفتى الهمام لا يُقْرع أنفه أى أنه كفء كريم لا يُرَدّ. وتمّ الزواج السعيد.

الفصل الرابع

من صفة محمد وخديجة إلى المبعث

١

صفة محمد وخديجة

أ – صفة محمد

كان محمد ربعة بين الطول والقصر، قويّ البنيان، عريض الكتفين، ضخم الرأس، ذا شعر شديد السواد، يميل إلى التجعُّد قليلا، منبسط الجبين فوق حاجبين سوداوين متصلين، وعيناه الكبيرتان السوداوان تلمعان من خلال أهدابه الطويلة، وكان أنفه مستويا دقيقا، مفلّج الأسنان، وكان شاربه دائما محفوفا لا يخفى فمه، وكانت أسنانه ناصعة البياض، وكان دائما يحمل لها السواك في الحلّ والترحال وأينما ذهب ليحافظ عليها، وكان طويل العنق عريض الصدر، غليظ الكفين والقدمين. وكان دائما بشوشا طلق الوجه، يسلّم على من يصافحه بغير قليل من المودة، ولا يسحب يده من مصافحته أولا، أدبا كريما منه. وكان عذب الحديث ولا يتكلم إلا إذا كانت هناك حاجة للكلام، ولا يتحدث ثرثرة، وكان دمثا حسن الخلق أمينا غاية الأمانة، ولذلك لقّبته قريش بلقب الأمين، وكان حييًّا غاية الحياء، حتى قال فيه أحد الصحابة إنه أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان لا يذمّ أحدا ولا يعيبه، وكان يعفو ويصفح حتى عن أعدائه. وكان محمد متواضعا

شديد التواضع، وكان دائما يردد أنه بشر لا يتميَّز عن أصحابه، وخرج على نفر منهم فوقفوا له تحية، فنهاهم عن ذلك قائلا: "لا تقوموا لى كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا". ويصفه الله فى آخر سورة التوبة بأنه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، والرأفة عاطفة نحو من يصيبه أى ضرر، فيشعر بالشفقة عليه ويحاول إزالة الضر عنه ودفع المكروه، والرحمة توجب الشفقة على الإنسان المصاب بضرر وتزيد الإحسان إليه. ويصف الله محمدا فى سورة القلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والخلق: الصفات والشمائل الكريمة، والخلق العظيم الخلق المثالى الرفيع، وهى شهادة ربانية لمحمد بأخلاقه الخيِّرة وشمائله الحميدة. ويقول ابن حزم فى كتابه «الأخلاق والسير فى مداواة النفوس»: "من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ وليستعمل أخلاقه وسِيَره ما أمكنه".

ب – صفة خديجة

كانت خديجة بنت خويلد من بنى أسد مثلا رفيعا بين نساء مكة ذات شرف وطهارة نفس، وعلى شئ من الجمال، عاش معها الرسول كزوجين متحابين هانئين سعيدين، وكانت له دائما عونا يجد عندها السكينة والطمأنينة والهدوء والإخلاص الذى لا يماثله إخلاص والوفاء والحب والسعادة. وحزن لوفاتها حزنا شديدا، وكان وفيًّا لها أعظم الوفاء، إذ دائما يذكرها ويثنى عليها أحسن الثناء، وتقول عائشة: "ما غِرْتُ على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت من خديجة وما رأيتها، ولكن النبى كان يكثر ذكرها، وربما يذبح الشاة ثم يقطِّعها أجزاء ثم يبعثها إلى صديقات خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن فى الدنيا إلا خديجة، فيقول إنها كانت.. وكانت.. وكان لى منها ولد". وكانت خديجة زوجة مثالية، فطبيعىٌّ أن يفى الرسول لذكراها وفاء جمًّا، وعرف الله عونها لرسوله فى حياته وفى إبلاغ رسالته، إذ رُوى فى الصحيحين أن جبريل أتى النبى فقال له: اقرأ على خديجة السلام من ربها ومنّى وبشِّرْها ببيت فى الجنة من قصب (لؤلؤ).

وهو شرف لها لا يماثله شرف، وظلت خديجة فترة تشرك محمدا معها فى تجارتها وتدبير أموالها. وكان يختلط بأنداده من قريش غير مترفع عنهم بما أسبغت عليه خديجة من سعة المال. وظل على عادته متواضعا يقبل على محدثه ويحسن الإصغاء له، ولا يدخر وسعا فى عون من يحتاج إليه، ويعامل الناس فى التجارة بغاية الأمانة، فيصدقهم فى ثمن ما يشترونه وفى ربحه منه ربحا معتدلا فى غير مغالاة، وهى أمانة كان يتسع بها لعمل كل ما فيه خير للقرشيين. أما خديجة فقد اطردت حياته معها بالمودة الصافية والمحبة الهنيئة غاية الهناءة.

في تجارة خديجة

٢

بناء الكعبة

كان ارتفاع الكعبة منذ إسماعيل تسع أذرع ولم تكن مسقوفة، فكانت التحف التى تُهدى إليها معرضة للنهب والسرقة. وتصادف حين بلغ محمد الخامسة والثلاثين أن انحدرت إليها من الجبال المحيطة بها سيول صدّعت جدرانها. وفكّرت قريش أن تسرع ببنائها، وخاف كثيرون – إذا هدموها – أن تغضب عليهم آلهتها وآلهتهم، ولكن التصدع للجدران كان شديدا وكان لابد من الإسراع بهدمها وبنائها من جديد، فتقدم الوليد بن المغيرة، وقال للقرشيين: أنا أتقدمكم فى الهدم وأخذ المعول واتجه إلى رب الكعبة فى رأيه، وقال إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم جانبا من الركن اليمانى، وتربّص القرشيون طوال الليل ينتظرون ما تصيبه به الآلهة، فإن أصابته بشئ لم يهدموها وردوا ما هدموه إلى أصله، وإن لم يصبه شئ كان ذلك دليلا واضحا أنها ترضى عن الهدم. وأصبحوا ولم يمسّ الوليد شئ، وصار إلى موضع هدمه، وأخذ فى الهدم، وهدم الناس معه، حتى أفضوا إلى حجارة خضر هى الأساس الذى وضعه إبراهيم، فجعلوها أساس البناء الجديد للكعبة. وتصادف أن حطم بحر القلزم سفينة أمام جدة: ميناء مكة كانت مملوكة لرومى فاشترى المكيّون خشبها منه للانتفاع به فى بناء الكعبة،

وكان بمكة نجّار قبطى فساعدهم فى تسوية الخشب وإعداده للبناء، وأخذت قريش تنقل للبناء أحجار الجرانيت من الجبال المجاورة، وأوصى غير قرشى أن لا يدخلوا فى بنائها من كسبهم إلا طيبا، فلا يدخلوا فيه صداق بَغِيّ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس. وأخذوا فى بنائها حتى بلغوا موضع الركن فاختصموا خصومة شديدة، إذ أرادت كل قبيلة أن يكون لها شرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه دون غيرها، واشتدت الخصومة وتحالفوا وأعدُّوا للقتال، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدىّ على الموت وأن يمنعوا أى قبيلة من أن تنال هذا الشرف وحدها وتوكيدا لتحالفهم جاء بنو عبد الدار بجفنة مملوءة دما وغمسوا مع بنى عدىّ أيديهم فيها فسمّوا «لَعَقَة الدم».

وظلت قريش فى هذا الخلاف المحتدم أربع ليال أو خمسا ثم اجتمعوا فى المسجد بجوار الكعبة وتشاوروا، فوقف بينهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى أكبرهم سنا، وقال: يا معشر قريش اجعلوا الحكم بينكم فيما تختلفون فيه من أمر الحجر الأسود لأول من يدخل من باب الصفا فى المسجد، وارتضوا رأيه. وكان محمد أول من دخل فلما دخل قالوا هذا «الأمين»، هذا محمد، رضينا بحكمه، فقال لهم ما الخبر؟ فأخبروه، ففكر والعيون متجهة إليه تنظر ما يكون حكمه، فطلب إليهم أن يأتوه بثوب واسع، ونشره، وأخذ الحجر الأسود فوضعه بيده فيه، ثم قال لتأخذ كل قبيلة قرشية بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا وحملوه جميعا حتى بلغوا موضعه، فأخذه محمد من الثوب ووضعه فى موضعه من البناء. وبذلك انتهت الخصومة وانفض الشر. وفى هذا الصنيع لمحمد دلالة قوية على حصافة عقله وقدرته على حل المشاكل بطرق سهلة، وفيه أيضا ما يدل على ما كان له من مكانة رفيعة فى قريش، إذ ارتضته حَكَمًا فى شر مستطير بين قبائلها وعشائرها وارتضت حكمه السديد.

حكم محمد فى حمل الحجر الأسود

وأتمّت قريش بناء الكعبة، وزادت فى ارتفاعها تسع أذرع، فجعلته ثمانى عشرة ذراعا، وسقّفوها حتى لا يتسوَّر حائطها اللصوص الطامعون فى نهب نفائسها وتحفها المهداة إليها، وجعلوا فى ركنها الشآمي دَرَجًا يُصْعَد به إلى

سطحها، ورفعوا بابها عن الأرض، فكـان لا يُصْعَد إليهـا إلا فى درج أو سـلّم، ليدخلوا فيها من شاءوا ويمنعوا من شاءوا. ولـما احترقت فى عهد عبد الله بن الزُّبير وأعاد بناءها زاد فى ارتفاعهـا تسـع أذرع فـأصبح سبعًا وعشرينَ ذراعـا، وأُلصق بابها بالأرض.

٣

أبناء محمد وبناته

ولدت خديجة لمحمد ابنين هما القاسم وعبد الله ولُقِّب بالطيب والطاهر فالتبس الأمر على بعض كتّاب السيرة فقالوا إنها ولدت له أربعة بنين: القاسم وعبد الله والطيب والطاهر، والصحيح أن الطيب والطاهر لقبان لعبد الله وأنها لم تلد له أبناء سوى القاسم أول الأولاد وكان محمد يُكنى به، وعبد الله أخيه، وماتا جميعا طفلين فى الجاهلية قبل أن تستكمل خديجة رضاعتهما، ولا شك فى أن محمدا وخديجة حزنا لموتهما حزنا عميقا. ورُزِقَ فى السنة الثامنة للهجرة من الجارية مارية القبطية هدية المقوقس حاكم مصر طفلا سماه إبراهيم، وعاش ستة عشر شهرا وتُوفِّى.

القاسم وعبد الله

إبراهيم

ورُزِق محمد وخديجة من البنات بأربع فى الجاهلية: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وكلهن أسْلَمْنَ وهاجرْنَ، وكبراهن زينب وُلِدت لمحمد فى الثلاثين من عمره، ونشأت فى بيت تساعد أمها به فى شئون الدار وتُدرِّبها عليها. ووَدَّ غيرُ شاب من قريش لو اقترن بها، وتقدم إليها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع، وكان من صفوة شباب قريش شرفا ومالا. وأتاحت له خالته خديجة لقاءًا بمحمد ليعرض عليه الأمر، وخلا به فقال له: إنى أرغب فى الاقتران بزينب، فأمهله حتى يسمع من زينب وأمها رأيهما واتفقوا جميعا على قبول خطبته وأنه نعم الصهر الكفء، فعاد محمد إلى أبى العاص ينبئه بالقبول. ومضى أبو العاص يعدّ بيته لزوجته العزيزة، وتم الزفاف، ورافق محمد وخديجة ابنتهما

زينب

زينب إلى بيت أبى العاص، وودّعا الزوجين مهنئين لهما مباركين. وكان أبو العاص يتجر إلى الشام وغير الشام مع أنداده من شباب قريش حتى أصبح من أثرياء القرشيين. وعاش الزوجان الشابان سعيدين بزواجهما هانئين.

زينب وفداء أبى العاص

وعرض محمد على أبى العاص الإسلام، فلم يبد موافقته ولا رفضه، بينما أسلمت زينب وظل أبو العاص على دين آبائه، وظلا يعيشان معا إذ لم يكن الأمر بالتفرقة بين الوثنى وزوجته المسلمة قد أصبح نافذا. ومرّت الأيام وهاجر الرسول إلى يثرب واتخذها مقاما، ثم كانت غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة وشارك فيها أبو العاص مع قريش، وأُسِرَ من قريش كثيرون كان من بينهم، وجعل الرسول فداء الأسير القرشى من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف، وأرسلت زينب فى فداء أبى العاص قلادة لها من جَزْع ظفار كانت أهدتها أمها إليها فى زواجها، مع أخيه عمرو بن الربيع، وقدّمها إلى الرسول قائلا إن زينب بعثتنى بهذه القلادة فى فداء أخى أبى العاص، فرقّ لها رسول الله ﷺ وقال لصحابته: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا إليها قلادتها فعلتم، فقالوا جميعا: نعم، وأُطْلق أبو العاص ورُدَّت إلى زينب قلادتها. وطلب الرسول إلى أبى العاص أن يخلى سبيل زينب فوعده بذلك، وسرعان ما أرسل الرسول إليه زيد بن حارثة مولاه ورفيقا له ليصحبا زينب فى رحلتها من مكة إلى يثرب. وظل أبو العاص فى مكة يرعى تجارته حتى كانت السنة السادسة للهجرة، فخرج فى قافلة لقريش بتجارة له ولبعض القرشيين، ولقى القافلةَ زيد بن حارثة مولى الرسول ومعه مائة وسبعون راكبا، فظفر بالقافلة وأُسِر ممن كان فى حراستها أبو العاص بن الربيع. فلما قربوا من يثرب فرَّ أبو العاص منهم لاجئا إلى زوجته فى غبشة الفجر وسمعت أذان الصبح، فصاحت: "أيها الناس إنى أجرت أبا العاص بن الربيع"، وسمعها كل من كان فى المسجد وسمعها الرسول، فقال لمن حوله: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال: أما والذى نفسُ محمد بيده ما علمت بشئ من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، ثم قال: المؤمنون يدٌ على من سواهم يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت. وردَّ الرسول على أبى العاص كل ما أُخذ له فى القافلة من مال، فعاد

إلى مكة وردَّ إلى كل صاحب حقٍ حقَّه، وأعلن فى التوِّ إسلامه بمكة، وقدم المدينة مهاجرا، وعاش مع زوجته وولديهما على وأمامة، وما توافى السنة الثامنة للهجرة حتى تُتَوَفَّى وتفارق زوجها وولديها فراقا لا لقاء بعده، ويلحق بها أبو العاص فى السنة الثانية عشرة للهجرة.

رقية وأم كلثوم

وولدت خديجة لمحمد بعد زينب ابنته رقية، وبعدها بنحو سنتين ولدت له أم كلثوم، ونشأتا تحظيان بحب أبويهما وحسن رعايتهما لهما، وفوجئ الأبوان - حين أدركتا وبلغتا سن الزواج - بأبى طالب عم محمد يخطب الابنتين لعُتَيْبة وعُتْبة ابنى أخيه عبد العُزَّى بن عبد المطلب الملقب بأبى لهب زوج أم جميل أخت أبى سفيان بن حرب. وطلب منه محمد أن يعطيه فرصة ليسأل أمهما خديجة والفتاتين، وتردَّدت خديجة لما تعرف عن أم جميل من سوء الخلق، واقنعها محمد بأن عتيبة وعتبة من ذوى الرحم ومن شباب قريش الأمجاد، وتمَّ الزفاف للفتاتين على ابنى عم محمد، وعاشا فى بيت أبى لهب فترة، وأخذتا تشكوان لأمهما سوء معاملة أم جميل. ولم يلبث أبوهما أن أُرْسِلَ لقريش والناس برسالة إلهية، وأخذ يدعو القرشيين للإيمان بها، حينئذ انقلب العم وزوجته الشريرة إلى عدوين حقودين لمحمد وأقنعا ابنيهما بالانفصال كل منهما عن زوجته وردهما إلى أبويهما. وحمدتا الله أن تخلصتا من سجن أم جميل، وعادتا إلى دار الأبوين تنعمان فيها باللطف والعطف البالغ.

زواج رقية بعثمان

وتزوجت رقية بعثمان بن عفان الشاب الأموى الثرى أحد السابقين إلى الإيمان برسول الله ورسالته، وكان وجهه يمتلئ بالبشر وكانت رقية جميلة، ويُروى أن الرسول أرسل بهدية مع رسول إليهما فأبطأ فى عودته إليه، فقال له: إن شئت أخبرتك بسبب تأخرك لقد وقفت تنظر إلى عثمان ورقية من حسنهما. ولما كثر الإسلام فى قريش أخذت القبائل القرشية تعذِّب من أسلم منها وتصبُّ عليه كثيرا من البلاء، وتمادت فى ذلك، فقال الرسول لأصحابه: اخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا مسيحيا لا يُظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارا إلى

ا لله بدينهم. وكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَىّ عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ . وبعد نحو ثلاثة أشهر شاع بين المهاجرين خطأ أن قريشا كَفَّت عن إيذائها للمسلمين، فعادت جماعة إلى مكة، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية، فبقيا بها مع رسول الله ﷺ ، وكان عثمان من أوائل المهاجرين إلى المدينة، ونزل مع زوجته رقية على أوس بن ثابت. وتصادف أن مرضت رقية مرضا شديدا فى الإعداد لغزوة بدر، وتُسلم روحها إلى بارئها يوم إعلان النصر. وبعد أربع سنوات يلحق بها ابنها عبد الله من عثمان وعمره ست سنوات.

زواج عثمان بأم كلثوم

ويتزوج عثمان بعدها بأختها أم كلثوم، وتنتقل إلى بيته ويعيش الزوجان هانئين. وتتوالى انتصارات الرسول، وتُفْتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة، وتستسلم الجزيرة العربية له ولدينه. ويدور العام فتلحق أم كلثوم بأختها فى شهر شعبان سنة تسع للهجرة.

فاطمة

وولدت خديجة لمحمد وهو فى سن الخامسة والثلاثين ابنته فاطمة، وعاشت مع أبويها وأسلمت حين وعت ما يقوم به أبواها وأخواتها من الصلاة، وقاست مع أبويها مقاطعة قريش لهما ولبنى هاشم وبنى المطلب وحصارهما فى شِعْب أبى طالب خارج مكة سنتين أو ثلاث سنوات متعاقبة، وحزنت لموت أمها، وكان أبوها يخصُّها بحنوٍّ شديد، لأنها صغرى بناته. وهاجر أبوها منفردا مع أبى بكر، ولم يلبث الرسول أن أرسل زيد بن حارثة مولاه ورفيقا معه ليحمل إليه ابنتيه: أم كلثوم وفاطمة وزوجته سودة بنت زمعة، وعِشْنَ مع الرسول. وكانت فاطمة قد

زواج على بفاطمة

بلغت السابعة عشرة من عمرها، وتقدم إلى خطبتها على بن أبى طالب وارتضته وارتضاه أبوها وتمّ عقد الزواج فى شهر رجب من السنة الأولى من الهجرة. ولم يكن علىّ موسرًا فكانا يعيشان معيشة شظف، وعوّضهما الله عنها معيشة حب وعطف متبادلين، ولم تلبث فى السنة الثالثة للهجرة أن ولدت لعلى ابنه الحسن، وأعقبته فى السنة الرابعة بابنه الحسين، وظلّ الرسول يسبغ عليهما حبه وعطفه، وفى السنة الخامسة وُلِدت زينب، وولدت بعدها لعلى رقية وأم كلثوم، وبذلك

سمّت بناتها بأسماء أخواتها الثلاث ذكرى عزيزة لها. وشهدت فاطمة فتح مكة الكبير لأبيها وجَعْله من قبائل العرب المتنافرة أمة موحَّدة كبرى، وكان يفرح بها فرحا لا حد له حين تزوره مع ابنيها الحسن والحسين وبناتها، وبالمثل حين يزورها، وكان كثير العطف على الحسن والحسين، ويقول إنهما سيدا شباب أهل الجنة. ولحقت فاطمة بأبيها بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى على الأرجح بستة أشهر.

٤

تحنّث محمد – بَدْء نزول الوحى

أ – التحنث والخلوة فى غار حِراء

لا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى نجد بين العرب فى أنحاء الجزيرة العربية نفرا يشكّون فى عبادة قبائلهم لآلهتهم الوثنية وما يتصل بها من الأصنام والأوثان قائلين إنها حجارة لا تضر ولا تنفع مثل خالد بن سنان فى بنى عبس، وأمية بن أبى الصلت فى ثقيف، وأبى قيس بن أبى أوس فى يثرب، وقُسّ بن ساعدة أسقف نجران وسمعه محمد فى سوق عكاظ يعظ الناس. وسمّاهم العرب – كما مرَّ بنا – أحنافا جمع حنيف الذى وصف الله به إبراهيم فى القرآن مرارًا دلالة على ميله عن دين قومه الوثنيين، وكأنهم كانوا مثله يميلون عن دين آبائهم، ويعبدون الله وحده. ومنهم أربعة من قريش مرَّ بنا ذكرهم فى حديثنا عن الحنيفية وهم ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن نُفَيْل.

وليس من ريب فى أن محمدا سمع عما يقوله بعض الأحناف القرشيين فى الدين، ولقى بعضهم وتحدث معه، غير أنه ليس من ريب أيضا فى أن الله ألهمه منذ بواكير شبابه ضلال ما فيه قومه من الشرك. ويشير القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾. ورأى بعض

الأحناف يتعبدون أياما فى بعض الكهوف حول مكة، فرأى قبيل مبعثه بسنوات أن يتحنّث أى يتعبَّد لربه طوال شهر رمضان من كل سنة، واختار لتعبده غار حِراء: كهفا صغيرا يبعد عن مكة نحو ثلاثة أميال فى الشمال الشرقى منها، وهو كهف موحش منعزل عن الناس والعمران خلف صخرتين عند مدخله، ويعمُّه ظلام شديد. وكانت خديجة من وقت إلى آخر تزوِّده بما يكفيه من الطعام والشراب.

التأمل فى الكون

وكان محمد يجد متاعا فى خلوته بهذا الغار، إذ كان يتيح له التأمل الطويل فى حياة الكون والناس وصلة هذه الحياة بموجدها وخالقها، وتُشْرق الشمس وترسل بأشعتها الذهبية فى الكون نهارا، ويظلم الليل ويشرق فيه القمر بأشعته الفضية، ولكن ما الشمس؟ وما القمر؟ وما السماء؟ وما هذه القبة الزرقاء التى تسبح فيها الكواكب والنجوم؟ وما هذا النظام الذى يعمُّ الكون وجميع كائناته؟ وما المطر الذى يحيى الأرض ويملؤها بالزروع البهيجة؟ وما الإنسان فى دنياه وما ينزل به من خير أو شر؟. إنه – فى خلوته – يريد أن يخترق الحُجُب ليعرف أسرار الكون وأسرار حياة الناس من حوله، وما الذى أدى بقومه إلى معتقداتهم الوثنية وأن آلهتهم الحجرية من مثل هُبَل واللات والعُزَّى وأصنامهم تدفع عنهم الشر وتجلب إليهم الخير. وكل ما فى الكون له سنن ثابتة، وكل ما فى الوجود يدل على أن وراءه صانعا وخالقا عظيما، وليس الجبل الضخم بأدلّ عليه من الحصاة الصغيرة، ولماذا كان بعض الحيوانات إنسيًّا وبعضها وحشيًّا قاتلا؟ إنه ليتمنى أن تُكشَف له الحُجُب ليعرف خالق هذا الكون وصانعه ومدبره.

ب – بَدْء نزول الوحى

الرؤيا الصادقة

تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرُّؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ (ضياء) الصبح. وواضح أنها عدّت الرؤيا الصادقة فى النوم وَحْيًا من الله لرسوله وإلهاما له. وظلّ هذا الإلهام – أو الرؤيا الصادقة فى النوم – يلازم

الرسول طوال حياته كرؤياه المشهورة قبل فتح مكة بنحو عامين أنه سيدخلها مع أصحابه آمنين محلّقين رءوسهم ومقصّرين، وفي ذلك يقول الله في سورة الفتح مبشرا رسوله بفتح مكة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾؛ والإلهام بذلك للرسول كما يكون في اليقظة يكون في النوم. وتسترسل عائشة قائلة: إنه حُبِّبَ إلى الرسول الخلاء، فكان يخلو بغار حِراء يتحنّث فيه الليالىَ ذوات العدد قبل أن يعود إلى أهله، لتزوّده خديجة، حتى فَجَأه الحق وهو فى غار حِراء.

نزول الوحى

وكانت تجربة عجيبة لقرشي منعزل فى كهف من كهوف جبال مكة، إذ كان نائما بالكهف في إحدى ليالى رمضان سنة ٦١٠ للميلاد، وهى ليلة القَدْر أى الشرف والفضل، وكانت فى السابع عشر من رمضان ومحمد فى سن الأربعين من عمره، وفيها يقول القرآن إنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ .. سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، وأيقظه من نومه صوت واضح، وهبَّ من نومه مذعورا، فرأى مَلَكا فى صورة رجل واقفا أمامه. ومرّت لحظة صمت، وقال له الملك ﴿اقْرَأْ﴾ فقال له: ما أنا بقارئ – قال الرسول: فأخذنى، فغطّنى أى فضمّنى وعصرنى عصرا شديدا، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال لى: ﴿اقْرَأْ﴾ فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ قلت: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغطّنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ دم غليظ فى تكوُّن الجنين بالرحم ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. واختفى جبريل على الأثر، واضطرب محمد؛ أهذا مَلَك من ربه أو هو رَئِىٌّ من الجنّ الذين كان يزعم كهّان الجاهلية أنهم يرونهم؟ وكان لا يدرى أهذا حُلْم أو حقيقة أو أصابته جِنّة. وما إن تفلّتت بعض أضواء الفجر إلى الغار حتى انطلق من الغار إلى مكة. ودخل على زوجته خديجة فَزِعا وقصّ عليها ما رآه، وشعرت بما تملّكه من خوف ورعب، وكانت

سيدة حصيفة، فرأت أن تُزيل من نفسه مخاوفه وحيرته، فقالت له في إيمان صادق: أَبْشِرْ يا ابن عمي واثبت إنك ستكون نبيّ هذه الأمة. فكرَّر عليها: إني خائف إني خائف. فقالت له تطمئنه: إن الله لن يخزيك أبدا، إنك لتصل الرحم (الأقارب) وتحمل الكَلَّ (الضعيف) وتُكسب المعدوم (الفقير) وتَقْرِى (تطعم) الضيف، وتُعين على نوائب الحق. فانحسرت عنه مخاوفه، وشكرها، وراح في نوم عميق.

خديجة تبشر محمدا بالنبوة

الفصل الخامس

من المبعث
إلى إيذاء الرسول وأصحابه

١

المبعث

نازعت خديجة الوساوس حين ذكر لها الرسول خبر نزول المَلَك عليه وما أوحى به إليه من مطلع سورة اقرأ، وكانت شديدة الحب له والإخلاص، وأخذت تعرض على نفسها ما قصَّ عليها وتستعيد كلماته والآيات التى وعاها فى صدره. وفكرت فى أن تأخذه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذى اشتهر بتحنُّفه، وقيل بل تنصَّر وعرف الإنجيل، وكان قد أسَنَّ. وانطلقت بالرسول إليه، وحدَّثته بما رأى محمد وسمع، وتلت عليه الآيات التى تلاها وقالت له: اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا رأيت؟ فأخبره بكل ما رأى، فأطرق يفكر لحظة ثم قال: قُدُّوس قُدُّوس! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى لقد أتاك الناموس (أى جبريل) الذى كان يأتى موسى يا ليتنى فيها (أى فى مكة) جَذَعًا (أى شابا) ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله: أَوَمُخرجِيَّ هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئْتَ به إلا عُودِىَ وإن يدركْنى يومك أنصرْك نصرًا مؤزَّرًا (قويا شديدا) . وكأنما كان ورقة ملهما، أو قل إن الله ألهمه أن يقول ذلك للرسول حتى يؤمن بأنه نبىُّ الأمة، وسيرد قوله فيما يلى، إذ خرج الرسول فى

ورقة ابن نوفل

يوم بعد ذلك للطواف بالكعبة، فلقى ورقة بن نوفل ورحّب به، وقال له: "والذى نفسى بيده إنك لنبيٌّ هذه الأمة لقد جاءك النّاموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذَّبنّ، ولتؤْذَيَنّ، ولتُخرَجنّ، ولتُقاتلنّ، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنْصُرَنّ الله"، وأدنى منه رأس الرسول فقبّله.

انقطاع الوحى مدة

وتوفى سريعًا ورقة وانقطع الوحى عن الرسول فترة، ومن كتّاب السيرة النبوية من يطيلها حتى يجعلها سنتين ونصفا، ومنهم من يجعلها خمسة عشر يوما أو ثلاثة أيام، والصحيح - كما روى عن ابن عباس - أنها كانت أربعين يوما، وحزن الرسول فيها حزنا شديدًا وألمت به ظنون كثيرة مخافة أن ينقطع عنه الوحى الذى أنعم الله به عليه. وكان يتردد على غار حِراء، لعل المَلَك ينزل عليه فيه ثانية، ولم ينزل، فكانت نفسه تضيق به ويغتمّ غمًّا شديدا، وكان يذهب إلى رءوس الجبال لا ليتردّى منها كما يقول بعض كتّاب السيرة، وإنما تشوقا وتلهفا لرؤية جبريل وعودة الوحى إليه من السماء. وفى آخر تلك الفترة تبدّى له جبريل بين السماء والأرض، فناداه قائلا: يا محمد أنت رسول الله حقا وأنا جبريل، وتراءى له فى كل آفاق السماء، فامتلأ منه رعبا كما امتلأ فى غار حِراء، وسقط إلى الأرض من شدة الهول، وذهب إلى خديجة مرتعدا يقول: "دثّرونى (غطونى) دثّرونى" ونزل جبريل عليه بمطلع سورة المدّثّر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. والرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾ والمدثر: لابس الدثار: ثوبا فوق ثوب، وقيل المدثر فى الآية حقيقة، وقيل إنه مجاز أى المأمور بالنبوة وإنه حينما أُوحيت إليه هذه الآيات لم يكن نائما ولا مضطجعا، وأُمر بالمبادرة إلى إنذار قومه وتكبير ربه وتطهير ثوبه، وقيل ليس المراد بالتطهير هنا تطهير الثوب أو الجسد، وإنما تطهير النفس من الرذائل. والمراد بالرُّجْز عبادة الأوثان والأصنام، ومعروف أن الرسول لم يتعبد لوثن ولا لصنم قبل رسالته، وكأن المراد تعليم ذلك لمن يتّبع دينه من المسلمين. وحَمِىَ الوحى وتتابع بعد سورة المدثر. وحين نزلت عليه هذه الآيات التفت إلى خديجة وقال لها: انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأدعوهم إلى الله وعبادته.

عودة الوحى وجبريل

٢

المسلمون الأوّلون

خديجة

كانت خديجة أول من آمن بمحمد ونبوته كما يتضح من حديثه السابق معها حين جاءها يرتجف حاملا الآيات الأولى من سورة ﴿اقْرَأْ﴾، فقالت له حينئذ: "إنك لنبى هذه الأمة"؛ لذلك كان طبيعيا أن تكون أول من آمن بنبوته ورسالته. وعلّم جبريل الرسول الوضوء والصلاة فعلّمهما خديجة، وصلّيا معا. وكانت خديجة نِعْمَ الزوجة، وكأنما أهداها الله إليه لتؤازره وتثبته حين نزل عليه الوحى، ويلهمها الله أن تذهب به إلى ابن عمها ورقة ليزيده ثباتا وإيمانا بأنه نبى الأمة، وطوال رسالته وهى تعيش معه، كان لا يسمع من خصومه شيئا يكرهه من رد عليه أو تكذيب يحزنه إلا فرّج الله بها عنه، وإذا قصّ عليها ما سمعه فإنها كانت دائما تثبّته، وتقول له: إنك نبى الأمة. وتهوّن عليه أمر الناس حتى انتقلت إلى جوار بارئها. وأكرمها الله فى حياتها، إذ قال الرسول لها فى حديث: هذا جبريل يقرئك السلام من ربك. وبشّرها فى حديث ثان بأن لها فى الجنة بيتا من ذهب، وفى بعض الروايات بيتا من قصب أى لؤلؤ. وكانت الصلاة فى أول الأمر ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين بعدها إلى أن فُرضت خمس صلوات فى ليلة الإسراء والمعراج قُبَيْل الهجرة.

على بن أبى طالب

وكان فى دارهما غلامان يقيمان مع محمد وخديجة، أما أولهما فعلى بن أبى طالب ومرّت بقريش أزمة شديدة وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال فقال محمد لعمه العباس بن عبد المطلب: إن أخاك أبا طالب كثير الأولاد وحرىٌّ أن نخفّف عنه من عبء عياله فآخذ أنا صبيًّا من أولاده وتأخذ أنت صبيًّا آخر، فنكفل تربيتهما عنه. ورضى أبو طالب، فكفل العباس جعفرًا، وكفل محمد عليًّا، وكان فى نحو العاشرة من عمره حين نزل الوحى على الرسول، ورأى محمدا وخديجة يصلّيان، فوقف حائرا، وسأل الرسول بعد إتمام صلاتهما عن الأمر،

فقال له الرسول: إن الله بعثنى نبيًّا وأمرنى أن أدعو الناس إلى الإسلام والإيمان بوحدانيته وإنكار عبادة الأصنام، ودعا عليًّا إلى اعتناق الإسلام فقال له: أمهلنى حتى أشاور أبى، وظل ليله مضطربا يفكر، وفى الصباح قال للرسول: إننى لست محتاجا لمشاورة أبى، وقال قولته المأثورة: "لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله". وأعلن له إسلامه وفرح به الرسول.

زيد ابن حارثة

والغلام الثانى الذى كان يعيش فى بيت الرسول مع على بن أبى طالب زيد ابن حارثة بن شراحيل الكلبى، كانت أمه خرجت به صبيا تزور أهلها، فضلّ منها فى الطريق، فالتقطه شخص وباعه فى بعض أسواق العرب، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة فوهبته لزوجها محمد قبل مبعثه. وطابت لزيد المعيشة عند محمد وخديجة. وظل أبوه يبحث عنه حتى عرف أنه عند محمد، وخيَّره محمد أن يبقى عنده على الرحب والسعة أو يرحل مع أبيه حارثة، واختار زيد البقاء مع محمد، فانطلق إلى الملأ من شيوخ قريش وأشهدهم أنه ابنه بالتبنّى، وظل معروفا باسم زيد بن محمد حتى أبطل الإسلام التبنى. وشاهد زيد محمدا وخديجة يصلّيان فسألهما – كما سألهما علىّ – ما هذه الصلاة؟ فعرَّفه الرسول بأن الله أرسله إلى الأمة بدين الإسلام وفرض فيه هذه الصلاة ودعاه إلى اعتناق هذا الدين والإيمان بوحدانية الله، فلبّاه توًّا وهو غلام، وأسلم وحسن إسلامه.

أبو بكر

وكان أبو بكر بن أبى قحافة صديقا مخلصا للرسول قبل مبعثه، وكان من عشيرة تيم القرشية ورجالاتها، وكان تاجرا موسرا كريما ومألفا لقريش يألفونه لتجارته ويُسْره وحسن مجالسته، فرأى الرسول أن يكون أول من يعرض عليه الإسلام، وما إن عرضه عليه – وهو يعلم صدق الرسول وأمانته – حتى لبَّاه توًّا. يقول الرسول ما إن عرضت الإسلام على أحد إلا كان عنده فيه توقف ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما توقف عنه حين ذكرته له ولا تلبَّث ولا تردَّد. وسرعان ما أخذ يؤازر الرسول فى الدعوة إلى دينه وإلى الله وتوحيده. واختلف كتّاب السيرة فى أول من أسلم من قريش هل هو على بن

أبى طالب أو هو أبو بكر بن أبى قحافة. وعلىٌّ حين دخل فى الإسلام لم يكن وثنيا وأسلم، إذ كان صبيا وكان يتبع الرسول فى جميع أحواله، مما يجعلنا نقول إن أبا بكر أول رجل من رجالات قريش آمن برسالة محمد ودعوته إلى عبادة الله وتوحيده والإيمان باليوم الآخر. ليس ذلك فقط، فإنه أخذ توًّا يدعو من وثق به إلى اتباع الرسول، واستجابت له جماعة، منهم عثمان بن عفان من بنى أمية ابن بنت عمة رسول الله أم حكيم بنت عبد المطلب، والزبير بن العوام بن خويلد ابن عمة الرسول صفية بنت عبد المطلب وابن أخى خديجة، وعبد الرحمن بن عوف من بنى زهرة عشيرة آمنة أم رسول الله، وسعد بن أبى وقاص بن أُهَيْب الزهرى ابن عم آمنة، وطلحة بن عبيد الله ابن خال أبى بكر، وجميعهم من العشرة الذين بشّرهم الرسول بالجنة. وحين أسلموا جاء بهم أبو بكر إلى الرسول، فعرض عليهم الإسلام، فأسلموا وصلُّوا، وهم مع الثلاثة الذين سبقوهم إلى الإسلام: أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة: الثمانية الذين سبقوا الناس إلى اعتناق الإسلام وصدَّقوا بما جاء به رسوله من عند الله.

عثمان والزبير وابن عوف وسعد وطلحة

٣

الجهر بالرسالة

ظل الرسول ﷺ يدعو الناس سرًّا إلى الإسلام ثلاث سنوات، وكان يأمر فيها من أسلم أن يصلى صلاته متخفيا من قريش فى بعض شعاب الجبال بمكة حتى لا يتعرض إلى إيذاء سفهائها الوثنيين. وظل فى هذه السنوات يعمل فى التجارة كما كان يعمل فيها قبل الرسالة، وهو فى أثناء ذلك يدعو من اطمأن إليه من قومه إلى الإسلام.

وطبيعىٌّ أنه كان يعرِّف من دعاه إلى الإسلام بتعاليمه الكبرى وفى مقدمتها وحدانية الله وعبادته والصلاة له والإيمان باليوم الآخر وبالملائكة والرسل

وبالأخوة بين الناس والمساواة. وكانت مكة تموج بالرقيق الإفريقى والحبشى، فكان ذلك صدمة كبرى لسادتها أمام عبيدهم وإمائهم. ومَنْ يدخل فى هذا الدين الذى سُمِّى بالإسلام يصبح مسلمًا أمرُهُ إلى ربه يوحِّده ويرفض رفضا باتا عبادة الأصنام والأوثان. ولم ينتحل الرسول لنفسه أى صفة قدسية أو إلهية كما صنع اليهود بأحبارهم المقدسين، وكما صنع المسيحيون بتأليههم لعيسى وتخيُّلهم للثالوث الإلهى.

من أوائل المسلمين

وتعاليم الإسلام - بذلك - سهلة بسيطة، وممن اعتنقوه سريعا أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد ابن عمة الرسول برة وزوجته أم سلمة، والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى أسلم بعد عشرة أنفس وكانت داره بالقرب من الصفا فاختارها الرسول مكانا منعزلا للاجتماع بأصحابه، وعبد الله بن مسعود وقيل كان من العشرة السابقين، وسعيد بن زيد ابن عم عمر بن الخطاب وزوجته فاطمة أخت عمر، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول، وعبد الله بن جحش ابن أميمة عمة الرسول، وأسماء بنت أبى بكر الصديق، وعائشة أختها وهى صغيرة، ومعنى ذلك أنها هاجرت، وهى فى نحو العشرين من عمرها وتزوجها الرسول فى السنة الأولى من الهجرة. ولعل ما ذكره ابن هشام من ذلك فى السيرة يخطِّئ زعم ما قيل من أن الرسول تزوجها وهى بنت تسع. وظل الرسول يجتمع بأصحابه فى دار الأرقم حتى بلغوا نحو الأربعين.

دعوة العشيرة

وحينئذ نزل الوحى على الرسول بالدعوة إلى الإسلام جهرا فى غير استخفاء قائلا له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. وفكر الرسول كيف ينبئهم برسالته، وكيف يعرض لعشيرته إنذارَ الله الكافرين ووعيده لهم، وفى حديث عائشة أم المؤمنين وابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية دعا الرسول قريشا فجعل ينادى: يا بنى فهر يا بنى عدىّ، وظل ينادى بطون قريش فاجتمعوا، فمضى ينادى: يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغنى عنكم من الله شيئا،

يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا. وكانت الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله وإلى العمل الصالح، إذ جمع الرسول فى إنذار عشيرته بين المشرك والمؤمن لأنه أنذر عمته صفية وابنته فاطمة وكانتا مسلمتين. ووجم المدعوون. فرأى أن يدعوهم إلى طعام، فلما طعموا أخذ ينذرهم ويخوفهم من عذاب الله، فبادره عمه أبو لهب بقوله: هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فلا تخرج على دين قومك وإياك وغضب العرب، فإن قريشا لا تستطيع مقاومتهم، وأولى لك أن ترجع إلى دين آبائك، وأهاب بالمجتمعين أن ينفضُّوا.

وانصرف الجميع. ولم ييأس الرسول من عشيرته فدعاهم ثانية إلى داره فى يوم، ولما طعموا قال لهم: ما أعلم عربيا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به؛ جئتكم بخير الدنيا والآخرة: أمرنى ربى أن أدعوكم إلى طاعته. ويُقال إن بعض عماته أشرْنَ عليه أن لا يدعو عمه أبا لهب، ولكنه دعاه آملا أن يهديه الله فيؤمن به وبرسوله. حتى إذا فرغت العشيرة من الطعام بادرهم الرسول بقوله: إن الرائد لا يكذب أهله، ولو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم.. إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد أمرنى الله أن أدعوكم إلى الإسلام، فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ وإنى أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتحاسَبُنَّ بما تعملون، ولتجزوُنَّ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءًا وإنها للجنّةُ أبدا أو للنارُ أبدا. وتكلم عمه أبو طالب بكلام طيب غير أن نفسه لا تطاوعه على فراق دين أبيه عبد المطلب، ثم قال له: مع ذلك سأظل أمنعك وأحوطك من قريش. أما عمه أبو لهب فهاج وماج وعاد إليه سفهه وحمقه، وقال لمن حوله: لا تتركوه فى الدعوة إلى دينه، وخذوا على يديه، وتعرضت له أخته صفية عمة الرسول – وكانت قد أسلمت – فقالت له: أيحسن بك خذلان ابن أخيك؟ ألا يسرّك أن يخرج من ذرية عبد المطلب نبيّ؟ وهاج غضبا، وقال لها: وما العمل لو هبّت بطون قريش جميعها ضده، وساعدها العرب، فقال أبو طالب: لنمنعنّهُ ما بقينا.

ولم تلبث أن نزلت على الرسول آية سورة الحِجْر، وهى قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو أمر صريح بالجهر بالدعوة لا لعشيرته فحسب، بل لجميع بطون قريش من عشيرة الرسول وغيرهم ومن قبائل العرب. ورأى الرسول أن يتجه بدعوته إلى أهل مكة جميعا، فصعد الصَّفَا ونادى: يا صَبَاحاه! يا صَبَاحاه يا معشر قريش، وكرَّر النداء، فاجتمعوا إليه وأخذوا يسألونه ما الأمر؟ فقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا مُغيرة أقبلت (أى أنها تريد الإغارة على مكة) أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نعم أنت عندنا غير متَّهم وما جرَّبنا عليك كذبا قط. قال: فإنى نذير لكم - أُرسلت إليكم - بين يَدَىْ عذاب شديد. يا بنى عبد المطلب! يا بنى عبد مناف! يا بنى زُهرة! يا بنى تَيْم! يا بنى مخزوم! يا بنى أسد! إنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله. يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإننى لا أغنى عنكم من الله شيئا، إن مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى عدوًّا يريد الإغارة على أهله، فجعل ينادى - محذِّرا أهله - يا صَبَاحاه! يا صَبَاحاه! أُتيتم أُتيتم، فتنبَّه أهله. ونهض عمه أبو لهب حانقا غاضبا صائحا به: تَبًّا لك سائرَ هذا اليوم، ألهذا جمعتنا!، وصرف الناس. وكانت زوجته أم جميل لا تقل عنه عداوة للرسول ودينه الحنيف، وكانت تثير عليه قومها وكانت تقرض الشِّعر فى ذمه، وأخذ أبو لهب حجرا بيده وحاول أن يمنعه من الكلام ولكن الله سلَّم، فأُسْقط الحجر من يده. ولم يلبث الوحى أن نزل على الرسول بقوله تعالى ردًّا على أبى لهب بنفس ألفاظه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ﴾ أى هلكتا وخصَّ الله يديه لحملهما الحجر الذى كان يريد أن يرميه على الرسول ﴿وَتَبَّ﴾ إعادة للدعاء عليه بما يشمل جسده كله ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أى لن ينفعه ماله من الله شيئا وأيضا ماله الذى كسبه بنفسه ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾. وذكر الوحى امرأته فقال: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أى حطب الفتن تحاول إيقادها ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أى دائما فى جيدها حبل متين تشدُّ به هذا الحطب وحُزَمه.

الدعوة جهرا لجميع الناس

ومضى رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام أتمّ دعوة، يدعو الكبير والصغير والحرّ والعبد إذ كان فى مكة عبيد كثيرون، والرجال والنساء والأسود والأحمر.. وأولا كان جَهْرُ الرسول بهذا الدين صدمة كبرى لقريش بل صدمات لأنه يدعو إلى نبذْ عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد، فإن فى ذلك ضياعا لمكانة مكة الدينية فى الجزيرة العربية، وضياعا - بالتالى - لولاء العرب لها، إذ كان بها الكعبة التى اتخذوها دارا لأصنامهم جميعا، وكانوا يحجُّون إليها سنويا، وكان سدنة الكعبة جميعا من قريش، فهى القائمة على حماية أصنامها وما يقدَّم إليها من عبادة وقرابين. وسبب ثان هو أن العصف بهذا الدين الوثنى من شأنه - لو حدث - أن يضعف تجارة مكة التى تعيش منها، فإن القبائل ستنْهب قوافلها التجارية التى كانت تمنعها منهم وتحميها مكانة مكة الدينية. وأيضا فإن حجَّهُم السنوى إلى مكة لتقديم النذور والقرابين إلى آلهتهم سيتوقف ويتوقف معه اختلافهم فى أثناء الحج إلى أسواق مكة التجارية فى مِجنّة وذى المجاز وعكاظ. وسبب ثالث هو أن الإسلام يدعو إلى المساواة بين السادة والعبيد الذين يعملون لديهم كآلات مُسخَّرة دون أجر أو جزاء، وشعر السادة أن فى ذلك خطرا شديدا على سيادتهم للعبيد.

معارضة وعداء

أحسَّ كبراء قريش وأثرياؤها الوثنيون بهذه الصدمات الكبرى إحساسا قويا عميقا فبادرت كثرتهم إلى معارضة الرسول، واستحالت المعارضة عند كثير من السادة إلى عداء شديد للرسول ودينه الحنيف، ورأى بعض سادتهم وكبرائهم أن يكلّموا عمه أبا طالب الذى يعلن حمايته له - وظل يؤمن معهم بدينهم - فقالوا له: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، ودعا آباءنا ضالين، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلّى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ليِّنا وردَّهم ردًّا جميلا.

قريش توسط أبا طالب

وظل رسول الله ﷺ - يدعو بقوة - إلى دين الله ودخل فيه كثيرون من قريش ورقيقهم. فذهب ثانية بعض كبرائها إلى أبى طالب، وقالوا يا أبا طالب: إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك عن دعوته فلم

تنهه، وإنا والله لا نصبر على هذا من شَتْم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا فإما أن تكفّه عنا، وإما ننازله (نحاربه) وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا، فعظم على أبى طالب غضب قومه ولم يطب نفسا بخذلان رسول الله، فبعث إلى الرسول فأتاه، فقال له: يا ابن أخى إن قومك جاءونى – وذكر له ما قالوه – فأبْقِ علىّ وعلى نفسك ولا تحمّلنى ما لا أطيق. وفكّر الرسول لحظة، ثم قال فى إصرار ما يماثله إصرار "يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".

وإنها لعظمة: إحساس الرسول بقدسية ما كلّفه الله به من تبليغ رسالته إلى الناس. ووقف عمه أبو طالب مذهولا أمام ابن أخيه وما سمع من إرادته الحازمة فى أنه لن يتراجع ولن يتخاذل فى الدعوة إلى دين الله ما عاش وظل حيا. وأمام هذا التصميم الحاسم لاستمرار الرسول فى دعوته وأنه لن يكفّ عنها أبدا هتف به عمه أبو طالب قائلا: "اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشئ تبغضه أبدا".

السفهاء من الشعراء

وأعلم أبو طالب قريشا بروعة ما قاله معبرا عن صدق عزيمته فى تبليغ الناس دعوته مهما نزل به من الخطوب وأنه عاهده على نصرته وحمايته، فجُنّ جنون أعداء دعوته من قريش، وسلّطوا عليه سفهاءهم من الشعراء: النضر بن الحارث وهبيرة بن أبى وهب وأبا سفيان بن الحارث وأم جميل زوجة أبى لهب، يهجون الرسول، ويسمع أشعارهم المشركون فى مجالسهم ويهلّلون لها، ويغنّيهم بها المغنّون، فأنزل الله فيهم: ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وهو ذم لأتباعهم يتحمّلون وزره، والغاوى الضّالّ شديد الضلال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أى أنهم يقولون الشعر وينظمونه فى أغراض مختلفة من الهجاء والمديح والغزل ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾، فهجاؤهم للرسول وللمسلمين إنما هو كذب وافتراء وبهتان عليه وعلى أصحابه، وهو ذم واضح لشعراء المشركين وما يتفوّهون به من هجاء ضالّ. والآيات تردّ بوضوح على من كانوا يقولون من قريش إن القرآن شعر، فقال الله لهم إن الشعراء كذّابون

أفّاكون ومعاذ الله أن يكون محمد كذابا أفّاكا. وكانوا يقولون: إن القرآن سحر ولذلك يدفع الناس إلى الإيمان بسحره وإن محمدا ساحر. فنزلت سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أى انبلاج الصبح، والمراد الرب المبيِّن للحق وهو القرآن من الضلال أى الشرك ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أى من كل مخلوقاته من الإنسان والحيوان والزواحف ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أى من شر الأفعوان إذا تجمع للدغ إنسان، وقيل هو الليل إذا اشتدت ظلمته لما يكون فيه من السباع والهوام المؤذية ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فى الْعُقَدِ﴾ وهن الساحرات اللائى ينفخن فى عقد خيط يحاولن فى وهمهن إيذاء شخْص، ويصفهن الله بأنهن شريرات فى أنفسهن ولا يعنى ذلك أن نفخهن وما يوهمن به الناس أنه سحر له تأثير سحرى ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أى ومن الحاسد الشرير لأن شَرّه له تأثير على المحسود. والله يُعلم رسوله فى هذه السورة أن يستعيذ به إزاء شر كل من ينبغى أن يُتّقَى شره من الكائنات الشريرة ومن الأفاعى أو من الليل الذى يكثر فيه حدوث الشر، ومن شر النساء الساحرات، ومن شر الحسّاد أى كل شر يمكن أن يتعرض له، فهو حاميه وحارسه من كل شر يؤذيه. وكانوا يقولون إنه كاهن يملى عليه شيطان قرآنه، فرد الله عليهم فى سورة الحاقة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ. وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. ثم أنزل عليه سورة المعوذة الثانية: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ﴾ والله يُعلِم رسوله أن يستعيد ويلوذ برب الناس متعهدهم بالتربيه وبتدبير شئونهم وتولى أمورهم شقاء وسعادة ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أى من شر صوت الشيطان الخفى المزعوم أنه يوسوس للكهّان ﴿الْخَنَّاسِ﴾ المختفى ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فى صُدُورِ النَّاسِ﴾ بالكفر والأعمال السيئة ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أى من الشياطين والكهّان. وفى هذا الأمر الربانى التعليمى إشارة واضحة إلى أن الله- تعالى - معيد الرسول من الكهّان وشياطينهم وعاصمُهُ منهم وأن الرسول متمِّمٌ رسالته الهادية للناس إلى عبادة الله المنقذة لهم من خرافات الوثنية واعتقاداتها الآثمة.

قول المشركين إن القرآن سحر

الوليد بن المغيرة ورفاقه

وبينما كان الرسول يطوف بالكعبة يوما اعترضه الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والأسود بن المطلب والعاص بن وائل من كبار أعدائه، فقالوا له: تعال نعدل بين ديننا ودينك: نعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان ما نعبد من آلهتنا خيرا مما تعبد كنا قد أخذنا بحظنا من عبادتنا وإن كانت عبادة إلهك خيرا من عبادة آلهتنا كنت قد أخذت بحظك من عبادة إلهك، فقال: معاذ الله أن أشرك بربى غيره فى عبادته، ولم يلبث أن نزل عليه الوحى بالسورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ. وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾. وذهب رسول الله ﷺ فى اليوم التالى إلى المسجد الحرام وفيه كبار قريش وشيوخها فقرأ عليهم السورة، فعرفوا أنه لن يعترف أبدا بآلهة أصنامهم فى الحال والاستقبال ويئسوا من أن يخلط دينه بشيء من عبادتهم الوثنية الكافرة. وحينئذ عمدوا إلى إيذائه وإيذاء أصحابه.

٤

إيذاء الرسول وأصحابه

أخذت قريش – منذ جهر محمد بدعوته – تحادّه وتغاضبه، وما كان يقع فى خلدها أن محمدا الدمث الوديع الأمين يتحول لها إلى بشير ونذير، يرشدها إلى الهدى بما يأتيه من ربه، ولو نجحت دعوته فى رأيهم للذهبت هباء مكانة مكة فى العرب، وبالتالى مكانتهم، ولباءت تجارتهم بالخسران كما أسلفنا، ولثار بهم رقيقهم وطالبوهم بما طالبهم به الإسلام من المساواة بين السادة والعبيد. ولم يلبث سادة قريش وكبراؤها أن نابذوه وجاهروه بالعداوة وإظهار البغضاء، وكان من أشدهم فى ذلك أبو جهل بن هشام المخزومى، ورآه يصلّى خلف المقام، فقال له: ألم أنهك عن هذا، ولم يلبث الوحى أن نزل بقول الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ والطغيان: التعاظم والاستعلاء، فهو إنما

عداوة أبى جهل

يستعلى ويتعاظم لثرائه ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ أى أنه سيلقى عند الله جزاءه. وقال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلّى عند الكعبة لأطَأَنَّ على عنقه فقال الله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى. عَبْدًا إِذَا صَلَّى. أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ أى أينهاه عن الصلاة وهو على الهدى الربانى وأمر بالتقوى، ثم قال الله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى. أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾؛ والله يقول: إن أبا جهل سيظل يكذّب الرسول وسينتصف الله منه. ورأى أبو جهل الرسول مرة ثانية يصلّى عند الكعبة، فقال له: يا محمد ألم أنهك عن هذا وتوعّده، فأغلظ له الرسول القول، فقال أبو جهل: يا محمد بأى شئ تهدّدنى؟ أما والله إنى أكثر هذا الوادى ناديا، فأنزل الله على رسوله بقية سورة العلق: ﴿كَلاَّ﴾: زدعا وزجرا لأبى جهل ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ والسفع: القبض أى لنقبضنّ على ناصيته وندفع به إلى النار، ووصف الناصية بأنها كاذبة خاطئة، وهو وصفُ لصاحبها وأنه كاذب خاطئ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أى أهله وعشيرته ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أى ملائكة العذاب ليأخذوه إلى جهنم ﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ﴾ واثبت على ما أنت عليه من عبادة ربك ﴿واسْجُدْ﴾ أى واظب على سجودك وصلاتك ﴿واقْتَرِب﴾. وفى الحديث النبوى: "أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد".

وعن عم الرسول العباس بن عبد المطلب قال: كنت يوما فى المسجد الحرام فأقبل أبو جهل، فقال: إن لله علىّ إن رأيت محمدا يصلّى أن أطأ على عنقه، فخرجت إلى رسول الله حتى دخلت عليه، فأخبرته بقول أبى جهل، فخرج من داره غضبان حتى دخل المسجد، فعجل فلم يدخل من الباب، بل اقتحم الحائط، فقلت هذا يوم شر، فدخل رسول الله فقرأ على القوم المجتمعين ومعهم أبو جهل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ شأن أبى جهل قارئا: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ حتى بلغ آخر السورة وسجد، وأبو جهل لا ينبس بكلمة بل خرس خرسا تاما، وهو يسمع ذم القرآن له وتهديده. وعن عثمان بن عفان: كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر، وفى حجر الكعبة ثلاثة

عداوة عقبة بن أبى معيط وأمية ابن خلف

نفر جلوس: أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبى مُعَيط وأمية بن خلف، ومضى رسول الله فى طوافه، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فدنوت منه، حتى كان بينى وبين أبى بكر، وطفنا معا وحين حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك أبدا وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، وصنعوا فى الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان فى الشوط الرابع وثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، فدفعت فى صدره فوقع على الأرض، ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله عقبة بن أبى معيط، وقال: أما والله لا تنتهون، حتى يحل بكم عقاب الله. قال عثمان: فوالله ما منهم رجل إلا أخذته رعدة. وقُتل ثلاثتهم فى غزوة بدر: ذبحهم الله بأيدينا.

إسلام حمزة

وبسبب إحدى إساءات أبى جهل للرسول أسلم عمه حمزة بن عبد المطلب، فقد مرَّ أبو جهل بالرسول ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ولم يجبه الرسول بكلمة، وجارية تسمع صنيعه. ومضى أبو جهل إلى مجتمع قومه حول الكعبة ومضى الرسول إلى داره، وأقبل فى التوِّ حمزة بن عبد المطلب متوشحا سيفَه راجعا من صيدٍ له، وكان إذا رجع من صيده طاف قبل ذهابه إلى داره بالكعبة ومر بنادى قريش ومجتمعهم فتحدث معهم، وكان أعزَّ فتيان قريش وأشدهم شكيمة (أَنَفَة)، ورأَتْه الجارية فقالت له: أرأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبى جهل؟ لقد كان ههنا عند الصفا وحده جالسا، فآذاه أبو جهل وسبَّه وبلغ منه ما يكره، وانصرف إلى نادى القوم بالكعبة، فغضب حمزة غضبا شديدا، لما أراد الله به من كرامته، ودخل المسجد باحثا عن أبى جهل، ورآه جالسا فى نادى القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع قوسه، فضربه بها فشجَّه (شقَّ جلد رأسه) شجَّةً شديدة، ثم قال له: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فَرُدَّ عليّ ذلك إن استطعت، فقام رجال من عشيرة بنى مخزوم لينصروه ضد حمزة، فقال لهم: دعوا حمزة فإنى والله قد سَبَبْتُ ابن أخيه سبًّا قبيحا. وبايع حمزة ابن أخيه رسول الله على دينه ونصرته، ولما عُرف إسلامه قالت قريش إن محمدا قد عز وامتنع، فكفوا عن بعض ما كانوا يؤذون به الرسول.

وكان عقبة بن أبى مُعَيْط أشد القرشيين إيذاء للرسول ﷺ ، ومن إيذائه ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: بينما رسول الله ﷺ في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى مُعَيْط، فوضع ثوبا - وقيل حبلا - فى عنق رسول الله، فخنقه به خَنْقا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن رسول الله، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾. ولما أمر رسول الله ﷺ بقتله من بين أسرى قريش فى غزوة بدر قال له: أتقتلنى من بين سائر قريش؟ قال الرسول: نعم، ثم أقبل على أصحابه، فقال: أتدرون ما صنع هذا بى؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى، وجعل يغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينىّ تسقطان. ثم مرّة أخرى جاء بسَلاشاة (ما يكون مع جنينها من القذر) فألقاه على رأسى وأنا ساجد خلف المقام، وغسلَتْهُ عن رأسى فاطمة.

إيذاء عقبة

وإذا كان مثل هذه الصور من إيذاء عقبة بن أبى معيط للرسول ﷺ وإيذاء أبى جهل، وله سند يحوطه من عمه أبى طالب ومن قومه بنى هاشم وبنى المطلب، فما بالنا بما كان يقع من صور الإيذاء على المسلمين ممن لا سند لهم يمنعهم ويحميهم، وخاصة المستضعفين من الأحلاف والأرقّاء من العبيد والإماء، وقد بادر عمّار بن ياسر حليف بنى مخزوم فأسلم هو وأبوه وأمه سمية فكانوا يلقونهم على حجارة بطحاء مكة فى شدة الحر، إذ تستحيل إلى صفائح محمّاة، ويتمسكون بالإسلام أشد التمسك ومات ياسر فى أثناء تعذيبه ومثله زوجته سمية طعنها أبو جهل بحربة فماتت. وكان بلال بن رباح عبدا لأمية بن خلف عدو الله ورسوله، فكان يلقيه فى شدة الحر على صفائح الحجارة بمكة ويلقى على صدره الصخر الثقيل وهو يقول: أَحَدٌ، أحد، ورآه أبو بكر وهو يعذّبه فاشتراه وأعتقه. ومثله أبو فكيهة، وكان مواليه من بنى عبد الدار يعذبونه نفس العذاب فاشتراه أبو بكر وأعتقه. وكانوا يعذّبون من أسلم من إمائهن، فكان أبو بكر يشترى من تعذَّب منهن ويحرِّرها، منهن حمامة أم بلال وزِنيّرة ولُبَيْنة جاريتا بنى عدى قوم عمر، وكان يعذبهما قبل إسلامه، والنَّهدية جارية لامرأة من بنى عبد الدار،

تعذيب عمار بن ياسر

تعذيب بلال

شراء أبى بكر للمعذبين من الإماء والعبيد

ومنهن أم عبيس جارية بني تيم. وقال لأبي بكر أبوه: يا بُنّي أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أعتقت قوما جُلْداً يمنعونك، فقال له أبو بكر: إني أريد ما أريد، وفيه نزل الوحي بقوله تعالى في سورة الليل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أى النار ﴿الأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أى أبو بكر الذى ينفق ماله في وجوه البر من مثل عِتْقِه للمعذَّبين من العبيد والإماء وتحريرهم، يريد أن يتزكى به ويتطهَّر ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ﴾ بما ينفق من ماله ﴿مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى. إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ أى أنه ينفق ما ينفق ابتغاء رضا الله ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ بما يعطيه له ربه في الآخرة. ولم يَعِد الله أحدا بهذا الوعد سواه وسوى رسول الله فى سورة الضحى.

الفصل السادس

من الهجرة إلى الحبشة

إلى حصار الرسول والمسلمين فى الشِّعب

١

الهجرة إلى الحبشة

أخذ الإسلام – كما أسلفنا – ينتشر بمكة وقلقت قريش قلقا شديدا وأخذت قبائلها تعذّب من آمن به وتؤذيهم ضروبا مختلفة من الإيذاء ليردوهم عن دينهم، فأشار الرسول ﷺ على أصحابه أن يتفرقوا فى الأرض قائلا لهم: إن الله تعالى سيجمعكم بعد حين، فسألوه إلى أين نذهب؟ فقال: إلى أرض الحبشة (المسيحية) فإنّ بها مِلكا لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه. فهاجر المسلمون إلى أرض الحبشة هجرتين كانت أولاهما فى شهر رجب سنة خمس من المبعث، وكان عدد المهاجرين فيها أحد عشر رجلا وقيل بل اثنى عشر، ومع أربعة رجال منهم – وقيل بل خمسة – زوجاتهم، وكان منهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة هاربا عن أبيه بدينه، ومعه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو مُسلمةً مراغمة لأبيها فارّة عنه بدينها، وأبو سلمة بن عبد الأسد ومعه زوجته أم سلمة بنت أبى أمية، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود. وخرجت هذه الجماعة من المسلمين متسلّلة سرا حتى انتهت إلى الشُّعَيْبة

(ميناء مكة قديما على البحر الأحمر)، منهم الراكب ومنهم الماشي، فوفق الله لهم سفينتين للتجار حملوهم فيهما بنصف دينار. وخرجت قريش في إثرهم حتى جاءت البحر حيث ركبوا فلم يجدوا أحدا منهم. ونزلوا بأرض الحبشة في خير دار بخير جوار. وبعد ثلاثة أشهر جاءتهم أخبار كاذبة بأن قريشا دخلت في الإسلام، فظنوا أنهم أصبحوا آمنين فعادوا إلى مكة، ونالهم منها عنتٌ شديد وإيذاء أشد، فرجع نفر منهم في ثلاثة وثمانين من الصحابة إلى الحبشة فرارًا بدينهم من إيذاء قريش.

وكان من المهاجرين إلى الحبشة الكثيرين في هذه الهجرة الثانية جعفر بن أبي طالب ومعه زوجته أسماء بنت عُمَيس، وولدت له هناك ابنه عبد الله وأخوين له، وعبد الله بن مسعود، وعتبة بن غزوان حليف بني نوفل وعبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله، وأخوه عبيد الله ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان وتنصّر وفارقته هناك، وتزوجها رسول الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وفراس بن النضر بن الحارث فرّ بدينه من أبيه، والمقداد بن الأسود، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، وهشام بن العاص أخو عمرو، والسكران بن عمرو وامرأته سودة بنت زمعه، التي توفي عنها فيما بعد وتزوجها الرسول، وعمار بن ياسر.

سفيران لمكة إلى النجاشي

وأقام المهاجرون جميعا من هؤلاء وغيرهم عند النجاشي في أحسن جوار، وقلقت قريش لنزول هذا الجمع الكبير عنده، وخافت مغبّة ذلك، وأن يؤول إلى استثارة النجاشي وغزوه لمكة، ورأت أن تُرسل إليه سفيرين مرتين: مرة عند نزول هذا الحشد بالحبشة، ومرة ثانية بعد هزيمة قريش المُرّة في غزوة بدر الكبرى، وكان عمرو بن العاص سفيرًا في المرتين، ومعه في إحداهما عمارة بن الوليد وفي الأخرى عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميان. وبعثت قريش مع سفيريها في المرتين إلى النجاشي وبطارقته هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أهم ما يأتيه منها الأدم (الجلد) فجمعوا له ولبطارقته أدما كثيرا، وقالوا لسفيريهما أعطيا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلّما النجاشي ثم قدّما إليه هداياه، وسلاه

أن يُسلّم المهاجرين إليكما. وقدما على النجاشى فلم يبق بطريق إلا قدما إليه هديته قبل أن يكلّما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم النصرانى وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك أشراف قومنا لتردّوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلّمهم إلينا ولا يكلّمهم. ولقيا النجاشى وقالا له عن المهاجرين ما قالاه للبطارقة، وحاول البطارقة أن يقنعوا الملك بتسليمهم فأبى إلا أن يسمع من المهاجرين رأيهم فيما يقول السفيران القرشيان. ولم يلبث أن استدعاهم واستدعى أساقفته ونشروا أناجيلهم حوله، وسأل المهاجرين: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين إحدى الملل؟ وتولى الإجابة عن المهاجرين جعفر بن أبى طالب، إذ قال:

جعفر بن أبى طالب يجيب النجاشى

"أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل المَيْتَةَ ونقطع الأرحام ونُسيئُ الجوار، ويأكل القوىُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه: من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمَرَنا بالصلاة. وعدّد جعفر عليه تعاليم الإسلام، ثم قال: فصدَّقْناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا، وحرَّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعَدا علينا قومنا، فعذّبونا وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا من عبادة الله إلى عبادة الأوثان وأن نستحلَّ ما كنا نستحلّ من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك".

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به رسولكم عن الله من شئ؟، فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقْرَأْهُ عليَّ، فقرأ عليه صدرا من سورة مريم فيه قصتها وقصة ابنها الربانية فى حملها به وميلادها له وكلامه فى المهد، فبكى النجاشي وبكت الأساقفة، وقال النجاشي إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة (نافذة مضيئة) واحدة، واتجه إلى سفيرى قريش فقال لهما: والله لا أسلمهم إليكما. وفى اليوم التالى عاد عمرو بن العاص فغدا على النجاشي، وقال له: إنهم يقولون في عيسى إنه عبد فَأرسِل إليهم واسألهم عما يقولون فيه. فأرسل إليهم وحضروا وسألهم ماذا تقولون في عيسى، أجابه جعفر بن أبى طالب: نقول فيه ما قال الله وما جاءنا به نبيُّنا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، وأخذ منها عودا وخطّ به على الأرض، وقال: إن هذا لا يعدو ما جاء به عيسى، وعاش المهاجرون فى أرضه معيشة طيبة كلها أمن وسلام.

عودة بعض المهاجرين إلى الرسول

ولما سمع هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة بهجرة الرسول إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا وثمان نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبست قريش سبعة لم تأذن لهم فى الهجرة إلى المدينة، وحضر غزوة بدر الكبرى منهم أربعة وعشرون رجلا. وفى السنة السادسة للهجرة كتب رسول الله ﷺ رسالة إلى النجاشى يدعوه فيها إلى الإسلام. وكان عبيد الله بن جحش قد تنصّر ففارقته هناك زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان، فطلب الرسول من النجاشى أن يزوجها له، وتولى تزويجها منه خالد بن سعيد بن العاص، وطلب الرسول منه أيضا أن يُرسل إليه من بقى عنده من المهاجرين ويحملهم إليه فى بعض السفن ففعل. وقَدِموا إلى المدينة مع جعفر بن أبى طالب، فوجدوا الرسول فى فتح خيبر، فشخصوا إليه، فوجدوه قد أتمّ فتحها، واستقبلهم الرسول وفاتحو خيبر استقبالا طيبا مرحِّبين، وكلّم الرسول المسلمين الفاتحين أن يدخلوهم فى سهام الغنيمة من خيبر فأدخلوهم.

٢

عقيدة الإسلام - إسلام عمر

أ - عقيدة الإسلام

الإسلام خاتمة الديانات السماوية، وأصل معناه اللغوى الخضوع والانقياد والله - جل شأنه - هو الذى سمّاه بهذا الاسم فى مثل قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ ومنه سُمِّى أتباع الرسول باسم "المسلمين والمسلمات" أى المنقادين لله الخاضعين له المستسلمين لأوامره ونواهيه وتعاليمه فى شريعة الإسلام. واشتق الله - عز شأنه - منه كلمة: "السلام عليكم" تحية يومية يتبادلها المسلمون فيما بينهم، وسمّى الله نفسه ﴿السَّلام﴾ إشارةً إلى أنه يدعو إلى أن يعمّ السلام بين الناس جميعا.

وأول أسس عقيدة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فكل ما كان يؤمن به العرب من تعدد الآلهة باطل. وفكرة التثليث وما ترتب عليها من شيع وأن المسيح ابن الله خطأ محض، يقول الله فى سورة النساء: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

والقرآن مع ذلك يعطف على الرسول عيسى ويذكر معجزاته وأنه لم يقل لأتباعه: "اعبدونى"، إذ عُبِد بعد وفاته كما فى آخر سورة المائدة. والله ليس منزّهًا فقط عن شبهه بالإنسان فى أن يكون له ولد بل هو منزَّهٌ تنزيها مطلقا عن هذا الشبه، كما قال فى سورة الأنعام: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. وهو موجود مع الإنسان فى كل مكان،

حتى إنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أى إنه يعلم حتى النظرة الخائنة وما يخفى فى الصدور والسرائر من النوايا الخيرة والشريرة. والله بذلك موجود مع المسلم فى كل ما يأتى ويذر من الأعمال. وهذه الفكرة جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية.

والأساس الثانى من عقيدة الإسلام شهادة أن محمداً رسول الله، وكرّر الله فى القرآن أن محمدا رسوله، ويقول له: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أى القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الشريعة الإسلامية، إذ القرآن يذكر أصول الدين وأحكامه فى كثير من الآيات مجملة دون تفصيل، والحديث النبوى هو الذى يفصلها، فيقول القرآن مثلاً: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ والحديث يفصّل أوقاتها وكيفيتها بدقة. وكان الرسول ﷺ يأمر بنشر الحديث وإذاعته فى الناس حتى يقفوا وقوفا بيّنًا على أوامر الإسلام ونواهيه. وكان المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ يتداولون الحديث ويبلغونه مع كتاب الله جميع الأمصار والأقطار.

والأساس الثالث الإيمان بأنه وراء هذا العالم المحسوس الذى نشاهده عالم غيبى به نوعان من الأرواح خيّر نورانى سماوى، وشرير، والخيّر الملائكة الذين ينزلون بالوحى على الرسل مثل جبريل ونزوله بالقرآن الكريم على الرسول ﷺ، ومنهم من يتوفون الناس، ومن يكتبون أعمالهم كما قال الله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

والأساس الرابع الإيمان برسل الله السابقين وكتبه السماوية، ويأمر الله بذلك المسلمين قائلا فى سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ويقول الله فى سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وبلغ مَنْ قصّهم عليه فى القرآن خمسة وعشرين، وأهمهم موسى صاحب التوراة وعيسى

صاحب الإنجيل. والقرآن – كما قال الله فى سورة الأعراف –: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ... وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أى يمحو عنهم ما جاء فى شريعتيهما من التكاليف الشاقة ﴿وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى الأعمال المؤلمة. والقرآن بذلك يسيطر على ما سبق من الشرائع كما قال جلّ شأنه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ إذ يفرض سلطانه على جميع ما سبقه من شرائع سماوية.

والأساس الخامس الإيمان بالمعاد وأن الناس جميعا سيبعثون بعد موتهم بأجسامهم ليحاسبهم الله على أعمالهم فى دنياهم فإما إلى الجنة وإما إلى النار. وجادلت قريش الرسول طويلاً فى البعث بالأجساد وردَّ الله عليهم فى سورة الإسراء قائلاً: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أى خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أى يحركونها حركة استهزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

والأساس السادس أداء عبادات عملية لله جل جلاله، وأولاها فريضة الصلاة فرضت فى أوائل نزول الوحى بمكة، وثلاث فرائض أخرى فى عبادة الله فرضت بالمدينة، وهى فريضة الزكاة، وفريضة صيام شهر رمضان، وفريضة الحج.

والأساس السابع تمسك المسلم بمكارم الفضائل الفردية والاجتماعية من مثل الكرم، والشجاعة، والعدل، والعلم، والعمل الصالح، والتسامح والصفح، والوفاء بالعهد، وبر الوالدين والزوجة والأبناء والأقارب، والشعور بالكرامة والعزة، وقول الحق حتى على نفسه، والصدق فى جميع الالتزامات والمعاملات، والتواضع المحمود، والصبر فى المحن والخطوب، والحلم وضبط النفس، والمروءة وعون المحتاج وإكرام الجار، ولا يقول عن أخيه المسلم إلا الكلمة الطيبة، والرأفة والرحمة بالإنسان والحيوان مع اجتناب المحرمات وكبائر الإثم وصغائره.

تلك أصول عقيدة الإسلام التى تقوم على شريعة توحيد الله ونقض كل ما آمن به العرب فى الجاهلية من آلهة متعددة وأصنام. وأحكم الإسلام الروابط بين أفراد الأسرة وأوصى بالرفق فى معاملة المرأة وأن تقوم العلاقة بين الزوجين على أساس المودة والرحمة. وبينما لم تمس اليهودية والمسيحية نظام الرق أوصى الإسلام بتحرير الرقيق أو العبيد وجعله كفارة للذنوب الكبرى والصغرى مثل الحِنْث فى اليمين.

ب - إسلام عمر

كان عمر بن الخطاب طويل القامة حتى كان يبدو وهو جالس مثل رجل واقف، وكان فتى شديد المراس مفتول العضل حاد الطبع سريع الغضب عطوفا لأهله، وكان شديد الأذى للمسلمين رجالا وإماء. فلما رآهم يهاجرون إلى الحبشة تاركين ديارهم وموطنهم أصابه اكتئاب شديد وغير قليل من الحزن تُصوّره أم عبد الله بنت أبى خيثمة، قالت:

> "كنا نُعد للرحيل إلى أرض الحبشة، وقد خرج عامر (زوجها) فى بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علىّ - وهو على شِرْكه - قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذًى لنا وشدةً علينا. فقال: إنه للانطلاق (أى للهجرة) يا أمّ عبد الله؟ قلت: نعم والله لنخرجن فى أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا. فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقّةً لم أكن أراها ثم انصرف، وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا؟ فقال: أطمعتِ فى إسلامه!؟ فقلت: نعم. فقال: لن يسلم أبدا. يأسًا منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام والمسلمين".

وأثارت هذه الهجرة عمر وملأته سخطا على الرسول الذى فرّق قريشا وحارب دينها وسبَّ آلهتها، وحاول أن يتصدى له يوما فى طريقه إلى المسجد الحرام فوجده قد سبقه إلى المسجد، فقام خلفه مستترا منه، فاستفتح يتلو سورة الحاقة وعمر يسمع، فجعل يعجب من تأليف القرآن، وقال فى نفسه: هذا والله كما قالت قريش إنه شاعر، وإذا محمد يتلو فى السورة:﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ فقال عمر فى نفسه: إنه قول كاهن، فقرأ الرسول: ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى آخر السورة، قال عمر: فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع.

وفى إعلان عمر لإسلامه ثلاث روايات فى كتب السيرة: إحداها رواها ابن هشام عن ابن إسحاق فى سيرته، وهى التى اشتهرت. والروايتان الثانية والثالثة عن عمر نفسه، وأولاهما عند ابن هشام عن ابن إسحاق، وليست دقيقة والثانية عن أسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ، رواها ابن سيد الناس فى السيرة النبوية التى سماها: «عيون الأثر فى فنون الشمائل والمغازى والسير» وهى ذات سند وثيق ذكره بدقة ابن سيد الناس، ممن سمع الخبر عن أبى الفداء إسماعيل بن عبد الرحمن إلى أن انتهت بالسند إلى عمر عن طريق أسامة بن زيد؛ وهى لذلك تُعدُّ أوثق الروايات فى إسلام عمر، ومقدمة هذه الرواية تتفق مع مقدمة ابن إسحاق، غير أن مقدمة ابن إسحاق أكثر تفصيلا. وهى تذكر أن عمر خرج من داره متوشحا سيفا يريد أن يقتل الرسول حتى تستريح قريش ويعود إليها ائتلاف جماعتها. وتتفق هذه الرواية لابن إسحاق مع رواية أسامة بن زيد المذكورة فى أن عمر لَقِىَ فى طريقه نعيم بن عبد الله – وكان مسلما ويخفى إسلامه خوفا من أذى قريش – وسأل عمر عن قصده وعرف منه ما عزم عليه، فقال له ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، فقال له: وما ذاك؟ فقال نعيم: إن أختك فاطمة وزوجها ابن عمك سعيد بن زيد قد أسلما، فعليك بهما. فغضب عمر، وذهب إلى دار أخته وصهره ومعهما خباب بن الأرتّ يقرئهما فى رواية ابن إسحاق سورة طه، وفى رواية أسامة بن زيد أنه كان معهما رجلان، يقرآن معهما

خباب بن الأرتّ يقرئ سعيد بن زيد وزوجته

الصحيفة. ولما دنا عمر من الباب سمعوا حِسَّه، فتغيَّب خباب أو تغيَّب الرجلان في غرفة، وعرف من أخته وزوجها أنهما أسلما فبطش بهما، وسال الدم من أخته فرقَّ لها وقال أعطنى الصحيفة التى كنتم تقرءونها، وكان كتابا فأعطتها له كما فى رواية ابن إسحاق، وكان فيها صدر سورة طه، وقالا له أو قالت أخته: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمنا. يقول عمر فى رواية أسامة:

قراءة عمر لأول سورة الحديد وشعوره بأنه فى الحضرة الإلهية

"فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير، ونظرت فإذا بكتاب فى ناحية من البيت، فقلت لأختى: ما هذا الكتاب؟ فأعطيه، فقالت له: لا أعطيكه لست من أهله، أنت لا تغتسل ولا تتطهَّر، وهذا لا يمسه إلا المطهَّرون. ويقول عمر: ولم أزل بها حتى أعطتنيه، فإذا فيه «سورة الحديد» فقرأت: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ﴾، فلما مررت بالرحمن الرحيم ذُعرت ورميت الصحيفة من يدى، ثم رجعت إلى نفسى فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. يقول عمر: وكنت كلما مرَرْتُ باسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ ذُعرت ثم ترجع إلىَّ نفسى إلى أن بلغت: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَانفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ. وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فخرج من كانوا مختفين، وكبَّر الجميع استبشارا بما سمعوا منى وحمدوا الله، ثم قالوا يا ابن الخطاب أَبْشِر فإن رسول الله ﷺ دعا فقال: اللهم أعزَّ الإسلامَ بأحد الرجلين: إما أبو جهل بن هشام، وإما عمر بن الخطاب، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأَبْشِر. ولما أن عرفوا منى الصدق قلت لهم: أخبرونى بمكان

رسول الله ﷺ قالوا هو فى بيت فى أسفل الصفا وصفوه. يقول عمر: فذهبت إلى البيت، وقرعت الباب، فقيل مَنْ هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وكانوا يعرفون شدَّتى على رسول الله ﷺ ولم يعلموا إسلامى، فلم يجترئْ أحد أن يفتح الباب، فقال رسول الله ﷺ : افتحوا له، فإن يرد الله به خيرا يَهْدِه، ففتحوا لى، وأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت من النبىّ ﷺ ، فقال: أرسلوه، فأرسلونى (فأطلقونى) فجلست بين يديه، فأخذ بمجمع ردائى، فجذبنى إليه وقال: أسلمْ يا ابن الخطاب. اللهمّ اهده. فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فكبَّر المسلمون تكبيرة سُمعت بطرق مكة. وكان الرجل إذا أسلم استخفى أو ضُرب، فقلت فى نفسى: لا أحب أن لا يصيبنى ما يصيب المسلمين. وذهبت إلى خالى أبى جهل وقرعت الباب عليه فقال: من هذا؟ قلت ابن الخطاب، فخرج إلىّ، فقلت له: أشعرت أنى قد صبأت (أى أسلمت) قال: نعم. ثم قال: لا تفعل. فقلت: بلى قد فعلت. فأغلق الباب دونى، وفى رواية أنه ضرب الباب فى وجهه، وقال له: قبّحك الله وقبّح ما جئت به. وانصرف عمر فقال له رجل: أتحب أن يعلم الناس إسلامك؟ قلت: نعم. فقال له: إذا جلس الناس فى حِجْر الكعبة واجتمعوا أتيت فلانا (قيل جميل بن معمر) وكان معروفا بأنه لا يكتم السر، فاقتربْ منه، وقل له سرًّا إنك قد صبأت . قال: فلما اجتمع الناس فى الحجر دنوت من الرجل وأسررت إليه أنّى قد صبأت، فرفع الرجل صوته عاليا إن عمر قد صبأ، فاجتمع عليه القرشيون يضربونه وهو يضربهم."

وقال عبد الله بن مسعود: كنا نصلى فى شعاب مكة مستخفين، فلما أسلم عمر قاتل قريشا حتى صلّى عند الكعبة وصلّينا معه. وقد عزَّ المسلمون بإسلامه وإسلام حمزة عم الرسول، وعرفوا أنهما سيمنعان الرسول وينتصفون بهما من قريش.

٣

قصة الغرانيق

ذكر بعض أعداء الإسلام هذه القصة مع رجوع المهاجرين الأولين إلى مكة بعد ثلاثة أشهر من هجرتهم لما سمعوا من إسلام عمر وصلاته مع المسلمين فى الكعبة، فظنوا أن قريشا راجعت نفسها ولم تعد إلى الخصام مع المسلمين. ودسّ بعض الزنادقة من أعداء الإسلام - كما قال ابن إسحاق فى السيرة النبوية - قصة الغرانيق. وخلاصتها أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم وقد اجتمع إليه فى الكعبة كثير من مشركى قريش وكفارهم، فلما بلغ قوله تعالى فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ تلاهما بقوله المكذوب عليه "تلك الغرانيق العُلا. وإن شفاعتهن لترتجى". واستعيرت الغرانيق لهذه الآلهة وهى من طير الماء. ومعاذ الله أن ينطق الرسول بهاتين الكلمتين فى وصف آلهات الوثنيين من قريش مثنيا عليهنّ هذا الثناء، وقائلا إنهن يشفعن للمذنبين عند الله، وهو إنما أُرْسل لهدم هذه الوثنية ونشر توحيد الله فى الأرض. فهل يُعقل أن يهدم بنفسه توحيد الله أساس دينه ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾. وتمادى واضعو هذه القصة فى كذبهم فقالوا إن الرسول حين أنهى السورة سجد وسجد معه القرشيون قائلين إنه ذكر آلهتنا بخير، إذ جعل لها نصيبا وهو الشفاعة، ونحن معه. وبذلك زال الخلاف بينه وبينهم. ويقولون إن ذلك شاع فى الناس حتى بلغ المهاجرين الأولين فى الحبشة فعادوا. وهى قصة مكذوبة وضعها بعض الزنادقة على الرسول كما يقول ابن إسحاق، إذ كيف يشيد بآلهة الوثنيين ودينهم الذى بُعث لنقضه وبطلانه، فضلا عن أنه نبى معصوم كما جاء فى سورة المائدة (الآية ٦٧). وكلمة الغرانيق جمع غرنوق، لم ترد على ألسنة العرب فى شعرهم الجاهلى، ومستحيل أن ينطق الرسول بالكلمات السابقة فينقض أساس دينه، وهو التوحيد لله جلّ شأنه الذى أُرسل لنشره. وزعم واضعو القصة من أعداء الرسول والإسلام أن جبريل عاتبه وأن الله يقول فى ذلك:

نقض القصة

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ والآيتان من سورة الإسراء، وهى عند الجمهور مدنية فلا علاقة لهما بمكة التى نزلت فيها سورة النجم؛ فكيف تُتّخذ الآيتان دليلا على أن الرسول أضاف إلى سورة النجم ما زعموه من البهتان والضلال!؟. ونفس السياق الذى ذُكرت فيه آلهة قريش بالسورة يكذّب هذا الافتراء، فقد كانت الآيات قبلها فى سورة النجم تتحدث عن الوحى بالقرآن الذى يدعو إلى توحيد الله، ثم ذكرتْ آلهتهم، وقال الله تعالى عقبها: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أى الإيمان بوحدانية الله. وهذا السياق للآيات فى سورة النجم يؤكد أن قصة الغرانيق قصة كاذبة.

ربط بعض المفسرين بين القصة وآية فى سورة الحج

وحاول بعض المفسرين – غفلة – أن يربط بين قصة الغرانيق الكاذبة وبين قوله تعالى لرسوله فى سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. ويرى ابن عباس أن سورة الحج مدنية، وإذن فلا صلة بينها وبين سورة النجم المكية. وقد زعم من ارتضوا القصة أن معنى ﴿تَمَنَّى﴾ فيها قرأ ومعنى ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فى قراءته، وبذلك يوجّه معنى عبارة: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى: إلا إذا تلا ما أُوحى إليه ألقى الشيطان ما ليس فيه، والآية لا تدلّ على هذا التأويل البعيد. ومعناها الواضح أن الله جلّ شأنه – لم يرسل نبيًّا ولا رسولا ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى﴾ الخروج بقومه من ظلمات الجهالة والكفر إلى أضواء الهداية والإيمان بتوحيد الله ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ ما يوسوس به لقومه من رفض رسالته والكفر بها والضلال ﴿فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أى يزيله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ التى أنزلها ويؤمن بها من

يهديهم إلى صراطه المستقيم. ويقول الله فى الآية الثانية ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ من الوساوس ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى شك ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ من الكفار ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ من المشركين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى لفى عداء شديد للرسل. والآيتان ليس بينهما وبين فرية: "تلك الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترتجى" أى صلة. ومع تلفيق أعداء الرسول للفرية، حاولوا تبريرها بأن الرسول كان يُشفق على أصحابه ويأسى لهم مما يلقون من تعذيب قريش لهم مما جعله يرشدهم إلى النجاة منهم بالهجرة إلى الحبشة. ولانَ لقريش وتقرَّب إليها بما أضافه من قصة الغرانيق إلى سورة النجم أملا فى أن تكفَّ قريش عن إيذاء أصحابه. وكيف يفترى محمد على ربه هذه الكلمات الكافرة وقد أنزل عليه فى نفس الفترة سورة الحاقة، وفيها عن رسوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ أى لعذبناه وقطعنا منه الشريان التاجى فمات توًّا.

واتخذ بعض المستشرقين من قصة الغرانيق الكاذبة برهانا قويا على صحتها زاعمين أن المهاجرين الأولين إلى الحبشة رجعوا من هجرتهم بعد ثلاثة أشهر، وما كانوا ليرجعوا لولا أنهم علموا بقصة الغرانيق وتأكدوا من صحتها، وهو ظن محمول على قصة كاذبة، والحقيقة أنهم رجعوا – كما قلنا – لما علموا من إسلام عمر وأنه قاتل قريشا حتى أرغمها على قبول صَلاته وصلاة المسلمين معه فى المسجد الحرام، بعد أن كانوا يستخفون فى صلاتهم ببعض شعاب مكة. ومما يقطع بكذب هذه القصة وافترائها على الرسول قول الله له فى سورة المائدة: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فكيف يكون رسولا معصوما – كما أسلفنا – والشيطان يسيطر عليه ويرغمه على أن يدخل فى تلاوته لكلام الله كلام الشيطان؟ ورسالته إنما هى حرب عليه وعلى دين قريش والعرب الوثنى وآلهتهم وأصنامهم؟ وهى بلا شك قصة كاذبة ولا صلة بينها وبين الآيات التى ظن بعض المفسرين أنها تسندها؛ قصة وضعها أعداء الإسلام الذين يحاولون الكيد له فى كل عصر.

المستشرقون والقصة

٤

حصار الرسول والمسلمين فى الشِّعْب

أخذت قريش تقلق قلقا شديدا بعد إسلام عمر بن الخطاب وحمزة عم الرسول، وازداد قلقها حين أرسلت عمرو بن العاص وصاحبه إلى النجاشى فى سفارته الثانية حين كثر المهاجرون إلى الحبشة، إذ هاجر إليها - كما مرَّ بنا - ثلاثة وثمانون من المسلمين وكان معهم ثمان عشرة من النساء. وبينما سادة قريش مجتمعون يوما فى ناديهم، إذ أحدهم وهو عتبة بن ربيعة - يعرض عليهم أن يذهب إلى محمد ويفاوضه فى أن يكف عن دعوته وسبِّ آلهتهم ويعرض عليه أمورا ينظر فيها لعله يستجيب إليهم. وذهب إليه، وكان مما قاله للرسول: يا ابن أخى إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به تشريفا سوَّدْناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به مُلكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك تابعا من الجن تراه ولا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ منه. وقال له الرسول بأدبه العظيم: هل فرغت يا أبا الوليد؟ فقال: نعم. قال: فاسمع منى. وتلا عليه الرسول صدر سورة فُصِّلت، وقيل بل السورة جميعها، وانبهر عتبة بما سمع من القرآن المعجز بيانه، ورجع إلى قومه يقول: والله ما هو بساحر ولا شاعر ولا كاهن. ولم يَرُقْهم قوله ولا رأيه: أن نترك للعرب محمدا فإن تغلَّب عليه العرب استراحت قريش منه، وإن تغلَّب على العرب فلقريش فخاره. ولم يعجب قريشا رأى عتبة، وعادت إلى عداء أصحابه وإيذائهم. واشتد قلقها إذ قد يدفع المسلمون الكثيرون المهاجرون إلى الحبشة النجاشى إلى غزو مكة على نحو ما حاول أبرهة والى الحبشة على اليمن - من قبل - غزوها.

سفارة عتبة ابن ربيعة إلى الرسول

وظلت قريش تفكر فى أمر محمد وأتباعه الذين يزدادون يوما بعد يوم وأبو طالب وبنو هاشم يحمون محمدا، وهو مستمر فى إفساد أبنائهم ونسائهم عليهم

كما يقولون. واستقر رأيهم على أن يبعدوا محمدا عن مكة حتى يحولوا بينه وبين إقبال الناس على دينه، وأخذوا يتشاورون فى ذلك، وانتهى رأيهم إلى مقاطعته ومقاطعة من يحمونه من بنى هاشم وبنى المطلب، فلا يتزوج أحد منهم من قريش، ولا يتزوج أحد من قريش منهم، وأن تعمل قريش على جوعهم فلا يبيع أحد منها شيئا لهم ولا يشترى منهم شيئا، وقالوا إنه لابد من حصارهم وحصار النبى معهم فى مكان منعزل عن مكة بحيث لا يلقى من يؤثر فيهم ويتبعونه، ورأوا أن يكون المكان شعب أبى طالب فى الجبال خارج مكة، واتفقوا على أن يكتبوا بذلك صحيفة يُسجّل فيها هذا العقد ويُعلّق فى جوف الكعبة توكيدا له وتوثيقا. وبمجرد أن علقت قريش الصحيفة فى جوف الكعبة انحاز بنو هاشم وبنو المطلب ومعهم الرسول إلى شعب أبى طالب، ولم يدخل معهم فى الشعب أبو لهب بن عبد المطلب، فقد بقى مع قريش بمكة مظاهرا لها ضد الرسول وعشيرته من بنى هاشم.

مقاطعة الرسول وأصحابه

وكان فى الصحيفة أن لا يقبلوا من الرسول وبنى هاشم وبنى المطلب صلحا أبدا ولا تأخذهم بهم رأفة. وضيّقت قريش عليهم الحصار وشدّدته وقطعت عنهم الأسواق، حتى يجيعوهم ويضطروهم إلى تسليم الرسول لهم. وظلت على هذا الحصار سنتين وقيل ثلاثا. وكان أبو طالب يخاف طوال هذا الحصار على رسول الله ممن أراد به شرًّا أو غيلة، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه أن ينام فى فراش الرسول، ويأمر الرسول أن ينام فى فراشهم.

وشعر بعض رجال من قريش بما أنزلت بالرسول وعشيرته من بلاء شديد، فكانوا يرسلون إلى هؤلاء المحاصرين ما يستطيعون من الطعام، وكان ممن يأتى لهم هشام بن عمرو فكان يحمِّل بعيرا طعاما كثيرا ليلا ويتجه به إلى الشِّعْب، ويخلع الحبل الذى يسحبه به ويدفعه إلى أول الشعب فيأخذ المحاصرون ما يحمل من الطعام. وعلمتْ بما يصنع قريش فأغلظت له القول، ويقال أن أبا سفيان قال لهم: دعوه؛ رجل وصل آله ورحمه، ولو فعلنا مثلما فعل لكان خيرا لنا. وممن كان يصنع صنيعه بحمل الطعام سرًّا إلى المحاصرين حكيم بن حزام، ورآه أبو جهل

قرشيون يساعدون المحاصرين

ومعه غلام يحمل طعاما للسيدة خديجة فى الشعب، فقال له: أتذهب بطعام لبنى هاشم فى الشعب، لابد أن أفضحك بمكة، وحضرهما أبو البخترى بن هشام فقال لأبى جهل: مالك وماله؟ طعام كان لعمته خديجة عنده، خَلِّ سبيله. وتشاتما.

وكان هشام بن عمرو أكثر قريش ضيقا بما يحدث للرسول وبنى هاشم وبنى المطلب من هذا الحصار الشديد، فذهب إلى زهير بن أبى أمية، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: أيرضيك أن تأكل الطعام وتلبس ما تشاء من الثياب وتتزوج النساء، وأخوالك – كما تعلم – لا يبتاعون شيئا ولا يُشترى منهم شئ ولا يتزوجون من قريش ولا يتزوج أحد منهم؟ ولو كانوا أخوال أبى جهل ثم دعوته إلى ما دعاك إليه فى أخوالك ما أجابك إليه أبدا. وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة وأن يستعينوا فى ذلك بمن يقنعونه سرًّا بنقضها، واتفق معهما على نقضها المطعم بن عدىّ وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود. وغدا زهير فطاف بالكعبة سبعا ثم نادى فى الناس: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى لا يشترون ولا يبيعون شيئا، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة، فصاح به أبو جهل، وأيَّد زهيرا أصحابه: هشام ابن عمرو والمطعم بن عدىّ وأبو البخترى وزمعة، وقام المطعم فأحضر الصحيفة وشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا فاتحتها: "باسمك اللهم". ورضيت قريش بصنيعهم، وعاد الرسول وأبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب إلى دورهم فى مكة وباعوا واشتروا فى أسواقها، وظل الفريقان من قريش ومن الرسول وصحبه على موقفهما قبل المقاطعة.

فك الحصار

الفصل السابع

مواقف قريش وأحداث مختلفة

١

مواقف قريش

مضى رسول الله ﷺ فى دعوة قريش إلى الإسلام، وظلت تُنْزل بمن يُسلمون الأذى، وظلت تلجُّ فيما هى عليه من الكفر والضلال، والرسول ﷺ لا ييأس من هداهم، مما جعله يتلو عليهم مرارًا وتكرارًا آيات القرآن الكريم التى تدفع من يستمع إليها ويتدبرها إلى اعتناق الإسلام. وكان المصمِّمون على الكفر منهم يُعرضون عن الاستماع إلى الرسول، ويقولون له: ﴿قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ﴾ أى أغطية ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ فبينه وبينهم حجاب ﴿وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى صممٌ فهم لا يسمعونه، ويقول الله بعد ذلك فى نفس سورة فُصِّلت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. والآية تسجِّل على أئمة الكفر القرشيين: أنهم كانوا لا يزالون ينهون عامَّة الكفار من حولهم أن يستمعوا إلى القرآن خشية أن ترقّ قلوبهم عند سماعه، وينصحوهم أن يقابلوه بلغوٍ وأصوات تغمر صوت الرسول ﷺ حتى يصرفوا عن الرسول من فى قلوبهم بقية من رشد، فكانوا يصفّرون ويصيحون على الرسول، ظنا منهم أنهم يستطيعون بذلك صرف من يتأثر بالقرآن ويعلن اتّباعه للرسول. وباء عملهم بخسران مبين، إذ ظل كل يوم أو من يوم إلى يوم يداخل القرآن قلوب من يستمعون إليه ويؤمنون بالله ورسوله.

وحارت قريش في أمر الرسول، وألحّت عليه وعلى أصحابه في تعذيبهم وهو ثابت على عقيدته، وبالمثل أتباعه لا يتزحزحون عنها، وعادوا فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة سفيرا بعروض كبيرة من المال ومن الإمارة على مكة والملك، وهو يرفض جميع صور الإغراء مهما عظمت، مُتمسك أقوى تمسك برسالته، حتى ليقول لعمه أبي طالب – كما مر بنا –: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت الدعوة إلى دين الله"، فقد آمن بأن ما كلّفه الله من تبليغ هذا الدين للناس لا يجوز أن يقبل فيه أي مساومة، وأنه لن يحيد عنه مهما نزل به من المحن والخطوب، ومهما أغرته قريش بعروضها وأموالها. ويقول الله مصوّرا صلابة موقفه إزاء عروضهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وهو تهكّم بهم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ ذي الجلال وإنه لأجر عظيم.

المستهزئون بالرسول

وكان من كبراء قريش الكافرين خمسة يهزأون بالرسول ويسخرون منه كلما تلا القرآن هم الوليد بن المغيرة والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والعاصي بن وائل والحارث بن غيطلة، فأنزل الله على رسوله تسلية له آية سورة الرعد: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، فإنه أملى الخمسة أي أمهلهم، إذ ماتوا جميعا قبل هجرة الرسول إلى المدينة بضروب من البلاء والعمى كما في كتب السيرة عقابا لهم. وكرّر الله هذه التسلية للرسول في سورتي الأنعام والأنبياء قائلا فيهما: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. والله جلّ شأنه يقول إن الاستهزاء بالرسل قديم، وذكر له استهزاء قوم نوح به في قوله عنه: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ وكفاه الله عنهم بما سلّط عليهم من الإغراق.

طلب معجزات حسّية من الرسول

ورأت قريش أن كل ما تتخذه ضد الرسول وأصحابه من إيذاء لا يجدي ولا يفيد في رده عن الدعوة لدين الله، فعمدت إلى تحديه بطلب معجزات منه لا يستطيعها البشر، من مثل معجزات موسى وعيسى. وعن ابن عباس أن كفار قريش من مثل أبي جهل وابن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبي

ﷺ قائلين له: اسأل ربك أن يوسّع جبال مكة، ويسيّرها بعيدا عنها حتى تتسع أرضنا فإنها ضيقة ونزرعها، أو قرّب إلينا الشام فإننا نتّجر إليها، أو أخرج قُصيًّا من قبره نكلّمه. فأنزل الله على رسوله قوله في سورة الرعد: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾، والله يرد عليهم بأنه لم ينزل على رسوله قرآنا يسيِّر الجبال أو يحيل أرضا به قطعا مزروعة أو يحيى موتى ويكلّمهم. وكل ما يكون أمره بيد الله، ولو شاء إحداث أى شئ لفعله. ويذكر الله عددا من المعجزات طلبها كفار قريش من الرسول تعجيزا له في سورة الإسراء، يقول: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾؛ وهم بقولهم ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ يريدون التهكم على الرسول.

وأول معجزة طلبوها حتى يصدّقوه فى زعمهم شَقُّ أرض مكة بحيث يتفجر منها نبعٌ كبير يسقى أهل مكة جميعا، وطلبوا منه معجزة ثانية لا تخصهم بل تخص الرسول، إذ طلبوا إليه أن تكون له جنة مكتظة بالنخيل والعنب، ويفجر فيها الأنهار، ونحن لا نبتغى ذلك لأنفسنا وإنما نبتغيه لك. وانتقلوا من طلب معجزتين فيهما نفع لهم وللرسول إلى معجزة تضرُّهم ضررا شديدا، وهى أن يسأل الله أن يسقط عليهم كِسَفًا أى قطعا من العذاب، كما قال – جلّ شأنه – ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾. ومعجزة رابعة طلبوها من الرسول أن يأتى لهم بالله وجماعة من الملائكة. ومضوا فى تحدّيهم وطلبوا إليه أن يكون له بيت جميل مزخرف. وآخر ما طلبوه فى الآيات من معجزات أن يرقى فى السماء ويصعد فيها وينزل عليهم منها كتابا يقرءونه يشهد له بأنه بلغ السماء، وفى السيرة أن قائل ذلك ابن عمته عبد الله بن أبى

أمية. والمعجزات المطلوبة تحمل صورا شديدة من التهكّم بالرسول، ويعلّمه الله أن يردّ عليهم بقوله متعجبا منهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ إني لشديد التعجب مما تطلبونه مني فكيف أصنع في الأرض ما ليس فيها من ينبوع وجنة وأنهار وبيت مزخرف، وكيف أسقط عليكم كسفا من السماء، وكيف آتي بالله والملائكة، وهل أنا إلا رسول وبشر مثلكم. وإذا كانوا حقا مخلصين فأمام أبصارهم وأسماعهم معجزة القرآن التي ليس لها سابقة ولا لاحقة في تاريخ الإنسانية، وقد تحدّاهم الله مرارًا وتكرارًا أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا عجزًا تاما لبيانه وبلاغته. ويقول الله لرسوله لو أيدناك بمعجزات مادية – كما يريدون، كما حدث على يد موسى من مثل شق البحر لنجاة قومه وغير ذلك من آياته التسع المذكورة في سورتي الأعراف والإسراء وكما حدث لعيسى من إحيائه الموتى – لكذّبوك كما كذّب الرسلَ السابقين أقوامُهم؛ وفي سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وفي نفس السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾ أي مواجهة ومعاينة ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، ولذلك اختار الله لرسوله أن لا يكون الإقناع بدينه قائما على معجزات مادية إنما يكون قائما على العقل وتدبر آيات القرآن وآيات الكون الربانية (كما أوضحنا ذلك في كتابنا الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة).

معجزة القرآن

وإن ذلك لمما يزيد الرسول على الرسل السابقين عظمة فوق عظمة. ومما يعلي من شأن الرسول حقا بالقياس إلى سابقيه من الرسل أنه ظل طوال رسالته يُعلن أنه بشر وأنه لا يعتمد على معجزات مادية في إثبات رسالته، ودائما يردد أنه ليست له صفات إلهية أو قدسية، إنه بشر مثل أي بشر من معاصريه، بشر يردّد ما أوحاه الله إليه من كلامه وأوامره ونواهيه. وكان ينهى أصحابه عن أن يقوموا له إذا خرج عليهم أو يعظموه بأي صورة من صور التعظيم، وكان يقول: "لا تثنوا عليّ كما أثنت النصارى على ابن مريم وقالوا إنه ابن الله، إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد"، كما أسلفنا، فكان لا

الرسول بشر

يستشعر أى عظمة أو تجلة أو قدسية. وهذه إحدى الفروق التى تفصل بين دين الإسلام ودين اليهودية المحرفة التى تقدس الأحبار وتقول "عزيز ابن الله"، ودين النصرانية المحرفة التى تقدس الرهبان وتقول "عيسى ابن الله"؛ والإسلام بذلك ينهى عن عبادة الأشخاص وقدسيتهم.

إيذاء النضر ابن الحارث للرسول

وكان فى قريش شيطان يسمى النّضر بن الحارث كان يعادى رسول الله. وفى السيرة لابن هشام أنه كان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتُم وإسفنديار (من أبطالهم)، فكان إذا تُلى عليه القرآن قال: (أساطير الأولين). وكان إذا جلس رسول الله مجلسا فذكّر فيه بالله وحذّر قومه مما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا – والله – يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلمّوا إلىّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا منى؟!. وأرسلته قريش مع عقبة بن أبى مُعَيْط إلى أحبار يهود المدينة ليقصّا عليهم أخبار الرسول ويسألاهم عن رأيهم فيه لما لهم من العلم بالأنبياء وكتبهم، فقَدِما المدينة وسألا أحبار اليهود عن الرسول ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، فقالوا لهما سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟، وسلوه عن الروح ما هى؟ فإن أخبركم بهن فهو نبى وإن لم يفعل فهو متقوِّل. وعاد النضر وعقبة وأخبرا قريشا بما قاله أحبار اليهود، وجاءت الرسولَ جماعة منها، فسألوه عن هذه الثلاثة، فأجَّلهم إلى الغد وغاب عنه الوحى خمسة عشر يوما ثم جاءه بسورة الكهف، وفيها الجواب عن الفتية وهم أهل الكهف، وتشغل فيها قصتهم الآيات من التاسعة إلى السادسة والعشرين، وفى آخر السورة قصة الرجل الطوّاف، وهو ذو القرنين. وأما الروح فأنزل الله فيها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، غير أن هذه الآية فى سورة الإسراء النازلة على الرسول قبل سورة الكهف؛ وبذلك

إرسال النضر وعقبة لأحبار اليهود

ترجُح هذه الروايةُ روايةً أخرى عن ابن إسحاق، قال السهيلى فى الروض الأنف أنه ذكر فيها أن رسول الله ﷺ قال لقريش حين سألوه عن الروح هو جبريل وقد ذُكر فى القرآن مراراً بهذا الاسم وهو من ألقابه.

وكان بمكة غلام رومى نصرانى كان مولى لعامر بن الحضرمى اسمه جبريل كان يصنع للقرشيين السيوف، وكان يقرأ من الإنجيل بعض دعائه، وكان قد أظهر الإسلام، وكان الرسول حين قاطعته قريش يجلس إليه أحيانا ليعرِّفه ببعض تعاليم الإسلام، فعكس الموقف بعض القرشيين، فقالوا إنه يعلّم الرسول ما يقوله من القرآن، وأنكر الله عليهم هذا الاتهام الكاذب قائلا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ أى يميلون عن الحق ﴿إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا﴾ أى القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وهو تمويه كاذب لا يماثله تمويه.

ومن عناد بعض القرشيين ومكابرتهم وصفهم للرسول بأنه ليس من عظماء القريتين: مكة والطائف، وهو لذلك لا يستحق فى رأيهم أن يكون رسولا يُنزَّل عليه القرآن كما حكى الله عنهم بقوله فى سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ﴾ أى هلاّ ﴿نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أى مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾. ويُقال إن الرجلين اللذين كانا يقصدانهم الوليد بن المغيرة المخزومى عظيم مكة وعروة بن مسعود الثقفى عظيم الطائف، ورد الله عليهم موجها الخطاب إلى الرسول تأنيسًا له ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ متهكما بهم لأنهم يستخفُّون بالرسول، وكأنهم يجعلون اختيار الرسل بيدهم، وإنما هو الله الذى يختار من يشاء رحمة بعباده، إذ هو صاحب الأمر كله والتدبير، ويقول: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ودبرناها فمنهم أقوياء وضعفاء وأغنياء وفقراء ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ بحيث يصبح مسخرا له. ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ﴾ فى اختياره لك لخاتمة رسالاته ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الأموال التى يجعلونها معيار عظمة الرجال. ومجمل معنى الآيات أنهم إذا كانوا لا

تهكم القرآن بقريش

يقسمون معيشة الناس فكيف يقسمون رسالات الرسل ويختارون لها من يشاءون؟ وهو تهكم واضح في استخفافهم بالرسول. وإنما عرضنا هذه المواقف المختلفة لقريش ضد الرسول ﷺ ليتضح مدى عنادها وطغيانها وتحديها له، ومدى صبره على شياطينها - من أمثال النضر بن الحارث - وعلى دعاويها الكاذبة.

٢

وفاة أبي طالب وخديجة

توفى أبو طالب وخديجة في عام واحد، وكانت وفاتهما بعد عشر سنين مضين من المبعث قبل مهاجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين. توفى أبو طالب في أول ذى القعدة وتوفيت بعده خديجة بثلاثة أيام، وقيل غير ذلك. ولما اشتكى أبو طالب وأشرف على نهاية أجله قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذْ لنا على ابن أخيه عهدا وليعطه منا عهدا، فإنا والله ما نأمن أن يبتزُّونا أمرنا. ومشى بعض كبرائهم إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوّفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادْعه وخذ لنا منه، وخذ له منا، ليكفَّ عنا ونكفَّ عنه، وليدَعْنا وديننا ولندعه ودينه. فبعث إليه، فقال له: يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك: عتْبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب، وقد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ : يا عمّ كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم. فقال أبو جهل: نعم، وأبيك وعشر كلمات. قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقّوا بأيديهم، ثم قالوا: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما

أبو طالب وكبراء قريش

تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا، فقال أبو طالب للرسول: والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا. فلما قال ذلك طمع رسول الله ﷺ فى إسلامه ونطقه بشهادة التوحيد، فجعل يقول له: أى عمِّى فقُلْهَا أستحلّ لك بها الشفاعة يوم القيامة، فقال له: يا ابن أخى والله لولا مخافة السبّة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعا من الموت لقلتها لأسرّك بها. ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال له الرسول: يا عمّ قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ولم يزل رسول الله ﷺ يعرض شهادة توحيد الله عليه، وأبو جهل وابن أبى أمية يعرضان عليه مقالتهما حتى كان آخر ما تكلم به: إنى على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال الرسول أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك، فأنزل الله عليه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى﴾. ونزل على الرسول ﷺ فى أبى طالب: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

أبو طالب عند الوفاة

ولم تنزل بالرسول هذه الفاجعة وحدها، فبعد ثلاثة أيام من وفاة أبى طالب توفّيت زوجته خديجة التى أحبته حبا صادقا منذ زواجه بها وأخلصت له إخلاصا لا يماثله إخلاص. ولما نزل عليه الوحى وجاءها منزعجا أشد الانزعاج قالت له: أبشر يا ابن عمى واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنك لنبى هذه الأمة ولن يخزيك الله أبدا. واستحالت له وزيرة تشد أزره فى رسالته، وتتحمّل معه اضطهاد قريش له، وظلت – حتى أنفاسها الأخيرة – تؤازره بكل ما تستطيع من عطف. وكان الرسول – منذ تزوجها – يكنُّ لها حُبًّا عميقا، وظل يذكرها بعد وفاتها ويعطف عطفا شديدا على كل قريب أو قريبة لها. وهى مثال فريد للزوجة الحصيفة الراجحة العقل والفكر، ويكفى فخرا لها أنها منحت الرسول الثقة فى رسالته التى يدين بها واحد من كل خمسة فى العالم اليوم، وبدون ريب كانت

وفاة خديجة

السيدة الأولى فى حياته ذات الأفضال الكثيرة عليه. وحزن الرسول عليها وعلى عمه أبى طالب حزنا شديدا وسمّى عام وفاتهما عام الحزن الذى فقد فيه خديجة ملاك الحب والبر والطهارة، التى كانت تهوّن عليه كل ما يلمُّ به من أزمات وخطوب، والتى كانت تضفى عليه من إيمانها ما يزيده عزيمة صادقة، كما حزن على فقد عمه أبى طالب الذى كان سندًا له وملاذا وحِمًى ضد خصومه القرشيين.

عام الحزن

ولما توفى هذان النصيران العظيمان اشتد أذى قريش على الرسول وأصحابه، من ذلك أن سفيها من سفهاء قريش اعترضه فى مسيره ورمى على رأسه ترابا، فدخل إلى داره والتراب على رأسه، فقامت إليه ابنته فاطمة وأخذت تغسل عنه التراب وهى تبكى، وتَوجَّه إليها متأثرا، وقال لها: لا تبكى يا بنيَّة فإن الله مانعٌ أباك وحافظه.

٣

الخروج إلى الطائف

كثر إيذاء قريش للرسول وأصحابه بعد وفاة أبى طالب وخديجة، ففكر أن يتجه بدعوته إلى ثقيف بالطائف ملتمسا منها النُّصرة على قريش وآملا أن تدخل فى دين الله. ولم يلبث أن خرج إليها وحيدا منفردا لا يعلم بخروجه إليها أحد فى شوال من السنة العاشرة من المبعث، والشُّقَّةُ بين مكة والطائف ليست قريبة بل بعيدة إذ تبلغ أكثر من خمسين ميلا، وقطعها رسول الله ماشيا على قدميه حتى لا تعلم قريش مقصده. وكانت الطائف حينذاك مقر عبادة اللات، وكانت تعظّم صنمها، وجعلت له بيتا وسَدَنَة، وكانت قريش وكثير من العرب يعظّمونه، وكانت بين قريش وثقيف صلات مصاهرة ورحم متبادلة وكان سادة مكة يصيِّفون بها لارتفاعها وكان لبعضهم فيها بساتين وحدائق.

ونزل رسول الله ﷺ الطائف، وقصد نفرا من ثقيف هم سادتها وأشرافها وهم ثلاثة إخوة من أبناء عمرو بن عمير بن عوف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب، وعند أحدهم زوجة من قريش من بنى جمح، فجلس إليهم، وكلّمهم فيما جاء له من دعوتهم إلى الإسلام ونصرته على من خالفه من قومه، فأغلظوا له فى الكلام، وقال له أولهم ساخرا إنه يهتك ثياب الكعبة إن كان الله أرسله، وقال الثانى: ما وجد الله أحدا يرسله غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلّمك أبدًا لئن كنت رسولا من الله – كما تقول – لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذِب على الله فما ينبغى أن أكلمك. فقام رسول الله من عندهم يائسا من دخول ثقيف فى الإسلام، وخشى أن يُعْلموا قريشا بما كان من أمره، فتقدم إليهم راجيا أن يكتموا عليه ما كان بينه وبينهم من دعوته لهم إلى الإسلام ونصرته ضد قريش. ويبدو أنهم كانوا حريصين على إذاعة الأمر إرضاء لسادة قريش، وقد أسرعوا فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وقعدوا له صفّين على طريقة، فلما سار بين صفيهم محاولا المرور جعل لا يرفع رِجلا عن الأرض ولا يضعها إلا رشقوها بالحجارة حتى دَمِيتْ رجلاه وتخضّبت نعلاه بالدماء، وكان إذا أزلقته الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى عادوا إلى رَجْمه بالحجارة ضاحكين. وخلص منهم، ورجلاه تسيلان دما، واحتمى منهم ببستان من بساتين الطائف، فاستظل منه بشجرة وهو مكدود موجع، وكان البستان ملكا لعتبة وشيْبة ابنى ربيعة، ورآهما فيه، فكره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله، ولما اطمأن فى مكانه اتجه إلى ربه بالدعاء ضارعا شاكيا قائلا: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين وأنت ربى. إلى من تكِلنى؟! إلى بعيد يتجهّمنى، أو إلى عدو ملكته أمرى. إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظُّلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنْزل بى غضبك أو تُحِلّ علىّ سُخْطك. لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".

دعاء الرسول ربّه

عدّاس والرسول

وأثّر منظره وما أصابه من الإعياء والتعب فى صاحبى البستان: عتبة وشيبة ابنى ربيعة وتحركت له الرحمة فى نفسيهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قِطْفا (عنقودا) من هذا العنب فضعه فى طبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. فصدع بأمرهما وأقبل بالطبق حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ، وقال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: "بسم الله" ثم أكل . فنظر عدّاس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ : من أى البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ فقال له: أنا نصرانى من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ : من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متّى، قال له عدّاس: ما يدريك ما يونس بن متّى، فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى كان نبيًّا، وأنا نبىّ ، وأخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس. فأكبَّ عدّاس على الرسول يقبّل رأسه ويديه وقدميه. ولما جاء عداس عتبة وشيبة ابنى ربيعة قالا له: ويلك مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ فقال لهما: ما فى الأرض شئ خير من هذا الرجل لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبىّ، فقالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وانصرف الرسول من الطائف يائسا من قبول ثقيف للإسلام، وأخذ طريقه إلى مكة، ولما انتهى إلى جبل حراء أرسل رجلا من خزاعة إلى المطعم بن عدى ليجيره حتى يبلّغ رسالة ربه، وأجاره، فدخل مكة، وأقام بها، وجعل يدعو إلى الإسلام. وفى حديث لعائشة أم المؤمنين أنها قالت لرسول الله ﷺ بعد يوم أُحُد هل أتى عليك يوم أشد من يوم أُحُد؟ فقال لها: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت يوم ثقيف، إذ عرضت نفسى على عبد ياليل، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت – وأنا مهموم – على وجهى، فلم استفق إلا وأنا بقَرْن الثعالب (موضع بين مكة والطائف) فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتنى، فنظرت، فإذا فيها جبريل فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله لك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فنادانى مَلَك

الجبال، فسلّم علىّ وقال: يا محمد أنا مَلكُ الجبال وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بما شئت، فإن شئت أن اطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ : لا بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يُشرك به شيئا. وإن فى هذا الرجاء ما يصور عظمة الرسول ورحمته بأمته وبالخلق جميعا، وشهد الله بذلك له، إذ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. وكان كلما اشتدت عليه قريش بالأذى تضرّع إلى ربه قائلا: "اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون".

٤

الإسراء والمعراج

أ — الإسراء

أُسْرِى ليلا برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وذكرتْ روايات متعددة فى هذا الإسراء أن جبريل أتى للرسول بالبُراق ذات ليلة — وهى الدابة التى كان يحمل عليها الأنبياء قبله، وحين كانت ترفع حافرها فى مسيرتها تضعه فى منتهى طرفها — فحملته، وسارت به وجبريل يريه آيات الله فيما بين السماء والأرض، والبراق يسبح فى الهواء حتى أمره جبريل بالهبوط، فهبط على جبل سيناء الذى كلّم الله موسى عليه، وصلّى به الرسول، وارتحل ثانية على البراق، وبعد قليل أمر جبريل البراق بالهبوط، فهبط فى بيت لحم حيث ميلاد عيسى، وصلّى الرسول، ثم استُأنفت الرحلة، وأمر جبريل البراق بالهبوط، فهبط فى بيت المقدس، ووجد فيه الرسول إبراهيم الخليل وموسى — فى بعض الروايات — ورحّبا به وصلّى بهما. ثم أُتى بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال رسول الله ﷺ : فسمعت قائلا يقول حين عرضت الآنية علىّ: إن أَخَذَ الماء غرق وغرقت أمَّته، وإن أخذ الخمر غَوِى وغويت أمَّته، وإن أخذ اللبن هُدِى وهُدِيت أمَّته، فأخذتُ إناء اللبن فشربت منه، فقال لى جبريل عليه السلام: هُديتَ وهُدِيتْ أمَّتُك يا محمد. وعاد إلى مكة فى

رحلة الرسول على البراق إلى بيت المقدس

نفس الليلة. فلما أصبح أخبر الناس بإسرائه ليلا، فكذّبته قريش، وافتتن بعض المسلمين فارتدوا، وذهب رجال من قريش إلى أبى بكر، فقالوا له: إن محمدا يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس ثم رجع فى ليلة واحدة، فقال أبو بكر لهم: أوَقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، إنى أصدّقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء. وبذلك سُمّى الصِّدِّيق، ويقول الرسول لما كذبوه سألوه عن المسجد الأقصى فجلاه الله له وجعل يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه.

وأنزل الله فيمن ارتدّ عن الإسلام قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، وكذب بعض المستشرقين رحلتى الإسراء والمعراج وقالوا إنهما خرافة؛ متناسين أنهما معجزتان ربانيتان لرسول الله، وقد أشار القرآن إلى رحلة الإسراء فى مطلع سورتها قائلا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ فى أول الآية تدل على أنه سيليها شئ عجيب وهو هذا الإسراء فى ليلة واحدة، والمسجد الأقصى هو بيت المقدس، وبارك الله حوله بمن نزله أو كان فيه من الأنبياء والرسل، وصلّى بهم الرسول جميعا.

الإسراء بالروح أم بالجسد؟

واختلف بعض الصحابة وعلماء المسلمين فى هذا الإسراء هل كان بالروح فقط أو كان بالروح والجسد. وكانت عائشة أم المؤمنين تؤكد أن إسراء الرسول إنماكان بالروح وحدها، وكان معاوية يرى رأيها ويقول إنها كانت رؤيا من الله صادقة. وكلمة رؤيا يراد بها غالبا الحلم لا رؤية المشاهدة بالبصر. وحلم الأنبياء يُعَدُّ وحيا كما قالت السيدة عائشة حين سُئلت عن الوحى ونزوله على الرسول، قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة أى الحلم الصادق. وقد نعتها الله فى آية المرتدين السالفة بأنها الرؤيا التى فُتن بها بعض المسلمين وارتدوا. وذهب ابن عباس وكثيرون من علماء الأمة إلى أن هذا الإسراء للرسول كان بالروح والجسد معا فى ليلة واحدة، ولا جناح على من

يرى الرأى الأول أو الرأى الثانى. ويشهد العلم فى عصرنـا لصحة الرأيـين، أمـا الرأى الأول فيشهد له التنويم المغناطيسى الذى يجعل الإنسان فـى نومـه يتحـدث عن أشياء حادثة فى جهات بعيـدة، فمـا بالك برسـول وحُلْمـه وهـو درجـة مـن الوحى إليه كما قالت السيدة عائشة. وأما الرأى الثانى فيشهد لـه علميـا انتقـال الأصوات فى عصرنا بنفس اللحظة على الأثير برقيا وإذاعيـا وتليفزيونيـا، فضـلا عن الرحلات الفضائية إلى القمر، ومن الممكن فعلا أن تتحقـق الرحلـة مـن مكـة إلى بيت المقدس، ومـا أقصرهـا رحلـة بالقيـاس إلى رحـلات الطـيران فى العصـر الحاضر فضلا عن رحلات الفضاء. لذلك ليس ببعيد أن يخُـصَّ الله رسـوله بهـذه الرحلة فى ليلة واحدة لتشهد على وحدة الديانات السماوية وميراث الرسول لها جميعا فى دينه الحنيف.

ب – المعراج

المعراج صعود الرسول ﷺ إلى السموات السبع، وبعـض الأحـاديث تجعلـه مع الإسراء فى ليلة واحدة، فبعد وصوله إلى المسجد الأقصى وصلاته فيه صعـد به جبريل إلى السموات السبع. وبعض الأحاديث تَفْصِله عن الإسراء وتجعلـه فـى ليلة مستقلة، وكان أهم ما حدث أن جبريل استفتح بالسماء الأولى الدُّنْيـا ولقـى فيها الرسول آدم فرحَّب به، ورأى النار. ولقى فى السـماء الثانيـة ابنتـى الخالـة: عيسى ويحيى ورحَّبا به. وفى السماء الثالثة لقى داود وملك الموت وخـازن الجنـة ويوسف. وفى السـماء الرابعـة لقـى إدريـس وملكـا يبكـى لخطايـا النـاس. وفـى السماء الخامسة لقى هارون ورأى ملك النقمة، وفى السادسة لقى موسـى ورأى حارس السموات والأرض، وفى السابعة لقى إبراهيم، وكل هؤلاء الرسل رحَّبـوا به. وتختلف الأحـاديث فـى أسمـاء الأنبيـاء الذيـن لقيهـم الرسـول فـى السـموات السبع. وانتهى إلى موضع يُسمع فيه صرير وأصوات أقـلام القـدر ورأى سـدرة المنتهى التى تنتهى عندها المعرفـة الإنسـانية، ورأى جـبريل فـى صورتـه الملائكيـة، وانتقل إلى مرحلة كاد يفقد فيها عقله. ورأى الجنـة ووصـل إلى العـرش، وفـرض سدرة المنتهى

الله فيها على أمته خمسين صلاة يوميا. فراجعه موسى فى نزوله وقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك واسأله التخفيف عن أمتك، فخفّف عنه عشرا، وظل موسى يدفعه إلى أن يطلب التخفيف من ربه حتى أصبحت فرائض الصلاة خمسا كل يوم، رحمة من الله ولطفا بعباده المسلمين.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، فصلّى بهم فيه، وهو رمز لفضله وفضل دينه على ديانات الأنبياء السابقين. ويقول الله فى سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فهو مصدق لشريعة النصارى واليهود فى التوحيد وبعض الأحكام التى لا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأمم، وهو مهيمن على التوراة والإنجيل إذ يرفع عن أصحابهما الأوامر والنواهى الشاقة.

المعراج بالروح أم بالجسد؟

وكانت السيدة عائشة تقول فى المعراج ما قالته فى الإسراء من أنه كان بالروح فقط. واختلف العلماء هل كان بالروح فقط أو كان بالروح والجسد. ومما جعل بعض القائلين يقول بأنه كان بهما جميعا شهادة آيات سورة النجم: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. قالوا إن هذه الآيات تدلُّ على أن الرسول ﷺ رأى الله ظنا منهم أن شديد القوى هو الله وأن الرسول رآه فى ليلة المعراج، والآيات إنما هى فى وصف جبريل عليه السلام، والله فيها يقول إن القرآن وحى ينزل على الرسول علّمه له ملَكٌ ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهو جبريل، ويصفه بأنه ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أى قوة ﴿فَاسْتَوَى﴾ جبريل أى أنه قام بعزيمة لتلقى كلام الله ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ أى فى ناحية من جوّ السماء ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أى قرب من الرسول ﴿فَتَدَلَّى﴾ أى هبط عليه حتى كان ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أى على مسافة قوسين ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ أى أو أقرب. وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة المعراج، ولم يكن النزول فيها بالسماء. وكان أولى بالقائلين بأن المعراج كان بالروح والجسد معا أن يستشهدوا برؤية ثانية لجبريل ذكرها الله عقب الآيات السابقة فى سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أى جبريل

﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أى فى مكان آخر ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾، ويمكن أن يكون المنتهى المكان الذى لم يتجاوزه الرسول. ويقول الله – جلّ شأنه –: عند السدرة ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أى مأوى المتقين ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ من الألوان والأضواء. وعندها أبلغه جبريل فرائض الصلوات التى تقررت خمسًا، ويقول الله ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ من الرسول ﴿وَمَا طَغَى﴾ فى رؤيته لجبريل، ويقول الله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أى فى السدرة وما قبلها وبعدها. وقد تكلم العلماء فى رؤية الرسول لربه ليلة المعراج، وسُئِلَت فى ذلك السيدة عائشة أم المؤمنين، فأنكرت أن يكون رآه، وقالت من زعم أن محمدا رأى ربّه فقد أعظم على الله الفِرْية، واحتجت بقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ وبقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

والأمر فى المعراج كالأمر فى الإسراء، كانت السيدة عائشة تقول إن الرسول عرج بروحه، فهو فى رأيها معراج روحى. واختلف العلماء فمن قائل إنه بالروح فقط ومن قائل إنه بالروح والجسم. وسواء أكان المعراج رحلة فى اليقظة أو فى المنام فلا جناح على من يعتقد أحد الرأيين، وكما قلنا فى الإسراء يشهد للرأى الأول التنويم المغناطيسى، ويشهد للرأى الثانى انتقال الأصوات على الأثير مسافات بعيدة بين القارات فى نفس اللحظة، وانتقال الأشخاص أخيرا فى الرحلات الفضائية إلى كواكب بعيدة عن الكرة الأرضية بعدا شاسعا، والله سبحانه قادر أن يصنع هذا المعراج وذلك الإسراء لرسوله فى المنام أو فى اليقظة فى ليلة واحدة. وقصة المعراج مثل قصة الإسراء ترمز بقوة إلى وحدة الديانات السماوية وأنها انتهت إلى دين الإسلام الذى يصدقها ويهيمن عليها ويضع عن النصارى واليهود ما يثقلهم – كما جاء فى سورة الأعراف (الآية ١٥٧) – من بعض الأوامر والنواهى الربانية.

الفصل الثامن

من عرض الرسول نفسه على القبائل إلى البيعة الثانية الكبرى

١

عرض الرسول نفسه على القبائل

مضى الرسول ﷺ بعد رجوعه من الطائف ينذر قومه ويدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، وضمَّ إلى دعوتهم دعوة القبائل حين تأتى مكة فى موسم الحج، وفى السيرة لابن هشام أن شخصا شاهد الرسول بمنًى يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدِّقوا بى وتمنعونى حتى أبيِّن لكم من الله ما بعثنى به، وخَلْفَه رجل أحول وضئ له غديرتان (ذؤابتان من الشعر) عليه حُلَّة عَدَنيَّة، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بنى فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللاَّت والعُزَّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

التنفير من الإسلام

وهذا الرجل الذى كان يتعقب الرسول فى عرضه الإسلام على القبائل هو عمه أبو لهب، وكان كافرا مشركا بربه. ولم يكن أبو لهب وحده الذى ينفِّر الحجاج من الإسلام، وكان أسوأ منه الوليد بن المغيرة، فقد كان يجمع طائفة من

أعداء الإسلام وقت الحج، ويقول لهم: إن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم فقولوا فيه رأيا واحدا، وكان ينتدب معه لهذه المهمة خمسة عشر رجلا من أمثال أبى جهل والنضر بن الحارث، فتقاسموا مداخل مكة وطرقها لينفّروا الناس عن الإسلام وعن الرسول وما يعرض عليهم من القرآن الكريم، فبعضهم يقول للحجاج: لا تغتروا بهذا القرآن فهو سحر، وبعضهم يقول هو شعر، وبعضهم يقول: هو قول كاهن، وبعضهم يقول: كلام مجنون، وبعضهم يقول: هو أساطير الأولين. وفيهم يقول الله جَلَّ شأنه فى سورة الحِجْر: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ويصفهم الله بأنهم ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أى أنهم جعلوه أجزاء، فجزء قالوا عنه سحر، وأجزاء أخرى قالوا عنها شعر وكهانة وكلام مجنون وأساطير الأولين. ويتوعدهم الله بعقاب أليم.

إسلام الطفيل الدوسى

وكانت قريش لا تترك سيدا من سادات القبائل يدخل مكة إلا وتحذره من اجتماعه بالرسول وسماعه للقرآن. وقَدِم مكة الطفيل بن عمرو سيد قبيلة دَوْس كما فى السيرة، وكان شاعرا حصيفا، فأسرع إليه رجال من قريش، وقالوا له: إنك قدمت بلدنا، وهذا الرجل (محمد) الذى بين أظهرنا قد فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا، وقوله كالسِّحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه ولا تسمعنّ منه شيئا. يقول الطفيل: فما زالوا بى حتى حشوت فى أذنى – حين غدوت إلى المسجد – كُرْسُفًا (قطنا) خوفا من أن يبلغنى شئ منه وأنا لا أريد أن أسمعه. وغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة، فقمت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله، فسمعت كلاما حسنا، وقلت فى نفسى: ما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل فإن كان ما أسمع حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته. ومكثت حتى انصرف إلى بيته، فتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلته، وقلت له: إن قومك ما برحوا يخوّفوننى من أمرك حتى سددت أذنى بكرسف، ثم سمعتك فسمعت قولا حسنا فأعرضْ علىّ أمرك. يقول: وعرض

علىّ الإسلام وتلا علىّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، فأسلمت وقلت يا نبىّ الله: إنى امرؤ مطاع فى قومى، وأنا راجع إليهم وداعيهم، فادْع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آيةً. فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت بفرجة بين جبلين تطلعنى عليهم وقع نور بين عينىّ مثل المصباح، فقلت: اللهم فى غير وجهى! إنى أخشى أن يظنوا أنها مُثْلة (عقوبة) وقعت فى وجهى لفراق دينهم، فتحوّل النور فوقع فى رأس سوطى، فجعل الناس يرون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق وأنا أنزل إليهم من الفُرْجة. ويقول الطفيل الدوسى إن أباه عمرًا الدوسى تابعه على دينه وكذلك زوجته تابعته على الإسلام، وقالت له: دينك دينى. ويقول إنه دعا قومه إلى الإسلام فأبطأوا عليه، فجاء إلى الرسول بمكة وحكى له ذلك وسأله أن يدعو على قومه، فتضرع الرسول إلى ربه داعيا قائلا: "اللهم اهْدِ دَوْسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم". وهذا هو محمد الرسول العظيم الرحيم الرفيق الذى جعله الله خاتما لرسله. ولم يزل الطفيل بأرض دوس يدعو قومه إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأُحُد والخندق، ثم قدم الطفيل على الرسول بمن أسلم معه من قومه، وكانوا سبعين أو ثمانين بيتا، فوجدوه بخيبر، فلحقوه بها، وأسهم لهم فيها مع المسلمين.

عرض الرسول نفسه على القبائل

وكان الرسول ﷺ يعرض نفسه على منازل القبائل فى أسواق مكة وعكاظ ومجنّة وذى المجاز، وفى حديث مسند عند السُّهيلى قال فيه راويه: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذى المجاز مرتين يعرض نفسه على القبائل، يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وخلفه رجل يقول: يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب، فسألت عنه، فقيل لى هو عمه أبو لهب. ويقال إن الرسول فى عرضه على القبائل بدأ بكندة ثم بكلب ثم ببنى حنيفة، ويذكر المقريزى فى سيرته أنه عرض نفسه على غسّان وبنى فزارة وبنى مرة وبنى سليم وبنى عَبْس وبنى نصر وثعلبة وبنى الحارث بن كعب وبنى عذرة، واقتصّ الواقدى أخبار هذه القبائل قبيلة قبيلة.

وفى السيرة لابن هشام أن الرسول أتى بنى عامر ودعاهم إلى الإسلام، فقال رجل منهم يسمّى بَيْحرة بن فراس: والله لو أنى أخذت هذا الرجل من قريش لأكلت به العرب. ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال له الرسول: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال الرجل: أفَتُهْدِى نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بك. وظل رسول الله كلما اجتمعت القبائل فى موسم الحج أو فى الأسواق حول مكة يدعوها إلى الله والإسلام وما فيه من الهدى والرحمة.

نفر من شيبان

وكان ممن عرض الرسول دينه عليهم بنو ذهل وبنو شيبان وكان معه – كما يقول السُّهَيْلى فى الخبر – على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق، فتقدم أبو بكر، فسلّم، فقال: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى الرسول وقال: بأبى أنت وأمى هؤلاء غُرَرٌ فى قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قَبيصة والمثنّى بن حارثة والنعمان بن شريك. وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالا ولسانا وكانت له غديرتان، وكان أدنى القوم مجلسا من أبى بكر، فسأله: كيف العدد فيكم؟ قال له مفروق: إنا لنزيد على الألف. فقال له أبو بكر: كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبا حين نُلْقَى، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد (الخيل) على الأولاد، والنصر من عند الله؛ يديلنا (ينصرنا) مرة ويديل علينا مرة، لعل معك أخا قريش. فقال أبو بكر: أوَقَدْ بلغكم أنه رسول الله؟ فها هو ذا. فسأل مفروق إلى من تدعو إليه يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فقال: أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنى رسول الله، وأدعوكم أن تُؤْوونى وتنصرونى، فإن قريشا قد تعاونت ضد أمر الله وكذبت رسوله. فقال مفروق: وإلى أى شئ تدعو أيضا؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. فقال مفروق: وإلى أى شئ تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. فقال مفروق: دعوت – والله – يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، والله لقد أفك (كذب) قوم كذبوك. وكأنه أراد أن يشركه فى الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا. فقال: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإنى أرى أننا إن تركنا ديننا واتبعناك على دينك لمجلس جلسته إلينا زلّة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا ولكن نرجع وننظر. وكأنما أحبَّ أن يشركه فى الكلام المثّنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا. فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة، فإننا لا نترك ديننا ونتبعك لمجلس جلسته إلينا. فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

ولعل فيما قدمت ما يصور بوضوح مدى المشاق التى كان يتحملها الرسول فى عرضه الإسلام على قبائل العرب فى مواسم الحج والأسواق التى كانت تحيط بمكة، وكانت القبائل تتحاماه لما يسمعون من دعاية قريش ضده وقولهم عنه: إنه كذاب، إنه ساحر، إنه كاهن، إنه شاعر: أكاذيب يموّهون بها حسدا من عند أنفسهم وبغيا عليه، والرسول مع ذلك لا يكلُّ فى دعوته ولا يمل، بل يقوم بها أتم قيام مهما لقى من العنت الشاق والإيذاء الشديد.

٢

بَدْء عرض الرسول نفسه على الأنصار

أخذ الرسول يشعر بأنه لا أمل فى القبائل الكثيرة التى يلقاها فى مواسم الحج وفى الأسواق المحيطة بمكة – عكاظ ومجنّة وذى المجاز – أن تستجيب إلى

دعوته وتعتنق دين الله، وأيضا لا أمل فى أهل الطائف، غير أن ذلك لم يكن يفتُّ من عزيمته فى عرض دعوته على الناس، بل كان كل يوم يزداد عزما وصلابة فى تبليغ رسالة ربّه للناس - شبابهم وكبارهم وأحرارهم وعبيدهم ورجالهم ونسائهم - لا يمسّه فى ذلك ضعف ولا وهن، بل يزداد كل يوم قوة على قوة، إذ آمن بأن الله لابد ناصره، وهو لابد مبلغ رسالته الربانية إلى الخلق، مهما ردَّت القبائل وأهل الطائف على الرسول ردًّا سيئا، ومهما آذته قريش وآذت أصحابه، ومهما أساءت إليه وإليهم، ومهما سلّطت عليه وعليهم من السفهاء. وكان مما قدّر الله للأنصار - وهم قبيلتا الأوس والخزرج بيثرب - أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم اليهود النازلين فى يثرب منذ القرن الأول للميلاد، أن نبيا سيُبعث، وكان اليهود إذا نشب خلاف أو حرب بينهم وبين الأوس والخزرج توعّدوهم به وأنهم سيقتلونهم معه ولا يبقون منهم باقية. وذكر الله ذلك لليهود فى سورة البقرة قائلا لهم: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى الأوس والخزرج وكانوا يقولون لهم سنقتلكم معه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾. وكانت الأنصار - كما سمّاهم الله فى القرآن وهم الأوس والخزرج تحج إلى البيت فى مكة مثل من يحجون إليه من العرب. وحجَّ إليه سويد ابن الصامت من الأوس، وكانت قبيلته تسميه الكامل لشجاعته وشعره ونسبه فيها وشرفه، وأمه ليلى بنت عمرو من بنى النجار وأختها سلمى أم عبد المطلب جد الرسول. وسمع به الرسول ﷺ، فتصدى له، ودعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: لعل الذى معك مثل الذى معى، فقال له رسول الله ﷺ: وما الذى معك؟ قال مجلة لقمان: صحيفة كان فيها كما يبدو بعض حكم لقمان، ولقمان كان رجلا حكيما تقيا، قيل إنه كان من النوبة أو الحبشة أو من بنى إسرائيل، واختلف السلف فى حقيقة لقمان المذكور فى القرآن هل كان حكيما أو نبيا، وله فى سورته بعض حكم أوصى بها ابنه، فقال الرسول لسويد: اعرضْها علىّ، فعرضها عليه، فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذى معى أفضل منه: قرآن

سويد ومجلة لقمان

أنزله الله تعالى عليّ، وهو هدى ونور، وتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد سويد منه، وقال إن هذا القول حسن. وقدم المدينة على قومه، وكانت قد انتقلت إليها عدوى الحرب بين القبائل البدوية فى نجد، فكان الأوس والخزرج لا يرفعون أيديهم من دماء حرب حتى يغمسوها فى دماء جديدة، ويبدو أن اليهود شعروا بأنهم لا قِبل لهم بالأوس والخزرج القبيلتين العربيتين اللتين تسكنان معهم فى يثرب، فعملوا دائما على إشعال نيران العداوة والبغضاء بينهما، وكان بعضهم يحترف صنع الأسلحة التى يمدونهما بها فى الحرب. وقدم سويد بن الصامت إلى يثرب ولم تلبث أن نشبت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، وكان قائد الأوس أبو أسيد بن حضير، واشتبك فيها سويد، وقتلته الخزرج وشهد رجال من قومه بأنه قُتِل وهو مسلم.

حروب الأوس والخزرج

وعَقِب بُعاث، ذهب وَفْد برياسة أبى الحيسر أنس بن رافع من الأوس إلى مكة يلتمسون من قريش عقد حلف معها لتنصرهم فى حروبهم على قومهم من الخزرج، وكان معه فتية من بنى عبد الأشهل، وسمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، والتمس منهم الجلوس معهم، فجلسوا، فقال لهم: هل لكم فى خير مما جئتم له، فقالوا له: وما ذاك؟، قال: أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا، وأنزل علىَّ الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ أحد الذين كانوا فى الوفد الأوسى: أى قومى هذا - والله - خير مما جئتم له، فرفض كلامه أبو الحيسر أنس بن رافع: دَعنا منك، فَلَعمْرِى لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى يثرب. ولم يلبث إياس أن توفّى، وشهد بعض من حضر موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله تعالى، ويكبّره ويحمده ويسبّحه حتى مات. وما كانوا يشكّون أنه مات مسلما وأنه كان يستشعر الإسلام منذ سمع فى هذا المجلس من الرسول ﷺ تلاوة القرآن.

عرض الرسول الإسلام على بعض الأنصار

٣

بَدْء إسلام الأنصار والبيعة الأولى – بعث الرسول مع الأنصار مصعب بن عمير وابن أم مكتوم

أ – بدء إسلام الأنصار والبيعة الأولى

أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيِّه، فخرج محمد كعادته فى موسم من مواسم الحج يعرض نفسه على القبائل ويدعو إلى دين الله، ولقى عند العقبة من منًى ستة رجال حلقوا رءوسهم كلهم من الخزرج فجلس إليهم، فدعاهم إلى دين الله وقرأ عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض إنه النبى الذى تتوعدكم به اليهود، وكانوا – كما أسلفنا – كلما نشأ بينهم وبين اليهود خلاف توعدوهم بنبى يُبعث فى أيامهم تلك يقتلونهم معه أشد قتل، وقال بعضهم لبعض إنه ينبغى أن نسبقهم إليه، فاستجابوا لله ولرسوله وآمنوا به وصدَّقوه، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا من الخزرج والأوس، وبينهم حروب، فننصرف وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتّبعوك فلا أحد فى العرب أعزُّ منك. والرجال الستة المذكورون هم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابى، وجابر بن عبد الله، وانصرفوا إلى موطنهم يثرب وأخذوا يدعون رجال قبيلتيهم: الأوس والخزرج إلى الإسلام وأخذ يفشو فى يثرب.

واستدار العام وأقبل موسم الحج وقَدِم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلا، منهم خمسة من الستة الذين ذكرناهم، وهم جميعا ما عدا جابر بن عبد الله، والسبعة تتمة الاثنى عشر هم: معاذ بن الحارث أخو عوف فى الخمسة السابقين، وهو ابن عفراء إحدى شريفات الخزرج، وذكوان بن عبد قيس الزُّرَقى وقد رحل إلى رسول الله ﷺ فى مكة، فسكنها معه فهو صاحب هجرتين، إذ هاجر مع الرسول إلى يثرب، وقُتل يوم أُحُد، وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد

ابن ثعلبة البلوى أحد حلفائهم، والعباس بن عُبادة بن نضلة، فهؤلاء من الخزرج، ومن الأوس اثنان هما أبو الهيثم بن التَّيْهان وكان يقال له ذو السيفين لأنه كان يتقلّد بسيفين فى الحرب، وعويم بن ساعدة وبايعهم الرسول ﷺ عند العقَبة بيعة النساء، وذُكرت فى الآية الثانية عشرة بسورة الممتحنة، وهى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ﴾، فكان الرسول ﷺ يبايع كل واحد من الاثنى عشر على الدخول فى الإسلام وأن لا يشرك با لله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصى الرسول فى معروف.

ب – بعث الرسول مع الأنصار مصعب بن عمير وابن أم مكتوم

كان مصعب قبل إسلامه فتى مكة شبابا وجمالا، وكان من أنعم قريش عيشا وأعطرهم ثيابا، وذكره رسول الله ﷺ فقال: ما رأيت بمكة أحسن لـمَّةً ولا أرق حُلَّةً ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير، وقُتل فى أُحُد. وابن أم مكتوم كان ضريرا، وهو الذى عاتب الله فيه الرسول بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَن جَاءَهُ الأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ وكان جاء الرسول فى مجلس مع بعض الكبراء من المشركين وهو يعظهم آملا دخولهم فى الإسلام، وأكثر على الرسول النداء، فظهرت الكراهية فى وجهه لمحاولته قطع كلامه مع المشركين وخشية من افتراقهم عنه دون هُداهم، فعاتبه الله على انصرافه عنه وإقباله على الكفار المشركين. وكان الرسول يُكرم ابن أم مكتوم واستخلفه مرارًا كثيرة فى خروجه إلى الغزوات، وأسلم قديما مع مصعب بن عمير. واختارهما الرسول ليعلّما من أسلم بيثرب القرآن وليدعُوا إلى الإسلام، فنزلا بها على أبى أمامة أسعد بن زُرارة، وكانا يجتمعان مع من أسلم من الرجال، ويعلّمانهم القرآن ويفقّهانهم فى الدين. وخرج أسعد بن زُرَارة بمصعب

ابن عمير إلى دار بنى ظفر ودار بنى عبد الأشهل، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل أسعد بمصعب بستانا من بساتين بنى ظفر، فجلسا فى الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا، وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر - يومئذ - سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه. فلما سمعا بمجئ أسعد بن زرارة ومصعب إلى داريهما قال سعد بن معاذ لأسيد: انطلقْ إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا، فازْجُرْهما وانههما عن أن يأتيا دارينا فإنه لولا أسعد بن زرارة منى حيث قد علمتَ كفيتك ذلك، هو ابن خالتى. فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما. فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصْدُق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه. فقال لهما: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا، اعتزلانا. قال مصعب: أوَتجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره. قال أسيد: أنصفتَ ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب عن الإسلام وقرأ عليه القرآن. فقال أسيد: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ فقال له مصعب: تغتسل فتطهّر وتطهّر ثوبك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم تُصَلّى. فقام، فاغتسل وطهّر ثوبيه، وتشهّد شهادة الحق بوحدانية الله ورسالته، ثم قام فركع ركعتين. ثم قال لهما: إن ورائى رجلا إن تبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، سأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فقال له سعد: ما فعلت؟ قال أسيد: كلمت الرجلين - أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير - ووالله ما رأيت بهما بأسا. ورأى أُسيد أن يحمّس سعد بن معاذ فقال له: وحُدّثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، إذ عرفوا أنه ابن خالتك لينقضوا العهد ويغدروك. فقام سعد مُغْضَبا مبادرا تخوُّفا للذى ذكره له أُسيد من أمر بنى حارثة، فأخذ الحربة فى يده، ثم خرج إليهما فرآهما مطمئنين فعرف سعد أن أُسَيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة (كنيته): أما والله لولا ما

إسلام أسيد بن حُضَيْر

بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟ وكان أسعد قال لمصعب: جاءك - والله - سيد من وراءه من قومه، إن تبعك لا يتخلّف منهم اثنان. وقال مصعب لسعد بن معاذ: أَوَتقعد فتسمع، فإن رضيتَ أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحَرْبة وجلس، فعرض مصعب على سعد الإسلام وقرأ عليه القرآن، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهّر وتطهّر ثوبيك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم تصلّى ركعتين. فقام سعد بن معاذ فاغتسل وطهّر ثوبه وشهد شهادة الحق بتوحيد الله ورسالة رسوله محمد، ثم أخذ حربته، وعاد إلى أسيد بن حضير، وأقبل معه على نادى قومه، ولما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة (مشورة). قال: إنى أسلمت، وإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا أسلموا ما عدا الأصيرم وبعض بطون أو عشائر، واسم الأُصَيْرم عمرو بن ثابت، وتأخّر إسلامه إلى يوم غزوة أُحُد، فأسلم فيه واستشهد فى الحرب، ولم يسجد لله سجدة، وذكره رسول الله ﷺ وقال إنه من أهل الجنة. وبطون بنى عبد الأشهل التى لم تدخل فى الإسلام حينذاك هم بنو أمية بن زيد، وخَطْمة ووائل وواقف وقيل واقد، وكانوا سكانا فى عوالى المدينة، وأسلم منهم قوم، وكان سيدهم أبا قيس صيفى بن الأسلت وكان شاعرا وكان قائدا لهم يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وتأخر إسلامه وإسلام سائر قومه إلى أن مضت بَدْر وأُحُد والخندق، فأسلموا جميعا.

إسلام سعد بن معاذ

إسلام بنى عبد الأشهل

ومما يُذكر لمسلمى المدينة حينئذ ومعهم أسعد بن زراره ومصعب بن عمير أن أقاموا صلاة الجمعة وسموا باسمها اليوم، وكان يسمى «العروبة» وذلك عن هداية من الله تعالى قبل أن يؤمروا بها وقبل أن تنزل سورة الجمعة بعد هجرة الرسول ﷺ . ويُقال إنهم اجتمعوا وقالوا إن لليهود يوما يجتمعون فيه كل سبعة

صلاة الجمعة

أيام وللنصارى مثل ذلك، فهلمُّوا، فلنجعل يوما نجتمع فيه ونذكر الله ونصلّى ونشكر، وقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوا لنا يوم العروبة نجتمع فيه وسموه يوم الجمعة، وصلّى بهم يومئذ ركعتين أسعد بن زرارة، وقيل بل مصعب بن عمير. كما قيل إن رسول الله ﷺ هو الذى فرضها على مسلمى المدينة وأنه كتب إلى مصعب: أما بعد فانظر اليوم الذى تجهر فيه اليهود لسبتهم فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال (أى ظهرا) من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين.

ولم يزل مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ابن خال خديجة يدعوان الأوس والخزرج إلى الإسلام حتى لم تكد تبقى دار من دورهما إلا وفيها مسلمون. وظل مصعب يؤمّ المسلمين فى المدينة طوال مقامه بها، وجمّع بهم جمعات، وعاد إلى مكة قبل موسم الحج ليبشر الرسول ﷺ بكثرة من أسلموا من أهل يثرب، وحدثه عما هم عليه من بأس وقوة وما هم فيه من رخاء ونعمة، وذكر له أنه سيجئ منهم فى موسم الحج عدد كبير ليعلنوا إليه دخولهم فى الإسلام وليبايعوه كما بايعه إخوانهم فى الموسم السابق. وسُرَّ الرسول وأخذ يفكر فى الهجرة إليهم.

٤

البيعة الثانية الكبرى

خرج إلى موسم الحج مع حجاج يثرب الكفّار جماعة كبيرة ممن أسلم من أهل يثرب ومعهم سيد كبير من سادتهم هو البراء بن معرور. قال ابن إسحاق: فلما توجهوا للسفر وخرجوا من المدينة قال البراء لمن معه من المسلمين: يا هؤلاء إنى قد رأيت رأيا، ووالله لا أدرى أتوافقوننى عليه أوْ لا؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنْية (الكعبة) منى بظهرٍ وأن أصلّى إليها. فقالوا له: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلّى إلا إلى بيت المقدس فى الشام وما نريد أن

البراء بن معرور يصلى إلى الكعبة

نخالفه. فقال: إني لمصلٍّ إليها. فقلنا له: لكنا لن نفعل. وكانت إذا حضرت الصلاة صلّوا إلى بيت المقدس وصلّى البراء إلى الكعبة. فلما قَدِموا إلى مكة قال لكعب بن مالك: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفرى فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء، لما رأيت من خلافكم إيايَ فيه. وخرجا يسألان عن رسول الله، فلقيا رجلا من أهل مكة فسألاه عن رسول الله، فقال: ألا تعرفانه؟ فقالا: لا. فقال لهما: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب؟ قالا: نعم. وكان يتردّد على يثرب تاجرا، فقال لهما: إذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. فدخلا المسجد، فإذا العباس جالس ورسول الله جالس معه، فسلّما ثم جلسا إليه. فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. فقال الرسول: الشاعر؟ قال العباس: نعم. فقال البراء بن معرور: يا نبيّ الله إني خرجت في سفرى هذا وقد هداني الله للإسلام فرأيت أن لا أجعل هذه البنية (الكعبة) مني بظهر، فصلّيت إليها، وخالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ فقال الرسول: قد كنت على قبلة (يريد قبلة بيت المقدس) لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلّى معه متجها إلى بيت المقدس.

التواعد في العقبة

وواعد مسلمو يثرب الرسول عقبة منى في أواسط أيام التشريق – وهي ثلاثة أيام بعد يوم العيد، وكان معهم عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي أبو جابر، سيد من سادات الخزرج وشريف من أشرافهم، فأخذوه معهم في الليلة التي واعدوا رسول الله فيها، وكانوا يكتمون أمرهم على من معهم من مشركي قومهم، فكلّموه وقالوا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه، ونعوذ بالله أن تكون حطبا للنار غدا. ثم دعوه إلى الإسلام، وأخبروه بموعدهم مع رسول الله ﷺ وشهد معهم عقبة منى والبيعة الثانية للرسول.

وظل مسلمو يثرب فى رحالهم مع قومهم، حتى إذا مضى ثلث الليل أخذوا يتسلّلون تسلل القَطا (طير) مستخفين حتى اجتمعوا عند العقبة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا، ومعهم سيدتان من نسائهم، أم عمارة من بنى النجار ذات البلاء العظيم يوم أُحُد ويوم اليمامة، وأسماء بنت عمرو من بنى سلمة. وظلوا ينتظرون الرسول ﷺ حتى جاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثّق له. فلما جلس الرسول كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا – ممن هو على مثل رأينا فيه – فهو فى عزٍّ من قومه ومنعة من بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عزٍّ ومنعة من قومه وبلده. فقالوا للعباس: قد سمعنا ما قلت، فتكلّم يا رسول الله فخُذْ لنفسك ولربِّك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن ودعا إلى توحيد الله ورغّب فى الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

البيعة الكبرى

وأخذ البراء بن معرور زعيمهم بيده قائلا: نعم، والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرنا (أى نساءنا) فبايعْنا يا رسول الله، فنحن – والله – أبناء الحروب وأهل الحلقة (الدروع) ورثناها كابرا عن كابر. فاعترضه أبو الهيثم التّيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود (فى بلدنا) حبالاً (عهودا)، وإنا قاطعوها، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا. فتبسَّم رسول الله ﷺ، وقال: بل الدم الدم، والهَدم الهَدم. أى ذمتى ذمتكم وحُرْمَتى حُرْمتكم. وقال أسعد بن زرارة: رُوَيْدا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إلى الرسول أكباد المطىّ إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأنَّ إخراجه اليوم (أى من مكة إلى يثرب) مفارقة للعرب كافَّة وقتل خياركم وأن تعضّكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك إذا مستكم الحرب بقتل خياركم

ومفارقة العرب كافة فخذوا البيعة، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله. فقالوا: يا أسعد أمط (نحِّ) عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها (لا نفسخها). وقال العباس بن عُبادة بن نضلة: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة وقُتلت أشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن فهو - والله إن فعلتم - خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو - والله - خير الدنيا والآخرة. قالوا: إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ فأجاب: الجنة. قالوا: ابْسُط يدك. فبسط يده فبايعوه، واختار الرسول منهم اثنى عشر نقيبا اقتداء بقول الله تعالى في قوم موسى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ ليكونوا رائدين لمن يسلم من أهل المدينة، وهم: أسعد ابن زرارة، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت، والبراء بن معرور، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو. وهؤلاء تسعة من الخزرج، ومعهم ثلاثة من الأوس، هم أسيد ابن حُضير، وأبو الهيثم بن التِّيهان، وسعد بن خيثمة.

قريش تعلم بالبيعة

ولما أصبحوا جاء بعض كبراء قريش إلى منازلهم، فقالوا يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا محمد تخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه - والله - ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. فانبعث نفر من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وهم صادقون لأنهم مشركون ولم يعرفوا شيئا عن البيعة. ونفر الناس من مِنًى للرجوع إلى أوطانهم، وأخذت قريش تتقصّى الخبر، فعرفت أنه قد كان، وخرجت في طلب أصحاب هذه البيعة وأدركوا نقيبين من النقباء الاثنى عشر هما سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأما المنذر فأعجزهم وفرَّ منهم، وأما سعد بن عبادة فربطوا يديه إلى عنقه، وأدخلوه مكة يضربونه. وكان يجير في يثرب على تُجَّار

جبير بن مطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية ويمنعهم ممن يريد ظلمهم، فهتف باسميهما وجاءاه وردًّا إليه حريته وخلّصاه من أَسْره، وعاد إلى يثرب.

وأخذت قريش تفكر فى أمر محمد، فقد انتشرت دعوته فى يثرب بين الأوس والخزرج، وليس ببعيد أن ينضم أهلهما جميعا إلى دعوته سريعا وأن يعدّوا جيشا لنصرته، ويمكن أن يقطعوا الطريق على تجار قريش وقوافلهم المصعدة بتجاراتهم إلى الشام والمنحدرة منها إلى مكة، وأخذت تفكر جديا كيف تقضى على امتداد دعوة الرسول إلى يثرب. وفى الوقت نفسه أخذ محمد يفكر فى موقف أصحابه بمكة وما تذيقهم قريش من ألوان التعذيب والإيذاء، ورأى بحكمته ودقة نظره السياسى أن ينقذهم من ذلك، وأن يأمرهم بالهجرة إلى يثرب حيث إخوانهم المسلمون الجدد المتحمسون لنصرة الإسلام، ورأى أن لا يهاجروا جماعات، بل يهاجروا فرادى أو نفرا قليلا، حتى لا تتنبّه قريش، ولكنها تنبّهت فأخذت تردّ إلى مكة كل من استطاعت رده إليها لتفتنه عن دينه أو لتنكّل به، وحالت بين بعض المهاجرين وزوجاتهم حتى تضطرهم إلى العودة، وحبست بعض من رفضوا المقام بها.

الأمر بالهجرة إلى يثرب

وعرفت قريش أن الكثرة من أهل يثرب دخلت فى الإسلام مما يجعلهم قوة كبيرة يُخْشى بأسها بالإضافة إلى من انضم إليها من المهاجرين، وأخذت تفكر فيما عزم عليه الرسول من البقاء فى مكة أو الهجرة إلى يثرب ليلحق بأصحابه، وقالوا لو أنه هاجر إليها لكانت هجرته محنة كبيرة لمكة، إذ يمكن أن يغزوها بجيش يثربى كما يمكن أن يقطع طريق تجارتها إلى الشام. واجتمع الملأ بدار الندوة، وهو أشبه بمجلس شيوخ لسادة مكة وكبرائها، وكانوا يجتمعون فيها دائما للنظر فى شئون مكة المهمة والخطيرة، وأخذوا يتشاورون كيف يمنعون محمدا من الهجرة، قال قائل: يُحبس ويُغلق عليه باب ويراقب. ولم تعجبهم الفكرة، فقد يفرّ من حبسه، وقال قائل: يُنفى عن مكة. ولم تعجبهم الفكرة، إذ تتاح له الفرصة ليذهب إلى يثرب. وظلوا يتشاورون حتى اتفقوا على وجوب التخلص منه بقتله، ولكن كيف يقتلونه؟ فإن بنى هاشم وبنى المطلب لابد أن يأخذوا بثأره، وتقوم

تشاور قريش فى هجرة الرسول

الاتفاق على قتل الرسول

حرب بين فئات مكة. ومازالوا يقلّبون الرأى حتى اتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فى قريش فتى ذا بأس ومضاء، ويعطوا كلا منهم سيفا بتّارا فيضربوه جميعا ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه فى قبائل قريش، ولا يستطيع بنو هاشم وبنو المطلب قتال قبائل قريش جميعها، فيرتضوا فيه الدية. وذكر الله تشاور قريش فى أمر الرسول بسورة الأنفال قائلا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى إذ يحاولون إيقاع الضر خفية بك ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أى ليحبسوك ويمنعوك من الحركة ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أى ينفوك عن مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أى يبطل تدبيرهم، وعبَّر الله جلّ شأنه بالمكر من باب المشاكلة البلاغية ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

الفصل التاسع

من الهجرة إلى الإخاء والمساواة
فى تكوين الأمة الإسلامية

١

هجرة الصحابة

أخذت قريش – بعد أن عرفت ما تم بين الرسول وأهل يثرب من الحلف – تفكّر فيما تفعل إزاء محمد وأصحابه، وأخذ الرسول يفكر فى المستقبل وفى أصحابه وما يتحمّلون من العنت، ورأى ببصيرته النافذة وحنكته السياسية أنه أولى بهم أن يهاجروا إلى يثرب ليضاعفوا قوة المسلمين من الأوس والخزرج الذين سرّهُم من الرسول هذا التفكير الرشيد. وسرعان ما أمر الرسول أصحابه فى مكة أن يهاجروا إلى يثرب متفرقين فرادى أو نفراً قليلا.

المهاجرون الأوائل

وأول من لبّى دعوة الرسول إلى الهجرة إلى يثرب أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى وحمل زوجته أم سلمة وابنها سلمة على بعير له، وخرج بهما يقود بعيره فلما رآه رجال بنى المغيرة من مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها (أى بما اخترت من الهجرة) أرأيت صاحبتك هذه؟ علامَ نتركك تسير بها فى البلاد؟ ونزعوا خِطام (زمام) البعير من يده وأخذوه منه. وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد عشيرة أبى سلمة، وقالوا: والله لا نترك ابننا (أى سلمة) عندها إذ نزعوه منها، وتجاذبوا سلمة بينهم حتى خلعوا يده. وانطلقت به أسرة أبى

سلمة، وحبستها عشيرتها بنو المغيرة عندهم، وانطلق أبو سلمة إلى يثرب. وبذلك فرّقوا بين أم سلمة وزوجها وابنها. فكانت أم سلمة تخرج كل غداة إلى بطحاء مكة وتجلس وتبكى، وطال عليها ذلك، ومرَّ بها رجل من بنى عمها، فرأى ما بها من البكاء، ورحمها وقال لعشيرتها بنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة: فرّقتم بينها وبين زوجها وولدها. فقالوا لها: الحقى بزوجك إن شئت. وردَّ بنو عبد الأسد إليها – عند ذلك – ابنها. فأعدَّت بعيرها للرحلة، ثم أخذت ابنها فى حجرها، ثم خرجت تريد زوجها بيثرب. حتى إذا كانت فى التنعيم بالقرب من مكة لقيتْ عثمان بن طلحة بن أبى طلحة من بنى عبد الدار، فقال لها: إلى أين يا بنت أبى أمية؟ قالت له: أريد زوجى بالمدينة، فقال لها: أما معك أحد؟ فقالت: لا والله! إلا الله وبُنَىَّ هذا، قال: والله مالك من مَتْرك. فأخذ بزمام البعير، فانطلق معها يَهْوِى بها، فقالت: فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى البعير، ثم استأخر عنى، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحطَّ عنه، ثم قيَّده فى الشجرة، ثم تنحَّى عنى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدَّمه ورَحَّله (أعده للرحلة) ثم استأخر عنى وقال: اركبى فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بزمامه، فقاده حتى ينزل بى منزلا آخر. تقول: ولم يزل يصنع ذلك حتى أقدمنى المدينة. فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقُباء قال لها: زوجك فى هذه القرية – وكان أبو سلمة نازلا بها – فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعا إلى مكة. فكانت تقول: ما رأيت صاحبا أكرم من عثمان بن طلحة. وإنما رويت قصة هجرة أبى سلمة أول مهاجر إلى المدينة وزوجته بتمامها لأدل على كرم أخلاق العرب – حينذاك – كما يمثِّلها عثمان بن طلحة، إذ تحمل مشاقَّ الطريق من مكة إلى يثرب، وهو كافر ليقوم بواجب حماية أم سلمة المسلمة وابنها من صعوبات هذا الطريق الشاق، وإنها لمروءة جديرة بكل تجِلَّة وثناء، وسيسلم بعد سنوات قليلة مع خالد بن الوليد، واستشهد بمعركة أجادين فى أول خلافة عمر.

عثمان بن طلحة يصحب أم سلمة إلى يثرب

وكان الصحابة يتجهّزون للارتحال إلى يثرب فى خفاء وستر، وجعلوا يتعاونون بالمال والإبل التى تحملهم ويترافقون، وكان من هاجر من قريش وحلفائهم يستودع ماله ودوره رجلا، فمنهم من حافظ على وديعته، ومنهم من باع. ونهب أبو سفيان دار بنى جحش، إذ هاجروا منها جميعا. ويقال إنه كان بين أول مهاجر وآخر مهاجر نحو سنة، وربما كان فى ذلك شئ من المبالغة. ولما رأى عمر أن يهاجر أبى إلا أن يعلن هجرته لقريش فى الكعبة، ويقول على بن أبى طالب ما علمتُ أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلّد سيفه وتنكّب قوسه وحمل فى يديه أسهما، وعلّق حربة صغيرة فى خاصرته، ومضى إلى الكعبة، والملأ من قريش (شيوخ دار الندوة) بفنائها، فبدأ بالطواف بالكعبة سبعا، ثم أتى المقام فصلّى ركعتين، ثم وقف على مجالس القوم مجلسا مجلسا، فقال: شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس. ثم هدّدهم قائلا: "مَنْ أراد أن تثكله أمه أو يُيَتّم ولده فليلقنى وراء هذا الوادى". ووجم القوم ولم ينطق أحد ببنت شفة بعد هذا التحدى الجرئ. وعن ابن إسحاق يقول عمر: لما أردنا الهجرة إلى المدينة تواعدت أنا وعيّاش بن أبى ربيعة وهشام ابن العاص بن وائل موضع التناضِب من أضاة بنى عامر على بعد عشرة أميال من مكة، وقلنا: أيُّنا لم يُصْبِح عندها فقد حُبس (حبسته قريش دون الهجرة) فأصبحت أنا وعيّاش بن أبى ربيعة عند التناضِب وحُبِس عنا هشام، وفتنته قريش فافتتن. وكان عمر قد غادر مكة فى عشرين راكبا من الصحابة، ولما قدموا المدينة نزلوا فى قرية بنى عمرو بن عوف بقُباء. ويقول عمر: لم نلبث أن جاء إلى المدينة أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام للقاء عياش بن أبى ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، ورسول الله ﷺ بمكة فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرتْ أن لا يمسّ رأسها مُشْط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقّ لها. فقلت له: يا عيّاش إنه والله ما يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أملك القمل لامتشطت ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة لاستظلّت. فقال عياش: أَبَرّ قسم أمى، ولى هناك مال فآخذه. فقلت له: والله إنك لتعلم أنى

هجرة عمر

لمن أكثر قريش مالا فَلَك نصفُ مالى ولا تذهب معهما. فـأبى علىّ إلا أن يخرج معهما. فلما أبى إلا ذلك قلت له: فخُذْ ناقتى هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلـول، فـالزمْ ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فـانْجُ عليهـا. فخـرج عليهـا معهمـا، حتـى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخى لقد استغلظت بعيرى هذا أفلا تُعْقبنى (تجعلنى أركب وراءك) على ناقتك؟ قال عياش: بلى. فأنـاخ ناقتـه وأناخـا ناقتيهما ليتحول أبو جهل على ناقته، فلما اسْتَووْا بالأرض عدَوَا عليه، فأوثقاه ثم دخلا به مكة نهارا موثقا. ونادى أبو جهل: يا أهل مكة هكذا افعلـوا بسـفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا. وقال الرسول بعد أن هاجر: مَنْ لى بعيَّاش بن أبـى ربيعة وهشام بن العاص؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا آتـى لـك يـا رسـول الله بهما. فقدم مكة مستخفيا، فلقى امرأة تحمل طعاما، فقال لها: أين تريدين يـا أَمَـة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين. تعنيهما، فتبعها حتى عـرف موضعهمـا، وكانـا محبوسين فى بيت لا سقف لـه فلمـا جنَّ الليـل تسـور عليهمـا الحـائط، وضـرب قيديهما بسيفه فقطعهما ثم حملهما على بعيره، وقدم بهما المدينة إلى الرسول.

تتابع هجرة الصحابة

وتتابع الصحابة بعد هجرة عمـر يهـاجرون إلى المدينـة، وهـاجر إليهـا كبـار الصحابة وكثير مـن الأسر هـاجرت بكـل أفرادهـا، وهـاجر المـوالى، وحـين أراد صُهيب الرومى الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكـا، فكـثر مـالك عندنـا، وتريد أن تخرج به؟ فقال لهم: أرأيتم إن جعلـت لكـم مـالى أتـتركونى وتخلّـون لى سبيلى؟ قالوا: نعم. فقال لهم: فإنى جعلت لكم مالى. فبلغ ذلـك رسـول الله ﷺ فقال: رَبِحَ صهيب، رَبِحَ صهيب. وتذكر كتب السيرة بالتفصيل أسماء المهـاجرين من الصحابة وأسماء من نزلوا عليهـم مـن الأوس والخـزرج، وإنهـا لأعظـم أُخـوَّة حدثت فى الإسلام، وسيوثقها الرسول ﷺ بعد قدومه إلى المدينة.

٢

هجرة الرسول

لم تنقض ساعة أو بعض ساعة على إجماع الملأ من قريش فى دار الندوة على قتل الرسول فى صباح الليلة التالية حتـى دبَّـروا أمـر الفتيـان مـن القبـائل الذيـن

يضربون الرسول بأسيافهم ضربة واحدة، فلا يستطيع بنو هاشم أن يصنعوا شيئا ويقبلوا الدِّية فيه كما مرَّ بنا. دبَّروا ذلك وانتظروا تنفيذه، وكان تدبير الله أعظم فقد أعلم الرسول عن طريق جبريل بتدبيرهم الخبيث كما قال فى آية سورة الأنفال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ﴾. ولم يعد أمام الرسول إلا أن يضع خطة سريعة لهجرته إلى يثرب، فذهب إلى أبى بكر وأخبره أن الله أذن له فى الهجرة، فقال له: الصحبة، فوافقه. فقال له: يا رسول الله إن لدىّ ناقتين كنت أعددتهما للهجرة مع أسرتى، فقال له: إنى لا أركب ناقة ليست لى، فأدفع الثمن، قال أبو بكر: نعم بالثمن يا رسول الله. وكان الرسول أراد أن يكون فضل الهجرة كلها له بنفسه وبماله. واستأجرا عبد الله بن أريقط –من بنى الدُّئل– ليدلهما على الطريق إلى المدينة، ودفعا إليه راحلتيهما حتى يكون موعدهم معه ثلاثة أيام.

وأخبر الرسول على بن أبى طالب بخبر هجرته، وطلب إليه أن تظل سرًّا بينهما، حتى إذا أظلم الليل ينام فى سريره، ويتغطى ببرده الحضرمىّ الأخضر، وأمره أن يتخلف بعده بمكة، ويؤدى للناس ودائعهم التى كانت عند الرسول. وحاصر الفتية الدار، وظلوا ينظرون من خلل فى الباب إلى غرفة الرسول فيجدون عليًّا ملتفا فى برد الرسول الأخضر، فيظنونه الرسول، وظلت سيوفهم مسلولة طوال الليل، وأطل الصباح بأضوائه، فتأهبوا ليضربوا ضربتهم، وسرعان ما خاب ظنهم، إذ فتح الباب على بن أبى طالب مرتديا البرد الأخضر، واقفا على عتبة الدار، وسألوه أين ابن عمك؟ أين محمد؟ فقال: لا أدرى إنهما خرجا فى المساء ولا أعرف أين ذهبا ولا متى يرجعان. وقالت قريش: إذا كان قد خرج مع أبى بكر للقاء بعض أصحابه فسيعود، وإذا كان قد خرج مرتحلا إلى يثرب فسيقبض عليه المقتفون لأثره وسيعودون به. وأعلنت قريش لمن يردُّ محمدا إليها مائة ناقة.

وأما الرسول وأبو بكر فإنهما خرجا فى مساء الليلة التى حاصر فيها الفتيان القرشيون دار الرسول من خَوْخة (باب صغير فى ظهر بيت أبى بكر)، حتى لا يسمع أحد وقع أقدامهما وانطلقا حافيين، حتى لا يعلم بهما أحد فى قريش،

ودميت قدما الرسول من سيرهما نحو ساعة على الحصباء، واتجه الرسول بصاحبه إلى كهف أو غار بجبل ثور جنوبى مكة فى طريق الراحل منها إلى اليمن، تضليلا لقريش، إذ لا يخطر ببال أحد أن الرسول وأبا بكر سيتجهان إلى اليمن. ولما وصلا إلى الغار تقدم أبو بكر، فدخله قبل رسول الله ﷺ ليقيه بنفسه، ورأى فيه جُحْرا فألقمه عقبه لئلا يخرج منه ما يؤذى رسول الله ﷺ . ولم يعلم أحد باختبائهما فى غار ثور سوى زوجة أبى بكر أم رومان وابنهما عبد الله وابنتيهما أسماء وعائشة ومولاه عامر بن فُهَيْرة راعى غنمه. وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يختلط بأهل مكة نهارًا ويسمع أحاديث الناس عن تعقب قريش لهما وما تنتوى إزاءهما، ويخبرهما بما يسمع من الأحاديث والأخبار مساء. وكانت أسماء تأتيهما فى المساء بالطعام ولم يكن له عصام (رباط أو عروة) يمسكه، ولم تجد غير نطاقها الذى تشدُّ به وسطها فشقَّته نصْفين، نصف لإمساك الطعام، ونصف جعلته نطاقها، فسميت ذات النطاقين. وكان عامر بن فُهَيْرة يرعى غنمه، ويسوقه مساء إلى غار ثور فيحلب للرسول وأبى بكر ما يشاءان. وأعلنت قريش أنها قدَّرت مكافأة كبيرة لمن يأتيها بالرسول، مائة ناقة. ودفع ذلك بعض فرسان قريش للبحث عن الرسول لا فى الطريق إلى المدينة فحسب، بل أيضا فى الجبال حول مكة، وكان الرسول وأبو بكر يسمعان وقع حوافر الخيل، واقترب أحد القرشيين من الغار، وحدثت معجزة، فقد رأى عليه نسيجا للعنكبوت ورأى بفَمِه حمامتين فأيقن أنْ ليس فيه أحد، وعاد يذكر ذلك لزملائه، وقلق أبو بكر حين سمع حوافر الخيل، وكان مما قال للرسول: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا. فقال له الرسول: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ وكان الرسول مطمئنا غاية الاطمئنان أن قريشا لن تصل إليه وأن الله يحميه منها ويحرسه، وأحس كأن شيئا من الحزن يرتسم على وجه أبى بكر فقال له: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وهى كلمة قالها الرسول لأبى بكر رفقا به وتبشيرا له أنهما ناجيان بفضل الله وعونه، وقصَّ ذلك الله فى سورة التوبة قائلا: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ

تخفى الرسول فى غار ثور

ذات النطاقين

مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، والله يقول إن لا تنصروا الرسول فهو غنى عن نصركم بنصر الله كما حدث فى هجرته وخروجه من مكة مع صاحبه باختفائهما فى غار بجبل ثور، والرسول يقول لأبى بكر تأنيسا له: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ يحمينا ﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وطمأنينته وهى نصر نفسى عظيم.

لم يهتد كفار قريش إلى مكان الرسول ﷺ وأبى بكر، وأخذوا ينادون بأعلى مكة وأسفلها: من قتل محمدا وأبا بكر أو جاء بهما فله مائة ناقة. ولما مضت لهما ثلاث ليال، وهما فى الغار، وسكن الطلب عنهما أتاهما دليلهما ابن أريقط ومعه الناقتان، وأخذ رسول الله ﷺ إحداهما المسمَّاة باسم الجدعاء، وكان أبو بكر أعدَّهما قبل ذلك. وخرجا من الغار سحَر ليلة الاثنين لأربع خلونَ من ربيع الأول، وقيل فى أول يوم منه، وسِنُّه ﷺ ثلاث وخمسون على الصحيح، ومعهما زاد للسفر أتتهما به أسماء. وكان خروج الرسول وأبى بكر من الغار فى الصبح، فصلَّى الرسول بصاحبه ومن معهما جماعة، فكان أول من جمَّع بالمسلمين فى صلاة الفجر. وولى الرسول ﷺ وجهه نحو مكة - حين خرج منها قائلا: "والله إنك لأحب أرض الله إلىَّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت". وكان بين ليلة البيعة الثانية الكبرى لأهل يثرب ومهاجرة الرسول ﷺ قريب من ثلاثة أشهر.

بدء الهجرة

وعدل الرسول بصاحبه عن الطريق المعهود بين مكة والمدينة لأن قريشا سترصدهما فيه، واتجه به نحو الشمال الغربى بحذاء البحر الأحمر، وكانت قريش أشاعت فى قبائل الطريق إلى يثرب المكافأة التى رصدتها لمن يأتيها بمحمد. ولما مرَّ الرسول وأبو بكر بحىٍّ مدلج رآهما سراقة بن مالك المدلجى، فحدَّثته نفسه أن يأخذهما إلى قريش لينال جائزتها، وركب جواده وتبعهما، حتى إذا قرب منهما ساخت يدا فرسه فى الأرض إلى بطنها، وثار من تحتها مثل الدخان، فقال للرسول ﷺ ادْعُ لى يا محمد ليخلِّصنى الله، ولك علىَّ أن أردَّ عنك الطلب. ودعا الرسول، فتخلَّص. فعاد يتبعهما، فدعا الرسول عليه الثانية، فساخت قوائم

سراقة بن مالك وسِوارى كسرى

فرسه فى الأرض أشد من الأول، فقال: يا محمد قد علمت أن هذا من دعائك عليَّ، فادْعُ لى ربك أن يخلّصنى، ولك عهدُ الله أن أردّ عنك الطلب، فدعا له، فخلص، وقرب من الرسول، وقال له: يا رسول الله خُذْ سهما من كنانتى فإن إبلى بمكان كذا فخذ منها ما أحببت، فقال الرسول: لا حاجة لى بإبلك. وأسلم سراقة، ورأى أن يعود عنه، فقال له: كيف بك يا سُراقة إذا سُوِّرْت بسِوارَىْ كسرى، فقال سراقة: كسرى بن هرمز! قال الرسول: نعم. وسأل سراقة الرسول أن يكتب له كتابا بذلك. فكتب له أبو بكر رضى الله عنه، ويقال: بل عامر بن فهيرة. ورجع سراقة يردّ عن الرسول وصاحبه الطلب. ودارت السنوات وفُتحت إيران وأُتِى للخليفة عمر بن الخطاب بتاج كسرى وسواريه فطلب سراقة وحلاّه بسوارى كسرى، وقال له: ارفع يديك، وقل الحمد لله الذى سلب هذا كسرى الملك الذى كان يزعم أنه رب الناس وكساهما أعرابيا من بنى مدلج.

أم معبد

ومرَّ الرسول وأبو بكر فى هجرتهما بخيمة أم معبد الخزاعية – وكان القوم مجدبين – فقال الرسول لأم معبد: هل لديك لبن أو لحم نشتريه، فقالت: ليس عندها شيء، ونظر إلى شاة فى جانب من الخيمة خلّفها الضّنا عن الغنم، فسألها الرسول: هل بها من لبن؟ فقالت: هى أجهد من أن يكون فيها لبن، فقال الرسول ﷺ لها: هل تأذنين لى أن أحلبها، فقالت: بأبى أنت وأمى إن رأيت فيها لبنا فاحلبها. فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضَرْعها فدرَّت، ودعا بإناء يشبع الجماعة، فحلب فيه، حتى ملأه، وسقى كل من معه حتى ارتووا، ثم شرب، وحلب فيه مرة أخرى وشربوا. وهى كرامة كبرى للرسول.

واستمرت الرحلة فوق طرق صعبة غير طريق القوافل الممهّد بين مكة والمدينة، وكان أبو بكر قد أردف عامر بن فهيرة خلفه، وظل أمامهما عبد الله بن أريقط يهدى الرسول وصاحبه الطريق، وكان هاديا خِرِّيتا (دليلا ماهرا) بالطرق إلى يثرب. ولقى الرسول فى طريقه إلى يثرب بُرَيدة بن الحُصَيْب الأسلمى فى رَكْبٍ من قومه، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وجاءوه بلبن قليل

فشربه هو وأبو بكر، ودعا لهم بالبركة. ولقى الرسول فى الطريق أوس بن حُجْر الأسلمىّ، فلاحظ تعب ناقته الجدعاء فحمله على بعير له وأرسل معه غلاما اسمه مسعود ليرده إليه. وتذكُر كتب السيرة المواضع التى سلكها الرسول ﷺ وأبو بكر مع دليلهما بالتفصيل من مكة إلى يثرب، وكان قدومهما إليها معه فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة من ربيع الأول، وكان خروجهما من الغار فى الرحلة المباركة بأول يوم منه.

٣

بَدْء تكوين الأمة الإسلامية وإعلان دستورها

أ – بدء تكوين الأمة الإسلامية

ظل جمهور مكة – طوال مقام الرسول بها ودعوته إلى الإسلام فيها – وثنيا، وكان من دخلوا فى دين الله واعتنقوه أقلية بالقياس إلى جمهورها الوثنى الكبير، ولذلك لم يستطع الرسول أن يكوّن للإسلام فيها مجتمعا يتعاون أفراده على نصرة الإسلام ونشره والدفاع عنه؛ وهو ما أتيح له فى المدينة وعمل له، وحقّقه بحيث أصبحت المدينة والجزيرة العربية جميعها أمة إسلامية كبرى، وهو ما جعل عمر يتخذ الهجرة «بدء تاريخ الإسلام».

الهجرة بدء تاريخ الإسلام

ولنتتبع أعمال الرسول فى أوائل عهده لنزوله بالمدينة: كان أول نزول الرسول ﷺ فى يثرب بضاحية فى جنوبيِّها تسمى قُباء، وكان المهاجرون يخرجون من يوم إلى يوم انتظارا له، وكان أول من رآه يهودى على حصن له فنادى بأعلى صوته: يا بنى قَيْلة (أى الأوس والخزرج) هذا جَدّكم (أى حظكم) قد جاء، وخرج الناس لاستقباله، وازدحموا عليه ومعه أبو بكر وهم لا يميزونه منه، حتى زال الظل عن الرسول ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفوا الرسول عند ذلك.

ونزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهِدْم بقُباء وكان يلقى الناس بدار سعد بن خيثمة، وكانت منزل العُزَّاب من المهاجرين لأنه كان أعزب، وأقام بقباء أياما قيل أربعة، وقيل أكثر من ذلك وأسَّس بها مسجد قباء، وكان أول من وضع حجرا فى قبلته، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه بجانب حجره، ثم أخذ الناس فى البناء، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام. وجاءه عبد الله بن سلام من بنى قَيْنُقاع اليهود حين سمع بنزوله فى قباء، وقال كنت أعرف صفته واسمه وزمانه (أى من التوراة) وكان خبيرا عالما، والتقى بالرسول وأعلن إليه إسلامه ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم بالإسلام فأسلموا. وخرج رسول الله من قباء واتجه إلى المدينة فأدركته الجمعة فى منازل بنى سالم بن عوف، فصلاها بمسجد بَنَوْه فى بطن واديهم فكانت أول جمعة صلاَّها بالمدينة. وركب ناقته بعد الصلاة، وسارتْ، وأخذت قبائل المدينة تعترضه تبغى نزوله عندها، وهو يقول لهم دعوا الناقة، فإنها مأمورة، وبركت أمام دار أبى أيوب الأنصارى، وحمل رحله، فوضعه فى داره، ونزل عليه رسول الله ﷺ، وظل عنده سبعة أشهر حتى بنى مسجده ودوره أو مساكنه. ولما نزل فى بيت أبى أيوب نزل فى السُّفْل وأبو أيوب وزوجته فى العُلْو، والتمس منه أبو أيوب أن يكون فى السفل والرسول فى العلو، فقال له: إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت. ويقول أبو أيوب: كنا نصنع له العشاء ونبعث به إليه، وبعثنا إليه ليلة بعشاء فيه بصل أو ثوم فردَّه، لأن فيه رائحة البصل أو الثوم، فلم نعد إلى وضعهما فى عشائه. ويُقال إن أول هديَّة أُهديت إليه قَصْعة مثرودة خبزا وسمنا ولبنا جاءه بها زيد بن ثابت فأكل هو وأصحابه. ثم جاءت قَصْعة سعد بن عُبادة، وبها عظام عليها لحم، ويقال إنه ما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة وجَفْنة أسعد بن زُرارة كل ليلة، وجعل بنو النجار يتناوبون حمل الطعام إليه طوال مُقامه فى منزل أبى أيوب.

مسجد قباء

أول جمعة بيثرب

نزول الرسول على أبى أيوب

وكان بجوار بيت أبى أيوب مِرْبَد تمرٍ به نخل وزرع وحرث ومقابر، فسأل الرسول ﷺ لمن هذا المربد؟ فقال له معاذ بن عفراء هو – يا رسول الله – لسهل

وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان فى حجرى وسأرضيهما، فاتخِذْه كما تريد مسجدا، وقيل إن الذى قال ذلك للرسول أسعد بن زرارة. وأمر الرسول ﷺ ببناء مسجد فيه فقطع النخل وسُوِّيت المقابر، وكان الرسول ﷺ ينقل الحجارة إليه مع العاملين فيه، وجُعلت قبلته من اللِّبن، وقيل بل من حجارة منضودة بعضها فوق بعض، وجُعلت عُمُده من جذوع النخل وجُعِل سقفه من الجريد. وجدَّده عمر، وبناه عثمان بالحجارة المنقوشة، وبنى سقفه بالساج، وتأنق الوليد ابن عبد الملك فى بنائه بالفسيفساء والرخام. وكان مكان المسجد بوسط المدينة ولم يجعله الرسول معبدا للصلاة فحسب، بل جعله أيضا مركزا لالتقاء المسلمين فيه واستماعهم إلى تعاليم الإسلام وأوامره ونواهيه من الرسول، وكان ينظر فيه شئون الجماعة ويتقاضون فيه. وبذلك أصبح المسجد – لعهده – بيت عبادة لله ودار علم ودار قضاء، وظل ذلك بعده مما جعل المساجد فى العالم الإسلامى تستحيل إلى جامعات كبرى، كما استحال المسجد منذ عهد الرسول ﷺ إلى دار ندوة كبرى يجتمع فيها المسلمون لمعرفة الأخبار السياسية والحربية.

بناء مسجد المدينة بجوار دار أبى أيوب

المسجد دار عبادة وعلم وقضاء وتشاور

وبذلك كانت إقامة الرسول للمسجد أول عمل دعم به الرسول فكرة تكوُّن الأمة الإسلامية. وفى رأيى أنه فكر فى قيام هذه الأمة منذ البيعة الكبرى لأهل المدينة، فإنه جعل من مبايعيه اثنى عشر نقيبا ليتولوا تصريف الأمور فى هذه الجماعة الإسلامية الجديدة التى ستصبح – فيما بعد – أمة كبيرة، وكأنه اختار المسجد لها ليكون دار مشورتها ودار تدبير أمورها، ودار تعلُّمها، ودار قضائها، ودار الفتوى. وفى الطرف المقابل للقبلة شبه ظُلّة – سميت الصُّفّة – ملحقة بالمسجد تحملها جذوع النخل وهى بهوٌ واسع طويل مظلّل كان ينزل فيه فقراء المهاجرين المحاربين ومن ليس له منزل فى المدينة، وكأنما كانوا فرقة عسكرية مقيمة بالمسجد انتظارا للمشاركة فى الحرب أو لتنفيذ أى أمر من أوامر الرسول.

بدء تكوين الأمة الإسلامية

وواضح من ذلك أن إقامة الرسول لمسجده واتخاذه دار عبادة وتعلم وقضاء ودار فرقة عسكرية ودار ندوة كبرى لاجتماع المسلمين فيها وتشاورهم بها فى كل أمر خطير إيذان ضخم بقيام الأمة الإسلامية المتعاونة المجتمعة على دين

الإسلام ونصرته ضد أعدائه، وإن كانت الأمة صغيرة الآن لا تعدو أهل المدينة، فإنها فى الغد ستصبح فى عداد الأمم الكبرى بنفس مبادئ الإسلام وتعاليمه ومساجده التى وضع الرسول ﷺ بمسجده ما تؤديه من روابط دينية وتعليمية وسياسية وعسكرية واجتماعية بالمدينة. ومرَّ بنا أن الصلاة فُرضت فى أول البعثة المحمدية، وكانت ركعتين ركعتين كل صلاة، وقيل كانت ركعتين فى الغداة وركعتين فى العشىّ وأنها أصبحت أربع ركعات فى ليلة المعراج وفرضت فيها الصلوات الخمس، وقيل أيضا إن تحوُّل الصلاة من ركعتين إلى أربع إنما حدث بعد مقدم الرسول إلى المدينة بشهر. وتربط الصلاة بقوة بين أفراد الأمة عن طريق صلاة الجماعة بالمساجد، إذ يلتقى المسلمون بها مما يدعِّم الإخاء فى الأمة والشعور بين المسلمين بالمساواة، ويقول الرسول إن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة، ويقول إن خطوات المسلم إليها للصلاة فى المسجد إحداها تحط عنه خطيئة والأخرى ترفعه درجة، وتُتوَّج صلاة الجماعة أسبوعيا بفريضة صلاة الجمعة حيث يستمع المصلّون إلى خطبة الإمام فى صلاتها وما تحمل من موعظة. وكانت أول خطبة خطبها الرسول فى المدينة بقباء قوله بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

فريضة الصلاة

"أما بعد أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم تَعْلَمُنَّ، والله لَيُصْعَقَنَّ (أى ليموتن) أحدكم، ثم ليدعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولن له ربه، وليس له تَرْجُمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلّغك، وآتيتك مالا وأَفْضَلْتُ عليك، فما قدَّمتَ لنفسك؟ فلينظرنَّ يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرنَّ قدّامه فلا يرى غير جهنّم. فمن استطاع أن يقى وجهه من النار، ولو بشِقٍّ تمرة فليفعلْ، ومن لم يجد فبكلمة طيِّبة، فإن بها تُجْزَى الحسنة عشرَ أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

أول خطبة بالمدينة

وروى له ابن هشام فى سيرته خطبته الثانية فى المدينة، وهى لا تقلّ بلاغة وروعة عن هذه الخطبة. وفى أثناء بناء المسجد قدم على بن أبى طالب من مكة،

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة، ودفع إليهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها من أبى بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه ليحملا إليه ابنتيه: فاطمة وأم كلثوم، وزوجته سودة بنت زمعة، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط ببعيرين أو ثلاثة وكتب إلى ابنه عبد الله أن يحمل ابن أريقط أهله: زوجته أم رومان وابنتيه: عائشه وأسماء، وقدم زيد المدينة بزوجة رسول الله سودة وابنتيه، وبابنه أسامة وأمه: أم أيمن، وخرج مع زيد عبد الله بن أبى بكر بأهل أبى بكر المذكورين. ولما تم بناء المسجد أخذ الرسول ﷺ فى بناء بيوته، وكانت تسع حجر بعضها من جريد مطيّن بالطين وسقفها جريد، وبعضها من حجارة مرصوصة بعضها فوق بعض، وسقفها جريد أيضا. ولما توفيت أزواج الرسول خلطت البيوت بالمسجد فى عهد عبد الملك بن مروان. وكان سرير الرسول ﷺ خشبات مشدودة بالليف؛ وهى صورة رائعة من تقشف الرسول وزهده. وانتقل الرسول إلى منازله وحجره – حين بنيت – من دار أبى أيوب.

بيوت الرسول

ب – دستور الأمة

ونلتقى فى السيرة النبوية لابن هشام بكتاب عقده الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وادّعَ فيه اليهود وأقرّهم على دينهم وأموالهم، ويبدو أنه أراد به وضع دستور للنظام السياسى والاجتماعى للأمة بالمدينة، وهو يستهله بقوله:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم (أى آمن بدينهم) فلحق بهم وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة من دون الناس". والرسول يسمى المسلمين من قريش ويثرب أمة، مما يدل بوضوح على أنه كان يؤمن فى أعماقه بتكوينه – فى رسالته – لأمة إسلامية. وقال عقب ذلك: "المهاجرون من قريش على رِبْعتهم (أى على حالهم) يتعاقلون معاقلهم (أى يتكافلون فى كل ضرر يلحقهم من ديات وغيرها) وهم يفدون (يساعدون بالمال) عانيهم (أسيرهم والمحتاج) بالمعروف والقسط

(العدل) بين المؤمنين. وكرَّر الرسول هذه الصيغة مع ثماني قبائل للأوس والخزرج. وقال: إن المؤمنين المتقين على من بَغَى (اعتدى) منهم أو ابتغى ظلما أو إثما أو عدوانا أو فسادا بين المسلمين، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض. ومن تبع المسلمين واليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم. وإن المؤمنين يتساوون بعضهم مع بعض بما نال دماءهم في سبيل الله. ولا يجير مشرك (أي من بقى على إشراكه من الأوس والخزرج) مالا لقريش ولا نفسا. وإن من قتل مؤمنا عن بيِّنة فإنه قَوَد (قصاص) به إلا أن يرضى وليّ المقتول. وإنه لا يحلّ لمؤمن أن ينصر مشركا على مؤمن ولا يؤويه. وإنكم مهما اختلفتم في شيء فمردّه إلى الله ورسوله. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين" (ولم يعمل اليهود بهذا القانون مع أنهم يعيشون مع المسلمين في مدينة واحدة). ثم يقول الرسول: "وإن يهود بني عوفٍ أمة مع المؤمنين. ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم: مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته". ويعدِّد الرسول نفس الصيغة مع ثماني عشائر لليهود. ويقول: "إن البِرّ والوفاء به حاجز دون الإثم، وإنه لا يخرج منهم أحد عن هذا العهد إلا بإذن محمد. ولا ينطوى أحد على ثأر، وإن من قتل يقتل. وإن بينهم وبين المسلمين النصر على من حارب أهل هذه المدينة" (ولم يعمل اليهود بهذا القانون). ويقول الرسول: "وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذا الكتاب أو العهد. وإن الجار كنفس جاره لا يضار. وإن ما يكون بين أهل هذا الكتاب من حدث أو مشاجرة يخاف منها الفساد فمردّه إلى الله ورسوله. وإنه لا تُجار قريشٌ ولا من نصرها، وإن بين أهل يثرب النصر على من دهمها (هاجمها). وإذا دعوا إلى صلح استجابوا له. وإن يهود الأوس: مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل

هذا الكتاب. وإنه من خرج من المدينة آمنٌ ومن قعد آمنٌ إلا من ظلم وأثم". ويُختَمُ الكتاب بقول الرسول: "وإن الله جارٌ لمن بَرَّ واتقى ومحمد رسول الله".

وهذا هو الدستور الذى وضعه الرسول لأول مجتمع إسلامى، بل فى بدء التكون للأمة الإسلامية كما قال فى مطلعه، وهو يعلن فى فواتحه تضامن أفراد كل جماعة فى هذه الأمة فى كل جناية يرتكبها فرد منها وتفديته بأموالهم؛ وبذلك يربط الفرد فى الأمة بأهله، ويجب أن يأخذوا على يد كل ظالم ومُفْسِد، والمسلمون أمة واحدة فكل فرد فيها مولى لأخيه يشده إليه ولاء قويم من الدين لا من النسب كما كان الشأن فى القبيلة، وفى ذلك يقول القرآن: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. وتفتح الأمة أبوابها لأهل الكتاب من اليهود سكان المدينة، مما يعنى أن الإسلام دين عالمى يقرر حرية العقيدة، وقد قررها حتى للكفار ممن لم يحاربوه، مما جعل الرسول يطلب إلى ولاة البحرين والخليج العربى أن يأخذوا من المجوس الجزية كما يأخذونها من أهل الكتاب. وأن من قتل مؤمنا يُقْتَلُ به كما يقضى بذلك القود أو القصاص إلا أن يرضى ولى المقتول بما يقدمه إليه القاتل. والدستور بذلك يقرر حرمة الحياة وتحريم جريمة القتل ويجعل عقابها فى الدنيا القصاص سوى عقابها فى الآخرة. ولا يحلّ لمؤمن أن ينصر قاتلا أو يُؤويه. ويهود المدينة أو يثرب أمة مع المؤمنين أى أنهم جزء من أمتهم. وبذلك تعامل المسلمون – بعد الرسول فى مشارق الأرض ومغاربها – لا مع أهل الكتاب فحسب، بل أيضا مع الوثنيين، كما عامل الرسول مجوس الخليج العربى عبدة النار. ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم. والدستور يعلن حرية العقيدة، مما لم تستطع أوربا – حتى اليوم – أن تعتقده بدليل عدائها للإسلام الذى أراها أصحابه حين استولوا على الأندلس أكبر مثل للتسامح الدينى. وعلى اليهود والمسلمين النصر على من حارب يثرب، ونقض اليهود هذا القانون فى الدستور ولم يعملوا به يوما. كما نقضوا القانون التالى له: وهو إنفاقهم مع المؤمنين فى

عالمية الإسلام

التسامح الدينى

الحرب، ولم يعملوا به أيضا يوما. ولعل فى هذا الدستور الذى وضعه الرسول لأمته الإسلامية فى بدء تكوُّنها ما يدل بقوة على مقدرته العقلية الخارقة فى وضع مواد هذا الدستور الذى ظلت الأمة الإسلامية تعمل به على مدار السنين. وحرى برجال القانون – فى العصر الحاضر – أن يعنوا بدراسته ويكتبوا فيه البحوث الطوال.

٤

الإخاء والمساواة فى تكوين الأمة الإسلامية

صفا المقام للرسول ﷺ فى المدينة، فقد أصبح يعيش فى مجتمع إسلامى اتخذ منه إرهاصا واضحا لأمته الإسلامية الكبيرة المنتظرة، وأخذ يشيع فيه قيم الإسلام العظيمة، وفى مقدمتها الإخاء الصادق بين المسلمين و المساواة التامة، وهما قيمتان إنسانيتان عظيمتان.

أما الإخاء فقد طلبه الله ورسوله من المسلمين بحيث يكون رابطة حضارية تجمع بينهم فلا تنفك بين أفراد الأمة الإسلامية أبدا، والله – جلّ شأنه – يوثّقه فى الأمة توثيقا محكما بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وهو إخاء له واجبات من مثل رعاية الغنى للفقير وحقوق من مثل رعاية السليم للمريض. ويقول الرسول: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" فالأمة جميعها بنيان واحد مترابط يمسك بعضه بعضا، متساند كما تتساند الحجارة فى البنيان، وهو تساند يقوم على التآزر والتعاون إلى أقصى حد. ويضرب الرسول مثلا لما ينبغى أن يكون عليه أفراد الأمة الإسلامية من الإخاء المتبادل بينهم قائلا: "مثل المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى"، وهو مثل رائع لما ينبغى أن يستشعره المسلم إزاء أخيه المسلم من المودة والعطف والرحمة. ويجعل الرسول لكل عمل يقدمه المسلم

لأخيه يسد به حاجة أو يساعده فى محنة جزاء وافيا عند الله، وبالمثل من يستر عملا آثما لأخيه، يقول: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ومَنْ كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه بها كُربةً من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة"، وهى مكافآت تجعل كل مسلم يقوم بما ينبغى عليه لأخيه المسلم من تآزر وتعاضد وتعاون، ويقول الرسول ﷺ : "الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه".

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

والإخاء بذلك من أهم الأسس التى ثبّتها الله ورسوله فى الإسلام بين أفراد المسلمين وما ينبغى أن يشيع بينهم من المؤاخاة الصادقة المخلصة، ومن أعظم صورها فى صدر الإسلام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حين قدموا عليهم من مكة، فقد وسعوهم فى منازلهم، وقاموا لهم بحقوق الضيافة – بل بحقوق أخوة الإسلام – أشهرا متعاقبة؛ إذ نزل كل مهاجر عند شخص من الأوس أو الخزرج. وتحصى كتب السيرة النبوية المهاجرين ومن نزلوا عندهم وأسكنوهم معهم، ويذكر عبد الرحمن بن عوف المهاجر مدى إكرام سعد بن الربيع النازل عنده له، إذ يقول إنه عرض عليه أن يقاسمه ماله، ولم تهاجر معه زوجته، فعرض عليه أن ينزل له عن إحدى زوجتيه . ورأى رسول الله ﷺ أن يؤكد هذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد خمسة أشهر من مَقْدِمه إلى المدينة ليُذهب عن المهاجرين وحشة الغربة ويُؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، فأضاف إلى ما تقتضيه الأخوة العامة بين المسلمين من الحق والمواساة التوارثَ بين المهاجرين والأنصار، وآخى بذلك بين خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، وقيل بل كانوا خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار، فكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة دون القرابات حتى نزلت آية سورة الأنفال: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾، فقُدّمت قرابة ذوى الأرحام على قرابة الإسلام بل ألغتها فى الميراث إلغاء، وظلت أخوة الإسلام قائمة على الحق والمواساة وهو ما يجب لكل مسلم على أخيه بحيث يمكن أن يُسمّى الإسلام – كما أسلفنا – دين الإخاء .

المساواة أمام الله ولا كهنوت ولا طبقية

وهذا الأساس الإنسانى الكبير الذى أرسى الرسول عليه حياة الأمة الإسلامية أرسى معه أساسا إنسانيًا كبيرًا لحياة الأمة، هو أساس المساواة، فالناس جميعا متساوون أمام الله ولا يتوسط بينه وبينهم كهنوت من قساوسة ورهبان وأساقفة، وهم متساوون فى مجتمعات أمتهم دون أى طبقات، وألغى الإسلام ما وجد فى إيران والهند من الطبقات فى الأمة؛ فلا سيد ومسود ولا عصبية ولا قومية ولا جنسية ولا طبقية، إنما هى هوية واحدة تشمل جميع الأجناس والأعراق والألوان، هى هوية دين الإسلام والتقوى فيه، ويقول الله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فهم جميعا لأب واحد هو آدم، وأم واحدة هى حواء، وجعلهم الله شعوبا وقبائل ليعرفوا أنسابهم لا ليتفاخروا بها، وكل يفخر بقوميته أو بعرقه أو بجنسه، فكل ذلك باطل ولا انتماء إلا للدين ولا فخر أو لا فضل إلا بالتقوى . ويقول الرسول فى خطبة حجة الوداع: "أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ولا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى". وبذلك ألغى الإسلام – لأول مرة فى التاريخ – العنصرية والجنسية والقومية والعصبية واللون، ولا انتماء إلا للدين. وكان مقرَّبا إليه بلال الحبشى وسلمان الفارسى وصُهيب الرومى.

بشرية الرسول

وكان الرسول لا يستشعر أى هالة قدسية أو زمنية من سلطان أو مُلْك، وكان ينهى الصحابة عن المبالغة فى الثناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى بن مريم وقولهم إنه ابن الله، ويقول – كما أسلفنا –: إنما أنا بشر وعبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد، ولم ينعت نفسه بأى صفة إلهية أو قدسية. وقام رجل بين يديه، فأخذته رعدة شديدة وهيبة عظيمة فبادره قائلا له : هَوِّن عليك فإنى لست بملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد، وهو ما قُطِّع من اللحم ومُلِّح وجُفِّف فى الشمس. وسُرِّىَ عن الرجل وزال عنه التهيب ونطق بحاجته. وكان يكنس

بيته ويخيط ثوبه ويخصف نعله ويحلب شاته ويعقل بعيره ويأكل مع خادمه. وكان يحمل الحجارة في بناء مسجده حتى لا يتميز عن العمال فيه، وبالمثل شارك أصحابه في حفر الخندق بغزوة الأحزاب. وكان يجالس أصحابه من الفقراء والمساكين ويؤاكلهم ويعود مرضاهم، وكان يمشي مع الأَمَة والأرملة والمسكين في المدينة ليقضى لكل منهم حاجته. وكان المسلمون يقتدون به في هذه الصور من المساواة، واتخذوها قانونا اجتماعيا ملزما لكل مجتمعاتهم في أمتهم الإسلامية شرقا وغربا، فلا عنصرية ولا جنسية ولا أى فارق بين مسلم ومسلم فالجميع متساوون. وهو احترام قويم لآدمية المسلمين والبشر جميعا: أن يكونوا متساوين في جميع الحقوق والواجبات الدينية والاجتماعية والخلقية، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

الفصل العاشر

من الزكاة وزواج الرسول بعائشة
إلى وفد نصارى نجران

١

الزكاة – زواج الرسول بعائشة

أ – الزكاة

فُرضت الزكاة على الأمة الإسلامية عقب المؤاخاة التى عقدها الرسول بين المهاجرين والأنصار وهى عقد بين الله وأفراد المسلمين فردا فردا بحيث أصبحت مثل الصلاة جزءًا لا يتجزء من الدين، إذ يتحتم على كل مسلم فى يسار أن يؤديها للفقراء والمحتاجين إليها فى الأمة؛ فالمسلم لا يعيش لنفسه وحدها بل يعيش لها وللفقراء والبؤساء المساكين من أمَّته. ويتكرر فى القرآن الكريم الأمر مع الصلاة بالأمر مع الزكاة فى مثل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وهو يقول إن مثل حقى عليكم فى العبادة والصلاة حق إخوانكم من الفقراء والمحتاجين. والله – بذلك – يقيم فى حياة الأمة الإسلامية ركنا أساسيا من أركان الدين أن يترابط الأغنياء فيها والفقراء ترابطا اقتصاديا سليما بحيث لا ينعم غنى بثراء ويتمتع بطيبات الأرض ومتاع الدنيا ويمضى دون حق لأفراد الأمة المحتاجين يؤديه إليهم. وجعل الله هذا الحق ضريبة سنوية يقدمها الثرىّ إلى الفقير. وسُمِّى هذا الحق زكاة أى نماء، فهى لا تنقص مال الثرى بل تُنمِّيه وتزيده.

والإسلام – بذلك – يقيم قانون توازن وعدالة بين أفراد الأمة الإسلامية بحيث يصبح للفقير والمحروم حق معلوم فى مال الثرى الميسور بحيث يحس الفقير فى الأمة الإسلامية أنه لا يعيش وحده، بل إن فيها من يُعينه ويردُّ عنه بؤسه أو على الأقل شيئا منه. ولذلك كان أبو بكر الصديق مصيبا كل الإصابة حين عدَّ الزكاة مرادفة للإسلام وعدَّ من أنكرها من العرب كافرا قد كفر بربه حين جحدها وأنكرها، إذ رأى فى مُنْكِرى الزكاة من العرب لعهد خلافته خارجين على قوانين الإسلام وركنه الوطيد، بل لقد رآهم مرتدين تنبغى حربهم وردهم إلى الدين. وراجعه عمر بن الخطاب فى عزمه الصلب على قتالهم قائلا له: كيف تقاتلهم؟ وقد قال رسول الله ﷺ : "أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقّها". فردَّ عليه أبو بكر قائلا: أليس قد قال إلا بحقّها، لأقاتلنَّ من فرّق بين أداء الصلاة وأداء الزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال. ونشبت – فى عهده حروب الردة فى الجزيرة العربية – وانتصر أبو بكر وانتصرت قواعد الزكاة التى أرساها الله للإسلام. وحمل العرب – بعد أن انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى – روح هذه العدالة الاجتماعية فى الأمة الإسلامية إلى جميع البقاع والشعوب التى فتحوها، وطُبِّقت عليها قواعدها من حين فتوحها إلى اليوم، طوال أربعة عشر قرنا بل تزيد. ولم يُجْعَل قانون الزكاة ثقيلا بحيث يصعب على المسلمين تحمُّله، إذ كان – ولا يزال – العشر فى حصيدة الأرض التى تُزْرَع دون مئونة، ونصف العشر فى حصيدة الأرض التى تُزْرَع بالآلات، وربع العشر فى رءوس الأموال وفى عروض التجارة.

العدالة الاجتماعية

وهذا القانون إنما هو فى الزكاة الواجبة على كل مسلم سنويًّا. وبجانبها زكاة مندوبة، سماها الله صدقة من الصداقة كأنها تحدث نوعا من المودة بين المسلم الثرى وأخيه الفقير. وما يزال الله فى القرآن الكريم يرغّب المسلم فى عمل البر وفى كل طرق الخير ومنها الصدقة، ويقول: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾؛ فالحبة ليست بسبعمائة حبّة فحسب، بل إن

الصدقة

الله يزيدها أضعافا مضاعفة. ويأمر المتصدقين بأن لا يؤذوا من يعطونهم صدقاتهم بأى صورة من صور المَنّ، كأن يقولوا لهم لولانا لجُعْتم، وينبغى أن تشكرونا ونحو ذلك، ويقول الله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾؛ فالكلمة الطيبة خير من الصدقة المشفوعة بالمنّ والتطاول على الفقير، إذ تصبح صدقة ملوثة أو مُسمَّمة. ويقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، والله يأمر المتصدقين أن تكون صدقاتهم - إذا كانوا تجّارا - طيبة ولا شبهة فيها - وإذا كانوا زراعا - جيدة وليس فيها غشّ؛ فلا يتصدقون بخبيث المال والثمار والزروع، ويقول لهم إنكم لو أُعْطيتم شيئا من خبيث المال والزروع والثمار لأبيتموه ورفضتموه. ويقول للمتصدقين: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ فلا بأس أن يظهر المتصدق على الفقير صدقته ويعلنها، ولكن أفضل منها صدقة السر حفظا وصيانة لماء وجه الفقير. وكأن الله يرى الفقراء أبناءه وأحباءه، فهو يَنْهَى المتصدق عن المن والتطاول عليهم، ويأمره أن يتصدق عليهم من خير أمواله وزروعه وثماره، ويستحبّ لهم صدقة السر حتى لا يخدش المتصدق حياء الفقير أىّ خدش. ويسمِّى الله الزكاة والصدقة جميعا قرضا، فأنت لا تعطى زكاتك الواجبة عليك وصدقتك المتطوع بها للفقير، إنما تعطيها لله سُلْفة وقرضا. يقول - تقدَّس اسمه: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ وهو قرض مستثمر استثمارا عظيما، استثمارا إلهيا لا يماثله أى استثمار بشرى، إذ يَعِدُ - ووعده حق - أنه سيضاعف المُقرض على قرضه أضعافا كثيرة، ويقول إنه يقبض القرض ويبسط الجزاء ويتوسع فيه. وتلا الرسول هذه الآية على الصحابة، فقال له أبو الدحداح (من أغنياء الأنصار): أوَيريد الله منا القرض؟ قال الرسول: نعم يا أبا الدحداح. فقال له: أرنى يدك. فناوله الرسول يده قائلا: فإنى قد أقرضت ربى - عزَّ وجلَّ -

حائطي. وكان فيه ستمائة نخلة، فبشّره الرسول بالجنة. وفي حديث قدسي يعاتب الله يوم القيامة مسلما شحيحا طلب منه فقير طعاما فبخل به، يقول الرسول: "يقول الله – يوم القيامة – يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال ابن آدم: يا رب كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟". ويذكر الرسول سبعة يظلهم الله – يوم القيامة – يوم لا ظل إلا ظله، ويذكر منهم المتصدق حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. ويقول إن من يكتسب لأرمَلَةٍ أو مسكين دواما له أجر المجاهد في سبيل الله والمُصلّي الذي يصلي ليل نهار.

حلّ مشكلة الفقراء والأغنياء

وبهذا الركن الثابت في الإسلام ركن الزكاة الواجبة على المسلم والمندوبة فيما يؤديه للفقراء من الصدقات حلَّ الإسلام مشكلة الفقراء والأغنياء في الأمة الإسلامية، فلم يعد الفقراء يعيشون عالة على المجتمع بل أصبح لهم حق معلوم في الزكاة الواجبة ومندوب إليه في الصدقات، وهو حق أتاح للمجتمعات الإسلامية ضربا من العدل الاجتماعي لم يُتَح لمجتمعات الديانات السماوية قبله ولا لأي أمة؛ فقد أتيح للأمة الإسلامية وحدها لأول وآخر مرة وعَمَّت قواعده وقوانينه في جميع الشعوب الإسلامية من الهند إلى قرطبة في الأندلس. ورصد المسلمون للفقراء أوقافا كثيرة، وجعلوا لها في كل دولة من دولهم وزارة أوقاف ترعاها وتوزع منتوجها توزيعا خيريا سليما. وستظل البلاد الإسلامية أمينة عليه إلى أبد الآبدين لأنه ركن أساسي في الدين؛ وقوانينه راسخة فيه مستقرة في كيانه، إذ جعله الله عبادة له مثل الصلاة؛ وبذلك أرضى الإسلام الفقراء في دياره على مر العصور. وإذا قارنا بين هذا العدل الرباني والعدل الذي حاول زعماء الشيوعية نشره في العالم (في العصر الحديث) لاحظنا أن العدل الإسلامي الرباني يحترم حرية الإنسان في ماله مع التنازل سنويا عن جزء منه للفقراء نظير أجر أو ثواب كبير رباني، بخلاف العدل الشيوعي فإنه يقوم على القهر وحرمان الإنسان من ماله وإنتاجه المادي والفكري مع إلحاد مستمر على الله ودياناته؛ فكان طبيعيا أن يخفق في عقر داره: الاتحاد السوفيتي بعد سبعين عاما من تطبيقه.

ب – زواج الرسول بعائشة

قبل هجرة الرسول إلى المدينة بنحو سنتين أى بعد وفاة السيدة خديجة بمدة غير قليلة رأى الرسول أن يتزوج سَوْدَة أرملة صحابى هاجر إلى الحبشة وهاجرت إليها معه، وعاد معها إلى مكة ومات بها، فتزوج بسودة رسول الله توثيقا للمودة بينه وبين من هاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من طغاة ملّة الوثنيين. وفى الوقت نفسه خطب إلى صديقه أبى بكر ابنته عائشة، ولم يقترن بها قبل الهجرة، بل أجّل ذلك إلى ما بعد هجرته، وفى يوم الأربعاء من شوال فى السنة الأولى للهجرة بنى بها. ويتعلق أعداء الإسلام بما رُوِى خطأ من أن الرسول بنى بها، وهى بنت تسع سنوات قائلين كيف يبنى بصبية، وهو فى سن الخمسين، ولم يكن سنها تسعا، فقد نقل ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحاق أنها من أوائل من أسلمن وأنها أسلمت مع أختها أسماء التى كانت تحمل الطعام إلى الرسول وأبيها فى غار ثور، ويروى البخارى فى صحيحه عنها فى تفسير سورة القمر أنها تلت بعض آياتها وقالت إنها نزلت على الرسول وإنى لجارية ألعب بمكة، ومعروف أن سورة القمر نزلت على الرسول ﷺ فى السنة الخامسة من مبعثه، وقد مكث الرسول بعد نزول سورة القمر عليه ثمانى سنوات بمكة. ومعنى ذلك كله أن خبر بناء الرسول بها وهى بنت تسع سنين غير صحيح وأنها كانت فى نحو الثامنة عشرة على الأقل أو فى نحو العشرين، ووجدت فى الرسول دائما الرعاية الطيبة، وكانت فى منتهى الذكاء، ولها فضل كبير فى الحديث النبوى، فقد روى الثقاة عنها أكثر من ألفى حديث نبوى كان لها أثر مهم فى الشريعة الإسلامية.

سنّ عائشة عند الزواج

٢

الأذان – القبلة – الصيام – زكاة الفطر

أ – الأذان

لما استحكم الإسلام فى المدينة بعد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وبعد دستور الرسول للأمة أو معاهدته لهما ولليهود، شاور الرسول ﷺ أصحابه فى

الإعلام بالصلوات (وقيل كان ذلك في السنة الثانية) وكان الصحابة يجتمعون إليه في مواقيتها دون اتخاذ وسيلة للإعلام بها. وقال بعض الصحابة نتخذ ناقوسا كناقوس النصارى، وقال بعضهم نتخذ بوقا كبوق اليهود، وقال البعض الآخر نوقد نارا ونرفعها، فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة، وقال بعضهم نبعث رجلا ينادى بالصلاة. وبينما الرسول مشغول بهذا التشاور إذ رأى عبد الله بن زيد رؤيا للنداء بها، فأتى الرسول ﷺ فقال له: يا رسول الله طاف بى فى هذه الليلة طائف فى النوم: رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فسألنى ما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلّك على خير من ذلك؟ قلت وما هو؟ قال: تقول:

اللهُ أَكْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ.

أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـه إِلاَّ اللهُ. أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـه إِلاَّ اللهُ.

أَشْهَدُ أَنَّ مُحمدًا رَسُولُ اللهِ. أَشْهَدُ أَنَّ مُحمدًا رَسُولُ اللهِ.

حيَّ عَلَى الصَّلاةِ. حيَّ عَلَى الصَّلاةِ.

حيَّ عَلَى الفَلاحِ. حيَّ عَلَى الفَلاحِ.

اللهُ أَكْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ. لا إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ

فقال الرسول ﷺ : إنها لرؤيا حقٌّ إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذّن بها. وهو نداء يهز القلوب بحق فى كل مكان به مسلمون يؤدون الصلاة لربهم. الله أكبر من كل متاع دنيوى. ويقول ابن إسحاق: وكان الرسول ﷺ قد رأى نفس الرؤيا، ولذلك قال إنها رؤيا حق وكان عمر أيضا قد رأى نفس الرؤيا، وفوجئ ببلال ينادى بالأذان للصلاة، فذهب إلى الرسول ﷺ ، ليخبره بما رأى فقال له: سبقك بها الوحى. وكان الأذان رؤيا صادقة للرسول طابقت رؤيا

بلال والأذان

لعبد الله بن زيد الخزرجى ولعمر بن الخطاب. وظل بلال يردّد نفس الأذان فى الصلوات الخمس طوال حياة الرسول ﷺ ، واعتزله بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، وخرج مجاهدا مع جيوش الفتوح فى الشام، والمرة الوحيدة التى أذّن فيها بعد اعتزاله أذانه حين زار الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس حين أبى قسُسُها ورهبانها تسليمها إلا إليه، وبينما هو جالس مع القسس عصرًا همس شخص فى أذنه: إن صلاة العصر ستفوت. وكان مع القسس فى كنيسة القيامة، فقالوا له لتصلِّ هنا فى الكنيسة. فقال لهم: كلاّ، إنى أخشى أن يحوِّلها المسلمون مسجدا بحجة أنى صلّيت فيها. وصلّى العصر بجوارها، وأذّن بلال له فى موقع صلاته الذى تحوّل إلى مسجد باسم مسجد عمر ببيت المقدس. والأذان يبدأ بالتكبير وتليه الشهادة بوحدانية الله ورسالة رسوله وتليهما المناداة إلى الصلاة والفلاح بكلمة "حيّ" بتشديد الياء وفتحها أى أقبلْ. ويختم الأذان بوحدانية الله: الدعوة الأساسية للإسلام، ويهتف به المؤذّنون من مآذن المساجد جميعا فى العالم خمس مرات فى اليوم مع كل صلاة.

ب – القبلة

كان الرسول يولّى وجهه فى الصلاة طوال مقامه بمكة نحو بيت المقدس الذى بناه سليمان رسول بنى إسرائيل وملكهم فى القرن العاشر قبل الميلاد، وأصبح منذ هذا التاريخ دار أنبياء بنى إسرائيل. وكان الرسول يَتّجِه إليه فى صلاته – كما قلنا – بمكة، وقيل إنه كان يتجه فيها إلى الكعبة أو يجعلها بينه وبين بيت المقدس. والقولان ضعيفان، والصحيح – كما رُوى عن ابن عباس – أنه كان يتجه حينئذ إلى بيت المقدس، وكان من الصحابة من يرى أنه من الأفضل الاتجاه فى الصلاة إلى الكعبة بيت إبراهيم وابنه إسماعيل أبى العرب العدنانية، ويمثلهم البراء بن معرور الأنصارى الذى أسلم على يد مصعب بن عمير، وكان أحد كبار رجالات الوفد اليثربى الكبير المؤلف من ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين لبيعة الرسول بيعتهم الثانية الكبرى كما مرَّ بنا، وكان طوال رحلته مع الوفد من

المدينة إلى مكة يتخذ الكعبة قبلته فى صلاته رافضا أن يتجه فيها إلى بيت المقدس، وذكر ذلك للرسول حين لقيه، فقال له: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها يريد الرسول قبلة بيت المقدس، غير أنه لم يأمره بإعادة الصلاة، وارتضى صلاته.

ولما نزل الرسول المدينة ظل خمسة عشر شهرا يتخذ قبلته فى الصلاة بيت المقدس، أى حتى شهر رجب من السنة الثانية، إذ صلّى الظهر بأصحابه وتحول بعد ركعتين منه مستقبلا الكعبة فى الركعتين التاليتين وتحوّل معه المصلّون وأصبحت الكعبة قبلةَ المسلمين فى الصلاة، فجميع المسلمين فى بقاع الأرض يتجهون إلى الكعبة يوميا خمس مرات، وإذا عرفنا أن التوراة ليس فيها قبلة لليهود وبالمثل ليس فى الإنجيل قبلة للنصارى عرفنا قدر الإسلام وأنه وحّد أمته توحيدا لا يماثله توحيد باتجاه جميع أفرادها فى مشارق العالم ومغاربه إلى الكعبة مرارًا وتكرارًا كل يوم من الصباح إلى المساء.

الكعبة قبلة المسلمين

وكان الرسول ﷺ - قبل اتخاذه الكعبة قبلة للصلاة - يردّد نظره إلى السماء، ينتظر الوحى من ربه، ليعلم هل يجيز الله له أن يتخذ الكعبة قبلةً له، ونزل قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أى لنُوَجِّهنَّك إلى قبلة تودُّها، وهو وعد كريم من الله لرسوله وقد أنفذه سريعا، إذ قال له: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى فاتجه فى صلاتك نحو الكعبة ﴿وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وهو أمر للمسلمين أن يتخذوا الكعبة قبلة لصلاتهم. ويقول الله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، إذ يعلمون أن الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل لعبادة الناس لربهم وتوحيده، فهى أقدم بيت دينى وُضع للناس كى يعبدوا فيه ربهم، والكعبة لذلك أَوْلَى من بيت المقدس المبنى فى عهد سليمان لتكون قبلة للرسول والمسلمين. ويكرِّر الله فى آيات تالية لهذه الآية الأمر بالتوجه فى الصلاة إلى المسجد الحرام، يريد الكعبة، ويقول الله إنه حوّل قبلة الصلاة لكم من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ والمراد بالناس اليهود والمشركون، فقد كان

اليهود يقولون إنه يصلّى إلى بيت المقدس ولا يتبع ديننا. وكان المشركون من العرب يقولون إن محمدا يذكر أنه على مِلّة إبراهيم ويخالف قبلته؛ فانقطعت حجة اليهود والمشركين جميعا بتغيير قبلة المسلمين فى الصلاة إلى الكعبة إلى أبد الآبدين.

خطأ المستشرقين

ويخطئ بعض المستشرقين فيزعم أن محمدا لما رأى اليهود لا يبغون مهادنته بدّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وهى أول بيت دينى بناه إبراهيم وابنه إسماعيل لعبادة الله منذ أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، ومن العجب أن بعض اليهود يقول إن السور المكّية لا تحمل إشارات إلى الحنيفية دين إبراهيم ولا إلى إبراهيم. أما أن الرسول غيّر القبلة حين اختلف مع اليهود فتكذّبه الآيات السالفة وأن الله هو الذى بدّلها للرسول والمسلمين. وأما أنّ السور المكّية ليس فيها إشارة إلى الحنيفية ولا إلى إبراهيم فتكذّبه سورة الأنعام المكية – فضلا عن سورتى يونس والروم المكّيّتين – فقد ذُكر فيها أربع مرات فى حوار مع أبيه ينكر عليه عبادة الأصنام ومع قومه ينكرون عليه عبادة الله، ومع نفسه فى إيمانه بالله مستدلا عليه بأن النجوم وكوكبى القمر والشمس تَغْرُب جميعا فلا تصلح أن تكون آلهة، ويبدو أن قومه كانوا صابئة يعبدون الكواكب. ويقول الله لرسوله فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فمنذ دعا الرسول إلى الإسلام كان على ملة إبراهيم حنيفا أى مائلا عن عبادة الأوثان مثله، ولذلك سُمّى الإسلام دين الحنيفية. ويقول الله فى نفس السورة لرسوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ من اليهود والنصارى ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أى أنك لا تتبعهم بل تتبع إبراهيم ورفضه لعبادة الأصنام حنيفا عابدا الله وحده.

القبلة توحد المسلمين فى جميع بقاع الأرض

وبدون ريب أراد الله بتبديل القبلة أن يصبح الإسلام دينا مستقلا تمام الاستقلال عن اليهودية والنصرانية، له هوية تُميّزه، وإن اشترك معهما فى أصول الدين وعبادة الله وحده. ولم يحاول أى دين من الديانات أن تكون له ولأتباعه قبلة معينة فى صلاتهم توحّدهم، والمسلمون فى كل بقاع الأرض فى جميع

القارات يتجهون إلى الكعبة كل يوم لأداء فروض الصلوات الخمس فى أى مكان هم فيه، شرقا أو غربا، وشمالا أو جنوبا. وعلى كل مسلم – إن استطاع – أن يَقْدِمِ إلى الكعبة للحج مرة فى حياته ويطوف بها ويصلّى فى الحرم المكى بجوارها مع القادمين إليها من أطراف الأرض.

جـ – الصيام

فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فُرض صوم شهر رمضان، وهو الشهر التاسع فى السنة القمرية العربية التى تفتتح بشهر المحرم، وله فضيلة على جميع أشهر السنة بأول نزول للقرآن الكريم فيه، يقول الله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وإرشادا لهم كى يؤمنوا بالله ورسوله ودينه الحنيف ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أى ودلائل واضحة هادية وفارقة بين الحق والضلال ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أى فمن حضره فى بلده فَلْيصُمْه فهو فريضة واجبة على كل مسلم ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فى شهر غيره ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. وبذلك ذكر الله رخصة الإفطار فى شهر رمضان وأعقبها ببيان عام فى الشريعة الإسلامية هو أنها تقوم على اليُسْر، فهو أصل راسخ فيها تخفيفا على المسلمين ورفقا بهم.

قيام شريعة الإسلام على اليسر

ومعنى الصيام فى اللغة الإمساك، ومعناه فى الإسلام وشريعته الإمساك عن الطعام والشراب وغيرهما من المفطرات من الفجر إلى غروب الشمس. وهو رياضة روحية للمسلم البالغ على ترك الشهوات والملذات طوال شهر يتجه فيه إلى ربه، يعبده حق عبادته آملا فى أن يحقق لنفسه التقوى كما قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وليس الغرض من الصيام إذن مجرد الإمساك عن الطعام والشراب، بل الغرض التقوى وتسامى الإنسان عن المتاع المادى إلى المتاع الروحى إعلاء لروحه على جسمه وسموًّا بإنسانيته وما يُشْعره الصيام به من عون

الصيام سمو روحى

الفقراء والمحتاجين؛ فيمد إليهم يد المساعدة بالمال والطعام، ويقول الله في حديث قدسي: "كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لي، وأنا أجزى به". والصيام مع هذا الجزاء الرباني يفتح أبواب الجنّة للصائم وقاية له من الانهماك في الملذات، وتطهيرًا لنفسه من شغفها بالشهوات، وهو في الوقت نفسه تدريب قوي لتمرين المسلم على الصبر وتحمل المشاقّ في حياته، وخاصة في الحرب. والصيام - بذلك كله - تربية عظيمة للمسلم وسمو بروحه وإنسانيته، سوى ما يحظى به من العطاء الرباني.

د - زكاة الفطر

وبعد فرض الصيام في رمضان فُرضت زكاة الفطر على الصائم بحيث تخرج عن الصغير والكبير والذكر والأنثى، ومقدارها عن كل فرد إطعام فقير في يوم العيد تخفيفا عنه من فقره وبؤسه، ويدخل ذلك في القرض الحسن الذى وعد الله مُقرضه بمضاعفته له أضعافا كثيرة. وكان الرسول ﷺ يصلي العيدين: الفطر والأضحى قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. وكان يشترى كبشين لعيد الأضحى. وإذا صلّى وخطب أتى بأحدهما، وذبحه بيده بالمدية، وقال: هذا عن أمتي جميعا، مَنْ شهد لله بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ. ثم يُؤْتَى له بالآخر فيذبحه ثم يقول: هذا عن محمد وآل محمد. وكان يأكل منه هو وأهله ويطعم المساكين.

٣

احتدام جدل اليهود

لم يكن اليهود يرتضون معاهدة الرسول بين المهاجرين والأوس والخزرج من جهة وبينهم ومعهم مشركو يثرب من جهة ثانية، وعادوا يفكرون في الأمر، وخاصة أن المعاهدة نَصّت على أن يسود في الأمة السلام وأن لا يُجير اليهود والمشركون لقريش مالا ولا شخصا وأن تتضامن يثرب بكل سكانها على من يحاول الاعتداء عليها، فهم أمة واحدة من دون الناس. وزاد في قلقهم أن حَبْرًا

من أحبارهم هو عبد الله بن سلام أسلم وجعل أسرته تسلم معه، وأسلم بعض اليهود فخشوا أن يشيع الإسلام فى جماعتهم، فهل يتركون عقيدته تنتشر بينهم أو يبادرون بمعارضتها وبيان أن محمدا ليس رسولا من قبل الله؟ ولكن كيف يعارضونه، وهم كثيرا ما كانوا يستفتحون ويستنصرون بنبى يُبْعث للأوس والخزرج حين ينشب خلاف بينهم قائلين لهم إنه تَقارَب زمانُ نبىٍّ يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، وهو ما جعل الأوس والخزرج حين بعث الله رسوله محمدا تُسرعان إلى إجابته والإيمان برسالته، بينما كفر به اليهود كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة فى التوحيد أصل عقيدتهم ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ به من الأوس والخزرج الوثنيين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾. ويقول الله فى سورة آل عمران ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ويقول: ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

زعم اليهود بأن رسولا سيبعث وينصرهم

وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ جعلهم فى معاهدته التى وضعها دستورا للأمة جزءًا لا يتجزأ منها، وأن الأجزاء الأخرى من المهاجرين والأنصار تردّ معهم كل عدوان عليهم، لم يلبث اليهود أن صمّموا على الكيد له وللإسلام، فهم أولا يجادلونه فى نبوّته وأنه ليس مرسلا من قِبل الله، وهم يطلبون منه إن كان رسولا حقا معجزات كمعجزات رسولهم موسى، وهم يصدُّون اليهود وغير اليهود عن اعتناق الإسلام، وهم يحاولون رِدّة الأوس والخزرج إلى دينهم الوثنى والعودة إلى نشوب الحرب بينهما كما كانوا فى الجاهلية، وهم لا يجادلون فى الدين الرسول وحده، بل يجادلون معه الصحابة.

معارضة اليهود

ويحتدم الجدال بينهم وبين الرسول ويقف معه القرآن على نحو ما نرى فى الجزء الأول من سورة البقرة، إذ يصوِّر الله نِعَمَه عليهم فى عهد موسى، وهم ينحرفون معه عن الصراط المستقيم، حتى لقد عادوا – حين غاب عنهم أربعين يوما فى جبل الطور لحمل وصايا الله لهم فى التوراة – إلى عبادة عجل أبيس

رد القرآن على اليهود

الذى كانوا يعبدونه فى مصر، وصنع له السامرىُّ تمثالا له عكفوا على عبادته إلى أن رجع إليهم موسى وعنّفهم على كفرهم بالله. وظلوا يعصونه مرارًا، ويعدِّد الله ما أغدقه عليهم من النعم، وفى أثناء ذلك يردُّ عليهم جدالهم للرسول ومزاعمهم، من ذلك ما زعموه من أنهم لن يُعذّبوا فى النار إلا أياما معدودة، بعدد الأيام الأربعين التى عبدوا فيها العجل، بل قالوا إن الدنيا ستعمر سبعة آلاف سنة وسيُعذب يوما عن كل ألف سنة، ورد الله عليهم هذا الزعم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا... أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، وهو رد فيه سخرية شديدة إذ لم يعطهم الله عهدا بذلك بل يفترون عليه. وأكثر من ذلك أنهم زعموا أن نعيم الآخرة فى الجنة خاص بهم ولن يناله أحد سواهم، وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، إذ قدمت أيديهم كثيرا من الذنوب والآثام ولذلك يخافون من الموت أشد الخوف لما سينزل بهم من العذاب. وكانوا يُكثرون من جدال الرسول قائلين: إن الله لم ينزل على الرسول القرآن، وأنه افتراء من عنده على الله. وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾. ومما تحدُّوه به قولهم له: ائتنا بكتاب ينزل عليك من السماء كما نزلت التوراة على موسى، فأنزل الله ردا عليهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وفى القرآن كثير من الأسئلة التى كانت تُفضى بهم إلى الكفر، كقولهم لموسى ما ذكر الله فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾. وفعلا طلبوا ذلك من الرسول، فقالوا له: يا محمد إن كنت رسولا حقا من عند الله فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله فى ذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ من اليهود ﴿لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وكثير منهم كانوا يحسدون الرسول لنزول الوحى بالقرآن على رجل من العرب، ولم ينزل على رجل منهم كما نزل على موسى وعيسى وأنبيائهم. وكانوا يحاولون أن يردوا من أسلم من الأوس والخزرج إلى الوثنية، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. ولما صُرِفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة - كما مرَّ بنا - أتى نفر من اليهود إلى الرسول فقالوا له: يا محمد ما ولاّك عن قبلتك التى كنت عليها؟ قبلة بيت المقدس - محتجّين عليه بأنه يزعم أنه على مِلّة إبراهيم ودينه - فارجع إلى قبلتك التى كنت عليها. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ أى اليهود ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى أن الجهات فى الأرض ملك لله. ومعروف أن بيت المقدس بناه سليمان بعد بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة بنحو ألف عام.

وهذه أطراف مما رواه ابن إسحاق فى السيرة مما يتصل ببعض آيات القرآن فى الجزء الأول من سورة البقرة، وفى سور القرآن - خصوصا الطوال - جدل مماثل لليهود فى بعض آياتها، من ذلك أن نفرا من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فكلّموه وكلّمهم، ودعاهم إلى الله وحذّرهم نقمته، فقالوا: لا تخوّفنا يا محمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه، فنزل فيهم وفى أمثالهم من النصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾. ودعا رسول الله بعض اليهود إلى الإسلام، وحذّرهم عذاب الله وعقابه، فرفضوا دعوته، فقال لهم بعض من كان مع الرسول من الأنصار: يا معشر يهود اتّقوا الله فوالله إنكم تعلمون إنه رسول الله، إذ كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، فقالوا لهم ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ

وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وأتى رهطٌ من اليهود إلى رسول الله، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله غضبا شديدا، فأنزل الله ردا عليهم سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

جدل اليهود

ولم يكن اليهود يجادلون الرسول وحده، بل كانوا أيضا يجادلون الصحابة ويبتغون فتنتهم وأنّى لهم؟! من ذلك مجادلة أبى بكر وفنحاص أحد أحبارهم، فقد دخل أبو بكر يوما بيت المدراس الذى يتدارسون فيه التوراة وتجادل معه، وكان مما قاله فنحاص له: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا الربا. فغضب، وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا، وقال: والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدوّ الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما؛ إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غَضِبْتُ لله مما قال وضربت وجهه. فأنكر ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردًّا عليه وتصديقا لأبى بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

منافقون من اليهود

ودسَّ اليهود بين المسلمين نفرا منهم يتظاهرون لهم بأنهم مسلمون وهم يبطنون اليهودية والكفر بما جاء به الإسلام بقصد تشكيك المسلمين فى دينهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى لعل المؤمنين يرجعون إلى دينهم الوثنى. واستجاب لهم نفر منهم كانوا ما يزالون يوردون على المسلمين ما يحاولون به تشكيكهم فى دينهم. وكانوا يُكثرون من

أسئلة الرسول كيدا له. فكان يردّ كيدهم فى نحورهم ويفحمهم المرة تلو المرة. وكان المسلمون حين يعظهم الرسول يقولون له راعنا أى زدنا وارفق بنا، وكان اليهود يستخدمون نفس الفعل من الرعونة أى الحمق سبًّا وشتما لمحدّثهم، فانتهز الفرصة منافقوهم المتظاهرون بالإسلام فكانوا يستخدمونه كثيرا فى خطاب الرسول، فنزل القرآن يقول للمسلمين: ﴿لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أى زدنا وارفق بنا. وكان الرسول يعرفهم، واجتمعوا فى المسجد يوما لاستماعه وكان يعرف أنهم يهزأون بما يسمعون، فأمر بطردهم من المسجد فأُخرجوا إخراجا عنيفا. وكان يماثل هؤلاء المنافقين من اليهود منافقون من الأوس والخزرج سماهم مؤلفو السيرة، وفى مقدمتهم عبد الله بن أُبَىّ الخزرجى، وكان قومه قد فكروا فى توليته بعد حرب بعاث بين الخزرج والأوس مَلِكا عليهم ليحقن دماءهم، وجاءهم الله برسوله فانصرفوا عنه إلى الإسلام، فدخله كارها على نفاق وضغن شديد، وندّت منه أشياء تغضب الرسول والمسلمين، وظل الرسول – بخلقه الكريم – رفيقا به ويعفو ويصفح حتى وفاته.

منافقون من الأوس والخزرج

٤

وفد نَصارى نجران

فى أثناء احتدام الجدل بين الرسول واليهود فى السنة الثانية قدم على رسول الله ﷺ وفد من نصارى نجران، فيه العاقب أميرهم وصاحب مشورتهم، واسمه عبد المسيح، والسيد القائم بأمورهم وشئونهم، واسمه الأيهم، وإمامهم وحبرهم وأسقفّهم واسمه أبو حارثة. وكان الوفد مؤلفا من ستين شخصا نصرانيا، ودخلوا على رسول الله مسجدَه، وأخذوا يعرضون عليه عقيدتهم وأن المسيح هو ابن الله، وهو ثالث ثلاثة، وجاء اليهود يستمعون إلى حوارهم، وأخذوا يناقشونهم مع الرسول فى عقيدتهم. وبذلك قام فى المدينة مؤتمر كبير للديانات الإلهية الثلاث: اليهودية وإنكارهم للإسلام والمسيحية وكل ما يتصل بعقيدتها النصرانية وما يقولون به من ألوهية عيسى وأن الله ثالث ثلاثة والإسلام وما

مؤتمر للديانات الإلهية الثلاث

يعتقد به المسلمون من وحدانية الله وحدانية مطلقة. وكان أول سؤال وجَّهَهُ وفد نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ بمن يؤمن المسلمون من الرسل وتؤمن معهم، فقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. ولما ذُكر عيسى جَحَد اليهود نبوَّته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به. وكنا نتمنى لو أن حوار هذا المؤتمر وصل إلينا كاملا، فقد أوجزه ابن إسحاق في السيرة وتبعه مؤلفوها بعده، غير أن الآيات المائة الأولى في سورة آل عمران ذكرت كثيرا من الإشارات إلى هذا الحوار، ومما سجَّلته الآية رقم ٢١ في السورة على اليهود أنهم يقتلون النبيين بغير حق، وسجَّلت عليهم الآية رقم ٢٤ أنهم قالوا لن تمسَّنا النار إلا أياما معدودات، كما سجَّلت الآية رقم ٣٣ الإشادة بآل عمران آل مريم وعيسى ردًّا على اليهود، وسجَّلت كثرة من الآيات قصة مريم وابنها عيسى التي يكذِّبها اليهود، وسجَّلت الآية رقم ٧٢ دسَّهم نفرا منهم يعلنون أنهم مسلمون نهارا ثم يكفرون بالإسلام في آخره نفاقا محاولين تشكيك المسلمين، إلى غير ذلك من آيات تكذبهم وخاصة فيما ادعوه من يهودية إبراهيم.

الرد على اليهود

أما النصارى فقد كثرت الآيات التي تشير إلى حوارهم في عقيدتهم وأن الله ثالث ثلاثة، والله يفتتح السورة بقوله: ﴿آلم. اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فالله منزَّه عن أن يكون له شريك في أمره كما يزعمون، وهو حي لا يموت، وهم يقولون إن عيسى مات وصلب، وهو قيوم لا يزول عن سلطانه، وقد زال عيسى عن الدنيا. ومما ردَّ به الرسول على ما زعموه من ألوهية عيسى ما جاء في الآية السادسة من السورة نفسها عن الله، إذ تقول: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهم لا ينكرون أنه صُوِّر في رحم أمه مريم مثل غيره من بني آدم، فكيف يكون إلها؟ ونزَّه الله نفسه عن هذه البشرية، فقال: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تأكيدا لوحدانيته. ويعود الله إلى تأكيد وحدانيته في الآية رقم ١٨ وأنه شهد بها الله والملائكة

حوار نصارى نجران في عقيدتهم المسيحية

وأولو العلم. ومنذ الآية رقم ٣٣ يعرض الله قصة آل عمران ويقرنهم إلى آل إبراهيم لبيان طهرهم، ويذكر أن امرأة عمران حين حملت بمريم دعت الله أن يهبها غلاما تنذره لخدمة بيت المقدس، وولدت مريم فطهَّرها الله واصطفاها على نساء العالمين، وبشرها بكلمة منه اسمه المسيح عيسى، وعلَّمه الكتاب والحكمة وأرسله إلى بنى إسرائيل. واحتجَّ وفد نصارى نجران لألوهيته بخَلْقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا وبإبرائه الأكمه (الأعمى الأصم) وإحيائه الموتى وإعلامهم بما يدخرون فى بيوتهم، فيقول الرسول إن ذلك كان بإذن الله كما فى الآية رقم ٤٩ من السورة. ومما حاوروا فيه الرسول من ألوهية عيسى أنه ليس له أب مما يدل على أنه ليس خالص البشرية، ولذلك قالوا إنه ابن الله، فاحتج عليهم بآدم، وأنه ليس له أب ولا أم فهو أولى من عيسى بالألوهية، وهو قوله تعالى فى السورة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. وزعم اليهود افتراء على إبراهيم أنه كان يهوديا وردَّ عليهم النصارى قائلين إنه كان نصرانيا وردَّ عليهم الرسول بأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، إذ عاش قبل موسى وعيسى، إنما كان حنيفا وملَّته الحنيفية، وهى ملة التوحيد وملة الإسلام والمسلمين، يقول الله لهم فى الآية رقم ٦٧: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾. ولما كثر جدالهم للرسول دون أن يذعنوا للحق مكابرة ومماراة أمر الله رسوله أن يدعوهم إلى المباهلة، وهى الدعاء بلعنة الله على الكاذب إلجاء لنصارى نجران أن يعترفوا بالحق، وذلك قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَاوَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أى ندع الله باللعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، وأبوا المباهلة خوفا من عاقبتها عليهم، وحينئذ طلب الرسول ﷺ من النصارى أن يصطلحوا معه على عبادة الله وحده، وارتضوا أن يؤدوا للرسول – كأهل ذمة فى أمته – الجزية. وبذلك دان نصارى نجران اليمنية للرسول وللإسلام والمسلمين، وأسلموا – فيما بعد – على يد خالد بن الوليد.

الفصل الحادى عشر

من حملات الغرب على حروب الرسول إلى بعث عبد الله بن جحش

١

حملات الغرب المسيحى على حروب الرسول

معروف أن المسيحية تدعو إلى الزهد فى الحياة زهدا يؤول بالمخلص لها إلى اعتزال العالم، وهو ما هيَّأ لمصر حين اعتنقتها أن تؤسس نظام الرهبنة والأديرة الذى انتشر منها للعالم، ومفروض فيه أن رجل الدين المسيحى لا يفكر فى السلطة وفرض نظام سياسى يعمل له، إنما يحصر تفكيره فى الحياة الروحية. ومع ذلك نجد الكنيسة المسيحية فى أوربا لآخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث تخلط بين تلك الحياة والحياة السياسية، مما ترتب عليه صدام شديد بين الكنيسة والدولة أو السلطة الزمنية، وظل هذا النظام أو النزاع إلى أن تمَّ الفصل بين الكنيسة والدولة على نحو ما هو معروف.

حياة المسيح

وكانت حياة المسيح حياة محن وآلام تحمَّلها من معاصريه اليهود، وانتهت - فى اعتقاد المسيحيين - بصلبه، وهذا التصور لصلبه وما عاش فيه من آلام ومحن جعلت الكنيسة تتحمل الاضطهاد الذى عانته فى قرونها الأولى، كما جعلتها تبثُّ فى روح المسيحيين رفض الدنيا والمتاع بالآلام مما هيَّأ فى الغرب لعصر الاستشهاد فى سبيل المسيح، الذى لم يشغل بالتفكير لشعبه فى نظام

سياسى أو اجتماعى إذ كان النظامان قائمين فى فلسطين بيئته وفى الدولة الرومانية الحاكمة لها وكان يعمّ فيهما نظام حضارى ثابت فلم يفكر المسيح فى فرض نظام حضارى جديد على فلسطين؛ وبذلك كانت حياته حياة روحية صافية.

ضرورة الحرب فى الإسلام

ولابد أن نتعرف على حياة الرسول والعرب قبل أن نقارن بين المسيحية والإسلام ونتحدث عن ضرورة الحروب فى نشر الإسلام، فقد كان الرسول زاهدا ويدعو إلى الزهد مثل عيسى، إذ كان فى المدينة لا يمسك من المال إلا بقدر حاجته فى يومه، وكان ما يأتيه من المال صباحا لا يُبْقى منه شيئا حتى منتصف النهار، وما يأتيه مساء لا يبقى منه شيئا حتى الصباح، وأحيانا لم يكن عند زوجاته طعام يهديه إلى فقير، ووصاياه كثيرة بعون الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وأبناء السبيل والبؤساء، وكان يقول: أول من يدخل الجنة الفقراء والمساكين. وأقام نظاما من العدالة الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء، وجعل للأولين حقًّا معلوما فى أموال الأخيرين يُؤدَّى إليهم سنويا باسم الزكاة، وأضاف إليها الصدقة وجعلها القرآن قرضا حسنا لله. وبذلك وضع الإسلام نظاما لحل مشكلة الفقراء والأغنياء فى المجتمع، وهو ما لم يفكر فيه عيسى ولا رسول قبله، وبذلك يحمل الإسلام بحق – إصلاحا اجتماعيا واسعا لأمته.

وتدلُّ معاهدته التى وضعها بين المهاجرين والأوس والخزرج واليهود التى مرّت بنا على ما أراد لهم من الائتلاف ولذلك سماهم الأمة، وجعل مرجع الخلاف بين أفرادها والحكم فيها إلى الله ورسوله، على أنه لم يكن هناك نظام دستورى ليثرب قبله وقد وضع هذا النظام ليكون دستورا سياسيا واجتماعيا لهذه الأمة الجديدة التى ستتحول بعده إلى إمبراطورية ضخمة يحكمها هذا الدستور السياسى الاجتماعى الذى كانت فى أشد الحاجة إليه.

ولعل فى ذلك ما يدل على اختلاف الظروف التى نشأت فيها المسيحية والإسلام، فقد كان مجتمع محمد ﷺ به فراغ هائل لنظام سياسى واجتماعى

بخلاف مجتمع عيسى فقد كان النظام الاجتماعي والسياسي مستتبا فيه، وجعل ذلك الرسول يضع شريعة للنظامين الاجتماعي والسياسي، اللذين غيَّرا في عصره الحياة في الجزيرة العربية، كما غيَّرا بعده الحياة في كثير من أقطار العالم في آسيا وإفريقيا وشطر من البلاد الأوربية، بحيث أفادت منها الحياة الإنسانية، إلى اليوم فوائد كثيرة.

الاختلاف في نشأة المسيحية والإسلام

أما ما يقوله الغربيون المسيحيون من أن الرسول تخلّى في المدينة عن الحياة الروحانية ولجأ إلى السيف، فليس بصحيح أنه تخلى عن الحياة الروحانية فيها بدليل واضح هو أن الوحي لم ينقطع عنه، وبالتالي لم ينقطع نزول الآيات القرآنية عنه حتى أيامه الأخيرة، والصحيح أنه سَنَدَ الحياة الروحية بالسيف حين اضطر إلى ذلك، فقد كانت المدينة في طريق القوافل التجارية لمكة المصعدة إلى الشام والمنحدرة منها، وخشي الرسول أن تُعِدَّ قريش جيشا لغزو المدينة، فكان يرسل بعوثا، للاستطلاع خشية أن تقوم بغارة مفاجئة، يدل على ذلك أكبر الدلالة قلة عدد ما تسميه كتب السيرة سَرِيَّة أي كتيبة حربية، إذ كانت تقل حتى لا يتجاوز أفرادها عدد أصابع اليدين، وخطأ تسميتها سرايا أي كتائب، إنما كانت بعوثا يراد بها الاطمئنان على الطرق إلى المدينة خشية أن تغزوها قريش فجأة، ولم يحدث أن أعدَّ الرسول جيشا للثأر من قريش. وكتّاب السيرة النبوية مخطئون حين يعدّون بعوثه الاستطلاعية سرايا أو كتائب ويحصونها فيقولون إنها كانت سبعا وأربعين، ويضيفون إليها سبعا وعشرين غزوة، ولم يقاتل الرسول إلا في تسع منها، وحتى هذه التسع لم يكن في بعضها التحام بين جيشين مثل الخندق وقريظة وفتح مكة، وهو ما يجعل من الواجب على الغربيين المسيحيين أن يخفّفوا من غلوائهم وأن لا يستمروا في قولهم إن الرسول استغل الدين للسلطة والقوة وأنه طبّق نشر الإسلام بالسيف. والحقيقة أنه إنما نَشَره بالقرآن لأن كثيرين ممن سمعوا تلاوته كانوا يشعرون أنهم في الحضرة الإلهية، على نحو ما نعرف عن عمر بن الخطاب في إسلامه. فإنه خرج يوما من داره قبل إسلامه - كما مرّ بنا - حاملا سيفه ليقتل محمدا كي يريح قريشا منه، إذ فرّق جماعتها وسفّه عقولها وعاب

خطأ المؤرخين في عدّ بعوث الرسول سرايا

انتشار الإسلام بالقرآن لا بالسيف

آلهتها، ولقيه شخص من عشيرته، وعرف مقصده فقال له: أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم، وكانت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما، فأنبأه بإسلامهما كما أسلفنا، فذهب إليهما غاضبا، وعندهما خباب بن الأرتّ يقرئهما القرآن، ودخل على أخته فرفع شيئا كان فى يده فضربها به، وسال الدم فقالت له: قد أسلمت فافعل ما بدا لك، ونظر فإذا بكتاب فى ناحية من البيت فلم يزل بها حتى أعطته له، وكان به سورة الحديد، فلما قرأ فى أوله "بسم الله الرحمن الرحيم" ذُعر – كما يقول – ورمى الصحيفة، ثم رجعت إليه نفسه، فإذا فيها ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فذُعر، ورمى الكتاب ثم رجعت إليه نفسه، وكلما مرَّ باسم من أسماء الله ذُعر، وبعد قراءته بعض آيات قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وكأنما أمسكت الآيات بخناقه فنطق بالشهادتين، وأغمد سيفه، وذهب إلى الرسول وأعلن له إسلامه. ومثل عمر كل من دخل الإسلام قبله وبعده لأن القرآن يَشعُر من يسمعه أنه فى الحضرة الإلهية، وهو وجه مهم من وجوه إعجازه لم يلتفت إليه الأسلاف فضلا عن روعة بيانه وبلاغته، فبِهِ لا بالسيف دخل الناس أفواجا فى دين الله، وآمنوا برسوله ورسالته، وأيضا دخلوا لما يحمل القرآن والإسلام من تعاليم سمحة، ولم يُجْبِر أحدًا من الأمم المفتوحة على الدخول فيه لقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، إذ كفل لجميع الناس الحرية الدينية، ودخلت فيه أمم كثيرة بإفريقيا مثل نيجريا وفى آسيا مثل أندونيسيا دون أى سيف أو سلاح أو تبشير، دخلت بقوته الذاتية.

سمّى الرسول حروبه جهادا ولم يجعلها من أركان الإسلام

وحين تُدرس حروب الرسول التسع التى أشرنا إليها وتدرس ظروفها يُعْرف أنها كانت ضرورية لبقاء الإسلام، ولم يسمِّ الرسول حروبه اسما يدل على تعطشه للدماء كما يقول المستشرقون مثل قطع الرقاب أو سفك الدماء، إنما سمَّاها الجهاد أى المشقة ولم يجعله ركنا من أركان الإسلام، وفى حديث له وقد عاد من غزوة: "عُدْنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" أى إلى المشقة الكبرى فى عمل كل ما هو خير والبعد عن كل ما هو شر.

وعيسى وحده هو الذى ابتعد عن الحرب والخصام دون بقية الرسل حتى أُثِرَ عنه قوله: إذا ضربك شخص على خدك الأيمن فأدِرْ له خدك الأيسر. وهو قانون لا يتفق وحياة الناس القائمة على الأنانية والظلم، ويؤدى بالشخص إلى قبول الهوان، وقد أخذ به عيسى ثلاثة أعوام مدة رسالته، ولو أن الرسول أخذ به فى المدينة لم يتعدَّ الإسلام نطاقها ولا دخلت فيه مكة ولا توحَّدت القبائل العربية فى أمَّة تحت لوائه، ولا تكونت – فيما بعد – الإمبراطورية الإسلامية ولما أصبح دينا عالميا.

وعجبٌ أن يطلب المسيحيون الغربيون من رسول الإسلام أن يظل بمكة، ويتقبل اضطهاد قريش وظلمها له ولأتباعه، لأن صاحب الدين والداعى له فى رأيهم ينبغى أن يتحمل إلى أقصى حد الاضطهاد والظلم والأذى الشديد وأن يصبر كما صبر عيسى متحمِّلا الآلام إلى النهاية دون أن ينتصر دينه فى حياته، إنما انتصر – بالصدفة بعده – عن طريق بولس وأصحابه. أما محمد فقد انتصر الإسلام فى حياته، وأخرج به العرب من حياتهم القبلية الوثنية إلى حياة أمة مجتمعة آمنت بوحدانية الله وبالإسلام وتعاليمه ومضت عن إيمان لا يماثله إيمان تحاول نشره وإبلاغه إلى الأمم فى العالم. وموقف عيسى إزاء دينه وتحمله للمعاناة والآلام فيه يُعدُّ شذوذا بين الرسل، إذ قضى الرسل قبله بشريعة الحروب الدينية، يتقدمهم فى ذلك موسى الذى كوَّن من بنى إسرائيل جيشا اقتحم به الحروب مع جيرانه كما تذكر التوراة، وبالمثل أنبياء بنى إسرائيل وملوكهم وخاصة داود وابنه سليمان فى حروبهما مع الكنعانيين التى يقصُّها كتاب اليهود المقدس، ويذكر القرآن منها فى سورة البقرة معركة داود وجالوت.

أخذ الرسل بشريعة الحروب

وينبغى أن يعرف الغربيون المسيحيون أن الحرب التى شرعها الإسلام ورسوله لم تكن حربا عدوانية، وهو أول قوانينها، إذ قال الله تعالى لرسوله وللمسلمين: ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ والاعتداء فى الآية: الابتداء بالحرب والقتال، والله يحذِّر منه، فلم تكن حروب الرسول وأصحابه التى يكثر الغربيون المسيحيون من

حروب الرسول ليست عدوانية

الحديث عنها حروبا ظالمة للأعداء وإنما كانت لحمايتهم من أعدائهم، ولا كانت -كما يقولون - ظمأ لسفك الدماء، وسنعرض عما قليل لشريعتها الإسلامية وما سنّت فيها من قوانين رحمة ورأفة بالأعداء شاهرى السيوف لتُسيل الدماء أنهارًا. وظل المسلمون - فى جميع عصورهم - متمسكين بقوانين الحروب الإسلامية بينما نجد النصارى فى أوربا يَقْسُون قسوة شديدة على أعدائهم، وتوضح الحروب الصليبية الفوارق بين حروب المسلمين الرحيمة وحروب النصارى القاسية؛ فإن الصليبيين قتلوا الأسرى من المسلمين ومثّلوا بهم ودمروا البلاد، بينما المسلمون حين كانوا يهزمونهم يحافظون على أسراهم ويعاملونهم معاملة رحيمة. وباختصار كانت حروب الصليبيين وحشية بينما كانت حروب المسلمين حروبا حضارية بفضل شريعتهم الإسلامية الحربية. وإنه ليجب على الغربيين المسيحيين أن يعترفوا بأن ما رأوه فى الديار الإسلامية أثناء حروبهم الصليبية من حضارة المسلمين هو الذى هيّأهم حين رجعوا إلى أوربا أن يخرجوا من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر الإحياء والنهضة، وبينما كان الصليبيون فى الشام يقاتلون المسلمين وينتهكون ديارهم كان زملاؤهم فى قرطبة وطليطلة بالأندلس يقعون عند أقدام علماء المسلمين لينقلوا علومهم وقد أتاحها علماء الأندلس لهم بمنتهى الإخلاص بحيث استحالت منارات لهم فى مسالكهم إلى حضارتهم الحديثة.

حروب الصليبيين

٢

قوانين رحيمة لحروب الرسول والمسلمين

لم تكن حروب الرسول ﷺ - مطلقة، بل قُيِّدت - منذ أول الأمر بقوانين رحيمة، وكان أول قانون فيها ما ذكرناه آنفا من تحريم أن تكون عدوانا وأن تكون حروب دفاع لا حروب اعتداء كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وهو تحذير شديد من الاعتداء والبدء بالعدوان وقتال

حروب المسلمين

الأعداء. وكان المشركون يؤذون المسلمين بمكة إيذاء شديدا، وكانوا يُضرَبون ويجرحون، فيتظلّمون للرسول ﷺ ، فيقول لهم اصبروا فإني لم أُومَر بالقتال. ولما هاجروا وهاجر الرسول أخذوا يفكرون في ظلم قريش لهم، إذ أخرجتهم من ديارهم وصادرت أموالهم، فعادوا في المدينة يسألون الرسول متى يأذن الله لهم في حرب قريش، ومضت أشهر وهم ينتظرون إذن الله في قتال القرشيين، ونزل لهم الوحي بالإذن في قتالهم لهم، إذ يقول الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أى من المهاجرين الذين تقاتلهم قريش ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ و ﴿أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وكان العربى فى الجاهليه لا يخرجه قومه عنهم إلا إذا اعتدى عليهم اعتداء شديدا، ولذلك يشير الله إلى أن قريشا أخرجت المهاجرين ظلما ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ إذ آمنوا به ووحّدوه، ويقول الله عقب ذلك: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾، والله يقول لولا أننا أذِنَّا لأمم التوحيد بحرب المشركين وقتالهم على نحو ما قاتل موسى جيرانه وداود جالوت وفتك به لطغى المشركون عليهم، إذ لو لم نعطهم الإذن بقتالهم لهدِّمت صوامع الرهبان وبيعهم أو كنائسهم وصلوات اليهود ومعابدهم ومساجد المسلمين. والله - مع ذلك - وضع للرسول والمهاجرين قانونا لحربهم أن تكون ردًّا على اعتداء، كما اعتدت قريش عليهم بظلمها لهم، إذ أخرجتهم من ديارهم وأُسَرهم وأبنائهم وأموالهم ولم ترع فيهم مواطنة ولا قرابة ولا رحما ولا عهدا. وما زالت تهيئ لغزوة بدر حتى نازلت الرسول والمسلمين فيها بجيش كثيف، فهى التى بدأت الحرب الكبيرة مع المسلمين فى بدر ولم يبدأها الرسول كما زعم المستشرقون. فحرب الرسول لقريش كانت ضرورة لدينه ألجأه هو والمهاجرين إليها أن قريشا كانت ستوالى ظلمها لهم وتحاول القضاء عليهم قضاء مبرما، لأنهم يقطعون طريق قوافلها المصعدة إلى الشام والمنحدرة منها. فحرب الرسول لقريش - مثل بقية حروبه - حرب ضرورة اضطرته إليها ظروفه التى لم يعرفها الغربيون والتى زعموا - افتراء عليه - أنها كانت تعطشا منه لسفك الدماء. وينقض ذلك أنه لم يكن يقتل

أسرى الحروب وكان دائما يقبل منهم أن يفتدوا أنفسهم وإذا أعلن الأعداء إسلامهم أصبح لهم حقوق المسلمين. وكان الرسول يقول لأتباعه حين يخرجون للغزو: "اخرجوا باسم الله، قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، لا تعتدوا، ولا تمثّلوا" أى لا تنكّلوا بقتيل من أعدائكم فتقطّعوا بعض أعضائه كما حدث فى موقعة أُحُد لحمزة عم الرسول رضى الله عنه، وكان قَتَل فى غزوة بدر عتبة أبا هند زوجة أبى سفيان، فوعدت وَحْشِيا الحبشى إن هو قتل حمزة بمكافأة كبيرة، وحدث أن كان حمزة فى المعركة مشغولا بقتل أحد المشركين فهزَّ وحشى حربته وصوَّبها إلى خاصرة حمزة، ولحق البطل المغوار ببارئه، وذهب وحشى إلى هند يبشِّرها بقتله فأمسكت بذراعه ليريها البطل الصريع، ورأته مضرجا بدمائه، فجدعت - أى قطعت - أذنيه وأنفه، ولم تكتف بذلك، بل بَقَرتْ (شقّت) بطنه، ولم تكتف أيضا بذلك، فقد أخرجت كبده، وأخذت تلوك منها قطعا بأسنانها، ولما رأت نسوة قريش ما فعلت هند بحمزة أخذن يمثّلنَ بموتى المسلمين ويقطّعنَ أنوفهم وآذانهم وأصابعهم، ويتخذن منها قلائد وأقراطا. وهذه المثلات أو الصور من التمثيل لقتلى الأعداء التى كانت شائعة فى الحروب الجاهلية واستخدمتها قريش فى غزوة أُحُد حرَّمها الرسول فى حروبه، وحُرِّمت فى حروب المسلمين بعده مع أعدائهم فى العصور الإسلامية التالية، وتحريمه لها يُعدُّ القانون الثانى فى الحروب الإسلامية. ويقول الرسول ﷺ فى الحديث السابق الذى رواه البخارى: "ولا تَغُلُّوا" من الغُلّ وهو الطوق من الحديد، يوضع فى رقبة العدو الأسير إذلالا له، والرسول ينهى عن وضع الأغلال فى رقاب الأسرى حفاظا على كرامتهم وحقوقهم الإنسانية، وهذا هو القانون الثالث الرحيم من قوانين حروبه. وحين انتصر فى غزوة بدر وأسر الصحابة فيها سبعين من صناديد قريش أمر الرسول الصحابة - كما يقول ابن عباس - أن لا يُؤْذُوهم وأن يكرموهم، فكانوا يقدِّمونهم على أنفسهم حين يحضر الغداء، وهذا هو القانون الرابع الرحيم من قوانين حروبه وهو الحفاظ على كرامة الأسرى وحقوقهم الإنسانية. وأصبحت هذه القوانين قوانين عامة لحروب المسلمين بعده على مر العصور. ويمتدح الله

أسرى الحرب لا يقتلون ولا يمثّل بهم

الأغلال لا توضع فى رقاب الأسرى

المسلمين فى إيثارهم على أنفسهم بالطعام الذى يحبونه المساكينَ واليتامى والأسرى من أعدائهم فى قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. ونرى القرآن الكريم فى آيةٍ نزلت بالمدينة من سورة الجاثية - كما فى القرطبى - وهى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى يغفروا للمشركين حين يُؤسَرون أذاهم فى الحرب وغير الحرب، وقال: إنهم لا يرجون أيام الله ونعمه وأفضاله. فهل بعد هذه الدعوة للمسلمين كى يعفوا ويصفحوا عن أذى المشركين يُقال إن الرسول كان داعية حرب وأنه نشر الإسلام بالسيف؟.

ويدعو الرسول مع عدم الابتداء بالعدوان على المشركين وعدم المُثْلة وعدم وضع الأغلال فى رقاب الأسرى وإكرامهم إلى أن لا يغدر مسلم بمسلم فى الحرب. وحدث فى غزوة أحُد أن اشترك الحارث بن سويد بن الصامت من الأوس فى بدئها، وحانت له فرصة من المجذَّر بن ذياد وكان قد قتل أباه سويدا فى الجاهلية فقتله وقتل معه قيس بن زيد، وفرَّ إلى قريش، وأمر رسول الله بقتله فى فتح مكة لغدره بصاحبيه المسلمين.

إبطال الإسلام قانون الأخذ بالثأر

ولم يأمر الرسول بقتل الحارث بن سويد لغدره بالمجذر فحسب، بل أيضا لأنه عارض الإسلام فى موقفه لقانون الأخذ بالثأر، إذ قتل المجذر ثأرا لأبيه سويد، وكان الأخذ بالثأر قد أصبح شريعة مقدسة فى الجاهلية، بحيث لم يكن لأى فرد فى قبيلة حق فى أن يخالفه أو يخرج عليه، إذ كانت العشيرة بمجرد أن يُقتل شخص منها تَسُلّ سيوفها للأخذ بثأره، وتعينها عشائر قبيلتها، ويتعدد القتل، وتتعدد الحروب. وكانوا لا يرضون بالدية عن القتيل وأن تُستبدل بالثأر الإبل وألبانها، وكأنما أصبح سفك الدم واجبا من واجبات الجاهلية، بل لكأنما أصبح غريزة من غرائزهم لا تفارقهم، فهم دائما قاتلون مقتولون. وفى كل قبيلة رَحًى للحرب دائرة، فهم يقتلون أعداءهم ويطعمونهم السيوف وأعداؤهم بالمثل يقتلونهم ويطعمون سيوفهم منهم ويشفون غليلهم. وأمر الإسلام بوقف قانون الأخذ بالثأر نهائيا، وردَّه إلى الحاكم، وجعل لأولياء المقتول الحق فى العفو عن

القاتل أو أخذ الدية منه. وبذلك انتهت حروب الجزيرة التى كان يسمع صليل سيوفها فى كل قبيلة وفى كل مكان. ومع ذلك يقول المستشرقون بهتانا على الرسول إنه كان متعطشا للدماء بدلا من أن يقولوا الحق وأنه وقف سفك الدماء فى الجزيرة بقضائه على قانون الأخذ بالثأر. وهذه مِنّة عظيمة للإسلام ورسوله، وقد امتنّ الله بها على المسلمين إذ قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، والله يذكر للأوس والخزرج وغيرهما من قبائل العرب أنه كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية وعداوات شديدة طالت بسببها حروبهم ومعاركهم، فلما جاء الله بالإسلام، ودخلوا فى دين الله وحرّم الله ورسوله عليهم الأخذ بالثأر صاروا أمة إخوانا متوادّين متواصلين متعاونين.

٣

من قوانين الإسلام الرحيمة فى الحروب

ومن قوانين الإسلام الرحيمة فى الحروب أن الرسول حرّم على المسلمين تحريما باتًا قتل الأطفال والصبية والشيوخ والرهبان، فلم يقتلوا طفلا ولا صبيا ولا شيخا عجوزا ولا راهبا فى حرب من حروبهم مع أعدائهم فى زمن الرسول ولا فى أى عصر من عصورهم. وبالمثل حرّم عليهم قتل نساء أعدائهم فى الحرب صغيرات وشابات وكبيرات، وبالجملة لم يحلّ لهم إلا قتل الأعداء المحاربين حملة السلاح، فالحَدَثُ – حتى بلوغه – لا يُقتل، ومن يزرعون الأرض، ليحصدوا منها قوت الناس لا يقتلون فى الحرب لأنهم ليسوا من جُناتها، إذ لا عدوان ولا قتل إلا للأعداء المحاربين. وحرّم الرسول قتل الرهبان أصحاب الصوامع، وعمّم ذلك المسلمون – بعده – لرجال الدين من كل مِلّة إلهية ووثنية.

تحريم قتل الصبية والنساء والشيوخ والرهبان

وحرّم الرسول فى حروب الأعداء النهب، وأن لا يستولى المسلمون المحاربون من زروع أعدائهم إلا بقدر ما يكفيهم وما يحتاجون إليه لطعامهم وطعام

تحريم النهب

دوابهم. ونهى المسلمين فى الحرب أن يقطعوا للأعداء شجرا أو يتلفوا زروعا أو يفتكوا ببعض حيواناتهم. وما أروع تلك القوانين جميعا شريعةً للحرب، وكان حريًّا بالغربيين المسيحيين بدلا من أن يهاجموا الرسول فى حروبه التى كانت ضرورية للدفاع عن المسلمين أن يشيدوا بقوانين شريعتها الحربية الرحيمة، وله يقول الله فى سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى لجميع الخلق سلمًا وحربًا، وحتى ليدعو إلى الرحمة بالحيوان المستأنس فى أحاديث مشهورة.

تحريم قطع الأشجار وإتلاف الزروع

وقد قلنا فيما أسلفنا إن مؤرخى السيرة النبوية أخطأوا حين عدُّوا كل من كان يرسلهم الرسول فى الطرق المؤدية إلى مكة وإلى القبائل – التى كان يبلغه أنها تستعد لحربه – للاطمئنان على أهل المدينة أن تغزوهم قريش أو إحدى القبائل فجأة، وبالمثل كان يرسل أحيانا جماعات محدودة لطرق قوافل مكة التجارية المصعدة إلى الشام والمنحدرة منها تخويفا لقريش، إذ ربما يدفعها ذلك إلى عقد معاهدة معه، وأحيانا كان يحاول بهذه الجماعات إعلام القبائل بدينه الحنيف لعلها تدخل فيه. وكل هذه البعوث سماها مؤرخو السيرة سرايا جمع سرية أى كتيبة حربية، ولم تكن كتائب مقتطعة من جيش للرسول، إنما كانت بعوثا للتأكد من أمن الطرق المؤدية إلى المدينة. وكان ينبغى أن تسمى بعوثا لا سرايا، حتى لا يظن من يقرؤها عند مؤرخى السيرة – مثل المستشرقين – أن الرسول ﷺ كان يعيش للحرب وسفك الدم. واصطلح مؤرخو السيرة على أن كل خروج للرسول فى جيش يُسمّى غزوة ولو لم يحارب فيها، وعدّوا له سبعا وعشرين غزوة، وقالوا إنه لم يقاتل إلا فى تسع منها هى: بَدْر، وأُحُد، وبنو المصطلق، والخَنْدَق، وقُرَيْظة، وخَيْبَر، وفَتْح مكة، وحُنَيْن، والطائِف. وحتى هذه التسع ينبغى إخراج الخندق وقريظة وفتح مكة منها، لأنه لم تنعقد فى الثلاثة معركة حقيقية بين الأعداء وجيش المسلمين، فقريش هى التى أعدّت وخرجت لحربه فى بدر وأُحُد والأحزاب. وجمع بنو المصطلق لغزوه وغزو المدينة فخرج إليهم، وعلم الرسول أن أهل خيبر اليهود يستعدون لحربه، وأنهم يُخْرِجون كل يوم منهم

عشرة آلاف مقاتل صفوفا ثم يقولون: محمد يغزونا! هيهات هيهات. كما بلغ الرسول أن كنانة بن أبى الحقيق ذهب مع أربعة عشر رجلا من خيبر إلى قبيلة غطفان يدعوهم إلى نَصْرهم ضد الرسول ولهم نصف تمر خيبر سنة، فخرج إليهم. كما خرج إلى حنين حين علم أن أشراف هوازن وثقيف تجمعوا وحشدوا لحربه، ولما انهزموا تقهقروا إلى حصن الطائف.

وتلك هى حروب الرسول التى لم يعرف مؤرخو السيرة النبوية كيف يعرضونها وأساءوا فى عرضها حتى ظن المستشرقون أن الرسول ﷺ كان يبدأ بالهجوم على أعدائه دائما؛ مع أن أول قانون فى شريعته الحربية - كما مرَّ بنا - أن تكون الحروب الإسلامية حروب دفاع لا حروب عدوان. وذكرنا أن ما سمَّاه مؤرخو السيرة بالسرايا لم تكن كتائب حرب كما ظنُّوا إنما كانت فى أكثرها بعوثا استطلاعية، وأنه لم يحارب الرسول إلا فى ست غزوات، ولم يبدأ فيها بالعدوان، إذ اضطر إليها للدفاع ضد العدوان. وإذن خطأ كل الخطأ أن يزعم بعض المستشرقين أن الرسول فرض الإسلام على العرب بقوة السلاح فقد أسلموا بقوة القرآن وتعاليم الإسلام التى تقوم على الإخاء والمساواة والعدالة والتسامح بين جميع المسلمين وبينهم وبين أهل الذمة. وكما أن الإسلام يُلزم الرسول والمسلمين أن تكون حروبهم لدفع العدوان فحسب يلزمهم أيضا إذا طلب الأعداء المحاربون منهم وقف الحرب والصلح أن يجيبوهم إلى طلبهم كما قال الله فى سورة الأنفال: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أى إن مال الأعداء إلى السلم والمهادنة وكفُّوا عن القتال فأجيبوهم إلى ما طلبوا ودعوا إليه.

وإذا أخذنا ندرس السرايا الأولى أو بعبارة أدق البعوث الأولى عرفنا أنها لم تكن موجهة لحرب قريش. وأول بعث كان على رأس سبعة أشهر من مقدم الرسول إلى المدينة جعل قيادته لعمِّه حمزة على ثلاثين راكبا أو فارسا من المهاجرين، ولم يكن بينهم أحد من الأنصار، واتجه إلى ساحل البحر الأحمر يرقب قريشا، فالتقى بقافلة تجارية لقريش منحدرة من الشام إلى مكة يقودها أبو جهل فى ثلاثمائة راكب أو فارس. وحجز بين الفريقين مجدىٌّ الجُهَنِى، وانصرفا دون أى

البعوث الأولى

قتال، وعاد حمزة بمن معه إلى المدينة. وبعد نحو شهر فى شوال خرج من المدينة بعث ثان بقيادة عبيدة بن الحارث فى ستين راكبا أو فارسا، واتجه نحو مكة وتغلغل فى الطريق إليها حتى بطن رابغ، ولقوا جمعا من قريش نحو مائتين ومعهم عكرمة بن أبى جهل، وقيل بل أبو سفيان، ورمى سعد بن أبى وقاص بسهم، وهو أول سهم رُمى به فى الإسلام ولم يسلّ الفريقان سيفا وانصرفا دون حرب أو قتال. وفرَّ من جمع قريش إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعُتْبة بن غزوان وكانا مسلمين ولم يكونا يعرفان كيف يلحقان بالرسول ﷺ فى المدينة. وفى ذى القعدة خرج بعث ثالث جعل الرسول ﷺ قيادته لسعد بن أبى وقّاص فى ثمانية رجال، وأخذوا يرصدون جموع قريش، حتى وصلوا وادى الخرّار بالجحفة، ولم يلق جمعا لقريش، وعاد إلى المدينة.

وواضح أن هذه البعوث كانت ترصد الطريق أو الطرق بين مكة والمدينة خشية أن تفكر قريش فى الغارة على المدينة، ولم تكن تفكر فى قتال قوافل قريش ولا ما يشبه القتال، خاصة أن منها ما لم يكن يتجاوز ثمانية رجال كبعث سعد بن أبى وقّاص، وهل يعقل أن مثل العدد المذكور يخرج لحرب قريش ونزالها فى معركة عنيفة أو فى غزو قوافلها؟ إن كل ذلك تصوير مخطئ لمؤرخى السيرة النبوية، وقد أرسل الرسول ﷺ عبد الله بن جحش فى ثمانية رجال إلى قرية نخلة بين مكة والطائف فى شهر رجب من السنة الثانية ليرصد قريشا ويعلم من أخبارهم ما يحكيه له، غير أن عبد الله وجد قافلة لقريش يقودها أربعة فوجدها غنيمة، وقتل أحد قادتها فى رجب الشهر الحرام، وعاد بالقافلة إلى المدينة، ووجدوا الرسول غاضبا، وقال لهم: ما أمرتكم بالقتال فى الشهر الحرام. وفى ذلك دليل واضح على أنه لم يأمر أى بعث من البعوث قبل بدر بقتال قريش، وأنها هى التى بدأت قتاله فى غزوة بدر.

وإذا رجعنا إلى ما سمّاه مؤرخو السيرة غزوات للرسول ﷺ قبل غزوة بدر وأولاها غزوة ودّان أو الأبواء بين المدينة ومكة فى شهر صفر سنة اثنتين

للهجرة، ولقى فيها بنى ضَمْرة، واستقبلوه استقبالا كريما، وحالفه سيدهم مخشىّ ابن عمرو على أن لا يغزوه ولا يغزوهم ولا ينضموا إلى جمع من قريش أو غيرها ضده عرفنا أنه خطأ كل الخطأ أن يقال إنه خرج إلى بنى ضمرة غازيا وهو إنما خرج إليهم طالبا عقد تحالف بينه وبينهم، وفى رأينا أن كل ما سماه مؤرخو السيرة قبل معركة بدر غزوات إنما كان لموادعة القبائل المقيمة بين المدينة ومكة وأن لا يُعينوا عليه قريشا. والغزوة الثانية كانت غزوة بُواط من ناحية رَضْوَى، وكانت فى ربيع الآخر بالسنة الثانية للهجرة، وكان فى مائتين من المهاجرين، وبلغ بُواط ولم يلق أحدا ولا كيدا. والغزوة الثالثة غزوة العُشيرة ببطن يَنْبع على الساحل، وكان فى مائة وخمسين من المهاجرين، وفيها حالف بنى مُدْلج وعاهدهم كما عاهد بنى ضمرة فى الغزوة الأولى، وعاد إلى المدينة. وبعد عشرة أيام أغار كُرْز بن جابر القرشى على إبل المدينة وأغنامها فى غفلة من أهلها، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه مع طائفة من المهاجرين حتى بلغ سفَوان – واد بالقرب من آبار بدر – وفاته كُرْز فعاد إلى المدينة. ويسمِّى مؤرخو السيرة هذا الخروج فى طلب كرز غزوة، وهى إنما كانت مسيرة فى تعقُّبه، ومثلها الغزوات الثلاث السابقة، إنما كانت مسيرات للرسول لتأمين الطرق إلى المدينة وعقد معاهدات بينه وبين القبائل النازلة فى طريق قريش إلى المدينة حتى لا تنضم إليها إن فكّرت فى غزو المدينة.

غزوات الرسول الأولى مسيرات

وواضح أن ما سمَّاه مؤرخو السيرة النبوية غزوات للرسول ﷺ قبل غزوة بدر إنما كان مسيرات له يقصد بها عقد معاهدات مع القبائل، حتى لا تنضم إلى قريش فى غزوها للمدينة إن حاولت ذلك كما يتضح فى معاهدتيه مع بنى ضمرة فى غزوة ودَّان ومع بنى مدلج فى غزوة العشيرة. ولم يكن فى غزوة بُواط حرب ولا فى تعقب كرز مما سموه غزوة بدر الأولى لأن الرسول ﷺ تعقبه حتى نواحى بدر، وفاته فعاد. وهى –كما رأينا – مسيرات فحسب. ومثلها ما سموه غزوات للرسول بين غزوتى بدر وأُحُد، وكانت أربع مسيرات للرسول ليس فيها

حرب، وعدوا له فى السيرة النبوية سبعا وعشرين غزوة، وأكثرها مسيرات، والصحيح أنه لم يحارب إلا فى تسع فقط كما أسلفنا، وأولاها غزوة بدر، وقريش هى التى بدأتها كما بدأت غزوة أُحُد وغزوة الخندق التى لم تقع فيها حرب. وبقيت ست بعد غزوة الخندق، وهى بنو المصطلق وقُرَيْظة وخَيْبَر وفتح مكة وحُنَيْن والطائف، ولم يحارب فى غزوة الخندق وقريظة وفتح مكة، وهذه كل حروبه.

ويقول مؤرخو السيرة إن بعوثه بلغت سبعا وأربعين، وهى مبالغة شديدة، وقالوا إن الأربعة التى ذكرناها كانت موجَّهة لحرب قريش، وقدموا لذلك بأن الله جلَّ شأنه أذن للمهاجرين فى قتال قريش بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وصيغة ﴿يُقَاتَلُونَ﴾ تشهد بأنهم كانوا يقاتلون قريشا دفاعا لا هجوما، فاستشهاد المفسرين بالآية على أنهم خرجوا فى البعوث المذكورة لحرب قريش خطأ، وكانت بعوثا استطلاعية – كما قلنا – إذ كان عدد الرجال فى بعثين منهما ثمانية رجال مع أن الرسول علم عن أول بعث لعمه حمزة، وكان فى ثلاثين فارسا أنه لقى قافلة لقريش كان يحميها ثلاثمائة فلم يكن بمعقول أن يرسل لحرب قريش بعوثا مكونة من ثمانية رجال، فهى – كما قلنا مرارًا – كانت بعوثا استطلاعية. ويؤكد ذلك أنها كانت جميعا من المهاجرين، ولم يكن بها أحد من الأنصار لأنهم بايعوه بمكة على الدفاع عنه لا على الهجوم، ولذلك نراه فى غزوة بدر مترددا فى الخروج لقريش، حتى يوافق الأنصار – لأول مرة – على مشاركتهم له فى حربه ووافقوه.

بعوث استطلاعية

وكل ذلك معناه أن مؤرخى السيرة النبوية لم يكونوا دقيقين فى عرض حروب الرسول مما جعل بعض المستشرقين يظن خطأ أن الرسول كان متعطشا لسفك الدماء وأنه نشر الإسلام بالسيف مما نقضناه نقضا فى حديثنا عن حروبه وقوانينها الرحيمة التى لم يسبقه إليها أى دين سماوى.

٤

بَعْث عبد الله بن جحش

انتدب الرسول ﷺ عبد الله بن جحش الأسدى فى بعث قوامه ثمانية من المهاجرين إلى بَطْن نخلة بين مكة والطائف، وكان بستانا لابن عامر بقرب مكة، وذلك فى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، إذ دعاه حين صلّى العشاء فقال له: وافِ مع الصبح أبعثك وجها، فوافاه فى صلاة الصبح، وصلى الرسول بالناس، والتقى به وبنفر من قريش كان الرسول قد استدعاهم، ودعا أُبَىّ بن كعب كاتبه فأملاه كتابا، ودعا عبد الله بن جحش فأعطاه الكتاب وقال له: قد استعملتك على هؤلاء النفر، وكانوا ثمانية، وقال له: امض بهم حتى إذا سرت ليلتين افتح الكتاب واعمل بما فيه، ومضى عبد الله بصحبه، وكان اثنان منهم يتعاقبان (يتناوبان) بعيرا. واتجه بهم نحو مكة، فلما مضى يومان فتح الكتاب فإذا فيه: "سِرْ حتى تأتى بطن نخلة، ولا تكرهنَّ أحدا من أصحابك على المسير معك، وامضِ لأمرى فيمن تبعك حتى تنزل نخلة، فترصَّد بها قريشا وتعلَّمْ لنا من أخبارهم. فلما قرأ عبد الله الكتاب قال سمعا وطاعة، وقرأه على صحبه، فقالوا جميعا نحن سامعون مطيعون لله ولرسوله ولك، فسِرْ على بركة الله ومضوا معه. وحدث أن ضل بعير لسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان كانا يقتفيانه، فتخلّفا عن الجماعة فى طلبه، ومضى عبد الله بن جحش فى الستة الباقية من صحبه حتى نزل معهم بنخلة، ومرَّت بهم قافلة صغيرة لقريش وفيها أصحابها عمرو بن الحضرمى والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله وأخوه نوفل بن عبد الله، وثلاثتهم مخزوميون. وتشاور عبد الله بن جحش وصحبه فى أمرهم إذ كان اليوم آخر يوم فى شهر رجب، فقالوا إن تركتموهم دخلوا حرم مكة وامتنعوا منكم، وإن قتلتموهم كنتم اقترفتم القتل فى رجب الشهر الحرام المحرَّم فيه القتال. وكان القتال محرما فى الأشهر الحرم وهى أربعة: رجب الفرد وثلاثة مجتمعة لأداء الحج

والفراغ منه، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وغلب رأى القائلين بالقتال فقاتلوهم، ورمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمى بسهم، فقتله، وشدّوا على زملائه المخزوميين فأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأعجزهم نوفل بن عبد الله وأفلت منهم واستاقوا القافلة، وكانت محملة خمرا وأدما وزبيبا، وقال عبد الله بنْ جحش لصحبه: إن لرسول الله مما غنمنا الخمس. وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم لرسوله، فعزل الخمس وقسم بقية القافلة وعِيرها بينه وبين صحبه.

وكانت هذه القافلة الصغيرة أول غنيمة غنمت فى الإسلام وأول غنيمة خُمِّست، وكان عمرو بن الحضرمى أول قتيل للمسلمين، وكان صاحباه أول أسرى لهم. ولما قدم عبد الله بن جحش بالقافلة وعِيرها والأسير، على رسول الله ﷺ قال له ولصحبه: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، وأوقف القافلة وعِيرها فلم يأخذ منها شيئا وندم عبد الله وصحبه. وقالت قريش: استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال. وبعثت قريش إلى الرسول فى فداء الأسيرين، ففادى كل واحد منهما بأربعين أوقية ودعاهما إلى الإسلام فأسلم الحكم بن كيسان، وعاد عثمان بن عبد الله إلى قومه. وظل الرسول ﷺ وعبد الله بن جحش وصحبه ينتظرون الوحى، ونزل الوحى بأن ما حدث من عبد الله وصحبه لهم وليس عليهم، إذ قال الله جلَّ شأنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾. والآية تذكر فى أولها أن القتال فى الشهر الحرام إثم كبير، وكانت الأشهر الحرام أربعة – كما أسلفنا – رجب وكانوا يعتمرون به فى الجاهلية، ولذلك حُرِّم فيه القتال كما حُرِّم فى أشهر الحج: ذى الحجة والشهر السابق له: ذى القعدة والتالى له: المحرَّم، حتى يؤدوا الحج مثل العمرة آمنين فى ذهابهم إليه ورحيلهم. ويقول الله عقب ذلك إن الصدَّ عن سبيل الله أى عن دينه وصد الكفار للمسلم عن المسجد الحرام أكبر إثما عند الله

من القتال فى الشهر الحرام، ومثله الكفر بالله والشرك به لأنه اعتداء على حرية الناس فيما يختارونه لأنفسهم من الدين الحنيف، ولذلك كان الكفر أكبر إثما من القتال فى الشهر الحرام، ومثله الصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه من أمثال عبد الله بن جحش وصحبه، فإن ذلك أكبر إثما عند الله من القتال فى الشهر الحرام؛ وبذلك جعل الله قتال عبد الله وصحبه فى اليوم الأخير من رجب لهم لا عليهم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أى محاولات قريش لفتنة المسلمين بما كانوا يُؤذونهم به فى مكة من صنوف الإيذاء الشديد أكبر إثما عند الله من القتال فى الشهر الحرام. وبذلك كله فرّج الله عن عبد الله بن جحش وصحبه ما كانوا فيه من الضيق، وقبل الرسول ما جعل عبد الله له ولله من خُمس الغنيمة. ويقال إن رسول الله ﷺ وقفها حتى رجع من غزوة بدر، فقسّمها بين غنائمها وأعطى كل قوم حقّهم. ويقول الله فى نفس الآية عقب قوله السابق: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾، وكأن الله يعدُّ قريشا فى حالة حرب مع الرسول وأصحابه منذ أن كانوا يؤذونهم فى مكة ويحاولون فتنة كثيرين منهم وردهم إلى عبادتهم الوثنية. ومعروف أن أول قتال لقريش فى حرب الرسول إنما كان فى غزوة بدر، والآية تشير بوضوح إلى أن قريشا تضمر غزو الرسول وأصحابه فى المدينة، وتستعد لذلك استعدادا كبيرا.

الفصل الثانى عشر

غزوة بدر الكبرى

١

موقف الرسول قبل غزوة بدر

استقر الرسول فى المدينة، ومضى فيها يضع لأمته نظاما اجتماعيا سديدا يتعاون فيه الغنى والفقير تعاونا يقوم على الإخاء الصادق. وأخذ يشغل بأمر مكة، فإن أهلها لن يتركوه ومن معه من المهاجرين دون أن يسدِّدوا لهم ضربة قاضية، لسبب مهم وهو أنهم يقيمون فى المدينة بطريق قوافلهم التجارية إلى الشام مصعدة ومنحدرة. وأحسَّ الرسول والمهاجرون إحساسا عميقا بأن قريشا لابد أن تعد جيشا كثيفا لغزو المدينة للقضاء عليهم وعلى هذا الدين الذى يدعو إليه الرسول.

ولم يكن الرسول قائدا حربيا ولا اشترك فى حرب سوى حرب الفجار التى شهدها فى سن السادسة عشرة. ومع ذلك تنبَّه إلى موقف قريش منه وأنها لابد أن تمضى فى القضاء عليه وعلى دينه، وهو ما جعله – كما مرَّ بنا – يرسل بعوثا للاستطلاع خشية أن يفاجئ جيش قرشى المدينة، وخرج بنفسه ليعقد معاهدات مع بعض القبائل التى كانت تحتل مواقع خطيرة فى الطرق بين مكة والمدينة، وهو استهلال لقيادة بصيرة بشئون الحرب، وتأمين لأهل المدينة. ولم يكد يبدأ العام الثانى للهجرة حتى رأى طغاة قريش من أمثال أبى جهل أن يعدُّوا غارة على سرح المدينة بقيادة كُرْز بن جابر الفِهْرى، ويغير على سَرْحها أو إبلها وقُطعانها

فى شهر ربيع الأول بعد سنة من هجرة الرسول ويستاق من السرح ما استطاع، ويفرّ به إلى مكة. وخرج الرسول ﷺ وراءه حتى بلغ آبار بدر، ولم يدركه، فعاد وقد اقتنع بأنه كان صادقا فى حَدْسه حين أخذ يرسل بعوثا من المهاجرين يقودها حمزة وعبيدة بن الحارث وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن جحش للاستطلاع والتعرف على نوايا قريش فى المبادرة إلى حربه وغزو المدينة. وأيضا كان حدسه صادقا حين خرج مرارًا لا للغزو - كما ظن ذلك مؤرخو السيرة النبوية - وإنما لعقد المعاهدات مع بعض القبائل التى كانت تنزل فى مواقع حربية مهمة على طول الطرق بين مكة والمدينة.

عود إلى بعث عبد الله بن جحش

وظن الرسول ﷺ من غارة كرز على سرح المدينة أن زعماء قريش يتأهبون لغزو المدينة، فاختار عبد الله بن جحش أحد شخصيات المهاجرين المهمة فى ثمانية أشدّاء من المهاجرين لينزلوا بالقرب من مكة فى وادى نخلة بينها وبين الطائف، وأعطاه الكتاب الذى أمره أن لا يفتحه إلا بعد يومين من مسيرته، وفتحه -كما مرّ بنا - وأمره فيه أن يترصّد قريشا ويعلم له من أخبارهم، فلم يكن بعث عبد الله بن جحش بعثا حربيا للاستيلاء على إحدى القوافل المكّية كما ظن بعض المستشرقين إنما كان بعثا للتعرف على أخبار قريش وهل تُعدُّ جيشا لحرب الرسول. ولو أنه أراد للبعث أن يلقى إحدى قوافل قريش ويستولى عليها ما جعله ثمانية أو تسعة، وهو يعلم علم اليقين أن قوافل قريش المهمة كانت تحميها فى طريقها حاميات غير قليلة، وقد تبلغ نحو مائة رجل، ولو أنه أرسل عبد الله ومن معه لمهاجمة قافلة لكان مغرِّرا بهم ومعرِّضَهُم للهلاك. أما أن عبد الله لقى قافلة صغيرة لا يحميها سوى أصحابها وكانوا أربعة من قريش فهذه مسألة اتفاقية اعترضته صدفة فلم ينفّذ هو وصحبه ما أراده الرسول من بعثهم وهو الوقوف على أخبار قريش، وعادوا إلى المدينة، فوجدوا الرسول غاضبا لقتلهم عمرو بن الحضرمى أحد أصحاب القافلة وما ندب البعث للقتال فى الشهر الحرام، ورفض تقبُّلَ الغنيمة وما له فيها من الخمس الذى قسمه له قائدها عبد الله بن جحش، وكما ساءه قتال البعث فى الشهر الحرام ساء أهل المدينة جميعا من المهاجرين

والأنصار. ونزلت آية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ كما مرَّ بنا، إذ بيَّنت أن هناك ما هو أكبر حرمة وجُرْما، وهو الصدُّ عن الدين الحنيف، وإخراج المهاجرين أهلِ المسجد الحرام منه، ومحاولة القرشيين تعذيب المسلمين لفتنتهم وردِّهم إلى الدين الوثنى، وعدَّ الله فى نفس الآية هذا التعذيب وتلك الفتنة قتالا باغيا من قريش للمسلمين، إذ قال: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ فقد بدأوا قتالهم للمسلمين وهم بمكة، فقد كانوا يعذبونهم، وقتل أبو جهل سمية أم عمار بن ياسر. وبذلك فرَّجت الآية عن عبد الله بن جحش وصحبه ما كانوا فيه من الشدة، وقَبِل الرسول الغنيمة والأسيرين وافتدتهما قريش وأسلم أحدهما وحسن إسلامه.

ولعل فى كل ما ذكرت ما يدل بوضوح على خطأ بعض المستشرقين حين يزعمون أن الرسول أعطى بكتابه إلى عبد الله بن جحش الإشارة بالغارة على أى قافلة لقريش يصادفها، إذ كان البعث سلميًا للتعرف على أخبار قريش ومدى الإعداد لقتاله كما أسلفنا. وأشد من هذا الزعم وأعظم خطأ ما يزعمه بعض المستشرقين من أن الكتاب الذى سلَّمه الرسول لعبد الله بن جحش كانت فيه تعليمات سرية، وهو مجرد وهم خاله بعض المستشرقين، والكتاب مذكور فى كل كتب السيرة النبوية، وليس فيه سوى ما قلت من أنهم أُمروا أن يرصُدوا ما تفعل قريش مما قد يُفهم منه أنها تعدّ لغزو المدينة وحرب الرسول.

مزاعم بعض المستشرقين

وكان الله قد أذن للمهاجرين حين هاجروا إلى المدينة فى جهاد أعدائه مشركى مكة قائلا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أى الذين يَعتدى عليهم مشركو مكة ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾. وقد نزلت هذه الآية فى أوائل هجرة الرسول والصحابة ليتهيَّأ المهاجرون للدفاع عن أنفسهم ضد مشركى مكة الذين أخرجوهم من ديارهم. ولما حدثت واقعة بعث عبد الله بن جحش نزلت فيه آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ مبرِّئةً له ولصحبه. ثم نزلت آية فريضة الجهاد، وهى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ

الإذن للمهاجرين بالجهاد

وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، والقتال المأمور به فى الآية الجهاد لإعلاء كلمة الله. ويتكرَّر الجهاد فى القرآن الكريم كثيرا إذ سُمِّى به قتال المسلمين للكفار، وقال إنه ﴿كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أى شاق ولكنه خير لكم أى أنه ضرورى لوجودكم ولقيام دينكم ونشره، بل هو من ضرورات جميع الأديان كما قال فى سورة الحج: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ أى ولولا أنه يُدْفع قوم عن قوم بالقتال لفسدت الأرض وهدمت معابد النصارى واليهود والمسلمين التى يعبد فيها الله عزَّ شأنه. ثم نزلت آية عدم المبادئة بالعدوان فى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. وتلطَّف الله – جلّ سلطانه – إذ سمَّى قتال المسلمين للكفار باسم الجهاد فى مثل قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ إشارةً لما فيه من الجهد والمشقة، وأيضا تخفيفا على المسلمين لم يجعله الرسول أحد أركان الإسلام، وأوجب الله على المسلمين فى القتال إذا طلب من يقاتلونهم السلم أن يجيبوهم إليه.

٢

مسيرة الرسول وقريش إلى بدر

أ – مسيرة الرسول

علم رسول الله ﷺ أن قافلة عظيمة لقريش تحمل عروضا كثيرة من التجارة قادمة من الشام إلى مكة يقودها أبو سفيان ومعها حامية لها أربعون رجلا من أشداء قريش، وقيل بل سبعون، وكانت العير أو الإبل فى القافلة ألفا، وكانت الأموال كثيرة، ويقال إنه لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية لهما مثقالٌ فصاعدا إلا بعثا به فى تلك القافلة الضخمة.

وندب الرسول المهاجرين والأنصار للقاء القافلة وتطوّع لذلك خمسة وثلاثمائة منهم ثلاثة وسبعون من المهاجرين والباقون من الأنصار، وخرج بهم الرسول فى اليوم الثامن من شهر رمضان فى السنة الثانية للهجرة، واستعرض من معه وردَّ الصِّغار من أمثال أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، ورافع بن خديج الأوسى فلم يجزهم، وحاول ردَّ عمير بن أبى وقَّاص فبكى فأجازه وقُتِلَ فى بدر وهو ابن ست عشرة سنة. وكانت الإبل التى معهم سبعين بعيرا، فكانوا يتعاقبون الإبل: الاثنان والثلاثة والأربعة، وكان رسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة يتعاقبون بعيرا واحدا، وكان معهم فرسان: فرس لمرثد بن أبى مرثد وفرس للمقداد. وكان أبو سفيان قائد قافلة قريش واسع الدهاء، وكان يكثر فى طريق قافلته من سؤال الناس عن الرسول وتحركاته، وسمع أنه خرج من المدينة فى طائفة كبيرة من أنصاره، فاعتقد أنه يريد اعتراض القافلة، فأرسل إلى أهل مكة يستنفرهم ويستصرخهم لحماية القافلة، وكانت مكة تَغْلى بالثأر من أصحاب الرسول منذ قَتْل بعث عبد الله بن جحش لعمرو بن الحضرمى، فتألف سريعا جيش قرشى كثيف لقتال الرسول وأصحابه ونصرة القافلة. وعلم الرسول فى الطريق عند «الأبواء» أن قريشا وجَّهت إليه وإلى من معه جيشا فى رمضان فى السنة الثانية للهجرة، وشاع الخبر، فكان هناك من يرى الذهاب إلى جيش قريش ومحاربته ومن يرى طلب القافلة والغنيمة، وكان واضحا خطأ هذا الرأى الأخير لأنه يترك المدينة للجيش القرشى دون حماية أو دفاع، وفى ذلك يقول الله فى سورة الأنفال عمن يؤثرون طلب القافلة والغنيمة: ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿فِى الْحَقِّ﴾ أى القتال ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أنه الصواب. ويقول فيهم أيضا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ أى النصر على قريش أو غنيمة القافلة ﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أى تودون أن تكون الغنيمة التى ليس لها شوكة ولا سلاح لكم مؤثرين لها على لقاء الجيش القرشى ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أى الإسلام وينصره.

عقد الرسول لمجلس استشارى

وعقد الرسول ﷺ مجلسا استشاريا من كبار المهاجرين والأنصار ليتشاوروا هل يتجه الرسول وصحبه إلى قافلة أبى سفيان أو يتجهون إلى "بدر" لمنازلة قريش، وأبدى المهاجرون إيثارهم لقتال الجيش القرشي، وقام من بينهم أبو بكر ثم عمر بإلقاء خطاب حماسى لمنازلة الجيش القرشي، ثم قام المقداد، فقال: "يا رسول الله، امضِ لما أمرك الله، فنحن معك، ووالله لن نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون". ثم قال الرسول أشيروا علىَّ أيها الناس يريد أن يعرف رأى الأنصار إذ بايعوه فى مكة بيعتهم الكبرى بالعقبة على حمايته ونصرته فى دارهم: يثرب، ولم يبايعوه على القتال والحرب معه فى مسيرة إلى عدو له: قريش أو غيرها، وتنبّه سعد بن معاذ الأنصارى، فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. فقال سعد: "إنا آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر (الأحمر) فخضته لخضناه معك، ما يتخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبُرٌ عند الحرب صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريد منا ما تَقَرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله". وسُرَّ رسول الله ﷺ بقوله، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم. وعقد فى المسيرة لواء لمصعب بن عمير ورايتين سوداوين لعلى بن أبى طالب وسعد بن معاذ، وقدّم عدى بن أبى الزغباء وبَسْبس ابن عمرو الجهنيين عينين أمام جيشه.

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل قريبا من بدر، وركب مع رجال من أصحابه مستخبرا، ولما أمسى بعث عليًّا والزبير وسعد بن أبى وقاص فى نفر إلى بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا إبلا تحمل الماء إلى قريش فيها غلامان فأتوا بهما ورسول الله ﷺ يصلّى فسألوهما من أنتما فقالا: نحن سقاة قريش، فكره أصحاب رسول الله ﷺ هذا الخبر، وكانوا يظنونهما من قافلة أبى سفيان وأنهما

يكذبان عليهم وجعلوا يضربونهما، فإذا آلمهما الضرب قالا: نحن من قافلة أبى سفيان، فسلّم رسول الله ﷺ من صلاته وقال لصحبه: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذبا تركتموهما، وسأل الغلامين متلطفا أين قريش؟ فقالا: وراء هذا الكثيب (المشرف على بدر) فسألهما كم ينحرون كل يوم من الإبل؟ قالا عشرا يوما وتسعا يوما، قال رسول الله ﷺ : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، وكانوا تسعمائة وخمسين. وكان عدى بن أبى الزغباء وبسبس بن عمرو قد سبقا الجيش ونزلا بقرب ماء بدر، فسمعا جاريتين من جوارى الحىّ وإحداهما تقول لصاحبتها: دَيْنى؟ فقالت لها: ستأتى العِير (أى الإبل) غدا وبعد غد فأعمل لهم وأقضيك دينك. ورجع عدى وبسبس إلى الرسول ﷺ وأخبراه بما سمعا من الجاريتين.

منزل الرسول فى بدر

وكان الرسول ﷺ قد نزل بأصحابه فى بدر بأقرب ماء إلى يثرب وكان الحُباب بن المنذر الأنصارى عليما ببدر وآبارها، فتقدم إلى رسول الله ﷺ قائلا: أرأيت إلى هذا المنزل؟ أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدم – أو نتأخر – عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ :بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال: "يا رسول الله هذا ليس لك بمنزل فإنى عالم ببدر وآبارها، فانهض بنا حتى نأتى بئرا هو أقرب ماء إلى القوم وماؤه عذب وكثير لا ينزح، فنبنى عليه حوضا نقذف فيه الآنية، فنشرب ونقاتل، ونكبس غيره من الآبار بالتراب، فنشرب ولا تشرب قريش. فقال له الرسول ﷺ : أشرت بالرأى. ونهض بالجيش فنزل على البئر أو القليب الذى اختاره لهم، وبنوا عليه الحوض كما أشار، وبذلك أصبح الرسول ﷺ مسيطرا على مياه بدر.

عريش للرسول

وقال سعد بن معاذ: يا نبى الله ألا نبنى لك عَريشا تكون فيه، ونُعِدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوّنا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا عليه كان ذلك ما أحببناه، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلّف عنك من الأنصار أقوام يا نبى الله ما نحن أشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلّفوا عنك والله يمنعك بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله

ﷺ ودعا له بخير. ثم بنى سعد للرسول عريشا من قصب، جلس فيه الرسول ﷺ ، ووقف عليه سعد متوشّح السيف فى نفر من الأنصار حرّاسا. وبعث الله السماء فسقط مطر غزير، وكان نعمة للمسلمين ونقمة على الكافرين، فإنه لبّد ويبّس للمسلمين الرمل وسهّل حركتهم الحربية وأعانهم فى السير عليه، بينما جعل حركة القرشيين صعبة، إذ كان عليهم أن يصعدوا كثيبا رمليا كبيرا فاصلا بينهم وبين المسلمين.

ب - مسيرة قريش إلى بدر

عرف أبو سفيان أن الرسول خرج من يثرب مع حَشْد كبير من أصحابه لاعتراض قافلته وقطع الطريق عليها، وقد حالف القبائل النازلة فى الطريق ووادعها، فسار متخوفا من رصدٍ له، واستأجر ضمضم بن عمرو بعشرين مثقالا، وأرسله إلى قريش يخبرها باعتراض محمد وأصحابه له، وأمره أن يجدِّع بعيره أى يقطع أذنيه إذا دخل مكة ويحوِّل رَحْله ويشق قميصه من أمام ومن خلف، ويصيح: الغَوْث، الغَوْث. وصنع ضمضم ما أمره به أبو سفيان حين دخل مكة وصاح: يا معشر قريش اللّطيمة، اللّطيمة! (أى القافلة حاملة تجاراتهم) قد عرض لها محمد فى أصحابه، الغَوْث، الغَوْث، والله ما أرى أن تدركوها! وسرعان ما نفرت قريش وتجهّزت لإنقاذ القافلة فى ثلاثة أيام، وقيل فى يومين، وأعان قويهم ضعيفهم، وأخذ أبو جهل وسهيل بن عمرو وزَمَعة بن الأسود وطعيمة بن عدىّ وحنظلة بن أبى سفيان وأخوه عمرو وعقبة بن أبى مُعَيْط والنّضر بن الحارث يحضُّون الناس على الخروج، ومشى نوفل بن معاوية إلى أهل الثراء من قريش، فكلّمهم فى بذل النفقة والحُملان على الإبل لمن خرج، وتبرّع عبد الله بن أبى ربيعة بخمسمائة دينار وصنع مثله حُوَيطب بن عبد العُزّى، وحمل طعيمة بن عدى الناس على عشرين بعيرا. واستقسم أمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة عند الصنم الكبير هُبَل بالقِدْحين الآمر والناهى من الأزلام، فخرج القدح الناهى عن الخروج وأجمعوا على عدم الخروج حتى أزعجهم أبو جهل، واستقسم زَمَعه

ابن الأسود فخرج الناهي وبالمثل خرج لعمير بن وهب ولحكيم بن حزام. وحاول عُدّاس النصراني غلام عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة أن يثبّطهما عن الخروج، وأبَى أمية بن خلف الخروج فعنّفه عقبة بن أبى مُعَيْط وأبو جهل، وكان من أبطئهم فى الخروج الحارث بن عامر وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وحكيم بن حزام وأبو البخترى وعلى بن أمية بن خلف والعاص بن منية، وبكّتهم أبو جهل بالجُبْن، وأعانه عقبة بن أبى مُعَيْط والنضر بن الحارث فأجمعوا على الخروج.

وخرجت قريش بالقِيان والدّفاف يغنّين فى كل منْهل ويضربْنَ بالدفاف، وفى مرّ الظّهران عاد إلى مكة أفراد عشيرة عدى: عشيرة عمر بن الخطاب. وكان المطعمون للجيش فى مسيرته أبا جهل نحر عشر جزائر بمرّ الظهران على بعد خمسة أميال من مكة، وصفوان بن أمية نحر تسعا بُعسْفان (على مرحلتين من مكة) وسهيل بن عمرو عشرا بقُدَيد (قرية لخزاعة على ثلاث مراحل) وأقاموا فيها يوما فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعا ثم أصبحوا بالجُحْفة (على أربع مراحل من مكة) فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشرا، ونحر لهم فى الأيام التالية مقيس بن عمرو الجمحى عشرا والعباس بن عبد المطلب عشرا والحارث بن عامر بن نوفل تسعا وأبو البخترى على ماء بدر عشرا ومقيس الجمحى على ماء بدر تسعا ثم شغلتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم.

أبو سفيان يعدل عن الطريق المعتاد

ولما تخوف أبو سفيان السير إلى مكة فى الطريق المعتاد إليه المارّ ببدر خشية لقاء الرسول وجموعه نحّى القافلة عن الطريق وساحل بها يمينا نحو البحر الأحمر وانطلق، وأرسل إلى قريش إنه قد سلمت قافلتكم وإنكم إنما خرجتم لتمنعوا قافلتكم ورجالكم وأموالكم وقد نجّاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرا – وكانت سوقا يجتمع العرب فيها سنويا – فنقيم عليها ثلاثا، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونُسْقَى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبجيشنا وجَمْعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها. وقام الأخنس بن شَريق – وكان حليفا لبنى زهرة القرشيين – فقال: يا بنى زُهرة قد نجّى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل – وكان مع أبى سفيان لحماية القافلة –

وإنما نفرتم إلى القتال لتمنعوه وماله فألصقوا بى جبن القتال وارجعوا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير ضَيْم، فرجعوا ولم يشهد المعركة زهرى ولا عدوى، ورجع طالب بن أبى طالب إلى مكة معهم. ولما بلغ أبو سفيان تصميم الجيش القرشي قال: هذا عمل أبى جهل كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبَغَى، والبغى منقصة وشؤم.

حكيم بن حزام وعتبة وأبو جهل

وحين نزل الجيش القرشي خشي حكيم بن حزام مغبة القتال، فمشى إلى عتبة بن ربيعة فقال له: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمُطاع فيها هل لك إلى أن لا تزال تُذكر منها بخير إلى آخر الدهر؟ قال عتبة: وما ذلك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتتحمّل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى قتيل بعث عبد الله ابن جحش، فقال له: إنه حليفى وعليّ عقله (ديته) وما أصيب من ماله أؤدّيهما، فاذكر ذلك لأبى جهل، ثم قام خطيبا، فقال: "يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه وانتصرتم عليه لا يزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه لقتله ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم. وذهب حكيم إلى أبى جهل فذكر له كلام عتبة وتحمله دية عمرو بن الحضرمى وماله، فأبى وشتم عتبة بأنه قد تخوّف على ابنه أبى حذيفة وكان قد أسلم. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمى، فقال له هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس، فقُم فاذكر مقتل أخيك وثأره، فتعرّض عامر وصرخ واعمراه، فلم يعد بُدٌّ من القتال لأخذ الثأر الذى كان يُعدُّ أهم شريعة عند العرب فى الجاهلية، وكان الإحجام عنه يُعدُّ عارا ما بعده عار. وأرسل الرسول ﷺ إليهم وإلى أبى جهل عمر بن الخطاب يعرض عليهم الرجوع وأن لا يكون بينهما قتال، فرفض ذلك أبو جهل قائد الجيش القرشي قائلا له: إننا لن نرجع بعد أن مُكّنا منكم. ومضى عامر بن الحضرمى يحرض على القتال ويصرخ: واعمراه. ونشبت المعركة.

٣

المعركــة

بدأ الرسول فى صباح يوم المعركة بتنظيم جيشه فى صفوف متلاصقة جعل فى مقدمتها الرماة بالسهام، وكان عامر بن الحضرمى يتقدم الجيش القرشى تحرُّشا بالمسلمين ومهيِّجا عليهم مَنْ وراءه من القرشيين، وبذلك حوّل المعركة إلى معركة أخذ بالثأر، وحاول مناوشة المسلمين، فبرز إليه مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب فاستشهد، وكان أول قتيل من المهاجرين قُتل يوم بدر، وقُتل من الأنصار حارثة بن سراقة.

ونزل ثلاثة للثأر من قتل عمرو بن الحضرمى، وهم حلفاؤه عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة والوليد بن عتبة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار فِتْيان هم معاذ ومعوِّذ وعوف بنو عفراء، فقالوا لهم لستم لنا بأكفاء وأبوا إلا المبارزة مع رجال من قومهم القرشيين، ونادى منادى المشركين: يا محمد أَخرِجْ لنا الأكفاء من قومنا، فقال ﷺ : يا بنى هاشم قوموا فقاتلوا على الحق الذى بُعث به نبيكم، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، فقام حمزة وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث، وكان حمزة مُعْلما بريشة نعامة على رأسه وعلىّ معلما بصوفة بيضاء، ونازل حمزة عتبة فقتله، ونازل علىّ الوليد فقتله، ونازل عبيدة شيبة، فضربه شيبة فقطع ساقه، فكرَّ حمزة وعلىّ، فقتلا شيبة.

وتزاحف الجيشان، والرسول ﷺ يناشد ربَّه ما وعده من النصر، ويقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن يقوم لك دين ولن تُعبد أبدا". وأقبل الأسود ابن عبد الأسد القرشى حتى دنا من الحوض الذى بناه المسلمون فقال: أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنَّ دونه، فضربه حمزة بسيفه فقطع رجله، وزحف الأسود إلى الحوض، فأتبعه حمزة ضربة ثانية فقضت عليه. وأخذ الرسول يحضُّ أصحابه على الاستماتة فى القتال، وسمعه عمير بن الحُمام

الأنصارى يرغّب فى الجهاد ويشوّق إلى الجنة من يموت شهيدا وكان فى يده تمر يأكله فقال: بَخٍ بَخٍ أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هـؤلاء المشركون ورمى التمر وقاتل حتى قُتِل. وكل المسلمين المقاتلين فى بدر كانوا مثل عمير بن الحمام، فهم يودون لو يستشهدون فى قتال القرشيين المشركين. وكان الرسول ﷺ فى العريش يرقب المعركة مع أبى بكر، وحدث ما يشبه المعجزة، فقد أخذت رءوس المشركين المشاركين فى المعركة تتهاوى، ووقع شئ عجيب شهدت به سورة الأنفال، إذ أمدَّ الله محمدا والصحابة فى قتالهم لقريش بألف من الملائكة أى بكثرة من الملائكة كانت تملأ المسلمين حماسة وشجاعة. وتناول الرسول ﷺ مجموعة من الحصا رمى بها القرشيين، وقال: شاهت الوجوه، اللهم أفزع قلوبهم وزلزل أقدامهم. وهبّت فجأة من وراء الرسول على المشركين عاصفة هوجاء أعمت أبصارهم، وتلتها عاصفة أشد هولا، ثم عاصفة ثالثة، وألقت العواصف فى قلوب المشركين الرعب، وأخذ من لم تتهاو رأسه مقتولا يستسلم للمجاهدين المسلمين، وقُتل منهم سبعون وأُسِر أربعة وسبعون، وتمَّ النصر للرسول وأصحابه؛ وكأنه معجزة بل هو فعلا معجزة بنصر الله القائل فى وصف المعركة للرسول وأصحابه بسورة الأنفال ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

ونهى الرسول عن قتل بنى هاشم وعمه العباس بن عبد المطلب لأنهم خرجوا كرها ولم يقتل منهم أحد، ونهى عن قتل ثلاثة من أشراف قريش لم يؤذوه طوال مقامه بمكة، وهم أبو البخترى وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى حبست قريش الرسول بها وأصحابه فى شعب بنى هاشم وقتله المجذر بن ذياد. ونهى أيضا عن قتل الحارث بن عامر وزمعة بن الأسود وقُتلا، وقتل حمزة أبا قيس ابن الفاكه بن المغيرة، وقتل علىّ جماعة منهم ابن أبى رفاعة وحرملة بن عمرو والعاص بن سعيد، وقتل عمر خاله العاص بن هشام أخا أبى جهل. وكان أبو جهل محاطا بكوكبة من قريش ومن الصعب أن يخلص إليه أحد، واستطاع معاذ ابن الجموح أن يخلص إليه فضربه ضربة أطاحت رجله من الساق، وضربه معه

قتل أبى جهل

معوِّذ وعوف ابنا عفراء، ولما انتهى القتال أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود أن يلتمسه في القَتْلى، فوجده في آخر رمق فوضع رجله على عنقه، وضربه بالسيف فقطع رأسه، وأتى بِسَلبه النبي ﷺ فأعطاه له، وكان أعلن المسلمين في أول الحرب أن من قتل قتيلا فله سلبه، وأعطى معاذ بن الجموح سيفه ودرعه. ورأى الرسول مصرع ابني عفراء فقال: يرحم الله ابني عفراء، فإنهما قد شركا في قتل أبي جهل. ورأى بلال عبد الرحمن بن عوف يسوق أمامه من المعركة أمية بن خلف وابنه عليا، فنادى يا معشر الأنصار هذا أمية بن خلف رأس الكفر، لا نجوتُ إن نجا - وكان بلال مولاه وكان يعذّبه بمكة على ترك الإسلام عذابا شديدا، إذ كان يخرجه في حر مكة الشديد، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال: أَحَدٌ أَحَدٌ، ورآه أبو بكر وأمية يعذّبه فاشتراه منه وحرَّره. واجتمعت الأنصار على بلال وأمية وابنه على وأحاطوا بهم، وقطّعوا أمية وابنه عليا بالسيوف. وكان شعار المسلمين في الحرب ببدر أَحَدٌ أَحَدٌ، وقيل: أَمِتْ أَمِتْ.

بلال يقتل أمية ابن خلف

وأمر الرسول ﷺ حين انتهت المعركة بجمع شهداء المسلمين وحدهم، وبالمثل جمع قتلى الكفار وغوَّر لهم القُلُب أو الحُفَر التي يدفنون فيها ووضع شهداء المسلمين في قليب لينتظروا فيه نعيم الفردوس، ووضع قتلى الكفار في قُلُبٍ لينتظروا فيها عذاب النار الأليم.

٤

الغنيمة والأسرى والتشاور فيهم - لفتة حضارية

أ - الغنيمة والأسرى

أمر رسول الله بجمع كل ما خلّفه الجيش المكي في ميدان الحرب، واختلف المسلمون فيه، فقال من جمعوه هو لنا جمعناه، وقال المقاتلون: لولانا ما أصبتموه،

وقال حُرَّاس الرسول: لقد كان أمامنا ما خلّفه القوم ولا أحد يمنعه منا لكنا خفنا على الرسول كرَّة العدو فقمنا دونه وما أنتم أحق به منا. ونزع الله كل ما غنمه المسلمون من أيديهم فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسَّمه بينهم بالتساوى. وقال له سعد بن أبي وقَّاص: أتُعطى فارس القوم الذى يحميهم مثل ما يُعطى الضعيف؟ وردَّ عليه الرسول بقوله اللطيف: وهل تُنْصَرون إلا بضعفائكم، ونادى مناديه: من قتل قتيلا فله سَلَبُه ومن أسر أسيرا فهو (أى فداؤه) له. وضرب فى الغنيمة لثمانية رجال لم يحضروا بدرا إذ كانوا مكلّفين بأعمال، وكان بينهم عثمان بن عفان أمره الرسول بالتخلف لمرض ابنته رقية زوجته. وكان فى الغنيمة مائة وخمسون بعيرا وعشرة أفراس وأسلحة ودروع كثيرة سوى أمتعة وأزواد كثيرة. وبعث الرسول ﷺ شخصا إلى عالية المدينة وأسامة بن زيد إلى سافلتها يبشّران الناس بالنصر العظيم، وتوفيت حينئذ رقية بنت الرسول.

قتل النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط

وفى الطريق إلى المدينة أمر بقتل أسيرين من أسرى قريش أولهما النضر بن الحارث، وكان من شياطين قريش يؤذيه وينصب له العداوة وعرف فى الحيرة أحاديث ملوك الفرس ورستم وإسفنديار، وكان إذا جلس رسول الله مجلسا فتلا القرآن ودعا فيه إلى الله وحذّر قريشا مما أصاب الأمم السابقة خَلَفَهُ فى مجلسه وحدَّثهم عن رستم البطل وإسفنديار وملوك فارس. وكان يقول لهم: ما محمد بأحسن حديثا منى وما حديثه إلا أساطير الأولين، وكان ممن تزعَّم مع أبى جهل دعوةَ قريش إلى معركة بدر، وحمل لواء فى مقدمة الجيش، فكان طبيعيا أن يأمر الرسول بقتله حتى لا يعود إلى مكة وتأليب الناس على الرسول وهتافه فيهم أن القرآن أساطير الأولين فلا تصدقوا محمدا إنه إنما يحكى أساطير وأباطيل. والأسير الثانى الذى أمر الرسول بقتله عقبة بن أبى مُعَيْط، وكان من شياطين قريش مثل النَّضر، وكان يبلغ من الاعتداء على الرسول فى مكة وإيذائه ما لم يبلغه أحد، ولما أمر الرسول ﷺ بقتله أقبل على أصحابه فقال أتدرون ما صنع هذا بى؟ جاء وأنا ساجد فى الكعبة خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وجعل يغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينىَّ تسقطان. ثم مرة أخرى جاء بِسَلا شاة (وهو الجلد

الرقيق الذى يخرج فيه ابنها من بطنها ويكون مليئا بالدم) وألقاه على رأسى وأنا ساجد خلف المقام، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي. وكان هو والنضر والشيطان الكبير أبو جهل أهم من حضُّوا الناس على الاشتراك فى غزوة بدر، والثلاثة جميعا يتحملون وزر الدماء التى أريقت من رجال قريش فى معركة بدر والدماء الطاهرة التى أريقت من المهاجرين والأنصار، وقد قُتل أبو جهل فى المعركة، وكان حريا أن يُقتل النضر وعقبة حتى لا يعودا إلى الإفساد فى مكة وتأليب الناس فى إعداد معركة ثانية ضد الرسول ﷺ .

ومن عَجَب أن يزعم بعض المستشرقين أن قتل الرسول لهذين الأسيرين يدل على أنه كان متعطشا لسفك الدماء دون معرفة بالشخصين ومدى عدائهما للرسول وإيذائهما له وتأليبهما قريشا ودفعها لقتاله هو وأصحابه فى بدر. وأكبر دليل على خطئهما فى هذا الزعم أنه لو كان متعطشا لسفك الدماء لأمر بقتل بقية الأسرى السبعين أو بعبارة أدق الاثنين والسبعين إذ كانوا أربعة وسبعين كما مرّ بنا. ودليل ثان على خطأ هذا الزعم أنه أطلق سراح فقراء الأسرى وردَّ إليهم حرياتهم دون أن يفكر أى تفكير فى سفك دماء أحدهم، ولم يطالبهم بأى شئ سوى تعهدهم بأن لا يعودوا إلى حربه. وخرج رسول الله بعد المعركة قافلا إلى المدينة، ومعه الغنائم والأسرى فقسّم الغنائم فى الطريق بالتساوى بين أصحابه، وسبق الأسرى إلى المدينة بيوم.

وأخذ الرسول يفكر فى أمرهم أيقتلهم أو يأخذ منهم الفداء ويطلقهم، واستشار أبا بكر وعمر، فرأى أبو بكر أخذ الفداء تقوية للمسلمين وأشار عمر بقطع رقابهم، واستشار الرسول الصحابة فاختلفوا، فمنهم من وقف فى صف أبى بكر، ومنهم من وقف فى صف عمر، ولو كان الرسول متعطشا لسفك الدماء كما يقول بعض المستشرقين لاختار رأى عمر، ولكنه اختار رأى أبى بكر رحمة بالقرشيين أعدائه الذين عذّبوه وعذبوا المسلمين فى مكة وكذّبوه وأخرجوه وقاتلوه، إنه رسول الرحمة كما قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. ونزلت الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى

يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ أى حتى يبالغ فى قتل أعدائه ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ووزع الرسول الأسرى بين أصحابه وقال لهم استوصوا بهم خيرا، قال ابن عباس: فكانوا يقدمونهم على أنفسهم فى الغداء، وهى لفتة عظيمة فى معاملة أسرى الحرب لم يسبقه إليها أحد فى حروبه، إذ كانت الأسرى تُستذلّ وتُعامل معاملة الرقيق. وبلغت الهزيمة الساحقة قريشا، فناحت على قتلاها شهرا وجزّ النساء شعورهن، وبلغت أبا لهب فحزن حزنا شديدا ولم يلبث أن مات بعد أسبوع غمًّا.

وبعثت قريش فى فداء الأسرى، فقدم إلى المدينة جُبَير بن مطعم للتفاوض فى الفداء، وقدم مِكْرَز بن حفص فى فداء سُهَيْل بن عمرو، وكان الرسول ألقى به ذليلا فى ركن من غرفة بداره ويداه مقيدتان خلفه، فرأته سودة بنت زمعة زوجة الرسول فقالت له: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كرامًا؟ فسمعها الرسول، فقال لها: يا سودة أعَلَى الله ورسول الله تحرّضين؟ وقدم أربعة عشر من قريش فجعل الرسول فداء الأسير من ألف إلى أربعة آلاف حسب قدرته المالية دون أى عسف أو ظلم لأحد. وكان فى الأسرى أبو العاص بن الربيع ابن أخت السيدة خديجة، وكانت تعدّه بمنزلة ولدها، وسألت رسول الله أن يزوجه ابنته زينب، وكان لا يرد لها طلبا فتزوجها. ولما أكرم الله الرسول بنبوّته آمنت به خديجة وبناتها، وثبت أبو العاص على شركه، وكان من رجال مكة المعدودين مالا وتجارة وأمانة، وأقامت زينب معه على إسلامها، وهو على شركه. فلما سارت قريش إلى بدر سار معها وأصيب فى الأسرى، فبعثت زينب فى فدائه بقلادة كانت أمها أدخلتها بها حين تزوجها، فرقّ لها الرسول رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردّوا عليها قلادتها، ويأخذ الرسول على أبى العاص عهدا أن يُخلّى سبيل زينب إليه. ولما عاد إلى مكة أرسل الرسول إليها زيد بن حارثة، فرافقته إلى أبيها وأقامت عنده وأقام أبو العاص بمكة، وقبيل فتح الرسول لمكة خرج فى تجارة إلى الشام وفى عودته أسره بعث للرسول، ورُدَّت عليه تجارته

فذهب بها إلى مكة وأعطى كل ذى حق حقه، ثم رجع إلى الرسول فأعلن إليه إسلامه وردَّ إليه زوجته.

ب – لفتة حضارية

وكانت مكة تسبق المدينة فى كثرة من بها من الكتّاب بسبب التجارة وكان فى الأسرى منهم طائفة فرأى الرسول أن يستغلهم فى تعليم صبية المدينة الكتابة، وقال لهم إن كلا منكم يستطيع أن يفدى نفسه وتُردُّ إليه حريته إذا علّم عشرة من صبية المدينة الكتابة، وتعلمها زيد بن ثابت فى طائفة من غلمان الأنصار؛ مما يدل بوضوح على أن الرسول كان يريد نقل غلمان المدينة من عالم الأمّيّة والبداوة إلى عالم الكتابة والحضارة، وحضَّ الله الأمة الإسلامية على العلم والتعلم منذ أول نزوله كما فى صدر سورة اقرأ وفى كثير من آيات القرآن ومن أحاديث الرسول ﷺ ، إذ هو دين علم وحضاره.

وأسلم عقب معركة بدر كثير من أهل المدينة، وأذلَّ الله بها المشركين واليهود والمنافقين، ودخل عبد الله بن أُبَىّ وجماعته من المنافقين فى الإسلام تقيَّة أن يصيبهم ما أصاب قريشا.

انتصار بدر إرهاص برسوخ الإسلام وقيام إمبراطوريته

ويُعَدّ انتصار الرسول والمهاجرين والأنصار فى معركة بدر أهم حدث فى التاريخ المبكر للإسلام، إذ استقرت به رسالته، وأصبح من المؤكد أن انتصاراته ستتوالى وسيُظِلُّ الجزيرة العربية، ولم يلبث أن غيّر بفتوحه الإسلامية وجه العالم وخريطته بفضل الثلاثمائة من المهاجرين والأنصار الذين مزّقوا قريشا فى بدر، وأعدّوا الإسلام لكى ينتصر – فيما بعد – بمكة، ثم فى أركان الجزيرة العربية، ثم فى أركان العالم من الهند والملايو وأندونيسيا إلى الصين والترك وإيران والروم وأهل الشام والمصريين والبربر والإسبان. فما أعظم هذه المعركة التى كانت استهلالا عظيما لرسوخ الإسلام فى الأرض، وقيام الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف فى آسيا وإفريقيا وأوربا؛ والتى نشرت فى العالم حضارة إنسانية لا تزال مؤثرة بعمق فى كيانه وحياته.

الفصل الثالث عشر

من آثار بدر إلى مباحث قرآنية

١

آثار بدر

مرَّ بنا أن مكة أمضت شهرا أو يزيد في بكاء قتلاها في بدر وجزَّت نساء كثيرات شعورهن حزنا على من مات لهن ونُحْنَ عليهم وندبنهم طويلا إلا ما كان من هند زوجة أبى سفيان، وقيل لها ألا تبكين أباك عتبة بن ربيعة وأخاك الوليد وعمك شيبة، فقالت: أأبكيهم ويسمع ذلك المسلمون فى المدينة ويشمتون بى؟ لا أبكيهم حتى تثأر لهم قريش. وبكى قتلى قريش شعراء مكة والطائف محرِّضين على الثأر لهم.

وكان انتصار بدر العظيم غُصَّة كبيرة ليهود المدينة ومنافقيها وأخذوا يهوِّنون منه، وأخذ بعض شعراء اليهود ينظم الشعر فى التحريض على المسلمين، وكانوا جميعا يحقدون على الرسول ﷺ أنه أصبح الحاكم الآمر فى المدينة بعد أن كان لائذا بها مستجيرا من قريش، ولم تمر له بها إلا أشهر قليلة، وإذا هو يهيمن عليها ويسيطر سيطرة تامة بالجمهور الكبير الذى دخل فى دين الله وأسلم له قياده من الأوس والخزرج.

قتال الملائكة

وكان المسلمون من هاتين القبيلتين والمهاجرين يعتزون بما حقق الله لهم فى بدر من النصر، ونزلت فيه سورة الأنفال، وامتنَّ الله به على المسلمين إذ جعله بشرى لهم لتطمئن به قلوبهم، وأمدَّهم بألف من الملائكة مردَفين أى متبعين بألفين

آخرين حتى بلغوا خمسة آلاف كما في سورة آل عمران، ويوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾. ويكثر حديث المسلمين عن نصرة الملائكة لهم، فقائل يقول إنه سمع همهمة الخيل في السحاب، وقائل يشهد بأنه كان يتبع كافرا ليضربه بسيفه، فإذا رأسه يسقط قبل أن يصل إليه سيفه، وعن ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يوم بدر يشتدّ (يسرع) في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط، وخرّ (سقط) المشرك مستلقيا، يقول: ووصلت إليه ونظرت فإذا هو قد خُطِّم أنفُه وشُقّ وجههه كمن يُضرب بسيف. ولم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، أما فيما عداه مثل يوم حنين فكانوا مددا للرسول وعونا، وعن سهل بن حنيف أنه قال: رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. ويروى أنه في أثناء المعركة أخذ الرسول يدعو ربه، ومما قال: اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد أبدا في هذه الديار. وأخذ كفا من حصباء وقيل من تراب فرمى بها قريشا وقال: شاهت الوجوه. وانهزموا. وليس هذا التراب سبب النصر ولا سيوف المسلمين سببه، إنما سببه الله القائل في السورة للمسلمين وللرسول ﷺ بعد أن ذكر نصره لهم في بدر بملائكته: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾. وكأنما كان المسلمون الذين اشتركوا في المعركة يتفاخرون بأنهم قتلوا المشركين، فقال الله: لستم الذين قتلتموهم بل ربكم الذى قتلهم. نصر بدر
وقال لرسوله ﷺ: يا محمد ليست الرمية التى رميتَ بها المشركين أنت الذى رميتها حقا لأنك لو كنت أنت الذى رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمى البشر، ولكنها كانت رمية الله، ولذلك أثّرت ذلك الأثر من النصر الإلهى العظيم الذى عدّه الله بُشْرى للمسلمين كما قال في سورة الأنفال. ولم يكن تثبيتا لأقدامهم ووجودهم في المدينة والحجاز فحسب، بل كان بشرى لانتصارهم في الجزيرة العربية جميعها، بل كان بشرى أكبر من ذلك بكثير؛ أن ينتشر الإسلام سريعا شرقا حتى حدود الصين والهند، بل سيتجاوزهما إلى ماليزيا وأندونيسيا، وغربا نصر ربّانى

حتى المحيط الأطلنطى فى أوربا وتكوينه فيها الأندلس بإسبانيا وفى إفريقيا وتكوينه فيها دولا شتى.

هذا النصر الإلهى للرسول ﷺ وللإسلام الذى مكّن للدين الحنيف أن يثبت وينتشر فى الأرض أشبه بنصره الإلهى لرسوله موسى وقومه من اليهود، ويشير الله فى سورة الأنفال إلى هذا النصر لموسى ضد فِرعون وقد فصَّله لهم قبل ذلك فى سورة الشعراء المكّية، إذ قال جلّ شأنه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ وقد خرج بهم ليلا متجها إلى طور سيناء فرارا بهم من فِرعون وظلمه العنيف لهم، وعلم فِرْعون بخروجهم فجمع جنوده للّحاق بهم وردّهم إلى مصر، وكاد يدركهم وهم مشرفون على البحر الأحمر، يقول الله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ... وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾. فحين قرب فرعون وجنده من موسى وقومه أمره الله أن يضرب بعصاه البحر الأحمر، فانفلق يمينا ويسارا وامتد فيه طريق واسع سارت فيه أسباط بنى إسرائيل إلى سيناء وأنجاهم الله من فرعون وجنوده، فاقتحم البحر وراءهم يظن أن ماءه سطحى وغير عميق، فأطبقه الله عليه وعلى جنوده فغرقوا جميعا، وكان نصر موسى وقومه عليه نصرا إلهيا استطاعوا به أن يبدأو تاريخ دولتهم فى فلسطين، بالضبط كما كان النصر الإلهى للرسول ﷺ والمسلمين فى بدر بدء الانتصارات للإسلام وتمكنه فى مشارق الأرض ومغاربها إلى اليوم.

٢

حمقى اليهود – بنو قَيْنُقاع

أ – حمقى اليهود

أخذ اليهود يتلتّون حقدا وضغينة على الرسول ﷺ بعد انتصاره العظيم فى بدر ورجوعه إلى المدينة، وكان نفر منهم ومن المنافقين سفيها يؤذى الرسول والمسلمين بهجائه قبل بدر، وكانوا لا يتعرضون لسفاهتهم، فلما انتصروا فى بدر

وشعروا بعزّتهم أنفوا أن يتركوهم يهجونهم. وكان من أقذع اليهود هجاء عصماء بنت مروان، وكانت تعيب الإسلام فى شعرها وتؤذى الرسول وتحرّض عليه غير مبالية، فأقسم عمير بن عدىّ ليقتلنّها، فدخل عليها ليلا وحولها أبناؤها نيام وابن ترضعه، وكان ضريرا فنحّى ابنها عنها، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها، وتركها. ثم عاد إليها فوجد بنيها فى جماعة يريدون دفنها، فسألوه أأنت قتلتها؟ قال: نعم فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون والذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم. وكان قتلها لخمس بقين من رمضان مرجع المسلمين من بدر.

قتل عصماء

وكان شيخ من اليهود يسمى أبا عَفَكٍ ينظم الأشعار قبل انتصار بدر وبعده يطعن بها على المسلمين والرسول ﷺ ويحرّض اليهود على الثورة عليه ويغريهم، فنذر سالم بن عمير من بنى النجار ليقتلنّه أو يموت، وظل يطلب منه غِرَّة أو فرصة. حتى كانت ليلة صائفة، ونام أبو عفك بفناء داره، وعرف ذلك سالم بن عمير إذ كان يترصده، فأقبل فوضع السيف على كبده واعتمد عليه حتى دخل فى الفراش، وصاح أبو عفك فجاءه ناس فأدخلوه منزله وقبره.

قتل أبى عفك

وجدير أن نضم إلى مصرع أبى عفك وعصماء مصرع كعب بن الأشرف، وإن تأخر مصرعه عنهما حتى ربيع الأول فى السنة الثالثة للهجرة، وعداده فى بنى النضير اليهود، وقيل إن أباه من طيئ وأمه من بنى النضير، وكان شاعرا، وكان عدوا لله ولرسوله ﷺ وأكثر من هجاء الرسول ومن التشبيب بنساء المسلمين يريد أن يهتك أعراضهم. ولما علم بانتصار المسلمين فى بدر ومقتل أشراف قريش قال: إن هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، ووالله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. وذهب إلى مكة يحرّض قريشا على محمد بأهاجٍ حماسية، ويبكى قتلاها فى بدر، وعاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين فى وقاحة لا تماثلها وقاحة. وتأذى المسلمون تأذيا شديدا، وأجمعوا على وجوب قتله، وتعهد بذلك أخوان له فى الرضاعة محمد بن مسلمة وأبو نائلة وانضم إليهما نفر من قبيلة الأوس، وأتاه أبو نائلة فتحدث معه وتناشدا

قتل كعب ابن الأشرف

الأشعار، وفَجَأَهُ أبو نائلة بقوله: كان قدوم هذا الرجل أى الرسول علينا من البلاء، حاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وتقطّعت السُّبُل عنا حتى جُهِدنا وضاع العيال، فقال له كعب: لقد كنت أحدثك بهذا، وقال له أبو نائلة مؤكدا: إن معى رجالا من أصحابى على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم فنبتاع منك طعاما وتمرا ونرهن لك ما يكون لك ثقة فيه، واكْتم عنى ماحدَّثتك من ذكر محمد، فقال كعب: لا أذكر منه حرفا، لكن اصدُقنى ما الذى تريدونه فى أمر محمد، قال أبو نائلة: خذلانه والتنحِّى عنه، قال كعب: سررتنى فماذا ترهنون لى؟ قال له أبو نائلة: السلاح والدروع، وسُرَّ كعب. وقام أبو نائلة من عنده، فأتى أصحابه، فأجمعوا أن يأتوه فى موعده مساء، وكانت ليلة مقمرة، فأتوا ابن الأشرف فناداه أبو نائلة - وكان حديث عهد بعُرْسٍ - فنزل من حصنه إليهم فجعلوا يتحادثون ساعة، ثم مشوا يتحدثون بقية ليلتهم بعيدا عن حصنه، وبينما كعب مطمئن إليهم مصغٍ إلى حديثهم أخذ أبو نائلة بضفائر شعره وقال لصحبه: اضربوا عدوّ الله، فضربوه بأسيافهم، وصاح صيحة أسمعتْ حصون اليهود فأشعلوا نيرانهم ولم يلبث أن مات. وزاد مصرعه يهود بنى النضير خوفا شديدا على خوف.

ب- إجلاء بنى قَيْنُقاع

بنو قَيْنُقاع إحدى القبائل اليهودية الثلاث التى نزلت يثرب واستقرت بها حين طرد الإمبراطور الرومانى هادريان اليهود من فلسطين نهائيا سنة ١٣٥ للميلاد، واحترفت بها الصياغة وصنع الأسلحة، وكانوا تجارا وصاغة، بينما كانت القبيلتان اليهوديتان الأخريان: بنو النضير وبنو قريظة أصحاب زرع ونخل، وكان بنو قينقاع أقرب منهما فى المساكن إلى مساكن الأوس والخزرج، وكانت لهم سوق بها محالُّهم وتجارتهم.

ولم يحاول هؤلاء اليهود جميعا تكوين وفد لتهنئة الرسول والمسلمين بما أنعم الله عليهم من النصر فى بدر، وبدلا من أن يذكروا له أنهم عند عهدهم الذى

عقده معهم من أنهم شركاء المسلمين فيما أنفقوا في معركة بدر كما ينص الدستور السابق حين يحاول عدوٌّ حرب المسلمين مضوا يتحرَّشون بالرسول وبالمسلمين، فجمعهم الرسول في سوقهم وقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة في بدر وأَسْلِموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسل، فأجابوه: "لا يغرنك يا محمد أنك لقيت في بدر قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس". وعرف الرسول أنهم يبيتون له وللمسلمين شرا، وانصرف عنهم، وفيهم نزل قوله تعالى تهديدا لهم وإنذارا أن يصيبهم ما أصاب قريشا في بدر: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ في يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وهم المسلمون ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾.

تحرُّش بالرسول

ولم يعتبر بنو قينقاع ولا اتعظوا، وحدث سريعا أن امرأة من الأنصار جاءت إلى سوق بني قَيْنُقاع فجلست إلى صائغ تفاوضه في حِلْية، وبينما هي تفاوضه غافلها يهودي سفيه، وهي لا تدري، فعقد من خلفها طرف ثوبها إلى ظهرها، ولم تكن تلبس تحت الثوب سربالا، فلما قامت انكشفت سوْأتها فتضاحك بها اليهود، فصاحت، فوثب رجل مسلم على الصائغ فقتله، وتجمع اليهود على المسلم فقتلوه دون أن يرفعوا الأمر إلى الرسول كما يقضي بذلك عهدهم معه، واستصرخ أهل المسلم المسلمين، ووقع الشر بينهم وبين بني قَيْنقاع، وعرفوا أن المسلمين لابد أن يحاربوهم بعد نقضهم للعهد مع الرسول، فدخلوا حصونهم وأغلقوها.

وحاصر المسلمون بني قينقاع في دورهم بمنتصف شهر شوال خمسة عشر يوما متعاقبة لم يخرج فيها أحد منهم ولا دخل عليهم أحد بطعام، واضطروا إلى التسليم والنزول على حكم الرسول، لما قذف الله في قلوبهم من الرعب. واستشار الرسول فيهم كبار الصحابة، فأشاروا عليه بقتلهم جميعا. وكان عبد الله ابن أُبَيّ حليفا لهم، وارتضوا قبيل الهجرة - مع أهل المدينة - أن يملّكوه عليهم،

حصار بني قينقاع

عبد الله ابن أُبَىّ يشفع لهم

ولم يتم له ذلك إذ نزل الرسول المدينة وبايعه جمهورها على طاعة الله ورسوله، وذلك سبب حقده على الرسول ونفاقه مع اضطراره أن يعلن إسلامه. وكان لا يزال له بعض السلطان فى نفوس المشركين من الأوس والخزرج، فتقدم إلى الرسول يطلب منه العفو عن بنى قينقاع حلفائه قائلا له: أحْسِنْ فى موالىّ، ولم يرد عليه الرسول ﷺ ، فكرّر الطلب والرسول معرض عنه، فأدخل يده فى جيب دِرْع الرسول، فتغير وجه الرسول وقال له: أرسلنى. وبدا الغضب على وجهه، وأعاد قوله: أرسلنى. والغضب واضح فى نبرات صوته، قائلا: أرسلنى وَيْحك. وأجابه ابن أُبَىّ: والله لا أرسلك حتى تُحسن فى موالىّ، أربعمائة حاسر (غير لابسين دروعا) وثلاثمائة دارع قد منعونى (أى قبيل الهجرة) من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة؟ وحدثه عبادة بن الصامت عن ابن أُبَىّ وما كان ينتظر من تملك يثرب بمساعدتهم قبيل الهجرة، فرأى الرسول أن يحسن إليه وإلى المشركين من موالى اليهود، مما جعله يأمر بأن يجلو بنو قينقاع عن المدينة عقابا لهم. وحاول ابن أُبَىّ أن يستميح الرسول فى بقائهم بيثرب، ومنعه بعض الصحابة. وأجلاهم عبادة بن الصامت حليفهم وقبض أموالهم. وتركوا فى منازلهم سلاحا كثيرا وآلة الصياغة. وأخذ الرسول من سلاحهم ثلاث قِسِىّ (جمع قوس) وثلاثة أسياف وثلاثة أرماح ودرعان إحداهما فضية، ويُقال: هى الدرع التى أهداها شاول إلى داود حين خرج لقتال جالوت. وخرج بنو قينقاع من دورهم فى يثرب ومضوا يضربون فى الصحراء، ولحقوا بأذرعات على حدود سوريا بنسائهم وذراريهم.

إبطال الإسلام لقانون الأخذ بالثأر

وينتقد بعض المستشرقين تصرف الرسول والمسلمين إزاء إجلاء بنى قينقاع عن المدينة قائلين إنه قُتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل غير عالمين أن الإسلام حرّم الأخذ بالثأر، لأنه كان شريعة عند العرب قبل الإسلام، وكانت القبيلة حين يقتل أحد أفراد قبيلة ثانية شخصا منها تثأر للقتيل وتظل القبيلتان تتحاربان طلبا للأخذ بالثأر لمن قُتِل منهما، ووقف ذلك الإسلام والرسول حتى لا تتفانى الأمة، واستبدل ذلك بالقصاص وهو أن لا يُقتل سوى القاتل، وتقتله

الدولة، ولا يقتل الأفراد بعضهم بعضا حتى تُحقن الدماء، ومن حق أولياء دم المقتول أن يعفوا عن القاتل نظير دية يقدمها القاتل، فإجلاء بنى قينقاع كان لإخلالهم بقانون القصاص الإسلامى، ومنعًا للعودة إلى قانون الأخذ بالثأر الجاهلى الذى مُحِيَ فى الإسلام ليستتبَّ النظام والأمن. وأخذ الرسول خُمْس متاع بنى قينقاع وفرّق الباقى على من حاصروهم.

وضع قانون القصاص الإسلامى

٣

خمس مسيرات للرسول سُمِّيت غزوات، وبعث زيد

هذه خمس مسيرات للرسول ﷺ سميت غزوات كما سميت مسيراته المارة قبل بدر، ورأينا هناك أنها كانت مسيرات لعقد معاهدات بينه وبين القبائل التى تنزل فى مواقع مهمة فى الطريق بين المدينة ومكة وفى طريق القوافل المكّية المصعدة إلى الشام والمنحدرة إلى مكة. وهذه المسيرات بعد بدر إنما كانت لسماعه بتجمعات قبلية ضده أو ضد المدينة، فكان يريد أن يباغتها فجأة حتى يبطل ما كانت تفكر فيه من هجوم على المدينة وما فيها من زروع ونخيل.

مسيرة إلى بنى سليم

وكانت أولى مسيرات الرسول بعد بدر إلى بنى سليم إذ سمع أنهم يتجمّعون له فخرج إليهم مع جماعة من المسلمين بعد سبعة أيام من رجوعه من بدر، ومضى إليهم حتى بلغ ماء من مياههم وأقام عليه ثلاث ليال ولم يلق جمعا ولا أحدا، وعاد إلى المدينة.

وكان أبو سفيان قد أصبح أهم شخصية فى قريش بعد أن قُتل كثيرون من أشرافها، وقرر مع الملأ من قريش أن يصبح كل ما حملته قافلته التى معه مساعدةً لقريش ضد محمد، وأقسم أن لا يمسّ رأسه ماء وأن لا يطعم دهنا حتى يثأر من محمد وأصحابه بمن أصيب من قومه، ولكى يبرَّ يمينه خرج فى أربعين راكبا وقيل فى مائتين ليغزو محمدا، ونزلوا بالقرب من المدينة فى أوائل ذى الحجة. وخرج أبو سفيان حتى أتى بنى النضير اليهود فضرب على سيدهم سَلّام بن مشكم بابه

مستأذنا عليه، فأذن له وأكرمه إذ أطعمه طعام الضيف وسقاه الخمر وأعلمه بأخبار الرسول والمسلمين. وخرج أبو سفيان من عنده فى أواخر الليل، وعاد إلى أصحابه من قريش، فبعث رجالا منهم إلى المدينة، ونزلوا بناحية منها يقال لها العريض، ووجدوا بها نخلا مجتمعا فأشعلوا فيه النار، ووجدوا شخصا من الأنصار وحليفا له يعملان فى حَرْث فقتلوهما، وانصرفوا راجعين مسرعين. وانتشر الخبر وبلغ الرسول ﷺ ، فخرج فى طلبهم بالخامس من ذى الحجة فى جماعة من المهاجرين والأنصار، حتى بلغ ثمانية مراحل، وعرف أن أبا سفيان وأصحابه فاتوه فعاد مع جماعته، ورأوهم يطرحون كثيرا من أزوادهم للتخفيف طلبا للسرعة فى سيرهم، وكانت الأزواد من السَّويق، وهو طحين من الحنطة أو الشعير كانت قريش تحمله فى سفرها، وكانت تمزجه باللبن والعسل والسمن، فحمله أصحاب رسول الله، ولذلك سموا هذه المسيرة غزوة السَّويق.

مسيرة السويق

وفى شهر المحرم التالى علم الرسول ﷺ أن جمعا من بنى سليم وغطفان تجمعوا له فى قرقرة الكُدْر على بعد ثمانية بُردٍ من المدينة، فسار إليهم فى جمع كبير من أصحابه فلم يجد أحدا، وأرسل نفرا من أصحابه فى أعلى الوادى ونزل إلى بطن الوادى فوجد فيه نَعما لهم وغلاما معها يسمى يسارا فسأله عن الناس فقال له: لا علم لى بهم، وكأنهم حين عرفوا مقدمه فرُّوا تاركين نعمهم على الرغم مما أنذروا به الرسول وتوعدوه، وساق النعم - وكانت خمسمائة بعير - فطبق قانون الغنائم كما جاء فى سورة الأنفال، فأخرج منها الخمس الذى له، وقسم الباقى على أصحابه وكانوا مائتين فأصاب كل رجل منهم بعيرين، وأسلم الغلام يسار فأعتقه الرسول. والقرقرة أرض ملساء، والكدر طير فى ألوان كدرة.

مسيرة قرقرة الكدر

وفى شهر صفر - وقيل فى ربيع الأول - سمع الرسول ﷺ أن قبائل من غطفان تجمعت فى نجد بموضع اسمه ذو أَمَرّ يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة، فندب الرسول أصحابه إليهم، وخرج للقائهم، ولقى فى طريقه رجلا منهم يقال له حيان، فسأله عنهم فقال إنهم إذ سمعوا بخروجك إليهم لن يلاقوك وسيفرّون

مسيرة ذى أمر

إلى رءوس الجبال، وتركه الرسول ﷺ وفعلا توغل فى طلبهم فلم يلق منهم أحدا، ورآهم فارين إلى رءوس الجبال، فعاد إلى المدينة، ولم يلق كيدا ولا أحدا.

مسيرة بحران

وسمع الرسول ﷺ فى ربيع الآخر أن فى بُحْران: قرية من قرى بنى سليم تجمعا كبيرا يريد الإغارة على المدينة، فخرج إليهم مسرعا حتى بلغ قريتهم: بُحْران، فوجدهم قد علموا بمسيرته إليهم، ووقع فى قلوبهم الرعب منه، فتفرقوا فى مياههم، فرجع إلى المدينة دون أن يلقى منهم كيدا أو أحدا.

وهذه الغزوات الخمس لم يكن فيها أى حرب، ولذلك كان ينبغى أن يسميها كتّاب السيرة مسيرات للرسول ﷺ . وكان كلما سمع أن قبيلة بدوية تهم بغزو المدينة يظن أن ذلك بتأثير دعاية قريش ضده فى القبائل البدوية، ولذلك كان يُسرع إلى لقائها حتى لا تتجمع معها قبائل كثيرة ضده، ونجح فى سياسته، فلم تتجمع هذه القبائل مع مكة فى غزوة أُحُد التى كان ينتظرها.

وفكرت قريش فى طريق قوافلها التجارية إلى الشام وقد أصبح مهددا بالرسول، واجتمع كبراؤها يفكرون فى ذلك يوما، ووقف صفوان بن أمية، وقال لهم إن محمدا وأصحابه أفسدوا علينا متجرنا وكيف نصنع، وأصحابه لا يبرحون الساحل، وقد وادَع أهل الساحل ودخل عامتهم معه. ولعل فى هذا الكلام لصفوان ما يشهد بأن ما سمّاه مؤرخو السيرة للرسول من غزوات للقبائل قبل بدر وبينها وبين أُحُد، إنما كانت لعقد معاهدات بينه وبينها حتى لا تأخذ جانب قريش ضده، وأشرنا إلى ذلك من قبل، فقال الأسود بن المطلب لصفوان: تنكّب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق.

ورأت قريش أن تستبدل بطريق الساحل إلى الشام طريقا شرقيا لقوافلها فى نجد إلى العراق، وبذلك تسير قوافلهم فى طريق آمن، وأعدّت قريش قافلة كبيرة تسير فى هذا الطريق، واستأجرت لها دليلا خبيرا بالطريق يسمى فُرات بن حيان.

بعث زيد بن حارثة إلى قافلة قرشية

وعلم الرسول ﷺ بالقافلة وأنه يقودها من أشراف قريش صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العُزّى وعبد الله بن أبى ربيعة، فوجّه إليها بعثا بقيادة مولاه زيد بن حارثة يعترضها فى مائة راكب، فالتقوا بالقافلة عند ماء كانت تستريح

عنده يسمى ذا القَرَد فى أرض نجد بالقرب من الربذة. ومنذ بدر طارت شهرة المهاجرين والأنصار بالشجاعة النادرة والبطولة، فبمجرد أن علم صفوان بن أمية ومن معه بأن فرسانا منهم يقتربون من القافلة فرُّوا على وجوههم لا يلوون تاركين القافلة وكل ما فيها من أموال وأوان فضية وعروض. وساق زيد القافلة إلى رسول الله ﷺ وبلغت قيمة الخُمْس فى الغنيمة عشرين ألف درهم وقسم الباقى على زيد وصحبه. وأسلم فرات بن حيان وحسن إسلامه.

٤

مباحث قرآنية – وجه من الإعجاز لم يتنبَّه إليه الأسلاف

أ – مباحث قرآنية

القرآن خاتمة الكتب الإلهية الموجَّهة من الله– تقدس اسمه – إلى البشرية، وهو اسم جميع الآيات التى أوحى الله بها عن طريق جبريل إلى الرسول ﷺ، ويذكر الله ذلك فى سورة الشعراء قائلاً ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ جبريل ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ وأصل اسمه مصدر كالغفران والشكران، سمَّى به الله كلامهُ الموحى به إلى رسوله فى مثل قوله يذكر أول نزوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فى ليلة الشرف والفضل كما قال الله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. وهو مائة وأربع عشرة سورة، والسورة مأخوذة من السور المحيط بالبناء، وهى مقدار معين من الآيات، وأطول السور سورة البقرة وهى مائتان وست وثمانون آية، وأقصرها سورة الكوثر: ثلاث آيات .ورُتِّبت الآيات فى سورها بوحى من الله إلى رسوله، وكان يتلوه على جبريل مرة كل سنة وفى السنة الأخيرة تلاه مرتين، وأشار الله إلى تعهده بحمل جبريل لآيات القرآن وقراءة الرسول له بلسانه عن ظهر قلبه لا بكتاب يقْرؤه، وستحفظه الصدور، ويقول الله فى سورة القيامة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ عن طريق جبريل

نزول القرآن منجّمًا

﴿وَقُرْآنَهُ﴾ بلسانك ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أى قرأه جبريل عنا ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أى أنصت إلى قراءته واتّبعْها ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ لكل سامع، وقدّر الله بأن يكون محفوظاً فى الصدور جيلاً بعد جيل، فالأصل فيه حتى اليوم التلاوة والحفظ لا الكتابة، مما جعل أجيال قرائه تتوالى على مر العصور.

واقتضت حكمة الله أن ينزل القرآن على رسوله مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة وكان بعض المشركين يقول: هلا أنزل القرآن جملةً وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى أن الحكمة فى تفريقه أن يثبت فى فؤاد الرسول ويعيه شيئا فشيئاً ويحفظه، وأيضا فإنه كان ينزل كثير منه تبعا لمتطلبات الأحوال وجوابا للسائلين من المشركين فى مكة ومن اليهود والنصارى فى المدينة كجداله مع اليهود فى الجزء الأول من سورة البقرة ومع نصارى نجران فى سورة آل عمران. وكل غزوات الرسول الكبيرة وهو فى المدينة مع أهل مكة وغيرهم مسجّلة فيه، وقد نزلت سورة الأنفال فى وصف غزوة بدر ونصر الله للمسلمين فيها وغنائمهم، فكان لا يمكن أن ينزل جملة، بل ينزل حسب الدواعى والأحوال والأحداث.

وكان الرسول ﷺ يتلو آيات القرآن على الصحابة بمجرد نزولها وكانوا يتلونها فى صلواتهم وعباداتهم مرارًا وتكرارًا، وعُنيت طائفة كبيرة منهم بكتابة القرآن بأمر الرسول، وهم كتبة الوحى الذين اتخذهم الرسول ﷺ لكتابته، وفى مقدمة حفظته عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود، وكتبه بعض الصحابة لأنفسهم.

وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، وكان حفظة القرآن يسمّون بالقرّاء، واستحرّ القتل بهم فى حروب الردّة باليمامة فى عهد أبى بكر، فدخل عليه عمر بعد سنتين من خلافته، فقال له: إن أصحاب رسول الله ﷺ يتهافتون فى المعارك تهافت الفراش على النار، وإنى أخشى أن تأتى عليهم، وهم حملة القرآن فيضيع منه كثير، فلو جمعته. فتوقف أبو بكر وتردّد، فلم يزل به عمر حتى وافقه على

كتابته في مصحف واحد. وجمع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بالإتقان، وكان منهم زيد بن ثابت وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وعثمان بن عفان وعلى ابن أبى طالب وطلحة وحذيفة بن اليمان وأبو الدرداء وأبو هريرة وأبو موسى الأشعرى، فاجتمعوا برياسة زيد بن ثابت فى دار عمر ثم فى المسجد النبوى. وأمر أبو بكر زيد بن ثابت أن يكتب القرآن كله على الترتيب الذى تلقاه هو ومن معه من الحفظة عن الرسول بنفس الألفاظ ونفس الحروف ونفس الصورة في عرضة الرسول الأخيرة للقرآن على جبريل، وكتبه زيد ومن معه فى قطع الأدم (الجلد) وغيرها. وظلت صحفه عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر حتى توفي، ثم عند حفصة بنت عمر أمير المؤمنين.

مصحف أبى بكر

وتفرق حفظة القرآن فى الفتوح الإسلامية، وكان بينهم اختلاف فى بعض الأداء ولم يكن بين أيديهم مصحف أبى بكر ليرجعوا إليه، فأفزع ذلك حذيفة بن اليمان وكان فى غزو أرمينية وأذْرَبيجان سنة ثلاثين من الهجرة، فأسرع إلى الخليفة عثمان يخبره بالأمر، فاهتم به اهتماما شديدا، وأرسل إلى حفصة يطلب منها المصحف لينسخ منه نسخا ويرده إليها فأرسلته إليه، وأمر زيد بن ثابت وثلاثة من قريش: عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، وقال لهم إن اختلفتم فى شىء فاكتبوه بلغة قريش فبلسانها نزل. وكتبوا له ثمانية مصاحف استبقى واحدا منها عنده فى المدينة، وأرسل منها مصحفا إلى البصرة، وثانيا إلى الكوفة، وثالثا إلى البحرين، ورابعا إلى الشام، وخامسا إلى مكة، وسادسا إلى اليمن وترك للمدينة مصحفا، وأمسك لنفسه مصحفا، وأمر بحرق ما سوى مصاحفه، فحرق مصحف أبى بن كعب ومصحف ابن مسعود وسواهما، وأطاعته الأمة، ومضى القراء فى العالم الإسلامى يقرئون الناس القرآن شفاها بالصورة المرويّة عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالسند الصحيح المتواتر عنه جيلا بعد جيل إلى اليوم وبجانبهم المصاحف المكتوبة بكل دقة عن مصحف عثمان. وهو ما لم يكفل للتوراة عند اليهود ولا للإنجيل عند المسيحيين، ولا لأى كتاب دينى بفضل الله وتعهده له كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ

مصحف عثمان

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وحفظ معه العربية لغته وجعلها لغة خالدة. وكل سور القرآن تبدأ بالبسملة ما عدا سورة التوبة المبدوءة بكلمة ﴿بَرَاءَةٌ﴾ وجميع السور – ما عدا فاتحة الكتاب – حديث أو رسالة سماوية موجَّهة من الله إلى رسوله وأتباعه من المسلمين وخصومه من المشركين واليهود والمسيحيين .

السور المكية والمدنية

ومعروف أن الرسول ﷺ ظلّ بمكة داعيا للإسلام ثلاثة عشر عاما هاجر بعدها إلى المدينة وظل مقيما بها عشرة أعوام إلى أن لبى نداء ربه. والسور لذلك إما مكية نزلت بمكة وإما مدنية نزلت بالمدينة، وتمتزج ببعض السور آيات مكية بأخرى مدنية بتوقيف من الله جل شأنه.

وكثرة السور نزلت بمكة ، وهي تختلف عن السور المدنية فى المعانى التى تتناولها إذ تدعو إلى عبادة الله وتوحيده ونبذ عبادة الأصنام والأوثان والإيمان بالملائكة والرسل والكتب السماوية والإيمان بالبعث واليوم الآخر وما فيه من الحساب فمن عمل صالحا واتقى ربه دخل الجنة، ومن عمل سوءًا وأطاع الشيطان دخل جهنم. وتُساق فى أثناء ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية وما نالها من التدمير لعصيان رسلها وربها، ويُذْكَر خلق الله للكون وطرد إبليس من الجنة وخطيئة آدم وحواء كما فى أوائل سورة الأعراف.

والسور المدنية تفصّل القول فى الأعمال الطيبة التى ينبغى على المسلم أن يقوم بها من العدل والتقوى والصدق والوفاء بالعهد والأمانة. ويكثر فيها التشريع الدينى من مثل الزكاة أو بعبارة أخرى العدالة الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء، والتشريع الاجتماعى من مثل بِرّ الوالدين والأقارب والإخاء الصادق بين المسلمين والمساواة بينهم فلا سيد ومسود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحقوق المرأة والزواج والتوارث وحسن المعاملة فى البيع والشراء والرهن والديون، مع بيان بعض العقوبات والمحرمات، ومع الدعوة إلى الخلق الكريم من مثل التسامح والعفاف والتواضع الحميد والحلم والقناعة. وتتردّد مع ذلك الدعوة إلى ما دعت إليه السور المكية من توحيد الله وعبادته وبدء الخليقة وعداء إبليس وإغواء الشيطان للإنسان، كما تتردّد الدعوة إلى النظر فى خلق الكون

ونظامه ودلالته على صانعه والإيمان بالبعث والحساب والعقاب. وتفيض السور المدنية – كما مرَّ بنا – فى الجدال مع اليهود كما فى سورة البقرة، ومع نصارى نجران كما فى سورة آل عمران.

هيمنة القرآن على التوراة والإنجيل

ويقول الله – عزَّ شأنه – فى سورة المائدة لرسوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أى القرآن ﴿بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أى الكتب السماوية ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، والله يبيِّن فى الآية موقف القرآن وشريعته الإسلامية من التوراة وشريعتها اليهودية والإنجيل وشريعته المسيحية، فهو مصدِّق لهما فى الأصول العقيدية من توحيد الله والإيمان بملائكته وبرسله وكتبه السماوية واليوم الآخر وما فيه من الحساب وجزاء كل شخص بعمله فى دنياه، فإما إلى نعيم الجنة وإما إلى عذاب النار، وأيضا فى الأحكام التى لا تختلف باختلاف الجماعات فى العصور، وصوَّر الرسول ذلك بقوله – كما فى صحيح البخارى: نحن – معاشر الأنبياء – إخوة لعَلاَّت. أى أنهم إخوة من أمهات ضرائر لأب واحد، فالرسول وموسى وعيسى إخوة يدعون الناس إلى أصول واحدة فى الدين. ويضيف الله فى وصف القرآن بأنه مصدق فى أصول الدين لما سبقه من التوراة والإنجيل أنه مهيمن عليهما ومسيطر، إذ يبطل وينسخ بعض الأحكام فى الشريعتين السالفتين مراعاة لمصالح الأمم واختلاف أحوالها بعضها عن بعض كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات التوراة والإنجيل ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أى نؤجلها ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ للمكلَّفين فى الشريعة الإسلامية. وتشهد لذلك آيةُ سورة الأعراف، وهى تنص على أن الشريعة الإسلامية تضع عن اليهود والنصارى ﴿إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى الأثقال من الأوامر الشديدة والنواهى الشاقة التى كلِّفوا بها. ونقرأ مثل ذلك فى سورة الرعد، إذ يقول الله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أى لكل عصر وزمن ﴿كِتَابٌ﴾ أى شريعة تختلف باختلاف مصالح الأمم ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أى يمحو الله من الشرائع بعض الأحكام الجزئية المناسبة لعصورها ويثبت ما هو خير منها ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى علمه الأزلى بما

يصلح لكل أمة فى كل عصر. والقرآن – بذلك – يهيمن على التوراة والإنجيل بنسخه لبعض أحكامهما ووضعه – بدلا منها – أحكاما جديدة يرعى الله فيها المصلحة لعباده أتباع الشريعة الإسلامية.

إعجاز القرآن

وليس لأمة من الأمم مثل القرآن فى بيانه وبلاغته وتأثيره الرائع فى النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله ووحدانيته وعظمته وجلاله أو عن خلقه للسموات والأرض واختلاف الليل والنهار وحمل السحب للأمطار وإحياء الأرض بها بعد موتها وما بث فيها من الدواب والزروع والنخيل والأعناب والحدائق، وما أبدع فى السماء من الشمس ونورها نهارًا والقمر وضيائه ليلاً، وما وضعه للأمة الإسلامية من تشريعات فى القرآن تحقق لها السعادة فى الدارين: الأولى والآخرة، وما بثَّ فيه من مواعظ ومن تاريخ الرسل وأممهم الداثرة وما يحمل من عِبَر.

وكان الرسول يتلو القرآن فى مكة بالكعبة فيروع سامعيه روعة شديدة سواء أكانوا من أتباعه المسلمين أو كانوا من كفار قريش أعدائه. روى الرواة أن الوليد بن المغيرة أحد كبار أعداء الإسلام وخصومه من قريش سمع الرسول ذات يوم يتلوه، فذكر لنفر من قومه الكفار أنه سمع من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطُلاوة (رونقا) وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لُمغدِق (كثير المياه). وتدلّ كلمته على أنه شعَر فى دقة أن آيات القرآن تباين كلام الإنس من بلغائهم كما تباين كلام الجنِّ الذى ينطق به كهَّانهم، إذ هو نمط مستقل من خطاب موجه من الله إلى الرسول والمسلمين وغيرهم فُصِّلت آياته بفواصل تستريح عندها النفس وتجد فيها وفى ألفاظ الآيات قبلها رَوْحا وعذوبة لا تماثلها عذوبة فى كلام البشر، إنه نمط باهر، بل نمط معجز ببلاغته يقول جَلَّ شأنه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. وفعلاً عجز العرب عن معارضته والإتيان بمثل بعض آياته أو بعض سوره كما سجل الله ذلك فى القرآن ودخولهم فى الدين الحنيف طائعين مبهورين.

ب - وجه من الإعجاز لم يتنبَّه إليه الأسلاف

وهناك وجه من الإعجاز يلفتنا إليه ما جاء فى إسلام عمر الذى ذكرناه فيما أسلفنا من حديث إذ ذكر زيد بن حارثة عن إسلامه أن الغضب اشتد به ضد الرسول، فحمل سيفَه يريد أن يقتله، فلقيه فى أحد طرق مكة نعيم بن عبد الله، فقال له إلى أين أنت ذاهب يا ابن الخطاب؟ فقال له أريد محمدًا الذى فرّق أمر قريش وسفَّه عقولها وسبَّ آلهتها فأقتله. فقال له نعيم - وكان قد أسلم وأخفى إسلامه خوفا من قومه -: والله لقد غرَّتك نفسك، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فإن ابن عمك زوج أختك سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل وأختك أسلما. فتركه عمر وسار إلى دار أخته، وكان خباب بن الأرتّ عندهما يُقْرئهما القرآن، ودقَّ عمر عليهم الباب فاختبأ خباب ودخل عمر فقال لأخته ما هذه الهينمة (أى الكلام الخفى) التى سمعتها وأنا على الباب؟ فقالت له: ما سمعت شيئا. فقال لها: لقد أُخبرت أنكما بايعتما محمدًا على دينه. وبطش بزوجها سعيد وحاولت الدفاع عنه فضربها فشجَّها (جرحها) وسال دمها، فقالت له: لقد أسلمنا فاصنع ما بدا لك. ورأى فى جانب من الغرفة صحيفة، وكان قارئا كاتبا، وما زال بها حتى أعطتها له، وإذا فيها مطلع سورة الحديد، ونترك عمر ليروى لنا ما حدث، يقول: لما قرأت: ﴿بِسمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ذُعرت ورميت الصحيفة من يدى، ورجَعَتْ إلىَّ نفسى وقرأت فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. يقول عمر: وكنت كلما مررت باسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ ذُعرت، ثم ترجع إلىَّ نفسى. ومضى يقرأ الآيات الثلاث التالية وفيها خلقُ الله للسموات والأرض وعلمه بما يدخل فى الأرض ويخرج منها وما ينزل من السماء ويصعد إليها، وهو معنا أينما كنا. له ملك السموات والأرض يُدخل الليلَ فى النهار، والنهارَ فى الليل وهو عليم بما فى صدور الناس

من الخواطر والأفكار. وما إن قرأ عمر بعدها: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ. وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وما إن بلغ عمر هذه الآية حتى بلغ شعوره بخشيته من ربّه الذروةَ، فأعلن أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وذهب إلى الرسول بدار الأرقم وأعلن إليه إسلامه، وكبّر المسلمون تكبيرة سُمِعت بأطراف مكة.

وانقلاب عمر من رغبة فى قتل الرسول إلى إيمان بدينه ووحدانية ربّه وإيمان برسالته كل ذلك حدث لعمر حين تلا بعض آيات من القرآن. وكان مثله بدرجات متفاوته يحدث للمسلمين الذين كانوا يدخلون بمكة ثم بالمدينة فى الإسلام حين يتلو عليهم الرسول بعض آياته الموجَّهة من السماء بل من الله إليه وإلى المسلمين فيمتلئون خشيةً من الله ويستسلمون إليه ويدخلون فى دينه الحنيف مؤمنين بالله ووحدانيته وبرسوله. وصوَّر الله ذلك تصويرًا دقيقًا فى قوله بسورة الزُّمَر: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾. والله يصف القرآن بأنه كتاب متشابه أى أن معانيه متشابهة على نحو ما يتضح فى قصصه عن الأنبياء ووعده بالجنة ووعيده بالنار، ويقول إنه مثانى أى أن معانيه مكرَّرة حتى ترسخ فى نفوس المسلمين، ثم يصوِّر ما يصيب سامعيه من القشعريرة لما يلقى فى روعهم من خشية الله، أو كما قال عمر من الذعر والفزع؛ وما يلبث الذعر أن ينقلب إيمانا وطمأنينة. وهذا ما حدث لكلٍّ من آمن بالرسول فى مكة والمدينة، إذ كانوا بمجرد أن يتلو عليهم الرسول ﷺ آيات من القرآن يشعرون شعورًا عميقًا بخشية الله وتجذبهم خشيته إلى الإيمان بالله ورسوله.

وفى رأينا أن هذا الوجه من الشعور بالخشية العميقة من الله حين الاستماع إلى آيات القرآن أو تلاوتها أهم وجوه إعجازه، وقد صوَّرها عمر بذعر كان

يصيبه حين يقرأ أسماء الله، واستمر هذا الذعر أو الفزع يكبر فى نفسه ويكبر معه الشعور بخشيته من ربّه حتى حدث هذا الانقلاب فى نفسه من عداوة رسول الله والإيمان بآلهة قريش الوثنية إلى توحيد الله وإجلال له ولرسوله ليس فوقه إجلال، وسأل أين الرسول وذهب إليه وأعلن إليه إسلامه.

وأكرِّر ما قلت من أن المسلمين الأوائل فى مكة والمدينة إنما دخلوا فى الإسلام حين سمعوا الرسول يتلو بعض آياته فتمتلئ قلوبهم بخشية الله. ويصوِّر ذلك جبير بن مطعم فيقول: أول ما استقر الإسلام فى قلبى أنّى سمعت رسول الله ﷺ يتلو سورة الطُّور حتى بلغ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ. أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ فكاد قلبى أن يطير. وهذا نفسه ما حدث فى الفتوح الإسلامية فإن كثرة من أسلموا بتلك الديار لم يؤمنوا بالقرآن عن طريق بلاغته إذ لم يكونوا عربًا وإنما آمنوا به لأنه كلام الله، ولأنه يملأ قلوبهم – حين يسمعونه أو يتلونه – خشية من الله. ويعجب الله – جلّ شأنه – من الكفار الذين لا يخشونه حين تلاوتهم له أو سماعه، فيقول فى سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾. وهو يقول إن قلوب الكفار متحجِّرة، ولذلك لا تتأثر بسماع القرآن أو تلاوته، ولو أنزلناه على صخر جبل، وكان الصخر يفهم خطابه لتأثر به تأثرا شديدا وتصدع وتشقق من خشية الله، وكأن قلوب الكفار أشد قسوة من صخر الجبال. وكان كثير من المسلمين فى عهد الرسول، وإلى اليوم، إذا تلوه أو سمعوه فاضت عيونهم بالدموع تأثرًا وخشوعًا لربهم. وبهذا الشعور الطاغى من خشية الله حين تلاوة القرآن أو سماعه آمنت الأمم من أواسط آسيا إلى جبال البرينيه فى شمال إسبانيا بالإسلام وتعاليمه.

الفصل الرابع عشر

من غزوة أُحُد إلى إجلاء بنى النّضير والزواج بأم سَلَمَة وزينب

١

الاستعداد لغزوة أُحُد

رجعت فلول قريش وأسراهم من بدر إلى مكة يَعْلو وجوههم ذل الهزيمة وما جلبوه إلى بلدهم من عار أمام القبائل التى طالما دانت لهم بالولاء. ولم تكن تخلو دار فى مكة من مفقود: أب أو زوج أو ابن سوى من كان يئن من جراحه. واجتمع كبراء قريش للتفكير فى الأمر، واتفقوا على الإعداد للثأر لقتلى بدر وأن تُخصص أرباح قافلة أبى سفيان التجارية التى سبَّبت غزوة بدر للإنفاق على جيش جرار يأخذ لقريش بالثأر من المسلمين. وزادتهم قافلة صفوان بن أمية التى كانت متّجهة شرقا إلى العراق بدلا من طريق الساحل غير المأمون، فإذا بَعْث زيد بن حارثة يقطع عليها الطريق ويفرُّ أصحابها ويتركونها، فيسوقها إلى المدينة. لقد أصبح طريق الشرق مثل طريق الشمال مهدّدا بأصحاب محمد، وكأنما سُدَّت الطرق فى وجه القرشيين إلى الشام، وفيها أهم متاجرهم. وزادهم ذلك غيظا وحمِيَّة لأخذ الثأر من الرسول وأصحابه، وليُفتح أمامهم طريق قوافلهم التجارية إلى الشام عن طريق الساحل وطريق نجد إلى الشرق.

ولما تمَّت لقريش عُدَّتها من السلاح استنفر زعيمها أبو سفيان أهلها للانضواء فى الجيش، وتقدم إليه شباب قريش وكل من يستطيع منها حمل

استنفار قريش للقبائل

السلاح، واستنفر القبائل النازلة قريبا من مكة، وانضمت إليه قبيلة عبد مناة من كنانة، واستنفر ثقيفا فى الطائف فانضم إلى جيشه مائة من شجعانها، وبذلك أعد للغزوة جيشا ضخما عداده ثلاثة آلاف، معهم ثلاثة آلاف بعير وكان منهم سبعمائة دارع تام السلاح، وكان معهم مائتا فارس يقودهم عكرمة بن أبى جهل وخالد بن الوليد: القائد الفذّ فى الفتوح الإسلامية. وأصرَّت طائفة من نساء قريش أن يَصْحَبْن الجيش، وتشاور الرجال فى صحبتهن لهم، واستحسنت ذلك جماعة حتى يحمِّسْنَ الجيش لإدراك الثأر، وأنكرته جماعة خشية من انتهاك المسلمين لهن إذا كانت لهم النصرة، ورجح رأى الأولين. فخرج معهم خمس عشرة امرأة متعطشات لدماء المسلمين ثأرا لمن قُتِل لهن، وفى مقدمتهن هند زوجة أبى سفيان بنت عُتبة بن ربيعة قتيل حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، وكانت – منذ بدر – لا تزال تبكيه وتُكثر من النواح عليه ومن تحريض قريش للأخذ بثأرها من المسلمين، وواعدت عبدا حبشيا أن تجْزِل له المكافأة إذا قتل حمزة قاتل أبيها فى بدر وكان ماهرا فى رمى الحربة.

النساء يصحبن الجيش

ولم يكن الرسول ﷺ يعلم بنبأ هذا الجيش الجرار الذى تُعدُّه مكة لحربه، وبينما هو فى قُباء بأوائل شوال من السنة الثالثة للهجرة إذا برسول أرسله إليه عمُّهُ العباس الذى أكرمه حين أُسِر فى غزوة بدر، وكان معه كتاب من عمه، ففضَّه، فإذا هو يُنْبئه فى كتابه بخبر الجيش المكى الذى تأهل لحربه وحرب المسلمين. فعاد الرسول من فوره إلى المدينة، وعقد مجلسا حربيا من أبى بكر وعمر وعثمان وحمزة وعلىّ وضم إليهم سعد بن معاذ وعبد الله بن أُبَىّ، ليجمع المهاجرين والأنصار على رأى واحد إزاء هجوم عدو أجنبى، وتشاوروا. ونُصح الرسول ﷺ بعدم الخروج من المدينة، حتى إذا دخلت قريش عليهم قاتلوها فى الأزقة ورماهم النساء والدرارى بالحجارة من فوق البيوت والحصون، ووافق أكثر المجتمعين خبرة، وخالفه الشباب المجتمعون، وقالوا إننا هزمنا فى بدر جيشا قرشيا كبيرا وكان عددنا نحو ثلاثمائة فدعونا نلقاهم خارج المدينة وسينصرنا الله عليهم ويُهزمون كما هُزموا فى بدر، وقال حمزة للرسول مشايعا لمن يَرَوْن

مجلس حربى

الخروج: والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاما حتى أجالدهم. وتملّك حب القتال أكثر المجتمعين من المهاجرين والأنصار، فنزل الرسول ﷺ على رأيهم ووافق على الخروج.

واقتنع الرسول بالخروج لقريش، وصلّى بالناس صلاة الجمعة وحثّ المصلين فى خطبتها على الجهاد وصلّى بهم العصر، وعرّفهم بالخروج لحرب قريش ودخل بيته، فلبس أداة الحرب إذ لبس درعا وبيضة (خوذة) وتقلّد سيفا وقوسا واعتمّ وأخذ رمحا بيده، ووضع ترسا على ظهره، بينما كان أبو بكر وعمر وحمزة يعدُّون الجيش. وكان سعد بن معاذ يرى عدم الخروج للقاء قريش فقال لهم إنكم تمشون إلى الموت بأقدامكم، فعاد قوم يقولون للرسول ﷺ إنهم على استعداد للبقاء داخل المدينة، لكن الرسول التزم بقرار الخروج وقال قولته المشهورة: "ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمة الحرب (أى عدتها) أن يضعها حتى يقاتل". وانضوى تحت قيادته ألف رجل فرأى الخروج بهم إلى جبل أُحُد ليكون حاميا لظهورهم.

خروج الرسول للقتال

وكان فى جيشه ثلاثمائة من المشركين واليهود جمعهم عبد الله بن أُبَىّ. وقبل أن تبدأ المعركة عاد عبد الله بن أُبَىّ بحلفائه من المشركين واليهود إلى المدينة، وبذلك أصبح جيش الرسول سبعمائة مقاتل. وكانت المعاهدة التى عقدها الرسول مع اليهود فى أوائل مقامه بالمدينة تقضى بوجوب الاشتراك فى الدفاع عنها حين يهاجمها عدو من قريش أو غيرها، ولكن اليهود لم يحاولوا الاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة ضد قريش متعلّلين بأن المعركة ستبدأ يوم سبت واليهود تحرِّم القتال يوم السبت، وكان المسلمون يعرفون أنهم يتمنون انتصار القرشيين.

رجوع عبد الله بن أُبَىّ وحلفائه

وكان أبو عامر الأوسى رئيسا للأوس ومُترهِّبا فى الجاهلية كما كان عبد الله بن أُبَىّ رئيسا مثله للخزرج، فلما جاء الإسلام عارضاه، غير أن عبد الله بن أُبَىّ دخل فى الإسلام بعد بدر ظاهرا، أما أبو عامر فظل يجاهر الرسول بالعداوة، وخرج - ومعه خمسون من الأوس - إلى مكة يحرِّضون قريشا على حرب الرسول، وكان يَعِدُ أبا سفيان أن قومه بمجرد أن يروه فى صفوف قريش سيتركون الرسول وينضمون إليه، وسار مع جيش قريش هو وأتباعه. وتحرك أبو

سفيان بالجيش، وهو شاعر بالتفوق في العدد والعُدَّة، إذ كان الجيش ثلاثة آلاف منهم سبعمائة مدرّعون بكامل السلاح، ومعه مائتا فارس كما أسلفنا، وساروا في الطريق الرئيسى بين مكة والمدينة ومروا بقرية الأبواء، وبها قبر السيدة آمنة أم الرسول، فحاولت هند زوجة أبى سفيان نبش قبرها فمنعها زوجها أبو سفيان، وقال لها إنها توفيت ومحمد صبى قبل ظهور الإسلام بمدة طويلة فاستجابت له.

وخرج رسول الله ﷺ فى يوم الجمعة بأصحابه وعسكر بموضع فى طريقه إلى أُحُد قبل غروب الشمس، والسعدان يعدوان أمامه: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، وكان الجيش ألفا فيهم مائة دارع وفَرَسان أحدهما لرسول الله، وكان فيهم ثلاثمائة من حلفاء عبد الله بن أُبَىّ من اليهود والمشركين، وعرفهم الرسول فقال: إنا لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك، وعسكر بأصحابه فى أسفل سفح جبل أُحُد، وعقد ثلاثة ألوية للأوس والخزرج والمهاجرين، وجعل لواء الأوس إلى أُسَيْد بن حُضَير، ولواء الخزرج إلى حباب بن المنذر، ولواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير. واستعرض الجيش وردَّ الغلمان. وغابت الشمس فأذّن بلال بالمغرب، وصلّى رسول الله بأصحابه، وأذّن بالعشاء وصلّى بهم. وسار المسلمون مع الصباح إلى أُحُد وصلّى بهم الرسول الصبح، ورجع عبد الله بن أُبَىّ والثلاثمائة الذين معه إلى المدينة كما ذكرنا، وأصبح جيش الرسول سبعمائة وهو أقل من ربع عدد جيش المشركين، وكان الرسول ﷺ لا يشك فى أن جيشه مع قلة عدده وعُدَّته بالقياس إلى جيش قريش أعظم منه بقوته المعنوية كما حدث فى بدر.

٢

معركة أُحُد

جعل الرسول ﷺ جبل أُحُد خلف جيشه ونزل بجيشه فى أسفله وأخذ يصفّ جنوده، ومشى بين الصفوف يسوّيها حتى أصبحوا كالبنيان المرصوص وأنزل الرماة – وكانوا خمسين رجلا – على شِعْب من أُحُد خلف صفوف

وصية الرسول للرماة

الجيش، وقال لهم: احموا لنا ظهورنا، فإنا نخاف أن نؤتى من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا أماكنكم، وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا. اللهم إنّى أشهد عليهم، وارْشُقوا خَيْلَهم بالنَّبل، فإن الخيل لا تقدم على النَّبل. وكان على الميمنة الزبير بن العوام وعلى الميسرة المنذر بن عمرو الخزرجى.

وأقبلت قريش، وعلى الميمنة خالد بن الوليد يقود مائة فارس، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل يقود مائة أخرى، وعلى رماتهم - وكانوا مائة - عبد الله ابن أبى ربيعة، وأمامهم هند بنت عتبة وأربع عشرة أمرأة كلهن موتورات يضرِبْنَ بالدفوف والطبول لتحميس القرشيين. ولما دنوا من المسلمين رَجَعْنَ وقُمْنَ خلف الصفوف ينشِدْنَ الأناشيد الحماسية، وكُنَّ كلما تراجع رجل أو ولّى حمَّسْنَه وحرَّضْنَه وذكّرْنَه قتلى بدر.

واستعد الفريقان للمعركة، وأبو سفيان يحرِّض قومه ويذكّرهم عار بدر وقتلاها، والرسول يحرِّض أصحابه، ويَعِدهم النصر ما ثبتوا وصبروا، ومد ذراعه بسيف وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ وقام إليه رجال فأمسك السيف عنهم، وقام أبو دُجانة سماك بن خرشة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى، وكان أبو دجانة من أشجع رجال الأنصار وكانت له عصابة حمراء يلبسها فى الحرب، وكانت تسمى عصابة الموت، فأخرجها وتعصب بها، وجعل يختال بها بين المسلمين وقريش.

وأول من أنشب الحرب أبو عامر الأوسى الذى مرَّ بنا ذكره، وأنه خرج فى خمسين من المدينة يحرِّض قريشا على قتال الرسول، وانضم بهم إلى جيش قريش، وكان يزعم لقريش أنه إذا نادى عشيرته من الأوس المسلمين الذين يحاربون فى صف محمد يُلَبُّونه وينحازون إليه وإلى قريش، فخرج فنادى: يا للأوس أنا أبو عامر، فردَّ عليه الأوس المسلمون قائلين له: لا أهلا بك ولا مرحبا، وتراشق هو ورجاله مع قومهم بالحجارة، وولّوا مدبرين، وأبو عامر يقول لقريش: لقد أصاب قومىَ شر. وهم قد أصابهم الخير كله.

ودنا الفريقان بعضهما من بعض، وأخذ رماة المسلمين يرشقون خيل المشركين بالنبل فتولّى فارّة، واستثار أبو سفيان قائد قريش بنى عبد الدار أصحاب لواء قريش، وحامل اللواء طلحة بن أبى طلحة، فأخذته العزة، وتقدم صفوف قريش، وصاح فى المسلمين من يبارز؟ فبرز له علىّ بن أبى طالب، وضربه بسيفه ضربة فلقت هامته، فكبّر الرسول وكبّر المسلمون: الله أكبر. وسارع عثمان أخوه تغلى فيه الدماء لأخذ ثأره، فبارزه حمزة أسد الله وسيفه البتّار، ولمع سيفه، وطارت رأسه عن جسده. وأخذ حمزة يفتك بكل من نازله، وفتك بأرطاة بن عبد شُرَحْبيل من بنى عبد الدار حين حمل لواء قريش، ونازله سباع بن عبد العُزّى فقتله. وبينما كان يفتك بكل من يلقاه كان يرصده عبد حبشى يسمى وحشيا كان يقذف بحربة له قلّما تخطئ، وهو الذى وعدته هند بنت عتبة إن قتل حمزة بحربته أن تكافئه مكافأة كبيرة، ووعده مولاه جبير بن مطعم إن قتله أعتقه، وكان حمزة قتل عمه طعيمة. ورصد وحشى حمزة، وهو يقتل سباع بن عبد العُزّى فقذف حربته عليه، فقتلته، وبنفس الحربة قتل وحشى مسيلمة الكذاب فى حروب الردة.

وحَمِىَ وطيس الحرب، وأخذ كثير من شجعان المسلمين يفتكون بالقرشيين وفى مقدمتهم أبو دجانة المعلم بعصابة الموت الحمراء فوق رأسه، وسيف الرسول فى يده يفتك به. وانضم إلى جيش المسلمين بعض المشركين من أهل المدينة لا يدفعهم إلى هذا الانضمام وازع دينى، إنما يدفعهم وازع وطنى للدفاع عن المدينة ضد أعدائها المهاجمين لها، وكان منهم قُزْمان وكان قد عيّره بعض نساء قومه بأن المدينة تهاجَم ولا يشترك فى الدفاع عنها ضد أعدائها المغيرين، فلبس فى صباح المعركة عُدَّة الحرب من سيف ورمح وقوس وجعبة سهام، واتجه إلى جيش المسلمين، فتغلغل فى صفوفه، حتى أصبح فى الصف الأول، وذُكر للرسول ﷺ، فقال: إنه من أهل النار، لأنه لم يكن قد أعلن إليه إسلامه، ولم يكن يعرف ماذا يريد باشتراكه فى الحرب، وكان قزمان شجاعا، فقاتل قتالا شديدا نكّل فيه بالمشركين، ويُقال إنه قتل سبعة أو ثمانية من شجعانهم، وأصابته جراحة قاتلة،

فقال له رجال من المسلمين: لقد أبليت فى قتال المشركين بلاء عظيما، فأبشر، فقال: بماذا أبشر والله ما قاتلت إلا عن أحسابَ قومى، ولولا ذلك ما قاتلت. ولما اشتدت عليه جراحته أخذ سهما من كنانته فقتل نفسه، ومات كافرا.

الفتك ببنى عبد الدار من حملة اللواء

وحمل لواء المشركين بعد عثمان بن أبى طلحة أخوه أبو سعد، وصاح يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم فى الجنة وأن قتلانا فى النار، كذبتم واللاّت لو تعلمون ذلك حقا لخرج إلىّ بعضكم، فخرج إليه علىّ بن أبى طالب، فقتله بسيفه، وقيل بل سعد بن أبى وقّاص. وحمل اللواء مسافع بن طلحة ثم أخوه الحارث وقتلهما عاصم بن ثابت. وحمل اللواء بعدهما كلاب بن طلحة فقتله الزبير بن العوام، وحمل اللواء أخوهم الجُلاس بعدهم فقتله طلحة بن عبيد الله، وحمل اللواء بعده أرطاة بن شُرَحْبيل من بنى عبد الدار فقتله علىّ بن أبى طالب، وحمل اللواء بعدهم غلامهم صؤاب فقتله سعد بن أبى وقاص وقيل قزمان.

ولما قُتل أصحاب اللواء من بنى عبد الدار وغلامهم انكشف جيش قريش وتقهقروا تاركين العسكر، ودعا نساؤهم بالويل بعد أن كانوا يضربون الدفوف والطبول، ووقع على الأرض الصنم الذى اصطحبوه معهم وجعلوه على بعير تيمُّنا به. وكان ذلك نصرا عظيما للرسول ﷺ والمسلمين فى أوائل معركة أُحُد مثل نصرهم يوم بدر، نصرا من الله للفئة المسلمة على الفئة المشركة الباغية الكبيرة بإيمانهم وقوة عقيدتهم واستماتتهم فى القتال، نصرا لله ودينه الحنيف.

مخالفة الرماة وصية الرسول

وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح، غير أن كثرتهم تركت متابعتهم حتى تتم عليهم الهزيمة واهتمت بنهب العسكر وغنائمه، ورأى الرماة صنيعهم فظنوا أن المعركة انتهت وقال بعضهم لبعض: لماذا تقيمون ههنا فى غير شئ، قد هزم الله العدو، وهؤلاء إخوانكم ينهبون عسكر قريش، فادخلوا معهم عسكرهم، وقال نفر منهم أليس قد قال الرسول ﷺ لكم: احموا ظهورنا، ولا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تنصرونا، وإن غنمنا فلا تشركونا، وخالفتهم الكثرة، وقالوا إن الرسول لم يرد ذلك وانطلقوا، ولم يبق منهم مع

أميرهم عبد الله بن جبير إلا عدد قليل دون العشرة، وذهبت كثرتهم إلى عسكر قريش ينتهبون.

وبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم إذا خالد بن الوليد رأى الكماة قَلُّوا قلّة شديدة، فكرَّ بالخيل، وتبعه عكرمة بن أبى جهل بَخْيله فحملا على من بقى من الرماة وأجهزا عليهم، وتنادى فرسان قريش بشعارهم: يا للعُزَّى: يا لهُبَل، ووضعوا فى المسلمين السيوف وهم آمنون وكل منهم مشغول بما فى يديه أو حِضْنه من الغنائم، فقتلوا فيهم قتلا ذَريعا. فتركوا ما نهبوا، وانتقض جيش المسلمين واختلط أمرهم وصار بعضهم يضرب بالسيف بعضا من العجلة والدهش، وممن وضعوا سيوفهم عليه جابر بن اليمان، وابنه حذيفة يقول: أبى أبى! وكأنهم لا يعون ما يسمعون حتى قُتل. وتفرّق المسلمون فى كل وجه وصعدت طائفة كبيرة منهم إلى جبل أُحُد. والرسول ﷺ يرمى بقوسه وهو ثابت فى مكانه والنبل يترامى عليه من كل جانب ولا يصيبه، وأصابته بعض الحجارة. وأقبل أبى بن خلف يركض فرسه، حتى إذا دنا من الرسول ﷺ قال لمن حوله: خلوا بينى وبينه وتناول الرسول بيده الكريمة من الحارث بن الصمة حربته فرماه بها، فوقع عن فرسه وكسرت بعض أضلاعه، وتوفى فى قفول جيش قريش إلى مكة. وهجم على الرسول ﷺ غير قرشى، فكان يقتلهم أبو دُجانة وعلى والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وطلحة. ومثّلت هند بنت عتبة بحمزة فبَقَرت بطنه (شقتها) ولاكت بأسنانها كبده، وجدعت أنفه وأذنيه وأمرت من معها من النساء أن يمثّلنَ بقتلى المسلمين فكن يجدّعن الأنوف والآذان، ويتخذنها قلائد وأقراطا. وأبلى طلحة فى القتال عن رسول الله بلاء عظيما، فكان يدافع بالسيف من بين يديه ومن ورائه وعن يمينه وشماله، يدور حوله ويترّس بنفسه دونه، والسيوف تغشاه ويتلقاها عنه كما يتلقى النبل. وقتل ابن قميئة مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وتسلل إلى الرسول ﷺ وفوجئ بطلحة، فرمى بنفسه على الرسول ﷺ وتلقى عنه ضربة ابن قميئة، وظنّ ابن قميئة ظنا مخطئا أنه قتل محمدا وأخذ يصيح قتلت محمدا، وفرحت قريش بما اعتقدت من قتله. وكأن هذه

خالد بن الوليد وكرّه على الرماة

هزيمة المسلمين

طعن الرسول أبى بن خلف

التمثيل بحمزة

دفاع طلحة عن الرسول

إصابات الرسول

الكذبة كانت إيذانا بوقف الحرب، فقد جاءت للثأر من الرسول وأدركت ثأرها فيما ظنت، وأخذ القرشيون يتجمّعون حول أبى سفيان وكان الرسول ﷺ قد وقع فى حفرة أمامه على جنبه من إلقاء طلحة بنفسه عليه، فخُدشت ركبتاه، وحمله طلحة وأخذ على بيده، فاستوى قائما، وكان عتبة بن أبى وقاص رماه بأربعة أحجار فكسرت إحدى رباعياته وهى إحدى أسنانه الأربعة فى مقدم فمه الكريم وكُلِمت شفته، وشُجَّ الرسول ﷺ فى جبهته، وشُجَّ فى وجنته ودخلت فيها حلقتان من حلق المغفر، وهو زرد يلقيه المحارب على وجهه، وكان ذلك أشد شئ أوذى به الرسول ﷺ. وأحدق به أصحابه من أمثال طلحة وعلىّ وأبى بكر وعمر وأبى دُجانة والحُباب بن المنذر والحارث بن الصمَّة ونهضوا به نحو شِعْب فى جبل أُحُد. ولما انتهى إليه ذهب علىّ، فملأ درقته ماء، غسل به الدم عن وجهه الكريم، وأما أبو عبيدة بن الجراح فعالج حلقتى المغفر المغروزتين فى وجنته بأسنانه، ونزعهما من وجه الرسول ﷺ وسقطت ثنيّتاه فى مقدم أسنانه.

ولما احتجز الفريقان لم يبق للمسلمين فى ميدان المعركة لواء ولا جمع، وخَيْلُ المشركين مقبلة مدبرة فى الميدان تلتقى وتفترق، وما أحد من المسلمين يردّهم، ورجعوا إلى معسكرهم، وتشاوروا فى غزو المدينة، ورفضت ذلك كثرتهم، وأقبل أبو سفيان على فرس حتى أشرف على المسلمين فى عُرْض جبل أُحُد، ونادى بأعلى صوته: اعْلُ هُبَل، وصاح أين محمد؟ أين أبو بكر؟ أين عمر؟ يومٌ بيوم بدر، ألا إن الأيام دول وإن الحرب سجال، فسأل عمر رسول الله هل أجيبه؟ فقال: نعم. وكرَّر أبو سفيان: اعْلُ هبل، فقال عمر: الله أعلى وأجلّ، وتساءل أين محمد؟ أين أبو بكر؟ أين ابن الخطاب، فقال عمر: هذا رسول الله وهذا أبو بكر وهذا عمر، فكرر أبو سفيان: يوم بيوم بدر، ألا إن الأيام دول وإن الحرب سجال، فقال عمر: لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار، قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال عمر: الله مولانا ولا مولى لكم، وقال أبو سفيان لعمر: يا عمر أنشدك بدينك هل قتلنا محمدا؟ قال عمر: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت عندى أصدق من ابن قميئة، ثم قال أبو سفيان

ورفع صوته: إنكم واجدون فى قتلاكم عنتا ومُثْلاً ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سَراتنا. ثم نادى: ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول. فقال رسول الله ﷺ لعمر قل: نعم. فقال عمر: نعم.

ولما انصرف جيش قريش هبط الرسول ﷺ والمسلمون إلى ميدان المعركة ورأى تمثيل هند بنت عتبة بحمزة عمه، ودمعت عيناه ورأى تمثيل نساء قريش بمصعب بن عمير الباسل وبعبد الله بن جحش ابن عمته صاحب أول غنيمة، وكانت فى الشهر الحرام وعفا الله عنه، وأحزنت الرسول ﷺ المُثْلة فى عمه حمزة وشهداء المسلمين، فقال: لئن ظفرت بقريش لأمثّلن بثلاثين منهم، فنزلت آية سورة النّحْل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾، فعفا رسول الله، ولم يمثّل فى حروبه بأحد أبدا، وأبطل فى الإسلام تلك العادة الجاهلية الذميمة. وأمر الرسول ﷺ أن لا تُمس أى جثة لشهيد أو تُنْقل من مكانها، وقال إنه يجب أن يُدفن كل شهيد فى مكانه، لتظل مقابر هؤلاء الشهداء شاهدا ماثلا على تضحيتهم بأرواحهم فى سبيل الله وكانوا أربعة وسبعين، ولا تزال قبورهم قائمة إلى اليوم وبينهم حمزة رضى الله عنه، وقد بُنِىَ على ضريحه بجوارهم مسجد. وقال الرسول للصحابة: لُفّوهم بدمائهم وجراحهم فإنه ليس أحد يُجْرَح فى الله إلا جاء يوم القيامة جرحه لونه لون الدم وريحه ريح المسك. وكان حمزة أول من كبّر عليه رسول الله ﷺ ثم جُمع إليه الشهداء، فكان كلما أُتى بشهيد وُضع إلى جنب حمزة فصلّى عليه وعلى الشهداء حتى صلّى عليه سبعين مرة، وقيل لم يصلّ عليهم، وهو مذهب مالك والشافعى وابن حنبل، فهم يرون أن لا يصلّى على الشهيد فى معركة، وخالفهم أبو حنيفة وأصحابه. ولما أخذوا فى دفن الشهداء قال للصحابة: احفروا وأوسعوا، وادفنوا الاثنين والثلاثة فى قبر، وقدّموا أكثرهم قرآنا فى القبر. ولما واروا حمزة رضى الله عنه أمر رسول الله ﷺ ببُرْدَةٍ تُمَدُّ عليه، وقال غطّوا وجهه، وجعل على رجليه الحَرْمل: نبات طيب الرائحة. وصنع نحو ذلك مع مصعب بن عمير ناشر الإسلام فى المدينة.

ولما دفن الرسول ﷺ الشهداء ركب فرسه واتجه مع من نجا من أصحابه إلى المدينة، ووجدها ترتجُّ بنواح النسوة على من فقدن من أزواجهن وأبنائهن وآبائهن وإخوتهن، فلم ينهاهن ولا عرض لهن، واتجه إلى دوره حيث تنتظره زوجاته، فغسلن جراحه في رفق، وقدمن له طعاما، وغيَّر ثيابه، وكان متعبا، فنام واستيقظ بعد ساعات من نوم عميق.

٣

مسيرة – خيانات – بعث ومسيرات

أ– مسيرة إلى حمراء الأسد عمل سياسي باهر

يُسمِّي مؤرخو السيرة كل هذه المسيرات للرسول غزوات ولم يكن فيها حرب، ولذلك كان أولى أن يسموها مسيرات. وكانت أول مسيرة في يوم الأحد صبيحة يوم السبت يوم أُحُد، وكان ذلك أروع أعمال الرسول السياسية والحربية في استعادة أصحاب أُحُد هيبتهم في نفوس قريش، فقد رأى أن يخرج في أثر قريش إرهابا لها كي تسترد في نفوسها هيبتها من أصحاب موقعة بدر، ويسترد المسلمون ثقتهم بأنفسهم. ولما صلَّى الصبح أمر بلالا أن ينادى في الناس أن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج إلا من شهد القتال بالأمس، وخرج سعد بن معاذ إلى قومه وأمرهم بالمسير وكلهم جريح، فقال أُسَيْد بن حُضَير – وبه سبع جراحات يريد مداواتها – سمعا وطاعة لله ولرسوله، وخرج من بني سلمة أربعون جريحا. ولما اجتمع المحاربون بالأمس ركب الرسول فرسه وعليه الدرع والمغفر ومضى بأصحابه حتى عسكروا في حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، وظل بها ثلاثة أيام، وأمر أصحابه بجمع الحطب في النهار، فإذا جاء الليل أمر أن يوقد كل منهم نارا، فكانت النيران تُرى من بعيد وهي تملأ الأرجاء نيرانا وأضواء، حتى كان يبدو أن جيش المسلمين ألوف وأعداد لا تكاد تُحصَى، وكانت هذه الخدعة من أعظم أعماله. وكانت قبيلة خزاعة مسالمة

للرسول ومناصحة له، ومرَّ بالرسول منها معبد بن أبى معبد، فقال له: لقد عزَّ علينا ما أصابك فى نفسك وفى أصحابك، ولوددنا أن المصيبة كانت بغيرك، ثم مضى فوجد أبا سفيان وقريشا بالروحاء وهم يتشاورون فى الرجوع إلى الرسول ﷺ، فأخبرهم أن محمدا وأصحابه قد تركهم يتحرَّقون إلى طلبهم، وأنهم فى آلاف كثيرة. فانصرفوا مسرعين خائفين من طلب الرسول لهم. وفى هؤلاء الصحابة الذين نفروا مع رسول الله فى طلب قريش وكثير منهم جرحى يقول الله فى سورة آل عمران مثنيا عليهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وبعث معبد الخزاعى رجلا أخبر رسول الله ﷺ بانصراف أبى سفيان ومن معه خائفين، فانصرف رسول الله إلى المدينة بعد ثلاثة أيام وقد تحقق له كل ما ابتغاه من هذه المسيرة.

ب – خيانات

الخيانة الأولى خيانة الرجيع وذلك أن نفرا من قريتى عَضَل والقارة قَدِموا على رسول الله ﷺ فى شهر صفر آخر السنة الثالثة للهجرة، فذكروا له أنهم أسلموا ويرغبون أن يبعث معهم أشخاصا من المسلمين يعلّمونهم القرآن ويفقّهونهم فى الدين، فبعث معهم ستة من الصحابة هم مَرْثد بن أبى مرثد، وخالد بن البُكَير، وعاصم بن ثابت، وخُبَيْب بن عدىّ، وزيد بن الدَّثنة، وعبد الله بن طارق، وأمَّر عليهم مرثدًا، فساروا معهم، حتى إذا وصلوا إلى ماء لقبيلة هذيل يُسمَّى الرَّجيع غدروا بهم إذ استصرخوا عليهم هذيلا، فهجم عليهم وهم فى رحالهم كثيرون منهم بأيديهم السيوف، فأخذ المسلمون سيوفهم ليقاتلوهم فأمَّنوهم، وقالوا لهم إنما نريد أن نأخذ فيكم فداء من أهل مكة، وقاتلهم مرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، حتى استشهدوا، وحاول عبد الله بن طارق الفرار فقتلوه بالحجارة، وحملوا خُبَيْب بن عدىّ وزيد بن الدَّثنة إلى مكة، وابتاع خبيبا حجير بن إهاب لزوج أخته عقبة بن الحارث بن عامر ليقتله

خيانة الرجيع

بأبيه المقتول يوم بدر، وابتاع زيدا صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، ولما قُدِّم خبيب للصلب استمهلهم حتى يصلّي ركعتين، وقال له أبو سفيان أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت سالم في أهلك، فقال: ما أحب أن أكون سالما في أهلي وتصيب محمدا شوكة تؤذيه.

خيانة بئر معونة

والخيانة الثانية خيانة بئر معونة، وذلك أن أبا براء الملقب بملاعب الأسنة من بني عامر بن صعصعة وَفِد على رسول الله ﷺ في صفر تمام السنة الثالثة من الهجرة فعرض عليه الإسلام فلم يُسْلم ولم يبعد، وقال للرسول ﷺ : لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد تدعوهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ : إني أخشى عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا لهم جار فلن يعتدى عليهم أحد، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو الساعدي في أربعين رجلا من الصحابة، منهم: الحارث بن الصِّمَّة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء السلميّ، ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة. فساروا حتى نزلوا بئر معونة – بين أرض بني عامر وحرَّة بني سليم – وأرسلوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه، وعدا عليه فقتله، واستصرخ قبيلته بني عامر عليهم فلم تجبه، فاستصرخ قبائل من بني سليم: عُصَيَّة ورَعْلا وذكوان فأجابوه. وقاتلهم المنذر ومن معه من الصحابة حتى قتلوهم عن آخرهم ما عدا كعب بن زيد من بني النجار، فقد تركوه وبه رمق، وكان عمرو بن أمية والمنذر بن محمد في سرح القوم، ورأيا الطير تحوم على العسكر، فأقبلا لينظرا الأمر، وإذا القوم في دمائهم والخيل التي أصابتهم واقفة، فقاتلاهم وقُتل المنذر بن محمد وأُسر عمرو بن أمية وجَزّ ناصيته عامر بن الطفيل وأطلقه، وطعن ربيعة بن أبي براء عامر بن الطفيل برمح لنقضه جوار أبيه، وأخطأ الرمح فلم يصبه في مقتل ووقع في فخذه.

وجاء الرسول خبر الرجيع وبئر معونة في وقت واحد، فوجد عليهم جميعا وجدا شديدا، وظل ثلاثين صباحا يدعو على رعل وذكوان وعصية من بني سليم، وعلى بني لحيان من هذيل لعصيانهم الله ورسوله وسفكهم دماء

المسلمين، وكان يقول في دعائه: اللهم اشدد وطأتك على مضر وعلى بني لحيان وعضل والقارة وعلى رِعْل وذكوان وعصية، وما زال يدعو عليهم حتى نزل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

خيانة الحارث ابن سويد

وخيانة ثالثة، هي خيانة الحارث بن سويد بن الصامت، وكان قد حضر أُحُدا وانتهز فرصة اختلاط المعركة على المسلمين حين فارق الكماة أماكنهم، وعدا على المجذَّر بن ذياد فقتله، وقتل معه من المسلمين قيس بن زيد، وكان المجذَّر قتل في الجاهلية أباه سُوَيْد بن الصامت في بعض حروب الأوس والخزرج، ثم لحق بالكفار في مكة، وعاد إلى قومه بالمدينة، وعلم رسول الله بعودته، فرأى أن يقتصَّ منه لمن قتله من المسلمين غدرا وخيانة بأحد. ونهض ﷺ إلى منازل عشيرته في قُباء فخرج إليه أهل قباء في جماعتهم وفي جملتهم الحارث بن سويد، فأمر رسول الله ﷺ عويم بن ساعدة بضرب عنقه، فقال الحارث: لِمَ يا رسول الله فقال: بقتلك المجذَّر بن ذياد وقيس بن زيد، فما راجعه بكلمة، وقدَّمه عويم، فضرب عنقه، وقيل بل قتله في فتح مكة.

جـ – بعث ومسيرات

بعث أبي سلمة

فقدت بعض القبائل البدوية ما كان في نفوسها من هيبة للرسول ﷺ وأصحابه بعد معركة أُحُد وهزيمة المسلمين فيها، وأخذ بعضها يفكر في غزو المدينة، وكان ذلك لا يخفى على الرسول ﷺ ، وكان رجل من طيئ قدم المدينة، وأخبره أن خليم بن خويلد من بني أسد وأخاه سلمة يجمِّعان الناس في قبيلتهما لحربه فأرسل عليهم في أول المحرم بعثا: مائة وخمسين صحابيا أمَّر عليهم أبا سلمة ابن عبد الأسد وانتهوا إلى جبل قطن بعد أربعة أيام، ولم يلقوا أحدا ووجدوا للقوم نعما وشاءً على ماء فأصابوا منها، وأخرج الخمس للرسول، وقسَّم ما بقي بين أصحابه وعادوا إلى المدينة.

مسيرات لم يكن فيها قتال

ثم كانت مسيرات للرسول لم يكن فيها حرب ويسميها مؤرخو السيرة غزوات، وكان عليه السلام إذا سمع بتجمع لقبائل خرج إليهم مهددا قبل أن يتم تجمعهم. ويتفرقون ويعود. فمن ذلك أنه سمع فى جمادى الأولى من السنة الرابعة الهجرية أن قبيلتى بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان تتجمعان لحربه، فبادر إليهما فى أربعمائة، وقيل فى أكثر من ذلك. وسُمِّيت هذه المسيرة ذات الرِّقاع لأن أقدام الصحابة نَقِبَتْ فكانوا يلفّون عليها الخرق، وقيل بل لأنهم رقّعوا راياتهم فيها، وقيل بل لأن بها شجرة تسمى ذات الرقاع، وقيل بل لأن الجبل الذى نزلوا به كانت أرضه ذات ألوان حمراء وصفراء وسوداء. ولقى الرسول ﷺ جمعا من غطفان فتواقفوا وتحدّثوا ولم يكن بينهما قتال. وصلّى الرسول بالمسلمين يومئذ صلاة الخوف واختلفت الروايات فيها اختلافات كثيرة، وقيل إنه صلى بطائفة ركعتين وطائفة مقبلة على العدو فجاءت وصلى بهم ركعتين أخريين. وعاد الرسول ﷺ وصحبه إلى المدينة.

مسيرة ذات الرقاع

مسيرة إلى بدر

وكان أبو سفيان فى يوم أُحُد نادى رسول الله ﷺ وأصحابه: موعدنا معكم بدر فى العام القادم، فخرج رسول الله ﷺ إلى بدر للموعد المذكور فى شعبان من السنة الرابعة، وقيل كان معه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس، وخرج أبو سفيان فى جمعٍ من قومه بلغ بهم عُسْفان فى الطريق إلى بدر، وقال لجَمْعه إن العام عام جدب، ورجع أدراجه معهم إلى مكة. وكانت بدر سوقا كبيرة فأقام بها الرسول ثمانية أيام وعاد إلى المدينة.

وحُرِّمَت الخمر فى هذه السنة الرابعة، وقيل بل فى السنة الثالثة بعد أُحُد، ويقال إنها حُرِّمَت تدريجا، إذ قال الله فى آية سورة البقرة عن الخمر: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وقال فى آية سورة النساء: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ ثم حرّمها نهائيا فى آية سورة المائدة قائلا: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

مسيرة دومة الجندل

ثم كانت مسيرة دُومة الجندل فى أقصى الشمال، وكان بلغه أن جموعا تتجمع بها لغزو المدينة، فخرج إليها فى حَشْدٍ كبير فى شهر ربيع الأول لأول السنة الخامسة للهجرة، ويقال إنه انصرف عنها فى الطريق إليها، ويقال بل إنه نزل بساحتها، وكانوا سمعوا بمَقْدِمه، فتفرقوا عنها، ولم يلق أحدا.

٤

إجلاء بنى النَّضير – زواج الرسول بأم سَلَمَة وزينب بنت عمته

أ– إجلاء بنى النَّضير

كان بنو النضير اليهود يُكْثِرون من التحرش بالرسول، وأرسلوا شاعرهم كعب بن الأشرف إلى مكة ليحضّ قريشا على قتال الرسول ﷺ، وأخذوا يقفون ضده بعد أُحُد مواجهين له، وكان قد قتل أحد المسلمين أعرابيين أعطاهما الرسول العهد، وهو لا يعرف فصمّم على ديتهما ورأى أن يستعين ببنى النضير، وجلس بجوار جدار لهم، فهمُّوا بإلقاء صخرة عليه لقتله وعرّفه جبريل بنيّتهم، فانسحب سريعا. ولم يحقق فى الأمر ولا فاوض فى أمر الدية بل أرسل إليهم رسولا يقول لهم: اخرجوا من المدينة، فقد نقضتم العهد وأردتم الغدر بى، وقد أجّلتكم عشرة أيام فمن رُئى بعدها فى المدينة فسيُضرب عنقه. وحاصرهم الرسول وأصحابه فى ربيع الأول، وقيل بل فى جمادى الأولى من السنة الخامسة، وغرّهم ابن أُبَىّ فأرسل إليهم لا تَجْلوا أو لا تخرجوا فإن معى من قومى وغيرهم من العرب ألفين سيدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم. وأمر الرسول ﷺ بنخلهم فقُطّع وحُرّق. وطال عليهم الحصار أياما، ولم يرسل لهم ابن أُبَىّ ما وعدهم به، ولا ساعدتهم قريظة ويهودها إذ رأوا أن لا يتدخلوا. وأسلم منهم شخصان، فأحرزا أموالهما، واضطرّ الباقون أن ينزلوا على حكم رسول الله أن يخرجوا ومعهم ما حملت الإبل لهم إلا الأسلحة، فلا يحملون منها شيئا. وخرجوا بعد ستة أيام من الحصار، وقيل بل بعد خمسة عشر يوما. وكانوا فى الحصار

حصار بنى النضير

يخرِّبون بيوتهم بأيديهم ويخرب المسلمون ما يليهم ويحرقون، وشقوا فى خروجهم سوق المدينة على ستمائة بعير، والذرية فى الهوادج، ومعهم النساء عليهن الديباج والحرير وحليّ الذهب وكن يضربن بالدفوف تجلدا. ونزل أكثرهم بخيبر، واتجه بعضهم إلى الشام. ويُقال إنهم خلّفوا من السلاح خمسين درعا وخمسين بيضة (خوذة) وثلاثمائة وأربعين سيفا. وقسّم رسول الله أموال بنى النضير وزروعهم بين المهاجرين خاصة، وأعطى منها من الأنصار صحابيين: أبا دُجانة وسهل بن حنيف إذ كانا فقيرين، وإنما خصَّ بها المهاجرين لأنهم حين قدموا المدينة شاطرتهم الأنصار ثمارها، فردوها عليهم، ومن حينئذ وقفت المواساة التى كانت مفروضة على الأنصار للمهاجرين.

وبدون ريب كان إجلاء بنى النضير عن المدينة، ومن قبلهم بنو قينقاع لأنهم جاهروا الرسول بعداوتهم له وأظهروا أنهم متأهبون لمنازلته، ولم تعمل القبيلتان بالعهد الذى عاهده معهما الرسول فى الأشهر الأولى لنزوله المدينة، وإن من يراجع تاريخ اليهود يعرف أن حكامهم أمروهم بالجلاء عن موطنهم مرارًا، فقد دمر سرجون الثانى ملك أشور مملكة إسرائيل سنة ٧٤١ ق.م ورحّل جزءًا كبيرا من سكانها. وطردهم بختنصر من ديارهم سنة ٥٨٦ ق.م، وتيتوس إمبراطور روما سنة ٧٠ للميلاد، وطردهم منها نهائيا الإمبراطور هادريان سنة ١٣٥ للميلاد.

إجلاءات اليهود

ب - زواج الرسول بأم سَلَمَة وزينب بنت عمته

دائما يحمل المستشرقون على الرسول ﷺ لزواجه المتعدِّد، وقد ذكرنا أنه تزوج السيدة خديجة وهو فى شرخ الشباب، وظل معها ستة وعشرين عاما حتى فقدها. وحين فكر فى الزواج بعدها تزوج أرملة لأحد المسلمين الأوائل وهى سودة لترعى بناته ولم تكن على شئ من الجمال، وتزوج بعدها بعائشة ابنة ذراعه الأيمن أبى بكر الصديق ليؤكد علاقته به. وتزوج بعدها حفصة ابنة عمر ذراعه الأيسر لنفس الغاية. وتزوج بعد هؤلاء الثلاث زينب بنت خزيمة، وكانت زوجة

لعبيدة بن الحارث أحد المسلمين الأوائل، وقد اختاره أميرًا على أحد بعوثه قبل بدر وأبلى بلاء حسنا فى بدر، واستشهد فيها وحزن عليه الرسول. وظل ينتظر لأرملته زوجا يرعاها، ولم يطلبها أحد، فرقّ لها وتزوّجها حتى يكفيها شر الحاجة والتماس العون، وظلت عنده ثمانية أشهر وتوفّيت. وكان قد فوجئ فى أُحُد بأحد رجاله المهمين أبى سلمة يُجْرح فى المعركة، ثم برئ جرحه، فعقد له - كما مرّ بنا - بإمارة أول بعث بعد أُحُد للقاء طلحة بن خويلد وبنى أسد المتجمعين لحرب رسول الله، وخرج إليه فى مائة وخمسين صحابيا، وعلموا بقدومه، وتفرقوا وأصاب أصحابه من إبلهم وشائهم، وعاد سالما غانما، ونغر عليه جرح أُحُد، وأسلم روحه إلى بارئه وكان الرسول حاضرًا احتضاره وهو فى فراش موته. ولم يكن لزوجته أم سلمة فى المدينة أحد من أهله أو أهلها يرعاها، ومضت أشهر فرقّ لها الرسول، خاصة أنه كان معها أبناء لها فى حاجة إلى من يعولهم، فطلب يدها، فقالت: إنى كبيرة فى السن وكثيرة العيال. فما زال بها حتى قبلت وبنى بها فى شوال من السنة الرابعة، وعال أبناءها، وهكذا كان يتزوج أرامل الشهداء ليعولهم ويكفيهم شر الحاجة.

الزواج بأم سلمة

وبعد ذلك بشهر فى بعض الروايات، وقيل بل بعد ذلك بسنة تزوج زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكان قد زوّجها منذ سنوات لزيد بن حارثة الذى اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، وهو صبى، فلما تزوجت الرسول وهبته له، ورفقا به من الرسول تبنّاه. ولما شبّ وبلغ مبلغ الرجال تزوج أم أيمن فولدت له أسامة وطلّقها، فرأى الرسول ﷺ أن يزوجه ابنة عمته زينب، وكانت على شئ من الجمال، فتأبّت وتأبّى أخوها عبد الله بن جحش، وكانت زينب حفيدة عبد المطلب ومن شريفات مكة فكيف ترضى هى وأخوها بزواجها من شخص محرَّر، ولم يكن وسيما وكان قصيرا، غير أن أخاها نزل عند رغبة الرسول من تزوُّجها بزيد بن حارثة عقب الهجرة. وظلت زينب ترى أن زيدا ليس كُفئًا لها ولأسرتها العريقة، وكانت لذلك غير سعيدة بهذا الزواج ولم تحب زيدا يوما، بل كانت تكن له شيئا من الكراهية، وظل زيد ثلاث

زينب بنت جحش تعاشر زيدا معاشرة مرة

سنوات وقيل أربعا يحاول بكل ما يستطيع أرضاءها وهى تزداد إعراضا عنه وازورارًا. ولما فاض به الكيل وأصبحت المعيشة معها لا تطاق ذهب إلى الرسول الذى زوَّجها له، ووصف له كيف تعايشة عيشة مُرَّة، وأنه يريد الانفصال عنها وطلاقها، فنصحه بأن لا يبادر إلى ذلك وأن يتمسك بها ويحسن عشرتها، ويذكر الله ذلك فى سورة الأحزاب قائلا: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإيمان ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق والتبنّى والمودة ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ ولازمها ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ فى العشرة معها وأحسن معاملتها. وفكر الرسول حينئذ فى أنه هو الذى أكرهها وأكره أخاها عبد الله أمير أول بعث ساق غنيمة من قريش، وكأنه هو الذى ورَّط ابنة عمته فى هذا الزواج غير المتكافئ، وحدثته نفسه إن أصرَّ زيد على طلاقها وطلَّقها أن يتزوجها تصحيحا لما صنع بها حين زوَّجها من شخص غير كفء لها، وصوَّر الله – جل شأنه – ذلك حين قال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ من عزمك على الزواج بزينب إن طلقها زيد ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ إن عرفوا ذلك وليس هذا من شأنهم. ويقول الله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أى الذين يتبنَّونهم كما تبنى الرسول زيدا فلا حرج عليهم فى أن يتزوجوا نساءهم لأن المحرمات هن نساء أبنائهم الحقيقيين لا المتبنّين.

زواج الرسول بزينب

هذه قصة زينب بنت جحش وزواج الرسول بها، أما ما حاوله بعض القُصَّاص من أن يجعل زواج الرسول بها ضربا من الوله حين ذهب مرة يسأل عن زيد فبهره جمالها، وزادوا على ذلك أن الباب فُتح فعصف الهواء بستارة فرآها بقميصها وشغف بها حبا. وهو خيال قُصَّاص لا يعرفون أنها ابنة عمته وأنها نمتْ من صغرها إلى زواجها تحت عينيه وكان يعرف حسنها، ولو أراد زواجها قبل زيد لزوجوها له. وتعلق بعض المستشرقين – كما مرّ بنا – بما جاء عن القُصَّاص فى قصة زينب وزادوا عليه، وكل ذلك لا أصل له، وقد تساءلوا لماذا عدَّد زوجاته وحرَّم على المسلمين الزواج بأكثر من أربع وكان حريا بهم أن

الرد على المستشرقين

يعرفوا أن هذا التحريم على المسلمين بزواج أكثر من أربع إنما شُرِّع في آخر السنة الثامنة للهجرة بعد زواج الرسول بكل نسائه في قوله عزَّ شأنه: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وقوله تبارك اسمه في سورة النساء: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾. والآيتان تدفعان عن الرسول ﷺ ما يقوله أعداؤه عنه من أنه أباح لنفسه في الزواج ما حرَّمه على المسلمين، وهما تنوِّهان بفضل الزوجة الواحدة، لصعوبة عدل الرجال بين النساء مهما حرصوا على العدالة.

وبعد زواج الرسول بزينب بنت جحش نزلت آية الحجاب.

الفصل الخامس عشر

من غزوة الأحزاب وحصار بنى قريظة إلى بعوث ومسيرتين للرسول

١

الاستعداد لغزوة الأحزاب

تأليب اليهود لقريش والعرب

كان خروج يهود بنى النضير من المدينة موطنهم وموطن آبائهم منذ مئات السنين شاقا على نفوسهم وخاصة على نفوس من نزلوا منهم خيبر ولم يذهبوا مع من ذهبوا منهم إلى الشام، ولم يلبث نفر منهم أن صمَّم على الانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين بتأليب قريش والقبائل العربية عليهم حتى يتجمعوا وينقضُّوا عليهم فلا يبقوا منهم أحدا. وكان الذى احتمل وِزْر ذلك وعمل له جاهدا من بنى النَّضير حُيَيّ بن أخطب وسلاّم ابن أبى الحُقَيق وكنانة بن أبى الحقيق، فخرجوا إلى مكة يدعون قريشا إلى حرب الرسول والمسلمين، ومعهم بضعة عشر من اليهود وغيرهم، وقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمدا والمسلمين، جئنا لنحالفكم على قتاله وعداوته. واستمع أبو سفيان زعيم قريش - حينذاك - لكلامهم وشدَّ على أيديهم واختار أربعين رجلا من بطون قريش تحالفوا وتعاقدوا مع اليهود على قتال الرسول والمسلمين، وقال أبو سفيان لهم: يا معشر يهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أدينُنا خير أم دين محمد؟ إننا عُمَّار البيت والقائمون عليه، ونَنْحر الإبل ونسقى الحجيج

ونعبد الأصنام، فقال اليهود: أنتم أولى منه ، إنكم لتعَظِّمون هذا البيت وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، وأنتم أولى بالحق منه، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ من أمثال حُيَيّ بن أخطب ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أى بما يُعبد من دون الله ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ﴾ أى الكفار ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾.

وذهب هذا الوفد اليهودى إلى قبيلة غطفان، وكانت من أقوى القبائل الحربية فى نجد، فعرضوا حلفا معها لقتال الرسول، وقالوا لهم إن قريشا حالفتنا على قتاله، وسينضم إليكم وإليها كثير من قبائل العرب، ومازالوا يغوونهم وكان أهم ما أغووهم به أن جعلوا لهم إن هم نصروهم ثمار خيبر سنة، وحالفوهم على ذلك. وأخذ أبو سفيان يجهِّز قريشا لغزو الرسول ﷺ والمسلمين، وسيَّر بعوثا إلى بعض قبائل العرب يدعوهم إلى نصرة قريش فى حرب الرسول، وأخذ اليهود بدورهم يحاولون إغواء بنى سليم، وممن استجاب لهم ولقريش بنو أسد وقبائل غطفان: فزارة وأشجع وبنو مرة. وتعاهدت بطون قريش عند الكعبة على قتال الرسول، وعقدت اللواء فى دار الندوة لعثمان بن طلحة بن أبى طلحة.

وخرجت قريش فى أربعة آلاف، ومعها ألف وخمسمائة بعير وثلاثمائة فرس، وأخذت بعض القبائل تنضم إلى جيش قريش فى طريقه إلى المدينة، وكان أول من انضم إليه بنو سليم بمَرِّ الظهران على بعد خمسة أميال من مكة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف أمية، وانضمت إليه كنانة كما انضمت بنو أسد يقودهم طلحة ابن خويلد الأسدى، وانضمت جموع فزارة من غطفان يقودهم عُيَيْنة بن حِصْن، وأشجع من غطفان يقودهم مسعود بن رُخَيْلة، وبنو مرة يقودهم الحارث بن عوف المُرِّى، وبلغ عدد الأحزاب عشرة آلاف.

سلمان الفارسي يشير بحفر خندق

وعلم الرسول أن قريشا تتأهب لقتاله، وأنها تحشد له قوة ضخمة بمن يؤازرونها من غطفان والقبائل العربية، فجمع أصحابه وشاورهم، وكان بينهم سلمان الفارسى، وكان مسترقًا لرجل من اليهود، فأعلن إسلامه للرسول ﷺ

فحرَّره. وكان سلمان قد عرف فى العراق وإيران موطنه فكرة حفر خندق حول البلدة ليحميها من الأعداء، فأشار على الرسول بحفر خندق عميق وواسع فى الجهة الشمالية المكشوفة من المدينة التى سيهجم الأحزاب منها على المدينة، واستصوب الرسول ﷺ رأيه، وركب فرسه ومعه جمع من الصحابة: المهاجرين والأنصار، فعسكر بهم فى سفح جبل سلع وجعله خَلفه، ثم أمر صحابته بحفر الخندق على طول الجبهة الشمالية المكشوفة من المدينة، وأُحضرت المساحى والكرازين (المعاول) والمكاتل للحفر، وجعل لكل جانب من الخندق قوما يحفرونه، وكان الشباب ينقلون التراب، وكان المهاجرون والأنصار يحملون التراب فى المكاتل، ويرجعون بها بعد إلقاء التراب منها ملأى بالحجارة، ليقذفوا بها الأعداء. ولتشجيع الصحابة فى العمل كان الرسول ﷺ يشترك معهم فيه، فكان مرة يضرب بالمعول، ومرة بالمسحاة يغرف بها التراب، ومرة ثالثة يحمل التراب فى المكتل على ظهره. واشتدت على الصحابة فى الحفر كُدْية أو صخرة لا تعمل فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى الرسول ﷺ، فأخذ المعول وضربها ضربة فطار منها الشرار، وقطع منها الثلث، وضربها الثانية فقطع منها الثلث الثانى، ثم ضربها الثالثة فقطع منها الثلث الباقى، وكان يقول – وهو يعمل فى الحفرة – : اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة. وكَمُلَ حفر الخندق فى ستة أيام، وقيل: بل فى بضعة وعشرين يوما. وحصَّن الرسول المدينة والخندق.

حفر الخندق

الرسول يشترك فى الحفر

٢

حصار الأحزاب للمدينة

كان ذلك الحصار فى شوّال، وقيل بل فى ذى القعدة سنة خمس للهجرة، وفيه أقبلت قريش، فنزلت فى مجتمع السيول، ونزلت غطفان بجوار أُحُد، وبجوارها كنانة وسليم وأسد وبقية الأحزاب، وفوجئوا جميعا بالخندق يحول بينهم

وبين الرسول والمسلمين والمدينة. وجعل الرسول سَلْعا خلفه وخلف المسلمين، واصطفّوا خلف الخندق.

وكان حُيَىّ بن أخطب النَّضْرى – طوال مسيرته مع جيش قريش – يقول لأبى سفيان ولقريش: إن قومى قريظة بقية قبائل اليهود فى المدينة، وكان حصنهم فى جنوبيها، وكان يقول لهم إنهم أهل حرب شجعان، وهم سبعمائة وخمسون مقاتلا. فلما وصلو إلى المدينة قال له أبو سفيان: اذهب إلى قومك حتى ينقضوا العهد الذى بينهم وبين محمد. وكان الرسول حين قدم المدينة وادَعَ قريظة واليهود وكتب دستورا لليهود وسكان المدينة جميعا – كما أسلفنا – وفيه أن بين اليهود وبين المسلمين النصر على من حارب أهل المدينة وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين. فأتى حُيَىّ بن أخطب كعب بن أسد رئيس بنى قريظة وكان قد وادع محمدا وعاقده وعاهده، وكان أول من لقيه منها عزَّال ابن سموأل، فقال له: قد جئتك بما تستريح به من محمد، هذه قريش وغطفان جاءتا لحرب محمد، فقال له: جئتنا والله بذل الدهر! فقال له: لا تقل هذا. وسمع كعب بن أسد القرظى بحُيَىّ بن أخطب، فأغلق دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، فقال له: افتح لى يا كعب بن أسد، فقال له: لا أفتح لك فإنك رجل مشئوم تدعونى إلى خلاف محمد، وأنا عاقدته وعاهدته، ولم أر فيه إلا وفاء وصدقا، فلستُ بناقض ما بينى وبينه، فقال له حُيَىّ افتح لى حتى أكلّمك فأنصرف عنك، قال له: لا أفعل، قال: إنما تخاف أن آكل معك طعامك، فغضب وفتح له، فقال له حُيَىّ: إنما جئتك بعزِّ الدهر، جئتك بقريش وسادتها وغطفان وقادتها قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمدا ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجَهامٍ لا غيث فيه، ويحك يا حُيَىّ! دَعْنى فلست بفاعل ما تدعونى إليه، فلم يزل حُيَىّ بكعب يعده ويغرُّه، حتى استجاب إليه وعاهده على خذلان الرسول ﷺ وأصحابه وأن يصير معه ومع قريش، وقال له حُيَىّ: إن انصرفت قريش وغطفان دخلت عندك بمن معى من اليهود. وعلم الرسول بخبر كعب بن أسد القرظى وحُيَىّ بن أخطب، فبعث سعد بن عبادة سيد الخزرج وسعد بن معاذ

نقض بنى قريظة لعهد الرسول

سيد الأوس وبعث معهما عبد الله بن رواحة وخَوَّات بن جبير، وقال لهم: انطلقوا إلى بني قريظة – وكانوا في جنوبي المدينة، فإن كان ما قيل لنا حقا فالحنوا لنا لحنا نعرفه، ولا تَفُتُّوا في أعضاد المسلمين بإخبارهم عن نقضهم للعهد، وإن كان كذبا فاجهروا به للناس، فانطلقوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث صورة لنقض العهد، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهد له عندنا. وأقبل السعدان حتى أتيا الرسول ﷺ فقالا: عضل والقارَة يعرِّضان بغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع: خبيب وأصحابه. وانتهى الخبر إلى المسلمين، فاشتدّ الخوف بهم، إذ أصبحوا محاصرين بين الأحزاب من الشمال وبني قريظة من الجنوب، ويصوِّر الله – جَلَّ شأنه – مدى خوف المسلمين من هذا الحصار في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي الأحزاب شمالا ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي قريظة جنوبا ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ كناية عن شدة الذعر والرعب ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ كناية عن شدة الفزع والهلع.

وهمَّت بنو قريظة أن تُغير على المدينة وفيها الذرارى والنساء، وأرسل حُيَيّ ابن أخطب إلى قريش أن يأتي منهم ألف رجل، ومن غطفان ألف أخرى للإغارة بهم على المدينة، وعلم بذلك الرسول، فبعث سلمة بن أسلم الأوسي في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة من بني قريظة ويظهرون التكبير فيها. وكان الخوف على الذرارى بالمدينة من بني قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان، وعرفت بنو قريظة أن المدينة تُحرس ليلا، فانصرفت عن مهاجمتها.

رجوع المنافقين إلى المدينة

وأخذ المنافقون يتكلمون ضد الله ورسوله بكلام مُزْرٍ حتى ليقول معتّب بن قُشَيْر: يعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدُنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته، ويقول متهكما: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾، إذ يعدوننا النصر ولا نصر. وبعثت بنو حارثة بأوس بن قَيْظيّ إلى رسول الله يقول: إن بيوتنا عَوْرة (مكشوفة)، وليس بين غطفان ودورنا أحد يردُّهم عنا، فَأْذَنْ لنا فلنرجع إلى

دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا، فأذن لهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى شك ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ أى تغريرا بنا، كَبُرَتْ كلمة تخرج من أفواههم ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أى من المنافقين وهم عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ هم بنو حارثة وصاحبهم أوس بن قيظىّ ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ من الحرب.

وكان المشركون يتناوبون فى الأيام، فيغدو أبو سفيان يوما، ويَغْدو خالد بن الوليد يوما، ويغدو عمرو بن العاص يوما، ويغدو هبيرة بن أبى وهب يوما، ويغدو عكرمة بن أبى جهل يوما، ويغدو ضرار بن الخطاب الفِهْرى يوما، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويتفرَّقون مرة ويجتمعون مرة أخرى ويحاولون مناوشة المسلمين، ويقدِّمون رماتهم فيرمون السهام ويراميهم المسلمون حتى يرجعوا، وكان من أهم رُماتهم حِبَّان بن العَرِقة، ورمى يوما سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحله، وهو عرق فى اليد يقال له عرق الحياة، وقال: خذها وأنا ابن العَرِقة، وقال له سعد: عَرَّق الله وجهك فى النار.

إصابة سعد بن معاذ

واتفق بعض فرسان المشركين أن يبحثوا فى الخندق عن مضيق يقحمون فيه خيلهم إلى الرسول ﷺ والمسلمين، وظلوا يبحثون حتى وجدوا مكانا ضيقا، فعبره عكرمة بن أبى جهل، ونوفل بن عبد الله المخزومى وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبى وهب وعمرو بن عبد ودّ. وبادر عمرو بن عبد ودّ من عامر بن لُؤَىّ فبرز له علىّ بن أبى طالب، وقال له يا عمرو إنك عاهدت الله - فيما بلغنا عنك - أنك لا تُدْعى إلى إحدى خَلَّتين إلا اخترت إحداهما، قال: نعم، فقال علىّ: إنى أدعوك لله عزَّ وجلَّ والإسلام، قال: لا حاجة لى بذلك، قال: وأدعوك إلى البِراز، قال: يا ابن أخى والله ما أحبُّ أن أقتلك لما كان بينى وبين أبيك، فقال له علىّ: أنا والله أحبُّ أن أقتلك، فحَمِىَ عمرو بن عبد ودّ العامرى ونزل عن فرسه، وسار نحو علىّ فتنازلا وتجاولا، وثار الغبار بينهما حتى حال دونهما،

مبارزة علىّ لعمرو ابن عبد ود

وانجلى الغبار فرُؤِىَ علىّ فوق صدر عمرو يقطع رأسه. وناوش عمر بن الخطاب والزبير بن العوام أصحابهما، ورأى القرشيون عمرا يقتل فعبروا الثغرات التى جاءوا منها راجعين إلى قومهم منهزمين فارِّين، وسقط منهم نوفل بن عبد الله المخزومى عن فرسه فى الخندق فرُمى بالحجارة حتى قُتل، وسقطت درع هبيرة ابن أبى وهب فأخذها الزبير.

مفاوضة غطفان

وظل المسلمون والمشركون بضعة وعشرين يوما أو قريبا من شهر ليس بينهم حرب إلا الرمى بالسهام والحصا، ولما رأى رسول الله ﷺ أن البلاء اشتد بالمسلمين بعث إلى عُيَيْنة بن حِصْن والحارث بن عوف المُرِّى وهما قائدا غطفان ليفاوضهما فى الانصراف بغطفان وأهل نجد عن الحرب نظير أخذ ثلث ثمار المدينة، وطلبا النصف فأبى إلا الثلث، فرضيا، وطلبا كتابة عقد بذلك، وأقبل أُسَيْد بن حُضَير، وسأله الرسول ﷺ : ما رأيك؟ فقال: إن كان أمرا من السماء فامض له، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف، واتجه إلى عُيَيْنة والحارث وقال متى طمعتم بهذا منا. واستدعى الرسول ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فذكر لهما ما عرضه على عُيَيْنة والحارث ابن عوف، واستشارهما، فقالا: يا رسول الله هذا أمر تحبه فنصنعه لك أو شئ أمرك الله به فنسمع له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ قال: بل أمر أصنعه لكم، والله ما أصنعه إلا أننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا بشراء أو قِرًى (ضيافة)، ونحن أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك نعطيهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فسُرَّ رسول الله ﷺ وقال لعُيَيْنة والحارث بن عوف: انصرفا فليس لكما ولمن معكما عندنا إلا السيف.

نعيم بن مسعود فى تخذيل بنى قريظة والأحزاب

وكان نُعَيْم بن مسعود الأشجعى صديقا لبنى قريظة، وقدم مع قومه أشجع الغطفانيين فى حصار المدينة، فقذف الله فى قلبه الإسلام، فأتى رسول الله ﷺ ليلا فأسلم، فقال له: إنما أنت رجل واحد من غطفان، فلو خرجتَ فخذّلتَ عنا

كان أحبَّ إلينا من بقائك، فاخرُج فإن الحرب خُدْعة. وجاءته فكرة ونفَّذها، إذ توجه إلى بنى قريظة - وكان ينادمهم فى الجاهلية - فقال لهم: يا بنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: قُل فلست عندنا بمتَّهم، فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم، البلد بلدكم وفيه أموالكم وأبناؤكم، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم (أعنتموهم) عليه، فإن رأوا فرصة فى حربه أصابوا، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخَلَّوْا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم، فقبلوا رأيه. ثم خرج حتى أتى قريشا وأبا سفيان، فقال لهم، قد عرفتم وُدِّى لكم معشر قريش، وقد بلغنى أمرٌ أرى من الحق أن أُبْلغكموه نُصْحًا لكم فاكتموا علىَّ، قالوا: نفعل، قال: أتعلمون أن معشر اليهود قد ندموا على ما كان من خلافهم محمدا، وأرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريشٍ وغطفان رهائن: رجالا ونسلمهم إليكم لتضربوا أعناقهم، ثم نكون معك على مَنْ بقى منهم حتى نستأصلهم. ثم أتى غطفان فقال لهم مثل ذلك وحذَّرهم أن يدفعوا إليهم رهنا. فأرسل بنو قريظة عزَّال بن سموأل إلى قريش: إن الثَّواء (المُقام) قد طال ولم تصنعوا شيئا، والرأى أن تتواعدوا على يوم تزحف فيه قريش وغطفان، ويزحف بنو قريظة معكم، ولكنهم لا يخرجون معكم حتى ترسلوا إليهم رهائن من أشرافكم، فإنهم يخافون إن أصابكم ما تكرهون رجعتم وتركتمونا. فلما كانت ليلة السبت - وكان ذلك من صنع الله عزَّ وجلَّ لرسوله - أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان يقول لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخُفُّ (الإبل) والحافر (الخيل) فاغْدُوا صبيحةَ غَدٍ للقتال معنا حتى نفاجئ محمدا. فقالوا لهم إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما نال منا من تعدَّى فى يوم السبت، ومع ذلك فلا نقاتل معكم أحدا حتى تعطونا رهنا. فلما رجع عكرمة ومن معه بذلك قالت قريش وغطفان: صدقنا والله نعيم بن مسعود. ولام أبو سفيان حُيَيّ بن أخطب فراجع بنى قريظة، فأبوا أن يقاتلوا مع الأحزاب حتى يأخذوا سبعين رجلا من قريش وغطفان رهائن عندهم. وخذل الله بينهم واختلفت كلمتهم.

وبعث الله على الأحزاب ريحا عاتية شديدة البرد ليلا ونهارا، وكانوا يعسكرون فى الخلاء فماتت بعض دوابهم، وسقط عليهم مطر غزير بارد برودة شديدة مصحوبا بعواصف تقلب قدورهم وآنيتهم وتطفئ نيرانهم، وتنشر فى قلوبهم الرعب والفزع، وأخذ الرسول ﷺ يفكر فى أمرهم وما يكونون عليه من الهلع إزاء الريح الصرصر المسلطة عليهم وما تحمل إليهم من سيول المطر القارص، والتفت إلى من حوله وقال: مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعلت قريش، ولم يجبه رجل من شدة الخوف والجوع والبرد، فدعا حذيفة بن اليمان، ولم يكن له بدٌّ من تلبيته، فقال له: يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثنَّ شيئا حتى تأتينا. فذهب حذيفة إليهم واستتر فى غمارهم، واستمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش ليتعرَّف كل امرئٍ منكم جليسه، قال حذيفة: فأخذت بيد جليسى، وقلت له: مَنْ أنت؟ فقال فلان وانتسب. ثم ذكر حذيفة أن أبا سفيان رفع صوته فيهم وقال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، ولقد هلك الكُراع (بعض الخيل) والخفُّ (بعض الإبل) وأخلفتنا بنو قريظة، ولقينا من هذه الريح العاصفة ما لقينا، ما تستمسك لنا خيام ولا تثبت لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا، فانى مرتحل، ووثب على بعيره فجلس عليه، ثم ضربه فوثب على ثلاث ولم يطلق عقال الرابعة إلا وهو قائم، وارتحلت قريش. وسمعت غطفان والأحزاب برحيل قريش فأسرعوا راجعين إلى مواطنهم، ورجع حذيفة إلى الرسول ﷺ فأعلمه برحيل قريش، فحمد الله. وأنزل الله تعالى فى شأن الخندق آية يذكر فيها نعمته على الرسول والمؤمنين وكفايته عدوَّهم من قريش والأحزاب بعد سوء الظن من بعضهم ومقالة من تكلّم بالنفاق، يقول جَلَّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ هى جنود الأحزاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ صرصرا عاتية محملة بأمطار غزيرة باردة ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هى جنود الملائكة التى كانت تبث فى قلوب قريش الخوف والفزع الشديد والرعب، وتبث فى قلوب المسلمين الأمن والأمان والطمأنينة ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ريح عاتية

رحيل قريش والأحزاب

وامتلأ قلب رسول الله ﷺ برحيل الأحزاب بشرًا وسرورًا، ونظر حوله نظرة كلها ثقة بالله، وقال: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، وصدق، فإن كفار قريش لم يغزوا المسلمين والمدينة بعد الخندق، ثم هتف الرسول وهتف أصحابه وراءه: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده".

أمر الله بالخروج إلى بني قريظة

وأصبح الرسول وقد رحلت الأحزاب، فرجع إلى المدينة، وأَذِن للمسلمين أن يضعوا أسلحتهم، ويذهب كل منهم إلى داره فيستريح. ولم يلبث أن جاءه جبريل، فقال له: "يا محمد إن كنتم قد وضعتم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها، إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة، وإني متقدمٌ إليهم فمزلزلٌ بهم". وقد رأينا بني قريظة ينقضون ما كان من عهد بينهم وبين الرسول إذ لم يعينوه في النصر على الأحزاب في حصارهم للمدينة كما يقضي بذلك الدستور في النصرة على من هاجمها، ولا عرضوا على الرسول أن ينفقوا معه في حرب الأحزاب كما يقضي الدستور، ولم يزل حُيَيّ بن أخطب بكعب بن أسد رئيسهم حتى أقنعه بإعلانه خذلان الرسول وانضمامه مع قومه بني قريظة إلى الأحزاب، وبعث الرسول إليهم سيدا الأوس والخزرج لينبآه بحقيقة موقفهم، فوجداهم على أخبث صورة من نقض العهد، ونالوا من رسول الله، وقالوا لا عهد له عندنا، وهي خيانة واضحة في وقت الحرب. ثم تبعتها خيانة أعظم فقد مضوا يفاوضون أبا سفيان على هجوم الأحزاب على المسلمين من الشمال وهجومهم من الجنوب، وبذلك يكون المسلمون بين شِقّي مقصٍّ ويُستأصَلون، لولا أن قيّض الله للرسول والمسلمين نعيم بن مسعود الأشجعي فخذّل بين بني قريظة من جهة وبين قريش وغطفان من جهة ثانية؛ وكأن معجزة عظيمة أنقذت الرسول والمسلمين من اتفاق الأحزاب وبني قريظة على الهجوم عليهم من الشمال والجنوب، وكانت تلك خيانة كبرى من بني قريظة وأصبح واضحا أنه ليس من الممكن أن يظلوا في المدينة بل يجب أن يُستأصلوا منها استئصالا تاما بحكم السماء.

٣

حصار بنى قريظة

أمر رسول الله ﷺ بلالا أن يؤذّن فى المسلمين يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة سنة خمس: لا يصلينَّ أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة. ودعا رسول الله ﷺ عليًّا، ودفع إليه اللواء وكان لا يزال على حاله من مرجعه من الخندق، ولَبِس الرسول ﷺ الدِّرْع والمِغْفر والبيضة وأخذ رمحا بيده، وتقلّد التُّرْس، وركب فرسه، وحفَّ به أصحابه، وقد لبسوا السلاح، وركبوا الخيل، وكانت ستة وثلاثين فرسا، وكانت له ثلاثة أفراس معه، وانتهى إلى بنى قريظة جنوبى المدينة. وسبق علىٌّ فى نفر من المهاجرين والأنصار، وغرز الراية، فاستقبلهم اليهود يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه، ورأى علىٌّ الرسول مقبلا فقال له: يا رسول الله: لا تبلغ إليهم فقال له: أظنك سمعت منهم شَتْمى، لو رأونى لكفّوا عن ذلك، ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا. وترامـوا مع سعد بن أبى وقاص والمسلمين ساعةً. ثم غدا الرسول سحرا وقدّم الرماة وعبأ أصحابه، وظلوا يترامون مع اليهود حتى المساء. ونزل نبَّاش بن قيس، وكلّم الرسول ﷺ على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النَّضير: له الأموال والأسلحة ويَحْقن دماءهم ويخرجون من المدينة بالنّساء والذّرارى ولهم ما حملت الإبل إلا الأسلحة، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه. وعاد نبَّاش إليهم بذلك، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد إحدى ثلاث خصال ليختاروا أيها شاءوا: إما أن يعتنقوا الإسلام ويتّبعوا محمدا على ما جاء به. قال: وتُحرزوا أموالكم ونساءكم، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذى تجدونه فى كتابكم، وإما أن تقتلوا أبناءكم ونساءكم ثم تتقدموا فتقاتلوا حتى تموتوا عن آخركم، وإما أن تخرجوا على المسلمين ليلة السبت فى حين طمأنينتهم منكم فتقتلوهم، فقالوا له: أما الإسلام فلا نسلم ولا نخالف حكم التوراة، وأما قتل أبنائنا ونسائنا، فما جزاؤهم المساكين منا أن

نقتلهم، ونحن لا نتعدَّى على أحد فى السبت. ونزل منهم ثَعلبة بن سَعْية وأُسَيْد ابن سعية وأسد بن عبيد، فأسلموا، وأُمِّنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم. ونزل عمرو بن سُعْدَى، وكان أَبَى أن يدخل مع بنى قُريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ، وقال: لا أغدر بمحمد أبدا. فبات فى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ثم ذهب، ولم يُدْرَ أين ذهب.

أبو لبابة

فلما اشتدَّ عليهم الحصار طلبوا حليفهم أبا لُبابة بن عبد المنذر، وكانوا حلفاء سائر الأوس، فأتاهم، فجمعوا إليه رجالهم وأبناءهم ونساءهم، وقالوا له: يا أبا لُبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فرقَّ لهم وقال: نعم، وأشار بيده إلى حَلْقه، إنه الذبح إن فعلتم، ثم ندم أبو لبابة فى الحين وعلم أنه خان الله ورسوله وأنه أمرٌ لا يستره الله عن نبيِّه. فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبى، ودخل المسجد، فربط نفسه فى عمود من أعمدة المسجد، وأقسم أن لا يبرح مكانه حتى يتوب الله عليه. فكانت امرأته تحلّه لوقت كل صلاة. وأقسم أن لا يدخل أرض بنى قريظة أبدا: مكانا أصاب فيه الذم. ولما بلغ ذلك من فِعْل أبى لُبابة الرسول ﷺ قال: أما إنه لو أتانى لاستغفرت له، وأما إذ فعل فلست أطلقه حتى يطلقه الله، فأنزل الله تعالى فى أمره: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وكلمة عسى من الله واجبة.

التسليم بنزولهم على حكم الرسول

وكان الحصار خمسة وعشرين يوما، وقيل بل خمسة عشر يوما، ولما طال باليهود الحصار نزلوا على حكم الرسول، فأمر بأسراهم، فكُتِّفوا رباطا، وجعل على كتافهم محمد بن مسلمة ونُحُّوا فى ناحية. وأُخرجت النساء والذرية من الحصون فكانوا فى ناحية واستعمل عليهم عبد الله بن سلام. وجُمعت أمتعتُهم وما وُجد فى حصونهم من الأسلحة والأثاث والثياب، فوُجد فيها ألف وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفا رُمْحٍ وألف وخمسمائة ترس وأثاث كثير وآنية كثيرة وخمر وجرار نبيذ وأُريق ذلك ولم يخمّس، ووجد من الجمال التى يُستسقى عليها الماء عدّة ومن الماشية شئ كثير، وجُمع هذا كله.

وتواثب الأوس إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا: يا رسول الله قد علمت أنهم حلفاؤنا، وقد شفّعت عبد الله بن أبَىّ فى بنى قينقاع حلفاء الخزرج، فلا يكنْ حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا، فهم موالينا، فقال لهم رسول الله: يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ، وسعد يومئذ فى المسجد فى خَيْمة رُفَيدة، وقيل كعيبة الأسلمية، وكانت تداوى الجرحى ولها خيمة فى المسجد، وكان رسول الله ﷺ جعل سعد ابن معاذ فيها منذ جُرح. فجاء به الأوس على حمار وقد وطّئوا له وسادة من أدم ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وأحاطوا به فى طريقهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن فى مواليك، فإنما ولاّك رسول الله ﷺ ذلك لتحسن إليهم، فقال لهم: قد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم. ولما أطلّ على الرسول ﷺ والأنصار حوله قال ﷺ : قوموا إلى سيدكم. فقاموا له صفّين يحييه كل منهم، وقال من حضر من الأوس: يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاّك الحكم فأحسن فيهم واذكر بلاءهم عندنا. فقال سعد: أترضون بحكمى لبنى قُرَيْظة؟ قالوا: نعم. فقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيهم ما حكمت. قالوا: نعم. قال: وعلى مَنْ هنا؟ وأشار إلى الناحية التى فيها الرسول، فقال له رسول الله ﷺ : نعم. قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن يُقْتَل الرجال وتُسْبى النساء والذرارى (الأولاد الذين لم يبلغوا الحُلْم) وتُقسّم الأموال. فقال له رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة (سموات).

حكم سعد ابن معاذ

وأمر رسول الله ﷺ بالرجال فأُخذوا مكتّفين إلى سوق المدينة، وحُفرت هناك خنادق، وجلس مع كبار الصحابة، ثم دعا برجال بنى قريظة، فكانوا يخرجون جماعات فتضرب أعناقهم ويلقون فى الخنادق، وكان الذى يتولى قتلهم على بن أبى طالب والزبير بن العوام، ولما جىء بحُيَىّ بن أخطب قال له رسول الله ﷺ : ألم يمكّن الله منك يا عدوّ الله؟ وأقبل حُيَىٌّ على الناس فقال: أيها الناس لا بأس بأمر الله قدرٌ وكتاب: ملحمة كتبتْ على بنى إسرائيل. فأمر الرسول ﷺ بضرب عنقه. وقال الرسول ﷺ : أحسنوا إسارهم وأريحوهم فى

القيلولة واسقوهم ولا تجمعوا عليهم حرَّ الشمس وحرَّ السلاح، وكانوا بين ستمائة وسبعمائة، وقيل بل كانوا سبعمائة وخمسين. وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أخضرَّت ذقنه منهم وتَرْك كل من لم تخضر ذقنه، وكان عطية القُرَظى من جملة من لم تخضر ذقنه، فلم يُقتل، وأسلم وهو مذكور فى الصحابة.

ولاذ رفاعة بن سموأل القرظى بأم المنذر سلمى بنت قيس: إحدى خالات الرسول، فسألت الرسول ﷺ فوهبه لها، فأسلم، وله صحبة ورواية، ووهب لثابت بن قيس بن الشمَّاس الزبير بن باطا وولده وكانت له يد عليه فى الجاهلية فاستحياهم، منهم عبد الرحمن بن الزبير أسلم وله صحبة، ولم يرض الزبير أبوه بالحياة بعد قومه، فضرب الزبير بن العوام عنقه. وأمر رسول الله ﷺ بقتل امرأة من السَّبْى، هى بُنانة امرأة الحكم القرظى، فقُتلت، لأنها كانت ألقت من حصن الزبير بن باطا رَحًى بإشارة زوجها على نفر من المسلمين كانوا يستظلون فى الحصن، فقتلت خلاد بن سويد. وأخذ رسول الله ﷺ من السبى ريحانة بنت زيد وأسلمت، وخيَّرها بين أن يتملكها أو يتزوجها، فاختارت أن تكون فى ملكه.

وبيع متاع بنى قريظة، وبيع السَّبْى، وقسَّم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة فكان للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم. وجُعل خُمْس الغنيمة والسَّبى للرسول طبقا لآية سورة الأنفال فكان يعتق من السَّبى ويهب منه ويخدم منه من أراد. وبعض المستشرقين يستنكرون استئصال الرسول لبنى قريظة وذكرنا أنهم خانوه ومدُّوا أيديهم إلى قريش ونقضوا ما بينهم وبين الرسول من عهد، وقالوا لا عهد عندنا له، وطلبوا إلى قريش أن يهجموا على الرسول والمسلمين معا حتى لا يبقوا منهم أحدا، ولولا أن الله سلَّم لضاع الإسلام والمسلمون. فاستنكار بعض المستشرقين لقتل بنى قريظة يغفل كل ما صنعوه بالمسلمين فى حصار الأحزاب، وأنهم مدوا أيديهم إلى الأحزاب ليفتكوا بالرسول والمسلمين، فلم يكن من الممكن أن يستطيع المسلمون – بعد ذلك – أن يتعايشوا معهم فى المدينة. ومن يرجع إلى شريعة اليهود فى التوراة يجدهم فى سفر تثنية الاشتراع بالفصل

العشرين يدعون جيوشهم إذا هاجمت مدينة تدعوها إلى السلم فإن قبلت ضربتم عليها الجزية وتعبّدت لكم، وإن حاربتكم فحاصروها، وإذا أسلمها الرب إلى أيديكم فاضربوا كل ذكر بحدّ السيف. والرسول ﷺ - بذلك - إنما طبّق على بنى قريظة ما جاء فى شريعتهم، وقد أجلى عن المدينة قبلهم إخوتهم بنى قينقاع ثم بنى النضير لجنايات ليست شيئا بالقياس إلى جنايتهم الكبرى وما ابتغوه من تسليم المسلمين للأحزاب، وهو تآمر فظيع. ولنرجع إلى التوراة والفصل الثانى عشر من سفر الملوك الثانى فسنرى داود استولى بجيشه على مدينة ربة عاصمة بنى عَمّون، وهم شعب سامى، وكانت ربة بمكان عَمَّان الحالية، وتقول التوراة: أخرج شعبها ووضعهم تحت مناشير ونوارج من حديد وفُئوس من حديد وطرح منهم فى أتون الآجرّ (أى فى الموقد الكبير للآجر) . وتقول التوراة إنه صنع ذلك بجميع مدن بنى عَمُّون. والرسول ﷺ لم يضع أحدا من بنى قريظة تحت مناشير أو تحت نوارج من حديد ، ولا وضع أحدا منهم فى موقد نيران، بل كان يقول للمسلمين - كما مرّ بنا - أحسنوا إسارهم وأريحوهم فى القيلولة واسقوهم ولا تجمعوا عليهم حرّ الشمس وحرّ السلاح.

داود يمثّل برجال عاصمة بنى عمون

ولما حكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة عاد إلى خيمة رُفَيْدة الأسلمية حيث تمرّضه، وكوى جرحه بالنار، فانتفخت يده، ولم يلبث الجرح أن انفجر وتوفى، وسار الرسول ﷺ أمام جنازته وصلّى عليه، ولما وُضع فى لحده سبّح ثلاثا وسبّح المسلمون ثلاثا حتى ارتجّ البقيع، ثم كبّر ثلاثا وكبّر أصحابه ثلاثا وارتجّ البقيع. وجلس ناحية والمسلمون يردون تراب القبر على سعد حتى سُوِّى ورُشّ عليه الماء، ووقف فدعا ثم انصرف. ولم تغز قريش المدينة بعد الخندق، وأصبح واضحا بعد القضاء على بنى قريظة أن الرسول والمسلمين ازدادوا قوة فوق قوة وأن مكة لابد أن تسقط فى أيديهم يوما. وكانت القبائل فى الجزيرة تدين بالولاء لمكة حارسة الكعبة وأصنامهم الكثيرة فيها التى يحجُّون إليها سنويا، وأخذ هذا الولاء يتناقص وأخذ كثير من القبائل يودّ لو عقد حلفا مع الرسول.

وفاة سعد ابن معاذ

٤

بعوث متعددة ومسيرتان للرسول

كان ممن ذهب إلى قريش من اليهود يحضُّها على غزو المدينة والرسول ﷺ سلام بن أبى الحقيق، وسعى عند غطفان أن تشترك فى الغزو، وصنع صنيعه حُيَىّ ابن أخطب كما مرَّ بنا، وقد قُتل مع بنى قريظة، أما سلام فقد ذهب إلى خيبر، فرأى عبدُ الله بن عتيك ونفرٌ من الأوس أن يقضوا عليه فى عقر داره بخيبر فذهبوا إليه ودخلوا مسكنه، وقتلوه عقابا لما سعى فيه من تحزيب قريش والأحزاب لاستئصال المسلمين من المدينة.

قتل سلام بن أبى الحقيق

وأخذ الرسول ﷺ يُكثر من البعوث فى السنة السادسة لإعلام القبائل العربية بالدين الحنيف. وأول بعث أرسل به بعث محمد بن مسلمة فى ثلاثين صحابيا إلى بنى بكر بن كلاب فى ضريّه لعشر خلون من المحرم أول أشهر السنة السادسة، ويسمى هذا البعث بعث القُرَطاء، وشَنَّ غارة على بنى بكر، ويقال حدثت بينه وبينهم حرب، وقتل منهم نفرا وفرَّ سائرهم، واستاق منهم غنيمة: مائة وخمسين بعيرا وثلاثة آلاف شاة. وخمَّس الرسول ﷺ الغنيمة.

بعث محمد بن مسلمة إلى بنى بكر بن كلاب

ثم كانت مسيرة الرسول ﷺ فى مائتى رجل إلى بنى لحيان فى عُسْفان أول ربيع الأول ليأخذ بثأر أصحاب الرجيع الذين مضى خبرهم، ووجد بنى لحيان فرّوا من ديارهم لما علموا بمقدمه ولم يلق منهم أحدا. وانصرف إلى المدينة. وقيل كانت هذه المسيرة بعد ذلك فى جمادى الأولى. وبعد رجوع الرسول من مسيرته إلى بنى لحيان بليال قليلة سار حتى بلغ ذا قَرَد (ماء على مسيرة يوم من المدينة)، وذلك أن عُيَيْنة بن حصن سيد فزارة أغار مع ابنيه عبد الرحمن وحبيب مع جماعة من فزارة الغطفانية على نوقٍ لَقاحٍ (حوامل ذات ألبان) كانت ترعى فى الغابة (موضع قرب المدينة) كان فيها رجل من بنى غفار وامرأته فساقوها وقتلوا

مسيرة الرسول إلى بنى لحيان

مسيرته إلى ذى قرد

الغفارى وأخذوا المرأه. وكان أول من علم بهم سلمة بن الأكوع كان ناهضا إلى الغابة، فاعتلى مكانا فرأى خيلهم، فصاح ناحية المدينة قائلا: واصباحاه، واشتد فى آثارهم، وأبلى بلاء عظيما واستنفذ كثيرا مما فى أيديهم، وبلغت صيحته الرسول، فصاح: الفزعَ، الفزعَ، فلبَّاه عشرة من الفرسان سريعا، ومضى معهم متجها إلى الغابة، وكان أول من لحق بهم مُحرز بن نَضْلة، فقتله عبد الرحمن بن عُيَيْنة بن حصن، وسدَّد إلى عبد الرحمن سلمة بن الأكوع سهما فقتله، وقتل أبو قتادة حبيب بن عيينة، وقتل عكاشة بن مِحْصن أوبارا وابنه عمرو قتلهما برمح انتظمهما، واستُردَّت أكثر النوق. وسار الرسول حتى نزل بذى قرد وتلاحق به المسلمون هناك، وأقام به يوما وليلة ونحر عنده ناقة من لقاحه المسترجعة، وعاد إلى المدينة. ونام المغيرون وقامت امرأة الغفارى فجعلت لا تضع شيئا على بعير إلا رغا، حتى أتت العَضْباء ناقة رسول الله، فوجدتها ناقة ذلولا، فركبتها ونذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنَّها، فلما قدمت المدينة عُرفت ناقة رسول الله ﷺ وأُخْبِر بذلك، فأرسل إليها، فجاءت مع الناقة، فقالت: يا رسول الله إنى نذرت إن نجَّانى الله أن أنحرها، فقال لها: بئس ما جزيتها، لا وفاء لنذر فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم. واستردَّ منها الناقة.

بعث عكاشة إلى الغمر

ثم كان بعث عكّاشة بن مِحْصن فى أربعين رجلا إلى الغمر (ماء لبنى أسد) فى شهر ربيع الأول بالسنة السادسة، وعرفوا ببعثه ففرُّوا وانتهى إلى عُلْيا ديارهم فلم يلق أحدا، وظفر بمائتى بعير وعاد.

بعث محمد بن مسلمة إلى ذى القصة

وفى نفس الشهر كان بعث محمد بن مسلمة فى عشرة من الصحابة إلى ذى القَصَّة – على بعد نحو عشرين ميلا من المدينة – يريد بنى ثعلبة من ذبيان فى ربيع الأول، فقاتلوهم وقتلوا تسعة منهم، وجُرح محمد بن مسلمة وحُمل إلى المدينة.

بعث زيد بن حارثة إلى العيص

وفى جمادى الأولى بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكبا إلى العيص على بعد أربعة أيام من المدينة إلى قافلة لقريش أخذت طريق

إجارة زينب لزوجها أبى العاص

العراق، فظفر بها زيد، وأسر أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ والمغيرة بن معاوية بن أبى العاص وقدم المدينة، واستجار أبو العاص بزينب، فخرجت إلى المسجد فى صلاة الصبح وأعلنت أنها أجارته، فقال الرسول: المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارت. وردَّ عليه كل ما أُخذ له من مال فسار إلى مكة وأدَّى إلى كلِّ ذى حقٍّ حقه، ثم قدم المدينة مهاجرا معلنا إسلامه، فردَّ الرسول عليه زينب. وأما المغيرة بن معاوية فأُسر وقال الرسول لعائشة: احتفظى بهذا الأسير، فلهت عنه مع امرأة بالحديث، فخرج وما شعرت به، ودخل الرسول ﷺ فلم يره، فسألها، فقالت: غفلت عنه، وكان ههنا آنفا، فقال لها: قطع الله يدك، وخرج فأرسل بناس فى أثره، فأتوا به، ودخل على عائشة وهى تقلّب يدها، فقال لها: مالك؟ قالت أنظر كيف تُقْطعُ يدى فقد دعوتَ على بقطعها، فاستقبل القبلة، ورفع يديه قائلا: اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعلها له رحمة.

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى خمسة عشر صحابيا إلى ناحية نخلة فى طريق العراق لاعتراض قافلة قرشية، وعاد منها بعشرين بعيرا دون قتال. وفى نفس الشهر اعترض الهنيد بن عارض وابنه عارض دحية الكلبى وأخذا ما معه وقدم على الرسول شاكيا فبعث معه زيد بن حارثة فى نفس الشهر المار فى طائفة من الرجال، فقدم على قبيلة جذام فى الشمال وقتل الهنيد بن عارض وابنه، واستاق ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومائة بين امرأة وصبى، وقدم زيد بن رفاعة الجذامى فى نفر على الرسول ﷺ مستغيثا به، فبعث معه علىّ بن أبى طالب ليرد زيد عليهم ما أُخذ منهم، فرد زيد ما أخذ.

وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فى سبعمائة إلى قبيلة كلب بدومة الجندل فى شهر شعبان، فأسلم سيدهم الأصبغ بن عمرو الكلبى وكان نصرانيا، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنته، وأبت كثرة القبيلة أن تدخل فى الإسلام وكانوا نصارى ففرض عليهم الجزية.

وفى شهر شعبان أرسل عليّ بن أبى طالب فى مائة رجل إلى بنى سعد بن بكر فى ناحية «فدك» وكانوا قد تحالفوا مع يهود خيبر، وعلموا به فتفرقوا وساق لهم خمسمائة بعير وألفى شاة، ولم ير منهم أحدا، وقَدِم المدينة.

الفصل السادس عشر

من غزوة بنى المصطلق
إلى عمرة الحُدَيْبِية

١

غزوة بنى المصطلق

بنو المصطلق فرع من خزاعة كان يسكن عند بئر يسمى المُرَيْسيع بالقرب من شاطئ البحر الأحمر بينه وبين المدينة نحو يوم ونصف، وبلغ الرسول ﷺ أنهم يعدُّون له مع سيدهم الحارث بن أبى ضِرار، وأنهم جمعوا لحربه من العرب جمعا كبيرا، فأعدَّ جيشا لحربهم، وخرج به فى شعبان من السنة السادسة للهجرة، وقاد الجيش ثلاثين فرسا عشرة منهم للمهاجرين وعشرين للأنصار سوى فرسين لرسول الله ﷺ ، وخرج مع الجيش كثير من المنافقين ليصيبوا من المغانم ولقرب المريسيع منهم.

الوصول إلى بنى المصطلق وأسْرهم

واتجه الرسول ﷺ بجيشه إلى المريسيع، وكان بنو المصطلق ومن معهم علموا بأن الرسول متجه بجيش إليهم، فتفرق عنهم من كانوا اجتمعوا إليهم من قبائل العرب وثبت بنو المصطلق مع سيدهم الحارث، وبالقرب من البئر ضُربت للرسول قبة من أدم وكان فيها معه من زوجاته عائشة وأم سلمة. وكان بنو المصطلق وسيدهم الحارث اصطفوا للقتال، فصفَّ الرسول أصحابه، فأمر عمر ابن الخطاب أن ينادى الحارث وبنى المصطلق قائلا: قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها

أنفسكم وأموالكم فأبوا، وأخذوا يترامون مع المسلمين بالنبال ساعة، وأمر الرسول المسلمين أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فلم يفلت منهم أحد، وقُتل منهم عشرة وأُسر سادتهم، وسُبيت النساء والذرية، وغُنمت إبلهم وأغنامهم.

وأمر الرسول ﷺ بالأسرى فكُتِّفوا واستعمل عليهم بُرَيْدة بن الحُصَيب، وأمر بجمع متاع بنى المصطلق وسلاحهم وإبلهم وأغنامهم وجعل على الخمس وأخماس المحاربين محمية بن جَزْء، وكان يعطى من الخمس اليتيم والمسكين والضعيف، وكانت الإبل ألفى بعير وكان الغنم ألفى شاة، وكان السبى مائتى أهل بيت.

زواج الرسول بجويرية بنت الحارث

وسارت بَرَّة بنت الحارث سيد بنى المصطلق فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فعرف أنها بنت الحارث، فكاتبها - لتحريرها - على ستٌ أواقٍ من ذهب، فبينما الرسول ﷺ فى قبة على الماء إذ دخلت عليه بَرَّة، تسأله العونَ فى كتابتها، وقالت له إنها ابنة الحارث سيد القوم وإنها امرأة مسلمة وتشهَّدت أى قالت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، واستعانته فى كتابتها، فأعجب بها وخطر له أن يؤدى عنها الأواقى الست لثابت ويتزوجها، فعسى أن يسلم أبوها وقومها إذا علموا بزواجها من الرسول وقبلت وتزوَّجها. وخرج الخبر إلى جيش المسلمين، فقال جنوده: أصهار الرسول وحرَّروا ما بأيديهم من الأسرى والسبى، وأسلم سائر بنى المصطلق، وهو ما كان أراده الرسول من زواجه ببرَّة التى سماها جويرية، وأصبح ذلك اسمها. وكأن عائشة لم تلتفت إلى غرض الرسول من زواجها، فظنت ظنا مخطئا أنه تزوجها لملاحتها وحسنها، إذ قالت فى خبر يُروى عنها أنها قالت: ماهو إلا أن وَقَفَتْ بباب الخِباء (القُبَّة) تستعين رسول الله ﷺ فى كتابتها، فنظرتُ إليها، فرأيت على وجهها ملاحة وحسنا، فأيقنت أن رسول الله إذا رآها، أعجبته، فما هو إلا أن كلمته، فقال لها رسول الله ﷺ: أوَخير من ذلك؟ أن أؤدى كتابتك وأتزوجك. ثم قالت عائشة: وما رأيت أعظم بركةً على قومها منها، فما هو إلا أن علم المسلمون أن رسول الله ﷺ تزوجها، فأعتقوا (فحرَّروا) ما بأيديهم من سَبْى بنى المصطلق، وقالوا: "أصهار رسول الله

ﷺ "، وأسلم جميع بنى المصطلق وردّ لهم جميع نسائهم وذريتهم. ومن العجب أن يأخذ بعض المستشرقين بكلمة عائشة الأولى وأن الرسول تزوج جويرية لحسنها، وهى كلمة قالتها بغريزة الغيرة، ولو كانوا منصفين لتحتم أن يأخذوا بكلمتها الثانية، وأن الرسول ﷺ إنما أراد بهذا الزواج تحرير الأسرى والسَّبْى من بنى المصطلق أملا فى اعتناقهم الإسلام وهو ما تحقق فعلا، فلم يكن هذا الزواج زواج شهوة إنما كان زواج مصلحة للإسلام أن يعتنقه بنو المصطلق.

تحرير بنى المصطلق وإسلامهم

وشئٌ مهم للغاية، هو أنه أراد أن لا يترك قبيلة بنى المصطلق، وقد أصبح رجالها جميعا رقيقا للمسلمين، مسترقا لهم، وتلك أول مرة تحدث له بحكم قانون الحرب عند العرب أن تتحول قبيلة برمتها إلى أرقّاء، وكأنما أنجدته جويرية ليخلص القبيلة برُمَّتها من الرِّق ويرد إلى كل أهلها ونسائهم حريتهم كاملة. ولم يكن يمكنه أن يحرِّم الرق إذ كان نظاما عالميا تأخذ به كل الأمم فى عصره، وقد حاول الإسلام تخفيف قوانينه، إذ جعله كفارة للمسلم عن ذنوبه الكبيرة والصغيرة كالحنث فى اليمين. وقد ردّ زواج الرسول بجويرية حرية قبيلتها إليها وكسب الإسلام قبيلة من قبائل خزاعة.

وفى وسط هذا الابتهاج بإسلام بنى المصطلق ورد حريتهم إليهم وأموالهم، والناس يستقون من بئر المُرَيسيع، إذ أقبل سنان بن وبر الجهنى - حليف الخزرج - يستقى من الماء، فأدْلَى دلوَه، وأقبل جهجاه بن مسعود الغفارى - أجير عمر ابن الخطاب - فأدْلَى دلوَه، والتبس الدلوان، وتشاجر سنان وجهجاه، وضرب جهجاه سنانا، فسال الدم، ونادى سنان: يا للخزرج، ونادى جهجاه: يا لقريش، وأقبل الخزرج والمهاجرون وكادت تقع فتنة ولكن الله سلم.

مقالة ابن أُبَىّ وتبرؤ ابنه منه

وكان عبد الله بن أُبَىّ المنافق حاضرا الحادث فى جمع من أصحابه المنافقين، فقال: والله ما رأيت كاليوم مذلة، لقد كاثرنا المهاجرون فى بلدنا وانكروا منّتنا، والله ما صرنا وجلابيب (رجال) قريش إلا كما قال القائل: سَمِّن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز (يريد الأنصار) منها الأذل

(يريد المهاجرين). وشاع قوله، وبلغ الرسول ﷺ. وتبرأ ابنه عبد الله من فعله، وأتى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله أنت الأعز وهو الأذل. وقال سعد ابن عبادة: يا رسول الله إن هذا الرجل يحمله حسده على النفاق، ولقد كان قومه اتفقوا على أن يتوّجوه بالخرز قبل قدومك المدينة ويقدّموه على أنفسهم، فهو يرى أنك نزعت ذلك منه، وقد أظهر الإيمان فكِلْه إلى ربّه. وقال ابنه عبد الله: يا رسول الله إن أمرتني بقتله لأقتلنّه، فإني أخشى - يا رسول الله - إن قتله غيرى أن لا أصبر عن طلب الثأر، فأقتل به مسلما فأدخل النار، وقد علمت الأنصار أنى من أبَرِّ أبنائها بأبيه، فقال له رسول الله ﷺ: برَّ أباك ولا يرى منك إلا خيرا، ودعا له. وفي عبد الله بن أبي وجماعته من أهل النفاق نزلت سورة (المنافقون) وفيها يردّ الله على ابن أبي قوله السالف: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. ولما وصل رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة وقف عبد الله لأبيه عبد الله بن أُبَيّ في الطريق، وقال له: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك الرسول ﷺ بدخولها فأذن له متلطفا.

٢

حادث الإفك والبهتان

كانت عائشة مع الرسول ﷺ في غزوة بني المصطلق وأخذ مع جيشه الطريق إلى المدينة، وباتوا ليلة فيه قبيل مرحلة من المدينة، وأُذّن في الناس بالرحيل فأسرعت عائشة إلى الخلاء لقضاء بعض حاجتها، وعادت والهودج موضوع أمام خيمتها لرحيلها فيه، وقد لاحظت أن عقدها النفيس الذى وضعته حول عنقها انسلّ منها دون أن تشعر، فرجعت أدراجها تبحث عنه دون أن تذكر لأحد أنها عائدة لالتماسه. وظلت تلتمسه في غبشة الصبح بين الحصى والعشب حتى وجدته، ورجعت لتستقلّ هودجها وتلحق القافلة، فلم تجد الهودج، إذ أن

المكلّفين برفعه إلى بعيرها ظنوها فيه،ورفعوه وانطلقوا به مع القافلة. فرأت أن تظل في مكانها حتى إذا افتقدوها سريعا رجعوا إليها، ورقدت في انتظارهم. وكان صفوان بن المعطل السلمي تخلف عن القافلة لقضاء حاجته، فلما مر بها عرفها، فنزل عن بعيره وأناخه لها، فركبت وقادها حتى منزلها في المدينة.

موقف عبد الله ابن أُبَيّ

ولما رأى الناس عائشة تعود مع صفوان أخذ بعض أصحاب الظن السيء يلوكون مسيرتها وانتهز الفرصة عبد الله بن أُبَيّ والمنافقون جميعا، فجعلوا يذيعونه شفاء لما في نفوسهم من غيظ وحقد على الرسول، واشترك في إذاعته ونشره في الناس مع المنافقين مِسْطح بن أثاثة القرشي وحَمْنة بنت جحش أخت زينب أم المؤمنين حملتها على ذلك الغيرة لأختها من عائشة لتفضيل الرسول لها على أختها، وساعدها في هذا الظن السيء حسّان بن ثابت.

الكيد للرسول وعائشة وأبيها

وما كان لهذا الظن الخبيث أن يكون، وعائشة دخلت المدينة عقب دخول الرسول والجيش المدينة، فلم يكن بين دخولها المدينة ودخول الرسول والجيش المدينة وقت يسمح بأن يقوم في بعض النفوس مثل هذا الظن، غير أن الحقد الدفين على الرسول ومحاولة الكيد له بهذا الاتهام لزوجته عائشة الطاهرة المطهرة؛ وهو ليس كيدا له وحده بل هو كيد أيضا لعائشة أحب زوجاته إليه وإلى أبيها أبي بكر الصديق الساعد الأيمن للرسول. وبلغ هذا البهتان الرسول ، واضطرب له اضطرابا شديدا، وأخذ يسائل نفسه أيعقل أن تخونه هذه الزوجة الوفية المملوءة له حبا وتجلّة بنت من؟ بنت أبي بكر الصديق أكبر شخصية نفعت الرسول والإسلام وعاشت له وعاشت به، وتفانت فيه، وتلك فتاته تحمل للرسول وللإسلام إخلاصا لا يماثله إخلاص، ومع ذلك يأبى المنافقون وضعاف النفوس إلا أن يلفظوا باسمها ويحاولوا إلحاق الدنس بها، كَبُرَتْ كلمات تخرج من أفواههم، ما يقولون إلا بهتانا وكذبا.

وكانت عائشة قد مرضت مرضا شديدا عقب عودتها، ولم يبلغها أحد شيئا من هذا الإفك عليها لما يعلمون من أنه محض افتراء، ولاحظت أن الرسول ﷺ لا

يحنو عليها كعادته، ولا ترى منه اللطف الذى كان عوّدها إياه حين تشتكى، إنما يدخل عليها فيسلّم، ثم يقول كيف تيكم أى كيف هذه؟ ثم ينصرف، وكان ذلك يدخل عليها الريب، وظنت أن زواجه بجويرية بنت الحارث هو الذى غيَّره وأنها حلّت من حبه محلها، فصبرت. وزارتها قريبتها أم مسطح، وكانت تظن أنها علمت ما يلوكه ابنها مسطح عنها، فقالت: تَعِس مسطح، فقالت لها عائشة: بئس ما تقولين أتسبين رجلا شهد بدرا؟ فقالت لها: أَوَلَمْ تسمعى ما قاله؟ ثم أخبرتها بما يقوله عنها هو وأصحابه من أهل الإفك والبهتان، فازدادت مرضا على مرض، ودخل عليها رسول الله ﷺ وكعادته سلّم ثم قال: كيف تيكم، فقالت له: أتأذن أن آتى أبوىّ؟ وهى حينئذ تريد أن تستيقن منهما الخبر، فأذن لها رسول الله ﷺ فجاءت أبويها، وسألت أمها قائلة يا أمى ما هذا الذى يتحدث به الناس، قالت: يا بُنيّتى هوّنى عليك، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها الكلام، فقالت: سبحان الله، وبكتْ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم. وتذكرت جفاء الرسول ﷺ بعد ما كان من ودّه ولطفه معها، ولكن ماذا تفعل؟ هل تقسم له أنها بريئة؟ وهل سيصدقها؟ وتوسّلت إلى الله أن يلهمها ما تقنعه به حتى يعود إليه حبه لها ومودته وعطفه.

عائشة تعلم بالإفك

واحتار الرسول ماذا يفعل، وكان الوحى تأخر عنه شهرا فعمد إلى استشارة بعض من حوله، ولم يستشر أبا بكر ولا فاتحه بشئ، واستشار عمر فقال له: من زوَّجها لك يا رسول الله؟ قال الله تعالى، فقال عمر: أتظن أن الله دلّس عليك فيها سبحانك هذا بهتان عظيم، وسأل أسامة بن زيد فقال له: هذا الباطل والكذب، ولا نعلم إلا خيرا، وسأل على بن أبى طالب فقال له: لم يضيِّق الله عليك والنساء كثير، وقد أحلّ الله لك وأطاب، ففارقها وتزوج غيرها، وإن تسأل الجارية بريرة تصدقك، فدعا بريرة، وقال لها: هل رأيت من عائشة شيئا يريبك؟ فقالت له: والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أعيبه عليها أكثر من أنها تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله. وسأل زوجته زينب بنت

الرسول يستشير أصحابه

جحش، فقالت: حاشا سمعي وبصرى ما علمت إلا خيرا، والله ما أكلمها وإنى لمهاجرتها وما كنت أقول إلا الحق. وسأل أم أَيْمَن، فقالت حاشا سمعي وبصرى أن أكون علمت أو ظننت بها إلا خيرا.

تبرئة الرسول عائشة

وصعد الرسول ﷺ المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: من يَعْذرنى فى رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى (يريد عبد الله بن أُبَـىّ) فوالله ما علمت عن أهلى إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا (يريد صفوان بن المعطّل) ما علمت عنه إلا خيرا، وما كان يدخل علىَ أهلى إلا معى. فقام أُسَيْد بن حُضَير الأوسى فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس آتيك برأسه، وهو يعلم أنه يريد عبد الله بن أُبىّ من الخزرج، ثم قال أُسَيْد: وإن يك من إخواننا الخزرج فمُرْنا بأمرك يمضى لك، فغضب سعد بن عبادة سيد الخزرج، وقال له: كذبت لأنه جعل الحكم فى الخزرج لنفسه، وكأنه استشعر العصبية الجاهلية التى حاربها الإسلام، وكادت تكون فتنة، فأشار الرسول بيده إلى الأوس والخزرج أن لا يتشاجروا ونزل عن المنبر، فهدّأهم حتى انصرفوا.

محاورة الرسول عائشة

تقول عائشة: وأصبح أبواى عندى، وقد بكيت ليلتين لا أكتحل بنوم ولا يجفّ لى دمع، وبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت علىَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى، وبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندى منذ قيل عنى ما قيل، وقد لبث شهرا لا يوحَى إليه شئ فى شأنى، وتشهّد، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فيبرّئك الله، وإن كنت ألممت بشئ مما يقول الناس، فاستغفرى الله عزَّ وجلَّ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه. فقالت لأبيها: أَجِبْ عنى رسول الله، قال: والله ما أدرى ما أجيب به عنك. فقالت لأمها أجيبى عنى، فقالت: والله ما أدرى ما أجيب به. فقالت عائشة: إنى – والله – قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع فى أنفسكم، فصدَّقتم به فإن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أنى منه بريئة لتُصَدِّقُنّى. وإنى والله ما أجد لى مثلا إلا أبا يوسف (يعقوب)

إذ يقول حين قالوا له كذبا إن أخانا يوسف أكله الذئب وجاءوا له بقميص له ملطخ بالدم بهتانا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ قالت: ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي وأنا أعلم أنى بريئة ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يُتْلَى.

وغشى رسول الله ﷺ ما كان يغشاه حين ينزل عليه الوحى وغُطّى بثوبه وجُمعت وسادة من أدم تحت رأسه، وأخذه ما كان يأخذه من بُرحاء الحُمّى وشدة الكرب، حتى إن العرق لينحدر منه مثل الجُمان وكان اليوم شاتيا، وذلك من ثقل الوحي الذى ينزل عليه. قالت: فلما سُرِّى عنه ابتسم وكانت أولى كلمة تكلم بها: يا عائشة إن الله قد أنزل براءتك، فقالت أمى: قومى إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله. وأنزل الله فى الإفك وأصحابه آية سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما أرفق به من تشريع ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أى إثمه الكبير ﴿مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عبد الله بن أُبَىّ كبير المنافقين.

تبرئة الوحي عائشة

وكان الرسول قد أصبح فى عودته من بنى المصطلق على غير ماء، فأنزل الله رخصة التيمُّم بالتراب حين يُفقد الماء، كما فى الآية السادسة من سورة المائدة.

وكان أبو بكر ينفق على ابن خالته: مِسْطح بن أُثاثة، وكان من فقراء المهاجرين، فلما سمع بخوضه فى قصة الإفك والبهتان على عائشة حلف أن لا ينفق عليه. ولما تاب من صنيعه السيئ تاب الله عليه، وتاب رفقاؤه، وتاب الله عليهم. وظل أبو بكر غاضبا عليه، فأنزل الله عقب حديثه عن إفك عائشة: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ﴾ أى لا يحلف ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ والمراد أبو بكر وكان من أولى الفضل والخير والثراء ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى﴾ أى يعطوا ذوى الرحم، والمراد مِسطح بن أثاثة ﴿وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ

الله﴾ وكان مسطح من هؤلاء المهاجرين وممن حارب المشركين فى غزوة بدر ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ وهى دعوة صريحة لأبى بكر أن يعفو ويصفح عن مسطح، وأكّدها بقوله: ﴿أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ولما سمع أبو بكر الآية أجاب ربَّه: بَلَى إنى أحبُّ أن يغفر الله لى، ورجع إلى مسطح ينفق عليه وعلى أهله وكفّر عن يمينه وقَسَمه. وعفا الرسول ﷺ بدوره عنه وعن حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت جميعا، وأيضا عن عبد الله بن أُبَىّ.

عفو أبى بكر عن مسطح

٣

بعوث للرسول

كان أولَ بعث منها بعث لزيد بن حارثة فى رمضان من السنة السادسة، وكان خرج فى تجارة إلى الشام ومعه عروض أو بضائع لبعض الصحابة، فهجم عليه وعلى من معه عند وادى القرى عشيرة حذيفة بن مدر الفزارية فضربوه هو ومن معه ضربا مبرّحا وأخذوا ما كان معهم، وتحامل حتى قدم المدينة. وشكى للرسول ما صنعته به العشيرة البدوية الفزارية، فبعثه الرسول إليهم فى نفر من الصحابة، فكانوا يكمنون لها نهارا ويسيرون بالليل الداجى وصبحوهم يوما وأحاطوا بهم، وقتل سلمة بن الأكوع رجلا منهم وسبى جارية بنت مالك بن حذيفة وأمها أم قرفة، ويقال بل قتل أم قرفة قيس بن المجسّر قتلا عنيفا، وكان يُضرب بها المثل فى المنعة والعزّة، فيُقال أمنع من أم قرفة وأعزّ من أم قرفة، وكانت بنت عم زوجها مالك بن حذيفة سيد بنى فزارة، وكانت أسرتها أشرف أسرة فى القبيلة، ويقال إنه كان يعلّق فى بيتها خمسون سيفا لخمسين فارسًا، كلهم لها مَحْرَم. وكانت تسبُّ رسول الله وتكثر من سبه، فنالت على يد قيس بن المجسّر جزاءها وافيا.

بعث لعشيرة حذيفة بن بدر الفزارية

بعث ابن رواحة إلى أسَيْر ابن رزام

وبعث ثان فى شوال من السنة السادسة اختار الرسول قائده عبد الله بن رواحة إلى أُسَير بن رِزَام أمير اليهود بخيبر، وكان قد أرسله فى ثلاثة نفر إليه فى رمضان قبل ذلك لينظر أمور خيبر ويعرف ما يتكلم به أهلها عن رسول الله، فوعى ذلك وعاد مع صحبه بعد ثلاثة أيام، وأخبر الرسول ﷺ بما ندبه إليه. وكان أسَير يعدُّ لحرب الرسول، وذهب إلى غطفان يحرِّضها على الاشتراك مع يهود خيبر فى حربه، وعلم بذلك الرسول ﷺ فبعث إليه فى شوال عبد الله بن رواحة فى ثلاثين رجلا، فقدموا خيبر، وبعثوا إلى أسير أن يؤمِّنهم لأنهم يحملون إليه رسالة من الرسول فأمَّنهم، وأتوه، فقالوا له: إن رسول الله بعثنا إليك أن تخرج إليه ليستعملك أميرا على خيبر ويحسن إليك، فطمع فى ذلك، وخرج معهم فى ثلاثين رجلا من اليهود. وفى أثناء الطريق ندم أُسَير على خروجه مع ابن رواحة وأصحابه، وعُرِف ذلك منه، إذ همَّ بقتل عبد الله بن أُنَيْس أحد رجال ابن رواحة. وأسرع ابن أنيس فسلَّ سيفه وقتله، ومال أصحاب ابن رواحة على من معه فقتلوهم إلا رجلا واحدا فرَّ منهم ولم يُصب أحد من المسلمين. وقدموا المدينة، وأخبروا الرسول ﷺ بما حدث، فقال: نجَّاكم الله من القوم الظالمين، ودعا لعبد الله بن أنيْس.

بعث كرز بن جابر فى إثر العرنيين

وبعث ثالث جعل عليه الرسول ﷺ كُرْز بن جابر الفهرى القرشى فى عشرين فارسا بشهر شوال أيضا، وذلك أن ثمانية رجال من قبيلة عُرَيْنة قَدِموا على الرسول ﷺ فأسلموا، وأقاموا بالمدينة، فاستوخموها وشكوا الوجع من الطِّحال، فأمر الرسول ﷺ بنقلهم إلى لقاحه (نوق ذوات لبن) وكانت ترعى بذى الجَدْر - ناحية قرب قُباء على بعد ستة أميال من المدينة - وظلوا هناك حتى صحُّوا وسمنوا، فغدوا على اللقاح فاستاقوها. وأدركهم يسار مولى الرسول ومعه رجال فقاتلهم فأخذوه فقطعوا يده ورجله ومثَّلوا به إذ غرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات. ورأته امرأة أنصارية من بنى عمرو بن عوف ملقى تحت شجرة فأخبرت قومها، فخرجوا إليه وجاءوا به إلى قباء. فبعث الرسول ﷺ فى إثر العرنيين كُرْز بن جابر الفهرى القرشى فى عشرين فارسا، فخرجوا فى طلبهم

فأدركوهم وأحاطوا بهم وأسروهم جميعا، واركبوهم خلفهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة، وأتوا الرسول ﷺ بهم، فقطّعت أيديهم وأرجلهم، ومُثّل بهم فسُملت (فُقئت) أعينهم، وصُلبوا، ونزلت آية سورة المائدة تؤذن بالصلب وقطع الأيدى والأرجل، وتنهى عن التمثيل بالقتلى، وهى قوله جَلَّ شأنه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولم تُسْمل بعد ذلك عين لقتيل من أعداء الله ورسوله، ولم يبعث الرسول ﷺ بعثا إلا نهاهم عن المُثلة. ولما ظفر المسلمون بلقاح الرسول جعلوا عليها سلمة بن الأكوع، وكانت خمس عشرة لقحة ذات لبن غزير، ورُدَّت إلى مَرْعاها فى ذى الجَدْر. وكان سلمة بن الأكوع يروح منها إلى رسول الله ﷺ كل ليلة بوَطْب لبن، وهو سقاء من جلد خاص باللبن.

٤

عمرة الحُدَيْبية

صعدت مكانة الرسول بعد غزوة الأحزاب، وصدق حَدْسه أن قريشا لن تفكر فى غزو المدينة بعدها، إذ عرفت أن ذلك أمر بعيد وغير ممكن. وكان الرسول ﷺ مشغولا بها وكيف تستجيب له وتدخل فى الإسلام، وكان يستبعد فكرة اجتياحها وإباحتها حربيا لأن بها بيت الله، والعرب من أجل قيامها عليه تعظمها. وطرأت له فكرة أن يعلن أنه هو وأصحابه ذاهبون إليها للعمرة وزيارة بيتها أو كعبتها المقدسة التى يتجه إليها هو وأصحابه خمس مرات فى صلاتهم بكل يوم، ورأى فى النوم أنه دخل الكعبة وحلق رأسه – كما يصنع الحجاج والمعتمرون – وأخذ مفتاح الكعبة، ووقف بعرفات مع الواقفين. وكانت هذه الرؤيا فى شوال من السنة السادسة للهجرة، فصمم على تحقيق هذه الرؤيا، رؤيا الرسول

وأبلغها الصحابة، وكثيرون منهم كانوا يتمنونها وخاصة المهاجرين الذين اشتاقوا إلى رؤية بلدهم وحُرموا من الطواف حول الكعبة منذ ست سنوات بل تزيد.

الخروج إلى العمرة

واستنفر الرسول المهاجرين والأنصار لأداء العمرة، واستجاب لاستنفاره بعض الأعراب ممن ينزلون حول المدينة. وفى هلال ذى القعدة أو فى أوائل هذا الشهر خرج متجها إلى مكة فى عدد كبير يتراوح بين ألف وثلاثمائة وألف وخمسمائة، وأخرج معه الهَدْى إلى الكعبة وهو ما يضحَّى به عندها، وكان سبعين ناقة وبعيرا، وركب راحلته القصواء من عند بابه، وخرج معه المسلمون، وصلّى الظهر بذى الحُلَيْفة: ميقات أهل المدينة، ودعا بالهَدْى فَجُلِّل بإلقاء بُرْدٍ أو ثياب عليه، وأشعر منها عدة، وذلك بأن يُشَقّ فى جلدها أو تُطْعَن فى سَنامها فى أحد الجانبين بمبضع حتى يظهر الدم، وكانوا يجعلون فى أعناق الهَدْى قلائد من عروة مزادة ونحوها؛ كل ذلك ليعرف أنها هَدْى مُهْدًى إلى الكعبة، وأنه لم يخرج لحرب قريش وإنما للعمرة أو زيارة الكعبة. ثم أحرم ولبس ثوب الإحرام المكوَّن من رداء وإزار أبيضين خاليين من الخياطة، ويمتنع المحرم من الاتصال بالزوجة والعطور كما يمتنع عن أى شجار. وكان قد أمر المسلمين منذ خروجهم معه أن لا يلبسوا الدروع وأن لا يكون معهم سلاح سوى السيوف مُغْمدة فى القُرب لأنهم لا يخرجون لحرب وإنما لزيارة الكعبة. وأخذ الرسول وأصحابه يقولون للناس إننا ما خرجنا إلا لأداء العمرة. وأحرم الرسول ﷺ وصلّى ركعتين وركب من باب المسجد بذى الحُلَيْفة. ولما انبعثت به ناقته لبَّى قائلا: "لَبَّيْك اللهم لَبَّيْك، لَبَّيْك لا شريك لك، لَبَّيْك إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك". وأحرم عامة المسلمين بإحرامه.

إحرام الرسول وأصحابه

وبلغ قريشا خروج الرسول ﷺ ،ففزعوا وتشاوروا وقدموا خالد بن الوليد – وقيل عكرمة بن أبى جهل – على مائتى فارس إلى كُراع الغميم (موضع قريب من مكة بين رابغ والجُحْفة) واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش (وهم جماعة تحالفوا مع قريش فى الجاهلية: أنهم يَدٌ معهم على من سواهم عند جبل يسمى حُبْشِيّ، فسمُّوا أحابيش قريش) وصاحت معهم ثقيف، ووضعوا العيون

على الجبال، وهم عشرة رجال يوحى بعضهم إلى بعض بالصوت: فعل محمد كذا وكذا حتى ينتهى الصوت إلى قريش، وكانوا قد خرجوا إلى ضاحية بمكة، اسمها بلدح، وضربوا بها القباب والخيام ومعهم النساء والصبيان ، فعسكروا بها، وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربته. وكان الرسول قد أرسل يسر بن سفيان ليأتيه بخبر قريش، فأخبره بما صنعوا، واستشار رسول الله ﷺ أصحابه، فأشار أبو بكر بأن يمضوا ويقاتلوا من صدَّهم عن الكعبة، وقال أُسَيْد بن الحُضَيْر: يا رسول الله، أرى أن نصمد لما خرجنا له، فمن صدَّنا قاتلناه. فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نخرج لقتال أحد، إنما خرجنا لأداء العمرة.

وبلغ الرسول وصحبه عسفان: منهلة بين الجحفة ومكة، وعرف أن خالد ابن الوليد دنا منهم، فقدَّم رسول الله ﷺ عباد بن بشر في خيله، فقام بإزائه وصفَّ أصحابه. وحانت صلاة الظهر، فأذَّن بلال وأقام، وصلَّى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الظهر، ونزلت آية صلاة الخوف حينئذ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، ومرَّ بنا أن رسول الله ﷺ صلَّى صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع، وربما كان هذا أثبت. وخشى الرسول ﷺ أن تنشب حرب بين خالد وخيله وعباد بن بشر وخيله، فنادى: هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم؟ وخرج به وبصحبه الأدلاء فى طريق وعر يتلوى فى شبكة من شعاب صخرية، وباتوا فى الطريق، وصلى الرسول ﷺ الصبح، وساروا حتى دنا من الحديبية فى طرف الحرم على بعد تسعة أميال من مكة (وقيل عنها إنها شجرة حَدباء سمِّيت حديبية على التصغير وسمِّى بها المكان وكانت شجرة طلح).

بديل بن ورقاء أول سفير لقريش

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية أخذت تَفِد عليه رسل وسفراء من قريش، وكان أول من أرسلوه إليه بُدَيل بن وَرْقاء الخزاعى فى نفر من قومه – وكانت خزاعة أهل مودة للرسول ﷺ – ليعرفوا مقصده. وسلَّم بُدَيل على

الرسول، ثم قال له: جئناك من عند قومك، قد استنفروا لك عشائر الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العوذ المطافيل (يُكنى بذلك عن النساء والأولاد، وكانوا قد عسكروا خارج مكة كما أسلفنا). ويستمر بُدَيْل فى حديثه إلى الرسول قائلا: إنهم يقسمون بالله لا تدخلها عنوة ولا يُخَلُّون بينك وبين البيت، حتى تبيد خَضْرَاؤهم (جماعتهم). فقال الرسول ﷺ : إنا لم نأت لقتال أحد، إنما جئنا لنطوف بالبيت، فمن صدَّنا عنه قاتلناه. وعاد بديل إلى قريش، واختلفوا هل يسمعون منه ما قاله الرسول أو يرفضون ذلك، وغلب من قالوا له: نسمع ما جئت به. فقال لهم ما سمعه. وتشكَّكت قريش فى صدقه لأنهم يعرفون أن خزاعة تميل إلى الرسول، فأرسلوا إلى الرسول عروة بن مسعود الثقفى أحد سادة ثقيف، وكان قد جاء مع جماعة من قومه لعون قريش، فقال له: يا محمد إنى تركت قومك فى عدد ضخم إذ استنفروا لك الناس، وهم يقسمون بالله لا يُخَلّون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين: إما أن تجتاح قومك، ولم نسمع برجل اجتاح قومه قبلك، وإما أن يخدعك من نراه معك، وما نرى معك إلا أوباشا (أخلاطا) من الناس. ولما فرغ من كلامه ردَّ عليه رسول الله ﷺ بما ردَّ به على بُدَيل، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا. ورجع عروة إلى قريش فقال: قد وفدت على كِسْرَى وهِرَقْل والنجاشىّ وإنى – والله – ما رأيت ملكا قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيهم من محمد فى أصحابه، والله ما يُحِدّون إليه النظر ولا يرفعون عنده الصوت .. وقد رأيت قوما لا يبالون ما يُصْنَعُ بهم إذا منعوا صاحبهم وما كانوا ليسلموه أبدا، اقبلوا ما عرض فإنى لكم ناصح، رجل أتى هذا البيت معظّما له مع الهَدْى يَنْحَرُهُ وينصرف. فقالوا له: لو غيرك تكلم بهذا، ولكن نردُّه فى عامنا هذا ويرجع إلى قابل.

عروة بن مسعود سفير ثان

وأرسلت قريش إلى الرسول غير شخص تتثبَّت من أنه لم يجئ لحرب، وممن بعثوا إليه الحُلَيْس بن علقمة سيد الأحابيش ورأسهم، فقال رسول الله ﷺ حين رآه من بعيد: هذا من قوم يعظّمون الهَدْى فابعثوا الهدى فى وجهه، فبعثوه، فلما رأى الهَدْىَ يسيل فى الوادى عليه القلائد، واستقبله القوم يُلَبّون، رجع ولم يصل

إلى الرسول إعظاما لما رأى، وقال لقريش: إنى قد رأيت ما لا يحلّ صَدُّه، رأيت الهدى فى قلائده معكوفا (محبوسا) عن مَحِلّه، أما والله ما على هذا حالفناكم ولا عاقدناكم على أن تصدوا عن بيت الله من جاء له معظّما لحرمته ومؤدّيا لحقه، والهَدْى معكوفا (محبوسا) أن يبلغ محله، والذى نفسى بيده لتُخَلُّنَّ بينه وبين ما جاء له أو لأَنْفِرَنَّ بالأحابيش نفرةَ رجل واحد. فقال له نفر من قريش: كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه، فاكْفُفْ عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به.

الرسول يرسل إلى قريش عثمان سفيرا

ولما رأى الرسول ﷺ أن قريشا متشككة أنه جاء لحرب ولم يجئ لأداء العمرة، صمَّم أن يُرسل إليهم سفيرا من لدنه ليطمئنهم وعرض ذلك على عمر ابن الخطاب، فأشار عليه أن يُرسل عثمان بن عفان، وعمل بمشورته فأرسل إلى قريش عثمان ليخبرهم أن الرسول وأصحابه لم يأتوا لقتال أحد، وإنما جاءوا زُوَّارًا للبيت، ومعهم الهَدْى ينحرونه ويطوفون بالبيت وينصرفون. وعرض عليهم عثمان ما قاله الرسول، فأبوا أن يدخل مع أصحابه والهدى مكة ويطوفوا بالبيت، ورحَّب به أبان بن سعيد بن العاص وأجاره، وقالوا جميعا: لا يدخل محمد علينا أبدا. ولما أبلغهم عثمان رسالته قالوا له: إن شئت طفت بالبيت فطُفْ، فقال لهم: ما كنت لأطوف بالبيت حتى يطوف به رسول الله، واحتبسته قريش عندها ثلاثة أيام، وبعثت أربعين ليصيبوا غرَّة من المسلمين فظفر بهم محمد بن مسلمة وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ .

بيعة الرضوان

ولما لم يرجع عثمان سريعا من لدن قريش راجت إشاعة أنه قُتل وقُتل معه عشرة من المسلمين كان الرسول أذن لهم فى رؤية أهلهم من قريش. وأرسلت قريش جماعة فى إثر رجالهم الذين أسرهم محمد بن مسلمة فأسر المسلمون منهم اثنى عشر فارسا. وتأثر الرسول ﷺ لما تكرر على سمعه من قتل عثمان، فدعا إلى البيعة فى حرب قريش ثأرا لعثمان، فبايعه المسلمون وهو قائم تحت شجرة وارفة الظلال، ونزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، ولذلك سمِّيت بيعة الرضوان. وأخذ المسلمون فى ذهابهم إلى

الحج يصلُّون عند هذه الشجرة، فأمر عمر فى خلافته بقطعها خشية أن تصبح مثل ذات أنواط (شجرة كان يقدسها الجاهليون). وعاد عثمان والمسلمون الذين كانوا يزورون أهلهم وأطلق الرسول سراح من أسرهم المسلمون من قريش.

المفاوضات بين الرسول وقريش

ولما ثبت لقريش أن الرسول ﷺ إنما أتى لأداء العمرة أرسلت مع عثمان إليه سهيل بن عمرو ليفاوضه فى تأجيل أدائها إلى العام القادم حتى لا يظن العرب أنه دخل مكة عنوة وقهرا لقريش فتسقط مكانتها بينهم، وكان مع سهيل حُوَيْطب بن عبد العُزَّى ومِكْرز بن حفص. واستقبلهم الرسول ﷺ وأخذ سهيل يعرض عليه أن يعود إلى أداء العمرة فى العام القادم ويقيم بمكة ثلاثة أيام، وكان الرسول جالسا متربعا وسهيل باركا على ركبتيه رافعا صوته والمسلمون جلوس حول الرسول، وأطال سهيل والرسول الكلام، وقبل الرسول عرض قريش. حينئذ وثب عمر وقال: يا رسول الله ألسنا بالمسلمين؟ فقال الرسول ﷺ : بلى. فقال عمر: فعلامَ نُعطى الدنيَّة فى ديننا؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيِّعنى. وذهب عمر إلى أبى بكر فسأله ألسنا مسلمين؟ قال أبو بكر: بلى. قال عمر: فلمَ نعطى الدنيَّة فى ديننا؟ فأخذ أبو بكر يراجعه، وقال له أبو عبيدة: اتهم رأيك ولا تخالف رسول الله. فسكن عمر، وسكن من كانوا على رأيه.

وبينما الناس يتحدثون عن الصلح وقبل أن تكتب المعاهدة أقبل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو وقد أفلت من سجن أبيه له لإسلامه، وكان يَرْسُف فى قيده، وفرح به المسلمون، ورآه أبوه سهيل فقام إليه فضرب وجهه بغُصْن شوك وأخذ بتلابيبه، فصاح أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ وقال سهيل للرسول: رُدَّه علىَّ. فقال له الرسول: إنا لم نكتب المعاهدة بعد. فقال سهيل: والله لا أكاتبك على شئ حتى تردَّه إلىَّ. وتدخَّل حويطب ومكرز فأجارا أبا جندل فكفَّ عنه أبوه، وقال له الرسول: اصبِرْ واحتسبْ فإن الله جاعل لك فَرجًا ومخرجًا.

معاهدة الصلح

وحضرت الدواة والصحيفة، وطلب سهيل أن يكتب المعاهدة أو كتاب الصلح عليٌّ أو عثمان بن عفان، فأمر الرسول ﷺ عليًا بالكتابة، وقال له: أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف الرحمن، اكتب كما نكتب: باسمك اللهم. وقال الرسول ﷺ لعليٍّ: اكتب باسمك اللهم، هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك أفترغب عن اسمك واسم أبيك: محمد بن عبد الله؟ فقال الرسول ﷺ: أنا محمد بن عبد الله فاكتب يا على. فكتب:

"باسمك اللهم هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسُهَيْل بن عمرو اصطلحا على وَضْع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكفّ بعضهم عن بعض. على أنه لا إسلال (أى غارة بسلّ السيوف) ولا إغلال (خيانة) وأن بيننا عيبة مكفوفة (أى عهدا معقودا على الوفاء نقيا من الغدر والخداع). وأنه من أحبَّ أن يدخل فى عهد محمد وعَقْده فعل، وأنه من أحبَّ أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل. وأنه من أتى محمدا منهم بغير إذن وليّه رده محمد إليه، وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لا يردوه. وأن محمدا يرجع عنا عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا من قابل فى أصحابه، فيقيم بها ثلاثا، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر: السيوف فى القُرُبِ".

أمر الرسول بالنحر والإحلال

ولما فرغ الرسول من المعاهدة أو كتاب الصلح وانطلق سهيل بن عمرو وصاحباه، قال الرسول ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا الهَدى وأحلقوا رءوسكم وحِلّوا (أى اخرجوا من الإحرام) فلم يجبه أحد إلى ذلك، فكرَّرها ثلاث مرات فلم يفعلوا. ودخل على زوجته أم سلمة مغضبا، وسألته عن سبب غضبه فقال لها: إنى قلت للناس انحروا واحلقوا وحِلّوا مرارا، فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك، فأشارت عليه أن ينطلق إلى هديه فينحره فإنهم سيقتدون به. فقصد إلى هديه، فنحره رافعا صوته: باسم الله، والله أكبر، فتواثب المسلمون ينحرون هديهم. ولما رجع من نحر الهدى حلق رأسه وأذن بتقصيره.

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأتاه أبو بصير الثقفى مسلما فارًا من قريش، فأرسلت إلى الرسول ليردّه عليها كما تقضى بذلك المعاهدة فردّه إليها مع رجلين بعثتهما فى طلبه. وفى أوائل الطريق إلى مكة طلب أبو بصير من أحدهما سيفه ليراه فأعطاه له فقتله به وفرّ الثانى. وبينما هو يشكوه إلى الرسول ﷺ وصل أبو بصير إلى الرسول، وعرف أنه سيرده إلى قريش، فخرج موليا وجهه إلى ساحل البحر ليقطع طريق الشام على قريش، وانضم إليه بعض المسلمين الفارّين عن قريش منهم أبو جندل بن سُهَيل، فجعلوا لا يتركون لقريش عيرًا ولا تجارة إلا أغاروا عليها، فكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ أن يضمهم إليه فى المدينة فقد آذوهم. وبذلك أسقطوا شرط أن من يذهب إليه يجب ردّه إليهم.

عدم رد المهاجرات

وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيْط قد أسلمت بمكة، ويقال كانت بكرا ويقال كانت زوجة لعمرو بن العاص، وكانت تخرج إلى البادية لزيارة بعض أقاربها، فعزمت على المسير مهاجرة. وخرجت كأنها تريد البادية على عادتها، فوجدت رجلا من خزاعة، فأعلمته بإسلامها، فأركبها بعيره حتى قدم بها المدينة بعد ثمانية أيام، فدخلت على أم سلمة زوجة الرسول، وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وتخوّفت أن يردها الرسول، ودخل الرسول فأعلمته بأمرها فرحّب بها. وهاجر مثلها أخريات جاء أزواجهن فى طلبهن حسب شروط الصلح كما يقولون، فقال لهم إنما الشروط فى الرجال لا فى النساء، وقد قال الله فى سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾؛ واقتنعت قريش بذلك.

ونزلت فى عمرة الحديبية سورة الفتح، وما كان فى الإسلام فتح أعظم منها، فقد كانت الحروب حجزت بين الناس فأتاحت لهم هدنة اعتنق فيها الإسلام كثيرون من العرب وبعض صناديد قريش – كما سنرى فيما بعد – وفشا الإسلام وانتشرت الدعوة له فى جميع أنحاء الجزيرة العربية، إذ اعترفت قريش بأن

الإسلام من ديانات العرب وأن من حق المسلمين زيارة البيت والحج إليه. ومما يدل بوضوح على ازدياد انتشار الإسلام أن الرسول جاء فى الحديبية بألف وأربعمائة مسلم وبعد ذلك بعامين جاء فى فتح مكة بعشرة آلاف مسلم. وبذلك أثبتت الأيام أن الرسول بجانب كونه قائدا بارعا وسياسيا حصيفا حكيم محنّك، إذ كسب بصلح الحديبية للإسلام كسبا عظيما حتى ليقول الله فى سورة الفتح: إنه فتح وانتصار مبين.

الفصل السابع عشر

من غزوة خيبر إلى دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

١

غزوة خيبر

كان كثيرون من بنى النّضير حين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة نزلوا خيبر على مسافة نحو مائة ميل من المدينة فى الشمال الشرقى منها على طريق القوافل المصعدة إلى الشام والآيبة منها، وهي - مثل المدينة - واحة كبيرة تحفُّ بها صخور بركانية وتتخللها سبع قلاع صخرية، وسهولها ووديانها خصبة، تموج بالبساتين وحدائق النخيل والزروع، نزلها اليهود من قديم مثل المدينة حين فرّوا بضغط الرومان إلى الحجاز. وأخذ من نزلها من بنى النّضير يوغرون بها صدور أبناء عمومتهم حميَّة وموجدة على الرسول، ويملئون قلوبهم حقدًا وضغينة عليه، وكانوا ذوى بأس وجلد، واشتهرت خيبر بأنها منيعة لحصونها الكثيرة، وأخذت تتّقد حميَّةً متأججة ضد الرسول، كما أخذ سكانها يتحدَّون الرسول، إذ كانوا يخرجون كل يوم: عشرة آلاف مقاتل صفوفا، ثم يصيحون: محمد يغزونا هيهات هيهات.

وعلى هذا النحو كانوا يعدُّون لمعركة أو معارك بينهم وبين الرسول، ولم يكتفوا بذلك فقد كان بينهم وبين جيرانهم من قبائل غطفان الكثيرة حلف،

يهود خيبر يعدّون لحرب الرسول ويؤلبون عليه غطفان

فأخذوا يؤلّبونهم على الرسول ويدفعونهم إلى حربه معهم واعدين لهم بما يشاءون من ثمار خيبر. وكان أسير بن رزام زعيمهم لا يزال يجتمع ببعض قبيلة غطفان ليعقد الاتفاقات بينهم وبين اليهود على حرب الرسول والمسلمين. واستطاع بعث عبد الله بن رواحة - كما مرَّ بنا - أن يقضى عليه فى شهر شوال من السنة السادسة للهجرة، وخَلَفَهُ سلام بن أبى الحُقَيق فأخذ يسير سيرته فى تأليب غطفان على الرسول والإعداد لحربه.

وكان الله قد وعد أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية بسورة الفتح مغانم كثيرة، وذلك قوله جلّ شأنه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا. وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، ووقع فى روع الرسول والمسلمين أن الفتح الذى وعد الله به هو فتح خيبر التى تعدُّ العدة لحرب الرسول، وليست المغانم الكثيرة التى يأخذها المسلمون إلا مغانمها، وسنرى عما قليل أن مغانمها كانت كثيرة كثرة مفرطة.

خيبر ثلاث مناطق على رءوس جبال

وبعد عودة الرسول من الحديبية بنحو شهرين أمر أصحابه بالتهيؤ للغزو وشاع أنهم ذاهبون لغزو خيبر، وجاء الرسول المخلّفون عنه فى عمرة الحديبية ليخرجوا معه رجاء أن يكون لهم حظ فى الغنيمة، فقال لهم: تخرجون معى للجهاد، أما للغنيمة فلا، لأن الله جعلها لأصحاب بيعة الرضوان. وكانت خيبر ثلاث مناطق، وفى كل منطقة عدة حصون منيعة، واسم المنطقة الأولى منطقة النطاة، وكان بها أربعة حصون: النَّطاة وناعم والصعب والزبير، وجعلوا أشداءهم فى هذه الحصون، والمنطقة الثانية منطقة الشق، وبها حصنان: أُبَىّ والبرئ، وجعلوا فى هذه المنطقة النساء والذرارى، والمنطقة الثالثة منطقة الكتيبة وبها ثلاثة حصون: القموص أو نزار وكان لأبى الحقيق وولده، والوطيح والسُّلالم. وكل تلك الحصون كانت على رءوس جبال، واشتهرت خيبر بأن جموعها من أقوى جموع اليهود وأقواها بأسا وأكثرها سلاحا وأوفرها مالا.

وخرج الرسول إلى خيبر في المحرم من السنة السابعة للهجرة في ألف وأربعماءة من المشاة ومائتى فارس، وكان خروجه إليها في شهر المحرم وقيل بل في صفر أو في هلال ربيع الأول، واختلف رواة السيرة النبوية هل كان خروج الرسول ﷺ إليها في سنة ست أو في سنة سبع، فمن جعلها في سنة ست جعل السنة الهجرية تبدأ في الثانى عشر من ربيع الأول: مَقْدِم رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومَنْ جعلها في سنة سبع جعل شهر المحرم بدء السنة الهجرية، وبذلك أخذ الجمهور.

نساء لمداواة الجرحى

وأخذ الرسول ﷺ معه في هذه الغزوة من زوجاته أم سَلَمَة، وسمح لعشرين امرأة أن يصحَبْن الجيش لا لتحميسه في الحرب كما صنعت هند بنت عتْبة وصواحبها في غزوتى بدر وأُحُد، وإنما لمداواة الجرحى ورعايتهم. وهو تقليد وضعه الرسول لأول مرة في حروب الجيوش الإسلامية، وربما أيضا في الحروب العالمية.

وكان المعتاد أن تقطع المسافة بين المدينة وخيبر في خمسة أيام، غير أن الرسول ﷺ أسرع في السير بجيشه، فوصل إلى خيبر قبل فجر اليوم الرابع، ولما أشرف عليها قال لجنوده قفوا وقولوا معى: اللهم ربَّ السموات السبع وما أظلَّتْ، وربَّ الأرضين السبع وما أقلَّتْ (حملت) وربَّ الشياطين ومن أضلَّتْ، وربَّ الرياح وما ذَرَتْ (أطارت) إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها. ثم قال: ادخلوا وجاهدوا على بركة الله.

نزول الرسول أمام منطقة النطاة

واختار الرسول ﷺ أن ينزل بجيشه في وادى الرجيع أمام منطقة النطاة حتى يقطع الطريق على غطفان إذا فكرت في الانضمام إلى أهل خيبر ضد الرسول وجيشه، وكان قد عرف أن كنانة بن أبى الحقيق خرج إليها في أربعة عشر يهوديا، ودعاها إلى نصرهم ضد الرسول ﷺ ولها نصف تمر خيبر سنة، وعاهدته على ذلك. وبمجرد أن علم سيدها عُيَيْنة بن حِصْن بأن الرسول اتجه إليها بجيش أقبل في أربعة آلاف من غطفان يريد أن ينصر اليهود، وفي طريقهم

سمعوا صياحا، فظنوا أن المسلمين خالفوهم إلى ديارهم، ففروا فزعين فى كل وجه، وكفى الله الرسول شرهم.

ولما أهلّ الصباح وأخذت الشمس تبزغ فى الأفق وترسل أشعتها فتح اليهود حصونهم، وأخذ العمال يخرجون منها إلى أعمالهم حاملين المساحى (الفئوس) والمكاتل (الزنابيل) ورأوا خوذات المسلمين ودروعهم وسيوفهم تعكس أشعة الشروق بُهتوا، وأخذوا يصيحون: محمد والخميس أى الجيش، وتغلغل صياحهم سريعا فى حصون خيبر ووديانها من حصن إلى حصن ومن حقل إلى حقل ومن حديقة إلى حديقة، وعاد العمال سريعا إلى الحصون وأغلقوها، والرسول ﷺ يقول: الله أكبر! خَرِبَتْ خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾.

وكان أول حصن قاتل أهله حصن النطاة، وكان قد فرّق الرايات لأول مرة، إذ كان يفرق قبلها الألوية، وكانت رايته سوداء وتسمى العُقاب، ودفع رايته إلى علىّ بن أبى طالب، وثانية إلى الحُباب بن المنذر، وثالثة إلى سعد بن عبادة، وكان يغدو بالمسلمين للقتال على راياتهم.

واشتدّ القتال على النطاة وظل عشرة أيام والرسول يرجع بجيشه فى المساء إلى الرجيع ومَنْ جُرح يُحمل إلى العسكر لتداويه النساء، وجُرح من المسلمين على النطاة خمسون، وظل القتال مشتدًّا أمام هذا الحصن، إلى أن نادى يهودى من أهله ليلا وقال: أنا آمن وأبلّغكم، وأدخلوه إلى الرسول ﷺ فدلّه على ثغرة أو عورة فى الحصن، فدخل المسلمون منها الحصن واستولوا عليه ووجدوا فيه منجنيقا، فأخذوه، ونفعهم نفعا كبيرا، إذ لم يكونوا يعرفون سوى حرب الغارات، فنفعهم فى ضرب الحصون التالية بإحداث ثغرات فيها كانوا يستولون منها على الحصون.

الاستيلاء على حصون منطقة النطاة

وتحوّل المسلمون بعد استيلائهم على حصن النطاة إلى حصن ناعم وألحوا عليه برمى النبل، واليهود يقاتلون، وبرز منهم الحارث أبو زينب أخو مرحب،

واندفع إليه على بن أبى طالب، فقتله، وبرز للقتال أخوه مرحب يريد أن يأخذ بثأره – وكان يُعَدُّ بطل اليهود وأهم فرسانهم – وبرز لـه علىّ بن أبى طالب، وضرب عليًّا بالسيف فاتقاه بالترس فقطعه ولصق به فضربه علىّ بسيفه ضربة شديدة فلقت رأسه، ويقال بل إن محمد بن مسلمة هو الذى برز له فتجاولا ساعة، وضرب ابن مسلمة رجليه فقطعهما وسقط على الأرض فمرَّ به علىّ فضرب عنقه وأخذ سلبه، فأعطاه الرسول ﷺ لمحمد بن مسلمة، وبرز بعد مرحب نفر من شجعان اليهود، فقتلهم علىّ ومحمد بن مسلمة والزبير. واستولى المسلمون على الحصن.

ولم يكن من عادة العرب فى حروبهم أن يحملوا معهم طعاما كثيرا لأنها لم تكن تطول أياما، وطالت بالمسلمين حرب اليهود أمام حصنى النطاة وناعم، فشكا المسلمون للرسول نقص مئونتهم، فدعا الله لهم أن يرزقهم حصنا به مئونة كثيرة، واستجاب الله لدعائه، إذ تحول المسلمون إلى حصن الصعب وكانوا قد ظلوا يحاصرونه يومين، وفى اليوم الثالث تولى قتال أهله الحُباب بن المنذر، وندب الرسول له المسلمين وحضّهم على الجهاد، فقاتلوا أشد قتال، فانهزم اليهود وأغلقوا الحصن عليهم، ثم خرجوا منه وكرّوا ، فانهزموا ثانية، واقتحم المسلمون الحصن يقتلون ويأسرون إلى أن استولوا عليه، ووجدوا فيه ما موّنهم طوال حربهم فى خيبر من التمر والشعير والعسل والسمن والزيت سوى الكثير من علف الدواب، ووجدوا فيه متاعا كثيرا، من ذلك عشرون عِكْما (بقجة) من ثياب اليمن محزومة لم تُفتح، سوى ما كان فيه من خمسمائة قطيفة، وأخذوا ما كان فيه من الغنم والبقر. ودلّهم يهودى على بيت ملئ بآلات الحرب، وكان فيه منجنيق ودبابات (مركبات وآلات لهدم الحصون) وعُدَّة حربية كثيرة، فاستولوا عليها وانتفعوا بها انتفاعا كبيرا فى حرب اليهود. وتحوّل المسلمون إلى حصن الزبير، وكان فوق قمة جبل عالية فزحف إليه الرسول ﷺ وحاصره ثلاثة أيام متوالية، وتمّ فتحه، وكان آخر حصون منطقة النطاة.

وفرّ اليهود إلى منطقة الشّقّ، وحاصر المسلمون فيها حصن أُبَـيّ على جبل اسمه "شمران" وقاتل المسلمون اليهود فيه قتالا شديدا بقيادة أبى دُجانة الأنصارى، حتى فتحوه. وفرّ اليهود إلى حصن البرئ، وأخذوا يرمون المسلمين بالحجارة والنبال، وأمر الرسول ﷺ أن ينصب المنجنيق لفتحه، ولم يلبثوا أن استسلموا؛ وبذلك سقطت منطقة الشّق كما سقطت منطقة النطاة، وكان بها - كما أسلفنا - النساء والذرارى.

الاستيلاء على حصون منطقة الشق

وسَبَى المسلمون من منطقة الشق نساء يهوديات كثيرات، وأمر الرسول أن ينادى فى هذا الجيش الزاحف بتحريم المتعة باليهوديات أى الزواج منهن بدون عقد بمجرد الرضا والقبول لأجلٍ أو زمن يُسَمى، وهى مِنّة عظيمة للرسول على النساء اليهوديات، كما كان حرَّمه من قبل على المسلمات، وأصبح زواج المتعة محرَّما على اليهوديات ولا يتم الزواج إلا بعقد. ولعل ذلك ما جعل السبيَّات اليهوديات يُكبرن الرسول ﷺ وأصبح كثيرات منهن على استعداد كامل لاعتناق الإسلام والزواج من الجنود المغيرين، وحرّم الرسول أن يتزوجوا الحوامل إلا بعد وضعهن.

تحريم زواج المتعة باليهوديات مثل تحريمه على المسلمات

وتقدم الجيش إلى منطقة الكتيبة وحاصر حصن القموص أول حصونها، وكان - كما أسلفنا - لأبى الحُقَيْق وذريته، وقاتل من بالحصن قتالا شديدا ونصب الرسول عليه المجانيق، فاضطرّ من به إلى التسليم ودخله المسلمون. وتقدم كنانة بن أبى الحقيق زعيمه إلى الرسول ﷺ يطلب الصلح على أهل الكتيبة، فأمّن الرجال والذرية، ودفعوا إليه الأموال من الذهب والفضة والسلاح والثياب، وسأل الرسول ﷺ كنانة عن الأموال وقال له: برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كانت عندكم أموال. فقال كنانة: نعم. وأشهد عليه نفرا من المسلمين ومن اليهود. ولم يلبث سَعْية بن سلام بن أبى الحُقَيْق أن دلّ الرسول على خَرِبة، فبعث الزبير بن العوام فى نفر مع سعية، وحفروا، فإذا كنز فى جلد فيه حُلِىّ، فأتى به الزبير الرسول عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يعذب كنانة حتى يستخرج كل ما عنده، وجاءه بمال كثير، ودفعه إلى محمد بن مسلمة فقتله.

الاستيلاء على منطقة الكتيبة

أموال وذهب كثير بحصن القموص

ووجد في جلد لبعير أسورة من الذهب ودمالج من الذهب، وهي أساور كبيرة تلبس في العضد، وخلاخل وأقرطة من الذهب وعقودَ جوهر وزمرّد وخواتم ذهبية.

صفية واصطفاء الرسول لها

وكانت صفيَّة بنت حُيَيّ بن أخطب سيد بني النضير في هذا الحصن مع زوجها كنانة بن أبي الحقيق، فدخلت على الرسول بعد قتل زوجها مع ابنة عم لها مظهرة الود والإعجاب، فألقى بردته عليها وعُرف أنها أصبحت في كنفه، وأنه اصطفاها لنفسه، وأهدى ابنة عمها إلى صديق كان معه هو دحية بن خليفة الكلبي، وأعطى صفية لأم سليم حتى اعتدَّت وأسلمتْ وتزوجها.

تسليم حصني الوطيح والسلالم

وبعد حصن القموص حاصر جيش المسلمين حصني الوطيح والسُّلالم في الكتيبة وأيقنوا بالهزيمة، فسأل أهلهما رسول الله ﷺ أن يحقن دماء مقاتليهم ويترك لهم النساء والذراري ويخرجون من خيبر وأرضها، ويخلون بين رسول الله ﷺ وما كان لهم من أرض ومال وأنعام وخيل وسلاح. وبذلك تم سقوط خيبر بجميع حصونها في أيدي المسلمين وغنموا فيها غنائم كثيرة.

الشاة المسمومة

وأهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مِشْكم إلى رسول الله عَنْزا ذبحتها وشوتها وسمَّتها، فأمر بها، فوُضعت بين يديه، وتقدم هو وبعض أصحابه، وتناول الذراع، وكان أحبّ اللحم إليه، فالتهم منه قطعة، وقال: كفُّوا أيديكم فإنها مسمومة. وكان بشر بن البراء قد طعم منها، ولم يلبث أن تغيَّر لونه ثم مات. وطلب رسول الله زينب وقال لها: سَمَّمْت الشاة؟ قالت: نعم. فقال لها: وما حملك على ذلك؟ قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي ونلتَ من قومي ما نلت، فقلت: إن كان نبيًّا فسيعرف ذلك وإن كان ملكا استرحنا منه. واختلفت الآثار في قتلها، والصحيح أنه دفعها إلى أولياء بشر بن البراء، فقتلوها به قصاصًا، وأَلِم الرسول من السم، غير أنه لم يصبه بإعياء، وظل الألم يعاوده من حين إلى حين إذ قال في مرض الموت: ما زالت أكلة خيبر يصيبني منها وجع إلى اليوم.

٢

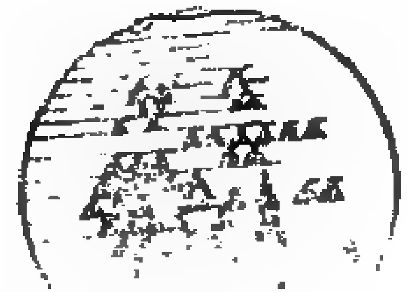
مغانم خَيْبَر – فَدَك – وادى القُرى – تَيْماء

أ – مغانم خيبر

اضطرب مؤرخو السيرة هل فتحت حصون خيبر جميعها قهرا بحرب أو فُتح بعضها قهرا بحرب وبعضها صلحا؟ والشبهة جاءت من أن حصنى الوطيح والسلالم أسلمهما أهلهما لحقن دمائهم، وهم لم يسلموهما إلا بعد الحصار والقتال لما سبقهما من الحصون، وكانوا فيها يدافعون عن خيبر وسقطت جميعها، فلم يكن أمامهم إلا أن يحقنوا دماءهم ويسلموا الحصنين الباقيين، وبذلك سلموهما قهرا، بحيث أصبحت خيبر جميعها مفتوحة عنوة، فكان حكم أرض هذين الحصنين كحكم سائر أرض خيبر كلها غنيمة مغلوبا عليها.

تقسيم مغانم خيبر

وجُعلت النطاة والشق للمسلمين جميعا ووُزِّعتا على المحاربين وكانوا ألفا وأربعمائة من المشاة ومائتى فارس، فجعل للماشى سهمًا وللفارس سهمين. أما الكتيبة فجُعلت لله أى لبيت مال المسلمين لينفق منها الرسول على العُدَّة لما سيحدث من غزوات وأعمال تستلزم النفقة كعمرة القضاء، وعلى من يرى الرسول النفقة عليهم من أهله ومن المساكين والمحتاجين؛ ويقول مؤرخو السيرة إنه أعطى أهله ورجالا من بنى عبد المطلب ونساء وأعطى اليتيم والسائل. وكانت خيبر لأهل الحديبية مَنْ شهدها ومن غاب منهم، كما قال الله فى سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ﴾ أى يا أهل الحديبية ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى خيبر، وتخلّف عنها منهم رجال ومات رجلان، فأسهم الرسول ﷺ للمتخلّفين منهم ولمن مات، وأسهم لمن استشهدوا فيها، ويقال إنه أسهم لعشرة من يهود المدينة غزوها معه. وأعطى مالا لمماليك كانوا معه ولم يسهم لهم، وبالمثل أعطى مالا لمن رافقن الجيش من النساء العشرين لمداواة الجرحى ولم يسهم لهن.



منطقتا النطاة والشق للمحاربين

وقسّم الرسول جميع الأرض فى النطاة والشق على المحاربين من المسلمين بجميع ما فيها من النخل والزروع والخيل والأنعام، وصارت الكتيبة بجميع أرضها وزروعها ونخيلها لمطالب الدولة ولمن يرى الرسول إشراكهم فى غنيمة خيبر من غير أهل الحديبية. وبقى من أهل خيبر من لم يؤثروا الجلاء والمسير عنها وكانوا كثيرون، وقالوا للرسول ﷺ : دعونا نعمل فى الأرض ولنا النصف فى حصيد الزرع ولكم النصف، وصالحهم الرسول على ذلك.

منطقة الكتيبة: الخمس للرسول

وكانت الكتيبة لله ولرسوله - كما أسلفنا - وكانت الخمس من خيبر، ونذكر ما كان يُجْنى منها وما وزّعه منها الرسول، فقد كانت تنتج ثمانية آلاف حمل بعير تمرا للرسول نصفها، وثلاثة آلاف صاع من الشعير (والصاع مكيال يسع نحو ثمانية أرطال) وللرسول النصف. وأطعم الرسول من الكتيبة كل زوجة من نسائه ثمانين حمل بعير تمرا وعشرين حمل بعير شعيرا، وربما كان فى ذلك مبالغةً، ويمضى المقريزى فيقول إنه أعطى فاطمة وعليًّا ثلاثمائة حمل بعير شعيرا وتمرا ولأسامة بن زيد مائة وخمسين حمل بعير شعيرا وتمرا، وأطعم آخرين، وأعطى ذوى القربى من بنى هاشم وبنى المطلب. وإنما ذكرنا ذلك لندل على عظم الغنيمة من خيبر.

قدوم بقية المهاجرين إلى الحبشة

وكان الرسول ﷺ كتب إلى النجاشى يطلب إليه ردَّ المسلمين الذين أقاموا بالحبشة ومعهم أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان، وكان زوجها عبيد الله بن جحش تنصَّر فى الحبشة ومات بها فارسلهم النجاشى إليه فى سفينتين، ويقال كانوا ثمانية عشر، وقدموا المدينة فوجدوا رسول الله ﷺ بخيبر، فأتوه بها، وكان يتقدمهم جعفر ابن عمه أبى طالب، فقال عليه السلام: ما أدرى بأيهما أُسَرّ؟ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر؟ وعانقه وقبّله بين عينيه، وأدخل المسلمون جعفرا ومن قدم معه فى سهامهم، أو لعل الرسول ﷺ قسّم لهم فى منطقة الكتيبة. وقَدِم الدوسيون على رسول الله عليه السلام ونفر من الأشعريين فيهم أبو موسى الأشعرى، فكلّم الرسول ﷺ فيهم المسلمين أن يشاركوهم فى الغنيمة، فقبلوا، وأكبر الظن أنه أعطاهم من منطقة الكتيبة.

وجعل المسلمون ينزلون دوابهم فى حَرْث اليهود ترعى كما جعلوا يأخذون من بقلهم للطعام، وشكى اليهود ذلك إلى الرسول، فأمر عبد الرحمن بن عوف أن ينادى فى المسلمين: الصلاة جامعة، وتجمعوا، فقام الرسول فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن اليهود شكوا إلىّ أنكم وقعتم (نزلتم) فى حظائرهم (أراضيهم التى أحاطوها بما يحظرها ويحميها)، وقد أمّنّاهم على دمائهم وأموالهم التى فى أيديهم وفى أراضيهم وعاملناهم (عاهدناهم على أن يقوموا عليها ويتعهدوها) وأنه لا تحلّ أموال المعاهدين إلا بحقّها". فوقف المسلمون نزول دوابهم فى أراضى اليهود، كما وقفوا أخذ البقول منها، وهى يدٌ على أصحاب الزروع منهم تضاف إلى يده السابقة فى منع زواج المتعة باليهوديات.

تحريم رعى دواب المسلمين فى أرض اليهود وأخذ البقول إلا بحقها

وكان بين المغانم التى غنمها الرسول من خيبر صحائف من التوراة، وجاء اليهود يطلبونها، فأمر الرسول بالمحافظة عليها وردِّها إليهم وهى يد ثالثة كريمة للرسول على اليهود، فلم يمسَّها المسلمون بسوء. ولا ريب فى أن هذا صنيع طيب وخاصة إذا تذكرنا ما فعله الرومان بصحف اليهود المقدسة حين طردوهم من القدس فى سنتى ٧٠ و ١٣٥ للميلاد فإنهم داسوها بأرجلهم وأحرقوها. وبنى الرسول بخيبر مسجدا.

رد صحف من التوراة إلى اليهود

ب — فَدَك

بعد أن تمّ فتح خيبر بعث الرسول إلى «فدك» فى الشمال الشرقى لخيبر يدعو أهلها اليهود إلى الإسلام فبعثوا إليه وفدا صالحه على أن يُخَلُّوا بينه وبين الأموال، وأن يظلوا فيها ويزرعوها، وللرسول ﷺ نصف إنتاجها من الأرض. وقبل الرسول وبذلك صارت فدك خالصة للرسول لأنها سلمت دون أى قتال.

جـ — وادى القُرَى

زواج الرسول بصفية

انصرف الرسول من خيبر إلى وادى القرى وسكانها من اليهود شمال خيبر، وكانت صفية بنت حُيَىّ بن أخطب قد اعتدَّتْ وأسلمت، فاعتقها وأعرس

(تزوج) بها فى طريقه إلى وادى القرى واتخذ لها وليمة دعا إليها أصحابه، وظلت على الوفاء له وللإسلام إلى أن توفيت فى زمن معاوية ودُفِنت بالبقيع. وحاصر الرسول ﷺ وادى القرى وأبوا إلا القتال ورموا المسلمين بالنَّبل وقُتل أحدهم فعبَّأ الرسول أصحابه وصفّهم للقتال، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ودعوا إلى البراز، فقُتل منهم أحد عشر رجلا، وباتوا حتى إذا أصبحوا استسلموا. وبذلك فُتحت قهرا وغنم الرسول ﷺ ما فيها وقسَّمه، وصالحوه على أن يدفع إليهم الأرض فيقوموا عليها بالزراعة وتلقيح النخل، ولهم النصف من إنتاجها.

د – تَيْماء

هى آخر حصون اليهود بالحجاز فى الشمال الشرقى منه بين خيبر ودومة الجندل، وقصة لجوء امرئ القيس إلى سيدها السموأل ليعينه ضد بنى أسد مشهورة، وأرسل أهلها من اليهود إلى الرسول ﷺ يطلبون الصلح فصالحهم على أداء الجزية المقررة فى الإسلام على أهل الذمة.

وهذا الانتصار الساحق على اليهود شمالى المدينة فى خيبر وأخواتها أحدث دويًّا هائلا فى الجزيرة العربية وفى مكة، وأخذ يتبين أن الإسلام دين لا يمكن مقاومته حربيا، وآمن المسلمون بأن مكة والعرب جميعا لا بد أن يدخلوا فى دين الله.

اتخاذ المنبر

ولما عاد الرسول ﷺ بجيشه إلى المدينة اتخذ لأول مرة المنبر، وكان له درجتان ومستراح، فكان يخطب عليه الرسول منذ هذا التاريخ، وأصبح كل مسجد يبنيه المسلمون فيما بعد بمشارق الأرض الإسلامية ومغاربها يبنى فيه منبر يقام فيه ليعظ إمامه من فوقه المصلّين كل يوم جمعة.

زواج الرسول بأم حبيبة

وحين عاد الرسول ﷺ وجد أم حبيبة بنت أبى سفيان أرملة ابن عمته عبيد الله بن جحش الذى تنصَّر فى الحبشة ومات بها، وظلت تنتظر، إذ كان قد بعث إلى النجاشىِّ ليزوجه بها، فزوَّجه بها وقدَّم لها صداقها: أربعمائة دينار من عنده،

وجاءت إلى المدينة فى السفينتين اللتين أعدهما النجاشى لحمل من كان بقى عنده من أصحاب الرسول. وسواء زوّجها له النجاشى أو تزوجها حين لقيها فى المدينة فإنه رحّب بها، وضمّها إلى زوجاته، وطبيعى أن يهتم بها الرسول لأنها بنت كبير قريش وزعيمها. ولم يحدث التحامها بزوجات الرسول شيئا من المضض بينهن، إذ كانت قرشية مثل أكثرهن. أما صفية بنت حُيَيّ بن أخطب فلم تكن قرشية ولا عربية، ولذلك أثار انضمامها إليهن شيئا من الغضب والغيرة، فكن يعرّضن لها بأصلها اليهودى وقتل أبيها وزوجها عدوى الإسلام، وكانت ترد عليهن بقولها إن أبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد. ولم تلبث الزوبعة ضدها أن تلاشت، وربطت الصداقة بينها وبين عائشة وحفصة برباط وثيق.

٣

كتب الرسول إلى أمراء العرب

يذكر مؤرخو السيرة النبوية كتبا متعددة من الرسول ﷺ إلى أمراء العرب فى أطراف الجزيرة العربية، وتضطرب فى معرفة تاريخها هل كانت فى السنة السادسة بعد الحديبية أو فى السنة السابعة بعد فتح خيبر أو ربما فى السنة الثامنة أو بعد الثامنة. ونبدأ بالشمال، فقد أرسل شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر أمير الغساسنة فى الأردن يدعوه وقومه إلى الدخول فى الإسلام قائلا: سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدّق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له. وكان الغساسنة نصارى ويدينون بالولاء لإمبراطور بيزنطه. وأعلن الحارث شجاع بن وهب حامل الكتاب إليه أنه سائر إلى الرسول بجيش ومحاربه، سفها منه وحمقا. وكتب الرسول ﷺ عهودا لأهل أيلة وصاحبها يوحنا بن رؤبة وكانوا نصارى، وبالمثل لأهل مَقْنا وأَذْرح وبيَّن لهم ما يجب عليهم من أداء الجزية سنويا.

كتاب إلى الغساسنة

كتاب إلى ملوك حمير

ونترك الشمال إلى الجنوب فنجد الرسول ﷺ يُرسلُ مالك بن مرة إلى ملوك حِمْير بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام، يدعو الحارث بن عبد كَلال ونعيم أخوه وقَيْل (ملك) ذى رُعين ومعافر وإلى زرعة بن ذى يزن وهمدان، ويهنئهم بأن الله قد هداهم بهداه، فدخلوا فى دينه الحنيف، ويبدو أنهم كانوا قد أسلموا على يد معاذ بن جبل الذى كان أرسله إليهم ليدعوهم إلى الإسلام وأجابوه. ويذكر الرسول ﷺ فى الكتاب ما يجب عليهم من فريضة الزكاة ومقدارها فى الإبل والبقر والغنم، ويقول لهم: أدوها إلى رسلى وإلى معاذ بن جبل أميركم. ويذكر لهم أن من كان بديارهم من اليهود والنصارى له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ولا يُرَدُّ أحد عن يهوديته ونصرانيته، وعلى كلِّ بالغٍ منهم الجزية، وهى دينار واحد ومن أداها منهم له ذمة الله وذمة رسوله. وتفد على الرسول فى السنتين التاسعة والعاشرة وفود قبائل كثيرة ويكتب لهم كتبا تحمل بعض تعاليم الإسلام وخاصة الزكاة.

المعاملة الرحيمة بأهل الكتاب

إسلام نصارى نجران

وبعث الرسول ﷺ إلى بنى الحارث بن كعب فى نجران خالد بن الوليد ليدعوهم إلى الإسلام فأسلموا وأخذ يعلّمهم شريعة الإسلام وكتب إلى الرسول ﷺ بذلك، وقدم عليه وفد منهم يعلمه اعتناق قومه للإسلام، وبعث إليهم بعمرو ابن حزم وأعطاه كتابا إليهم ليحملهم على ما فيه من تعاليم شريعة الإسلام وأحكامه والزكاة ومقاديرها ومقادير الديات وتعاليم إسلامية كثيرة. وكتب رسول الله ﷺ إلى وائل بن حُجْر وغيره من أقيالها وسادتها بإقامة الصلاة وأداء فريضة الزكاة وبيانها فى إجمال.

بنو حنيفة فى اليمامة

ونمضى إلى بنى حنيفة فى اليمامة وأميرها هَوْذَة بن على وصاحبه ثُمامة بن أُثال وقد بعث الرسول ﷺ بسليط بن عمرو العامرى وكتاب معه يقول لهوذة فيه: "سلامٌ على من اتّبع الهدى واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخُفِّ والحافر (أى الإبل والخيل، يريد أنه سيعمّ العالم). فأسلمْ تسلمْ وأجعل لك ما تحت يدك". وردَّ عليه هوذة بكتاب بعث به إلى الرسول مع وفد يقول فيه: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومى وخطيبهم، والعرب تهاب مكانى، فاجعلْ لى

الأمر بعدك حتى أسلم، وإلا قصدتك وحاربتك". وحين سمع الرسول ﷺ ذلك قال: اللهم اكفنيه. فمات بعد قليل. وأسلمت اليمامة مع أميرها ثمامة بن أثال، وارتدت مع متنبئها مسليمة الكذاب، وقتله خالد بن الوليد، وعاد أهل اليمامة سريعا إلى الإسلام.

إسلام حاكمي عُمان

ونتحول إلى شرق الجزيرة العربية، ونبدأ بعُمان في آخر الجنوب الشرقي للجزيرة العربية، وكانت بها قبيلة الأزد، وكان يحكمها جَيْفر بن الجُلندى، ويساعده أخوه عبد، وكانا يستشعران مع قبيلتهما الولاء لملوك الفرس. وبعث الرسول إليهما بعد فتح مكة بكتاب مع عمرو بن العاص يقول فيه: "السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد فإني أدعوكما بدعوة الإسلام، أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافّة لأنذر مَنْ كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين. وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولّيتكما، وإن أبيتما أن تقرَّا بالإسلام فإن ملككما زائل وخَيْلي تحلُّ بساحتكما، وتظهر نبوّتي على ملككما".

واستجاب جيفر وأخوه إلى الإسلام وصدَّقا بالرسول، وأعانا عمرًا على من خالفه، وخلّيا بينه وبين الزكاة، فردَّها على الفقراء هناك. والكتاب يضيف بوضوح أنه إن أقرّ الأميران بالإسلام أقر الرسول ولايتهما على عمان، وهي إضافة لا نجدها في الرسائل الأخرى للرسول مما يدل على أن الجزيرة العربية أصبحت جميعها في قبضته. ويذكر من أهل عمان الأسيذيون سكان المشقر من مدنها وقد دخلوا فيما دخلت فيه عمان. وأمر الرسول أن يعامل مجوس عمان عبدة النار معاملة أهل الكتاب.

كتاب إلى المنذر ابن ساوى وإسلامه مع أهل البحرين

ونمضي إلى الشرق على خليج العرب، ونجد المنذر بن ساوَى واليا على البحرين لملوك الفرس، وكانت المملكة الفارسية وهنت قواها في عهد الرسول بسبب حروبها المتصلة مع الإمبراطورية البيزنطية، وبسبب خلافات داخلية حتى ليقتل ولي العهد أباه؛ مما جعل قبضة الفرس على البحرين وبالمثل على عمان تضعف ضعفا شديدا حتى لكأنهما كانتا مستقلتين. وكما أرسل الرسول إلى

عمان عمرو بن العاص أرسل إلى المنذر بن ساوى العلاء بن الحضرمى يدعوه إلى الإسلام حاملا منه كتابا إليه يقول فيه: "سلامٌ على من اتّبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك إلى الإسلام، فأسلمْ تسلمْ، يجعل الله لك ما تحت يديك، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر (الإبل والخيل)، يريد أنه سيصل إلى أقاصى العالم.

ورحب المنذر بالعلاء، وأعلن إليه إسلامه وأسلم معه أهل البحرين جميعا. وكتب إلى الرسول ﷺ أن بأرضه مجوسا ويهودا ليُعْلمه فيهما بما يراه، فقال له: يظلان على دينهما وتؤخذ منهما الجزية. وبذلك عامل الرسول مجوس البحرين مثل مجوس عمان (عبدة النار). وبنفس هذه المعاملة وما تحمِل من تسامح عظيم مع الوثنيين عامل عمر بن الخطاب صابئة العراق عبدة الكواكب، وترك لأهل إيران الحق فى أن يعتنقوا الإسلام فيصبح لهم ما للمسلمين من حقوق وأن يظل الإيرانى معتنقا دينه المجوسى ويدفع الجزية. وظلت النار تشتعل فى معابد المجوس بإيران حتى القرن الثانى الهجرى إذ اعتنق الإسلام جميع أهل إيران.

المجوس يدفعون الجزية

٤

عالمية الإسلام – دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

أ– عالمية الإسلام

يردّد كثير من المستشرقين أن محمدا ﷺ إنما أُرسل إلى العرب وحدهم، لينفوا أنه أُرسل إلى المسيحيين واليهود وجميع البشر، مع أن إرساله إلى جميع الأمم مما يقتضيه العقل، إذ أرسل الله كل رسول إلى قومه فحسب، كما تشهد بذلك آيات القرآن، إذ تقول إن نوحا أُرسل إلى قومه كما فى أول سورة نوح. وفى سورة العنكبوت: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾. وفى سورة الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ﴾؛

فالتوراة مرسلة إليهم وحدهم. وعيسى مثل موسى مُرْسَل إلى بنى إسرائيل كما فى سورة الصفّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم﴾. وبالمثل جميع الرسل إنما أُرسلوا إلى أقوامهم فحسب، فهود أُرسل إلى قومه عاد كما فى سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا... أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، ولوط أرسل إلى قومه كما فى سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وصالح أُرسل إلى قومه ثمود كما فى سورة الأعراف: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، وأرسل شُعَيْب إلى أهل مدين كما فى نفس السورة: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

الرسول مُرسل إلى الناس كافّة

فجميع الرسل أُرسلوا إلى أقوامهم، فكان طبيعيا ومنطقيا أن يتوِّج الله هذه الرسالات الخاصة برسالة تعمُّ الأقوام والبشر جميعا، وهى رسالة محمد التى جعلها خاتمة الرسالات، كما جاء فى وصفه بسورة الأحزاب إذ يقول جَلَّ شأنه عنه إنه: ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. وذكر الله فى القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا أن محمدا مُرسل إلى جميع البشر كما فى سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقد نزلت الآية ردًّا على اليهود وما كانوا يقولون من أن محمدا مرسل إلى العرب وحدهم، فهو مرسل إلى الناس جميعا عربا وغير عرب. ويكرِّر الله فى سورة يوسف وسورتى صَ والتكوير قوله عن القرآن الكريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ وكلمة العالمين فى الآية الكريمة جمع لكلمة العالم بفتح اللام، وجُمعت للدلالة على الاستغراق وأن القرآن موجه للعالم بجميع أجناسه وشعوبه شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. ويقول الله فى سورة الأنبياء لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهو رحمة مهداة من رب العالمين إليهم جميعا، وهى رحمة جعلته شديد الرأفة بأتباعه. وفى ذلك أحاديث مشهورة تدعو إلى الرأفة والرحمة بين الناس، وحثَّ عليهما فى معاملة الحيوان المستأنس، ونفَّر من القسوة به تنفيرا شديدا قائلا: إن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت، وإن رجلا رأى كلبا يلهث من شدة العطش، فنزل بئرا وملأ خُفَّه ماء وأمسكه بفمه حتى صعد فسقاه، فغفر الله له وأدخله الجنّة.

وهذه الرحمة التى فُطر عليها الرسول فى خُلقه اقترنت بها رحمة واسعة فى شريعته، من ذلك أنها كفلت الحرية الدينية لأهل الديانات إلهية ووثنية، إذ يقول الله جل شأنه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، مما جعل المسلمين يستشعرون فى ديارهم طوال العصور السالفة تسامحا عظيما مع من يخالفونهم فى الدين حتى لو كانوا وثنيين مجوسا وصابئة، وتعايشوا معهم تعايشا ماديا وفكريا سديدا. وهو جانب عالمى فى الإسلام يتميز به من جميع الديانات، إذ لا يُعرف هذا التسامح الشامل وما يقترن به من التعامل الحسن لغير الإسلام.

الإسلام مكمّل للديانات ومصحّح لها

ومما يدل – بوضوح – على عالمية الإسلام وأنه نزل من عند الله مكملا للديانات ومصححا لها تصحيحا نهائيا قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ فى القرآن ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات التوراة والإنجيل ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أى نؤجلها ونؤخّرها ﴿نَأْتِ﴾ فى القرآن ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾. والله – فى الآية – يردُّ على ما كان يقوله اليهود والنصارى من أن محمدا لو كان رسولا من عند الله ما نسخ القرآن كثيرا من أحكام التوراة والإنجيل، والله يقول لهم إنها نُسخت لمصلحة اليهود والنصارى المكلفين بها، وكلفناهم بخير منها أو مثلها، ويؤكد ذلك فى سورة الرعد قائلا: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أى لكل عصر وزمن ﴿كِتَابٌ﴾ أى شريعة ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء إثباته لمصلحة البشر ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى علمه الأزلى بما يصلح للناس فى كل عصر. ويذكر الله فى سورة الأعراف لليهود والنصارى أن الرسول ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الطعام ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ التى تستقذرها النفوس ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى يَضع عنهم التكاليف الشاقّة التى كُلّفوا بها فى التوراة والإنجيل.

وكل ما قدّمت يدل – بوضوح – على أن الإسلام دين عالمى للشريعة الإلهية، وأن الرسول أُرسل به إلى الناس جميعا كما قال تعالى فى سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فى مشارق الأرض ومغاربها لتحمل لهم

شريعتك التى تكمل وتصحِّح الديانتين: اليهودية والنصرانية. ولتُسْعد الناس فى الدنيا والآخرة.

وكما كرَّر الله فى القرآن أن الإسلام دين عالمى كرَّر ذلك الرسول فى بعض كتبه التى ألممنا بها، وفى أحاديثه قوله: "إننى فُضِّلتُ على الأنبياء بست، منها أننى أرسلتُ إلى الخلق كافَّة" وفى حديث ثان يقول: "أُعطيتُ خمسا لم يعطهن أحد قبلى" ويذكر منها: "أن كل نبى كان يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الأحمر والأسود"، والعرب تسمى الأبيض أحمر، أى أنه بُعث إلى البشر جميعا..

ب – دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

كان الرسول ﷺ يؤمن بأن الإسلام سينتشر فى الأرض كما وعده ربه، وأنه واجب عليه أن يدعو ملوك الدول من حوله إلى اعتناق هذا الدين، فأرسل كتبا إلى النجاشى ملك الحبشة وهرقل ملك الروم وكسرى ملك الفرس والمقوقس حاكم مصر يدعوهم فيها إلى الإسلام. واختلف مؤرخو السيرة فى تاريخها، فقيل كانت بعد الحديبية، وقيل كانت بعد فتح خيبر، ولعل ذلك هو الصحيح، إذ إن القبائل العربية أقبلت عليه تدخل فى دين الله، وشعر أن الإسلام سيعمُّ فيها، ورأى أن مهمته فى نشر الإسلام بالجزيرة العربية توشك على نهايتها، وأن واجبا عليه أن يدعو إلى الإسلام الأمم من حوله، وحينئذ فكر فى دعوة ملوكها.

وأبدأ بكتابه إلى النجاشى الذى كان صديقا للمسلمين طول اضطهادهم بمكة، وجعل بلاده ملجأ لهم، ورفض أن يسلمهم إلى قريش حين طلبوا إليه ذلك، وعاشوا عنده آمنين رجالا ونساء بالعشرات، وكان يجلّ الرسول ودينه، فرأى الرسول أن يدعوه إلى اعتناق الإسلام مع شعبه، وفيما يلى صورة من نسخة الكتاب الذى أرسله إليه :

من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة :

كتاب إلى النجاشي ملك الحبشة

"سِلْمٌ أنت فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، الملك، القُدّوس، السلام، المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصيفة، حملت بعيسى: خَلَقَهُ الله ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه. وإنى أدعو إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تَتْبَعني وتُوقن بالذى جاءنى فإنى رسول الله وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجلّ، وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتّبع الهدى".

ويذكر بعض المؤرخين للنجاشى رسالة قبل فيها دعوة الرسول وأسلم، وليس بين أيدينا دليل تاريخى على أن النجاشى أسلم، إذ لا تزال الحبشة مسيحية إلى اليوم.

وأرسل الرسول ﷺ عبد الله بن حذافة إلى كسرى أبرويز ملك فارس، بكتاب يدعوه إلى اعتناق الإسلام، ومما جاء فيه: "سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. وأدعوك بدعاء الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأُنذر مَنْ كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلمْ تسلم، فإن أبيت فإثم المجوس عليك".

غضب كسرى من دعوته إلى الإسلام

وغضب أبرويز من الكتاب ومزّقه، ويُقال: بل مزقه ابنه شيرويه لأنه هو الذى تسلّم الكتاب إذ كان قد قتل أباه وتولى الملك بعده. وعاد عبد الله بن حذافة وذكر للرسول أن شيرويه مزّق الكتاب، فدعا عليه بتمزيق ملكه. وما هى إلا سنوات حتى تمزق ملكه، وأصبحت فارس أرضا إسلامية.

وبعث الرسول بدحية بن خليفة الكلبى إلى هرقل قيصر الروم بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ومما جاء فيه:

كتاب إلى هرقل قيصر الروم

"سلامٌ على من اتّبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمْ تسلمْ يُؤْتك الله أجرَك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأكّارين

(الفلاحين). والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. وإلا فلا تَحُلْ بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية".

ويقال إن دحية أُوقف فى بُصْرى بالقرب من دمشق، وأخذ حاكمها الرسالة من دحية وقُدِّمت لقيصر الروم: هرقل، وترجمت له، ولم يتخذ إزاءها أى إجراء .

وأرسل الرسول ﷺ حاطب بن أبى بَلْتعة إلى المقوقس عامل بيزنطة على مصر بكتاب جاء فيه:

كتاب إلى المقوقس وهديته إلى الرسول

"سلامٌ على من اتّبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام: أسلمْ تسلمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط.. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

والآية تذكر أنهم أى النصارى اتخذوا المخلوق، وهو المسيح عليه السلام ربًّا وعبدوه مع الله. وأكرم المقوقس حاطب بن أبى بلتعة حامل الكتاب إليه. وردَّ على الرسول بكتاب لطيف جاء فيه: "سلام، أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد كرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها".

وكانت الجاريتان أختين واسمهما مارية وسيرين، واختار الرسول مارية لنفسه، وأنجب منها ابنه إبراهيم واختطفه الموت سريعا، وأهدى سيرين إلى شاعره حسان بن ثابت.

فرية سحر الرسول

وشاعت فى كتب السيرة النبوية فرية مكذوبة على الرسول فى هذا العام الثامن للهجرة، إذ قيل كذبا وبهتانا إن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر الرسول حتى كان يظن أنه فعل الشىء وهو لم يفعله. ولا أعرف كيف قبل مؤرخو السيرة رواية هذه الفرية، والله يقول فى سورة المائدة لرسوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فكيف يُسحر وهو رسول معصوم من الناس كما يقول الله؟ وهى فرية واضحة، ومن عجب أن يرويها مؤرخو السيرة، وهى محض افتراء وبهتان أثيم.

الفصل الثامن عشر

من بعوث متعددة إلى إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص

١

بعوث متعددة

كان يبلغ الرسول أن عشائر أو قبائل تتجمَّع لحربه، فكان يُسرع بإرسال البعوث إليها لعلها تثوب إلى رشدها وتدخل في الإسلام. وكان أول بعث أرسل به بعد خيبر بعث عمر بن الخطاب في شعبان سنة سبع من الهجرة إلى تُرَبة من ديار هوازن على بعد يومين من مكة في ثلاثين رجلا، وخرج معه دليل من بنى هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار. وأتى الخبر أهل تربة، فهربوا إلى كل وجه، وجاء عمر إلى ديارهم فلم يجد بها أحدا، فانصرف راجعا إلى المدينة. وفى نفس الشهر بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى بنى كلاب العامريين بنجد، وقيل بل إلى بنى فزارة الغطفانيين، وسمعوا بمقدمه، ففرُّوا، ويقال إنه قتل منهم، وعاد إلى المدينة.

بعث عمر بن الخطاب إلى تربة

بعث أبى بكر إلى بنى كلاب

ثم أرسل الرسول ﷺ بشير بن سعد فى ثلاثين رجلا إلى بنى مرَّة الغطفانيين بجوار فدك وكانوا سمعوا به، ففرُّوا، فلما نزل بديارهم لم يجد أحدا، ووجد إبلا وأغناما فساقها، وانحدر متجها إلى المدينة فأدركوه هو ومن معه ليلا، وتراموا بالنَّبل، وفنى ما مع بشير وأصحابه من النبل، فأُحيط بهم وقُتلوا، واستاق بنو مرَّة

بعث بشير بن سعد إلى بنى مرة

إبلهم وأغنامهم، وتحامل بشير بن سعد على نفسه حتى انتهى إلى فدك، وظلَّ بها حتى اندملت جراحه، وعاد إلى المدينة.

بعث غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة

وبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى فى مائتى رجل بشهر رمضان فى سنة سبع إلى الميفعة ومن بها من بنى عُوال وبنى عبد بن ثعلبة، إذ بلَغَهُ أنهم يتجمّعون لحربه، وكان مع غالب أسامة وعُلْبة بن زيد الحارثى، ودليلهم يسار مولى رسول الله ﷺ . والتقوا بجموع القوم وحضَّ غالب من معه على الجهاد وأوصاهم بالتقوى، وحمل بهم على القوم، فتقاتلوا ساعة، وانهزم القوم، وأخذوا ما لهم من الماشية والنساء. وفى هذه الغزوة تعقب أسامة بن زيد رجلا يسمى نهيك بن مرداس حتى دنا منه، فقال نهيك: لا إله إلا الله، فقتله أسامة، فقال له غالب: بئس ما فعلت، أتقتل رجلا يقول: لا إله إلا الله! ومضوا بالنعم والغنم والنساء إلى المدينة. وذكر أسامة للرسول ﷺ ما صنع من قتل نهيك بعد أن قال له: لا إله إلا الله، وجعل الرسول يعنّفه ويقول له: أتقتل رجلا يقول: لا إله إلا الله! فقال أسامة: إنما قالها تعوُّذا من القتل. فقال له: أفلا شققت على قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟ واستغفر رسول الله ﷺ لأسامة ثلاث مرات، وقال له: أعتق عن قتلك الرجل عبدا، لعل الله يغفر لك. وعقد البخارى لهذه السرية بابا ذكر فيه أن الرسول بعث أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة (وربما كان ذلك بعثا آخر)، يقول أسامة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما لحقنا به قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصارى عنه ، وطعنته برمحى وقتلته. فلما قدمنا المدينة بلغ الرسول ﷺ ما صنعت به، فقال: يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ قلت: إنما كان متعوِّذا. فما زال الرسول يكرِّرها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

أسامة يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله

بعث أسامة إلى الحرقات

بعث بشير بن سعد لجمع من غطفان

وبلغ رسول الله أن جمعا من غطفان فى ديارهم بيمْن وجُبار فى نجد قريبا من خيبر ووادى القرى واعدهم عُيَيْنة بن حصن الفزارى ليكون معهم ليزحفوا إلى بعض أطراف المدينة، ليغنموا بعض ما بها من النعم (الإبل والغنم) والخيل، فذُكر ذلك لأبى بكر وعمر، فأشارا بإرسال بشير بن سعد إليهم، فبعثه رسول

الله ﷺ فى ثلاثمائة رجل فى شوال من السنة السابعة، فمضى حتى دنا بمن معه من القوم، فأصابوا لهم نعما كثيرا، وتفرّق الرعاة، فحذروا أصحابها من هجوم المسلمين وأنذروهم فتفرقوا ولحقوا بأعالى بلادهم. وأتى بشير بن سعد ديارهم بيمْن وجُبار فلم يجد أحدا فرجع بالنعم إلى المدينة، وفى طريقه لقى جمعا لعُيَيْنة بن حصن فناوشه وانهزم الجمع، وأسر منه رجلا أو رجلين، فقدم بهما على رسول الله ﷺ، وأعلنا إليه إسلامهما، فأطلقهما وردَّ إليهما حريتهما.

وكل هذه المناوشات التى حدثت بعد خيبر فى السنة السابعة كانت مناوشات محدودة مع بعض قبائل الأعراب فى نجد لإعلامهم بالإسلام، وظلت شعبية الرسول ﷺ وجنده من الصحابة تتوطّد فى نفوس الأعراب بكل مكان. وظل المسلمون بالمدينة فى رغد من العيش آمنين.

٢

عمرة القضاء

لما أهلَّ شهر ذى القعدة من السنة السابعة وأصبح للرسول ﷺ الحق فى دخول مكة وزيارة الكعبة وأداء العمرة كما تقضى بذلك معاهدة الحديبية نادى الرسول فى الناس أن يستعدوا لأداء عمرة القضاء، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، ولبّاه من المسلمين عُمَّارٌ (طالبو العمرة) ممن لم يشهدوا الحديبية حتى بلغ العدد ألفين، تجمعوا فى ملابس الإحرام البيض، يتعطشون إلى قضاء هذه العمرة ورؤية مكة والكعبة، وخاصة المهاجرين الذى يتشوقون إلى رؤية المنازل التى ولدوا فيها وأمضوا بها صباهم وشبابهم الباكر، ورؤية الأهل والأصحاب الذين فارقوهم منذ سبع سنوات. وكان لكثير من الأنصار صلات مصاهرة فى مكة ويودُّون رؤيتهم، كما كان لهم مع أثرياء مكة صلات تجارية، وكان جميع المعتمرين من المسلمين يودُّون رؤية مكة التى أنجبت الرسول والتى نزل فيها الوحى يحمله إليه جبريل. وخشى الرسول غدر قريش فجهَّز مائة فارس يتقدمون

الركب بقيادة محمد بن مسلمة الذى اشترك فى جميع غزوات الرسول ﷺ ليكشف الطريق أمام الركب، وجعل الرسول ﷺ مع الركب عُدَّة كبيرة من الأسلحة والرماح والأقواس والسهام خشية غدر قريش. ولم يحمل المعتمرون سلاحا إلا السيوف فى أغمادها كما اشترطت معاهدة الحديبية وساق الرسول ﷺ ستين ناقة هَدْيا إلى الكعبة وقلّدها شعارات الهَدْى بيده الكريمة.

الرسول يحرم ويتقدم الركب

وأحرم الرسول ﷺ من باب المسجد، وسار فى مقدمة الركب على ناقته القَصْواء يلبِّى تلبية الحج: "لَبَّيْك اللهم لَبَّيْك، لَبَّيْك لا شريك لك، لَبَّيْك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك" ولَبَّى المسلمون معه، وكان ركبا عظيما بهر أعراب نجد فى الطريق إلى مكة.

ولما وصل الرسول وركبه إلى وادى مرّ الظهران بالقرب من مكة أمر بشير بن سعد المشرف على السلاح أن ينزل به فى بطن يَأجَج (مكان على بعد ثمانية أميال من مكة)، ورأى نفر من قريش هذا السلاح فأبلغوا عنه قريشا، فبعثت مِكْرز بن حفص مع نفر إلى الرسول ﷺ ، فقال له مكرز: ما عُرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر، أتدخل بالسلاح على قومك وقد شرطت فى معاهدة الحديبية أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف فى القُرُب (الأغمدة)، فقال له الرسول ﷺ : إنى لا أُدخل عليهم السلاح، والمعتمرون معهم السيوف فى القُرُب، فقال له مكرز: هذا الذى تُعرف به من الوفاء والبرّ، ورجع إلى قريش فطمأن القوم وقال لهم: إن محمدا على الشرط الذى شَرَط لكم.

أهل مكة يخرجون منها

وأمر أبو سفيان أهل مكة – حين يقرب محمد – بالخروج منها إلى التلال والجبال من حواليها حتى لا يلقاهم فيها أحد من أهلها، وحملوا خيامهم معهم ومؤنهم وبُسُطهم وانسحبوا إلى التلال والجبال، وتسلق كثيرون ذرى الجبال ليشهدوا الموكب. ودخل الرسول وركبه فى بطء من الثَّنيَّة فى شمال مكة راكبا القصواء وعبد الله بن رواحة آخذٌ بزمامها يلبِّى وأصحابه حوله متوشحو السيوف يلبُّون. وما زال الرسول يلبِّى، وحين اقترب من المسجد الحرام وضع

ثوب الإحرام

رداءه تحت إبطه الأيمن وغطّى به الأيسر من جهتى صدره وظهره وعدّى منكبه الأيمن وذراعه، ودخل المسجد يقال راكبا، يريد الطواف، واستلم الركن عندالحجر الأسود بمِحْجنه (عصا صغيرة معقّفة كالصولجان)، وهرول فى الأشواط الثلاثة الأولى، ومشى فى الأربعة التالية، وكان ابن رواحة، وهو آخذ بزمام الناقة يرتجز فى طوافه، فقال عليه السلام: إيهًا (اسكت) قل: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فرددها المعتمرون. ولما أنهى الرسول طوافه بالكعبة انتقل مع الحجاج إلى السعى على ناقته بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وكان يهرول فى جزء من الشوط، تذكارا لهرولة هاجر ومشيها السريع بينهما بحثا عن ماء لابنها إسماعيل. ويقوم الحجاج دائما بهذه الهرولة فى السعى. ووقف عند فراغه من السعى قريبا من المروة، وكان قد وقف الهَدْى عندها، فقال: هذا منحر، وكل فجاج مكة منحر، ونحر هَدْيه، وشركه فيه من شهد الحُدَيْبية. وأخذ المعتمرون ممن لم يشهدوها يطلبون نوقا ليقدموها هَدْيا إلى الكعبة، ومن وجد ناقة نحرها أو بعيرا، ورُخّص لمن لم يجد ذلك أن يهدى إلى الكعبة بقرة، وكان رجل قدم مكة ببقر فاشتراه المعتمرون منه. وحلق الرسول رأسه عند المروة، وحلق المعتمرون بعده، وبذلك أتموا مراسيم العمرة فى اليوم الأول من دخولهم مكة. وكان وراءهم محمد بن مسلمة وبشير بن سعد ومن معهما من حرسة الخيل والسلاح. وبعث الرسول مكانهم قوما يحرسون الخيل والسلاح وجاءوا وطافوا وسعوا بين الصفا والمروة فأدّوا بدورهم العمرة.

الطواف والسعى

الهَدْى

ولم يجد المهاجرون مكة التى كانوا يتمنّون رؤيتها، فقد وجدوا أسواقها مقفرة وليس هناك من يبيع أو يشترى، فالحوانيت مغلقة والدور التى ولدوا فيها وشبوا بين جدرانها مُقْفلة، والأهل والعشيرة خرجوا من مكة، وضاع منهم الأمل فى لقاء الإخوان والأصدقاء، ولم ينزل الرسول بيتا له فى مكة، وضُربت له قبة من أدمٍ بالأبطح. وهو صنيع أبى سفيان وأصحابه الدهاة الذين أخرجوا أهل مكة

فى مقام الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين مدة الأيام الثلاثة التى أتاحتها قريش للرسول فى معاهدة الحديبية، فلم ير المهاجر المعتمر أخا له فى مكة ولا أختا ولا أحدا من أهله، ولم يكن بإمكانه أن يزور الدار التى تربى فيها فهى مغلقة مقفلة ولا سبيل إلى أن تُفتح. وبذلك ظل المهاجرون مثل بقية المعتمرين يحتشدون عند الكعبة.

وفى الغد دخل رسول الله ﷺ الكعبة وظل بها، وفيها أخذ يفكر فى إبراهيم وإسماعيل وبنائهما الكعبة، ولعله أخذ يذكر موقف قريش منه ومن رسالته ومعاداتها له وحربه. ولا شك فى أنه كان يرى اليوم أن هذه العمرة تعدُّ تمهيدا قويا لفتح مكة وأنه ملك بها قلوب كثيرين من أهلها. وحان وقت الظهر، فطلب بلالا مؤذن الإسلام وأمره أن يصعد إلى سطح الكعبة ويؤذن لكى يصلّى المسلمون صلاة الظهر، وصعد بلال وتعالى صوته بالأذان فى أرجاء مكة وحافاتها من التلال والجبال: الله أكبر. الله أكبر(مرتين). أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله..، وردّد المعتمرون مع بلال كلمات الأذان، وارتجت بصوته وأصواتهم كل جنبات مكة فى الشمال والجنوب والشرق والغرب. وأَمَّ الرسول المعتمرين واستشعروا غبطة لا حدود لها، فها هو الإسلام يشق طريقَه إلى مكة وإلى الكعبة، ويتعالى أذانه فى السماء، فيصدع الصخور المحيطة. وأين آلهتهم الجاثمة فى الكعبة؟ وأين الصواعق التى كان يظن القرشيون الوثنيون أنها تُرسلها على أعدائهم، لقد ثبت أنه لا حول لها ولا قوة. وبدا لكثيرين من أهل مكة رجالا ونساء أن دينهم الوثنى إنما هو خرافة. وأخذ يبدو للعيان أن مكة إن لم تعتنق الإسلام اليوم فستعتنقه غدا أو بعد غد.

بلال يؤذّن لصلاة الظهر

وكانت لزوجة عم الرسول العباس بن عبد المطلب أخت أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها خالة خالد بن الوليد تُسمّى ميمونة بنت الحارث قد أسلمت وشغفت بالرسول ودينه الحنيف، وأسرّت إلى زوج أختها العباس أنها تتمنى لو تزوجت الرسول، فعرضها العباس عليه، وتزوجها ولم ير بأسا فى اقترانه

زواج الرسول بميمونة

بها ظنا منه أن ذلك قد يلين له قلوب بعض أشراف مكة، وقد يَسُرُّ قريشا وتسمح له بالمقام فى مكة حتى يقيم لها عرسا يُنزل قريشا من التلال والجبال وتشترك فيه، فيسود الوئام والسلام بينه مع صحابته وبين قريش، ولكن ما ظنَّهُ لم يحدث وإن اكتسب بعض الرضا من أهلها. وجاءه عند الظهر فى اليوم الرابع من دخوله مكة سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العُزّى اللذان عقدا معه معاهدة الحديبية، فقالا له: قد انقضى أجلك فاخْرج عنّا. فقال لهما: وما عليكم لو تركتمونى فأعْرسْتُ بميمونه بين أَظْهُركم وصنعت طعاما؟ فقالا له: لا حاجة لنا فى طعامك، اخرُج عنا ننْشدُك الله والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت. فأمر رسول الله بالرحيل عن مكة إلى سَرِف على بعد ستة أميال من مكة ليتجمَّع المسلمون فيها وينطلقوا منها إلى المدينة.

عمارة بنت حمزة

ونزل الرسول بسَرِف وأمر أبا رافع أن يحمل إليه ميمونة بنت الحارث حين يمسى، فخرج بها من مكة مساء، وبنى بها الرسول ﷺ فى سَرِف. وكان على بن أبى طالب كلَّم رسول الله ﷺ فى عُمارة بنت حمزة عمه – وكانت مع أمها سلمى بنت عُمَيْس بمكة، فقال له: علام نترك بنت عمنا يتيمة بين ظهرانى المشركين فخرج بها، حتى إذا قربوا من المدينة أراد زيد بن حارثة – وكان وصىَّ حمزة وآخاه أخوة المهاجرين – أن يأخذها، وقال: أنا أحق بها ابنة أخى، فقال جعفر بن أبى طالب: الخالة والدة، وأنا أحق بها لمكان خالتها عندى أسماء بنت عُميس، فقال علىّ: أراكم تختلفون فى ابنة عمى، وأنا أخرجتها من بين أظْهُر المشركين، وليس لكم إليها نسب دونى، وأنا أحق بها منكم، واحتكموا إلى رسول الله ﷺ : فقال: أحكم بينكم، أما أنت يا زيد فمولى الله ورسوله، وأما أنت يا على فأخى وصاحبى، وأما أنت يا جعفر فتُشْبه خَلْقى وخُلُقى، وأنت يا جعفر أولى بها لأن عندك خالتها ولا تتزوَّج المرأة على خالتها ولا على عمتها، فقضى بها لجعفر، وقال علىّ للرسول ﷺ : تزوَّجها يا رسول الله قال: لا تَحلّ لى إذ هى ابنة أخى حمزة من الرضاعة.

٣

زوجات الرسول

كُتبت عن زوجات الرسول كتابات متفرقة، وأرى أن أكتب عنهن مجتمعات. كانت خديجة أولى زوجاته، تزوَّجها فى الخامسة والعشرين من عمره وهو ممتلئ شبابا وحيوية، وهى معجبة بنزاهته وأمانته ومحبَّةٌ لشخصه غاية الحب. ولما فَجَأَهُ الوحى فى غار حِراء بعد خمسة عشر عاما من زواجهما، واضطرب فى أول لقاء له بجبريل غاية الاضطراب، وفيما أمره به من قراءة أول سورة العلق، واشتد به الاضطراب والفزع ولم يستطع تفسير ما رأى، انطلق من غار حراء الذى لقيه فيه جبريل هائما فى شعاب الجبل حتى مكة، ودخل على خديجة يرتجف فزعا وهلعا لا يَدْرى ما الذى جاءه فى الغار أَملاَك هو أو شيطان وهل سيكون نبيًّا أو سيكون كاهنا. واستعاذ بالله من الكهانة، وطمأنته خديجة وقالت له: أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذى نفسُ خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىَّ هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبدا. وانطلقت به إلى ابن عمها: ورقة بن نوفل، وحكى له كل ما حدث له، فقال له: لقد جاءك الناموس الأكبر (يريد جبريل) الذى نزل على موسى، وأكَّد لها أنه سيكون نبىَّ الأمة. وظلت خديجة الزوجة المخلصة المحِبَّة لزوجها التى توليه ثقتها وتشجيعها فى المواقف الحرجة أيام دعوته لرسالته بمكة، واستحالت وزيرة له ومستشارة ثاقبة الرأى حتى لبَّت نداء ربها فى الحادية والخمسين من عمره. ومنها أنجب جميع أولاده، ما عدا إبراهيم الذى ستلده له مارية القبطية، فولدت خديجة له القاسم وتوفى سريعا، وزينب وتزوجها أبو العاص بن الربيع، وتوفيت سنة ثمان للهجرة، وعبد الله وتوفى سريعا، ورقية وتزوجها عثمان بن عفان وتوفيت يوم البشرى بانتصار الرسول على قريش فى بدر بالسنة الثانية، وأم كلثوم وتزوجها عثمان بعد وفاة أختها وتوفيت سنة تسع للهجرة، وفاطمة وتزوجها ابن عمها على بن أبى طالب وولدت له الحسن والحسين ومحسنا ومات صغيرا.

خديجة

وقد عاش الرسول مع خديجة خمس عشرة سنة قبل مبعثه وعشر سنوات بعد مبعثه أى زمن شبابه وبعضا من كهولته، ولم يفكر فى أن يتزوج عليها بكرا أو ثيبا مما ينفى عنه الشهوانية التى يلصقها بها المستشرقون أمثال إرفنج وموير وفَيْل وشبرنجر ودرمنجم لزواجه المتعدد فيما بعد، وسنرى له مبررات تبعد عنه ظن الشهوانية الآثم. وأولى زوجاته وهو بمكة بعد خديجة سودة بنت زَمعة أرملة السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمر وكان من السابقين إلى الإسلام وهاجر بها إلى الحبشة، وعاد بها حين شاع أن قريشا دخلت فى الإسلام بعد إسلام عمر ابن الخطاب، وتوفى عنها. ولما رأى الرسول أن أحدا لم يتقدم إليها ليعولها، ولم تكن ذات جمال ولا ذات ثراء وكانت متقدمة فى السن، رأى أن يتزوجها، وهو زواج جدير فيه بكل حمد وثناء. تزوجها الرسول فى السنة الحادية عشرة من البعثة، وتوفيت فى آخر خلافة عمر بن الخطاب.

سودة بنت زمعة

وفى شوال من السنة الأولى من الهجرة تزوج الرسول بعائشة بنت أبى بكر الصديق وزير الرسول الأول وأول من آمن به من قريش وجهر بتلاوة القرآن فى مسجده الذى ألحقه بداره، ورافقه فى هجرته فتحمل معه أذاها ومشقتها. وكان الخليفة الأول للمسلمين، وأنقذ الإسلام بحروبه أهل الردة ودفع العرب لفتح فارس والشام، وفضلُه على الإسلام والمسلمين أعظم من أن أخصه فى سطور. وعرف الرسول له فضله، فطلب منه يد ابنته عائشة ابتغاء مصاهرته، إذ المصاهرة توثق الصلة بالشخص عند العرب توثيقا شديدا حتى لتصبح صلتها صلة الدم والنسب الحقيقى. وأخطأت الأخبار، فقال بعضها إن الرسول تزوج بها بنت تسع، والصحيح أنه تزوج بها فى نحو العشرين من عمرها، إذ ذكر مؤرخو السيرة النبوية نقلا عن ابن إسحاق أنها كانت من أوائل من أسلم مع أختها أسماء، ولكى نعطيها عُمْرا ليصبح وصفها بأنها أسلمت ينبغى أن يكون عمرها نحو ست سنوات أو سبع على الأقل، ومكثت مع الرسول فى مكة ثلاث عشرة سنة بعد إسلامها ثم هاجرت وتزوجها الرسول فى شوال من السنة الأولى للهجرة، وهى فى نحو العشرين من عمرها. ونفس ما انفردت به عن زوجات

عائشة

الرسول من رواية نحو ألفين ومائتي حديث يتناول كثير منها أحكام الشريعة الإسلامية، وأيضا رجوع المسلمين إليها بالفتوى فى شئون دينهم لاستيعابها أوامره ونواهيه، وأيضا كانوا يرجعون إليها فى تفسير بعض الآيات القرآنية. كل ذلك يدل بوضوح على أنها كانت ناضجة السن حين زواجها بالرسول وأنه ليس بصحيح أنه تزوجها طفلة بنت تسع سنوات؛ وبذلك يسقط كل ما علّق به المستشرقون وأنكروه من زواج الرسول بطفلة فى التاسعة من عمرها. فالصحيح أنه تزوجها فى نحو العشرين من عمرها، وفضائلها جمّة ومناقبها كثيرة، وسئل الرسول أيُّ النساء أحبُّ إليك فقال عائشة، وقيل له فمن الرجال قال أبوها، وكان أصحاب الرسول يسألونها فى أمور الشريعة. وقال عطاء بن أبى رباح تلميذ ابن عباس: كانت أفقه الناس وأعلمهم، وقال عروة بن الزبير: ما رأيت أحدا أعلم بفقه من عائشة. توفيت سنة ست وخمسين، وأبت أن تدفن فى حجرتها مع الرسول وأبى بكر وعمر ودفنت فى البقيع: مقبرة أهل المدينة. ولم يتزوج الرسول بكرا سواها.

حفصة بنت عمر

وزوجة الرسول الثالثة فى المدينة حفصة بنت عمر بن الخطاب وزيره الثانى الذى أعزَّ الله به الإسلام حين أعلن إسلامه وجاهر بالصلاة فى الكعبة فلم يتعرض له أحد من قريش، وفتَّ إسلامه فى عضدها وأيّد المسلمين فى مكة تأييدًا فى غاية القوة. وكان الرسول يقول: إذا اتفق أبو بكر وعمر على أمر لم أخالفهما، وكان الخليفة الثانى للمسلمين الذى وضع لهم أسس إمبراطوريتهم الإسلامية. وكان طبيعيا أن يوثّق الرسول العلاقة بعمر عن طريق المصاهرة كما وثّقها بأبى بكر. وكانت حفصة متزوجة بخُنيس بن حذافة السَّهمى، وتوفى عنها من جراحات أصابته ببدر، وعرضها عمر على عثمان بعد وفاة زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فقال له: لا أريد الزواج الآن، فانطلق عمر إلى الرسول يشكو إليه عثمان وأنه رفض الزواج بابنته، فقال له الرسول: تتزوج حفصة خيرا من عثمان، ويتزوج عثمان خيرا من حفصة، وكان عثمان قد طلب منه ابنته أم كلثوم، فزوَّجها له. وتزوج الرسول حفصة فى شعبان من السنة الثالثة، وكانت

صوّامة قوامة بالصلاة ليلا. وصادقت حفصة عائشة وصارتا صديقتين حميمتين، كما كان أبواهما صديقين حميمين. وكان عمر قد أشار على أبى بكر بعد سنتين من خلافته أن يكتب القرآن الكريم فى مصحف واحد، فجمع لذلك الحفظة المشهود لهم بالإتقان، وأمر أبو بكر زيد بن ثابت أن يكتب القرآن كله على الترتيب الذى تلقاه هو ومن معه من الحَفَظَة عن الرسول بنفس الألفاظ ونفس الحروف ونفس الصورة فى العرضة الأخيرة التى تدارس فيها الرسول القرآن مع جبريل بعد تمامه. وظل المصحف عند أبى بكر حتى وفاته، ثم عند عمر حتى وفاته، ثم عند ابنته حفصة، وظل عندها حتى طلبه منها عثمان – على أن يردَّه إليها – بعد نسخه فى مصاحفه العثمانية المشهورة التى وزعها على الأمصار الإسلامية، واتخذ عثمان لذلك لجنة من أهم الحفظة برياسة زيد بن ثابت. وفى ذلك فضل عظيم لحفصة إذ حفظت لديها النسخة الأولى من المصحف العظيم حتى أدَّتها إلى عثمان. وتوفيت سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وأوصت إلى أخيها عبد الله بما أوصى به أبوهما وبصدقة بمال وقفته فى الغابة بضاحية المدينة.

زينب بنت خزيمة

وبعد زواج الرسول من حفصة بنحو شهر تزوج زينب بنت خزيمة أرملة ابن عمه: عبيدة بن الحارث، وكان استشهد ببدر ، وكأن الأسباب التى دفعته إلى الزواج من سودة بنت زمعة هى نفس الأسباب التى دفعته إلى الزواج بزينب، فقد كان زوجها من السابقين، وأبلى فى أول بعث للرسول للقاء جماعة من قريش وفرَّ إليه المقداد وعتبة بن غزوان وأبلى فى بدر، وبها لقى ربه شهيدا. وتزوج الرسول زينب بنت خزيمة كما تزوج سودة ليعلم المجاهدون من المسلمين فى الحروب أنهم إذا استشهدوا فى سبيل الله وتركوا وراءهم زوجات لن تجوع ولن تُهمل، وسيتزوجهن بعض المسلمين ليعولوهن وينفقوا عليهن. وكانت زينب بنت خزيمة خيِّرة ، ولُقِّبت أم المساكين لرأفتها بهم. ومكثت عند الرسول بعد زواجه بها ثمانية أشهر ، إذ توفيت فى شهر ربيع الآخر بالسنة الرابعة للهجرة وقد بلغت ثلاثين عاما، ولم يمت من أزواج الرسول فى حياته سواها وسوى خديجة.

أم سلمة

وبعد زينب تزوج الرسول أم سَلَمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومى أرملة أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد رضيع رسول الله وابن عمته برَّة بنت عبد المطلب، وهما أول من هاجر إلى أرض الحبشة وعادا إلى مكة مع من انصرف منها حين ظنوا أن قريشا أسلمت خبرا كاذبا. وكان أبو سلمة أول مهاجر إلى المدينة، وحُبست أم سلمة عنه سنة ثم لحقته، وكان بطلا مغوارا، وأبلى بلاء عظيما فى بدر وأُحُد، وجُرح فى أُحُد وبرئ جرحه فعقد له الرسول لحرب طلحة بن خويلد وبنى أسد، إذ بلغه أنهم يستعدون لحربه، وبعث معه مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار فعلموا بمَقْدِمِهِ، فتشتَّتوا، وغنم هو ومن معه بعض أنعامهم وعادوا إلى المدينة. وانتقض جرحه ومات منه فى أوائل جمادى الآخرة، وحضره الرسول وهو على فراش موته وظل إلى جانبه يدعو له حتى توفى فأسبل عينيه. وكانت قد ولدت لزوجها: برَّة على اسم جدتها وسلمة وعمر ودرة. وكان الرسول يقدره ويقدر شجاعته ، وأشفق على زوجته وأبنائها الضعاف فمَنْ يعولهم بعد وفاة أبيهم أخيه من الرضاعة، وطلب الرسول يدها ليرعى لها أبناءها، فقالت له: إنى مسنة تقدَّمت بى السن وذات عيال أيتام وشديدة الغيرة، فقال لها: أنا أسنّ منك، وعيالك عيال الله ورسوله، وأدعو الله لك فيذهب عنك الغيرة، وكانت قد اعتدت بعد موت زوجها وأحلت إذ مرت على وفاته أربعة أشهر. وارتضته وتزوَّجها ورعى أبناءها وأبناء أخيه من الرضاعة أبى سلمة بن عبد الأسد. فزواج الرسول بأم سلمة إنما كان صِلَة رحم وعونا على تربية أبنائها؛ مما جعل المسلمين يشعرون بحق أنه أب لكل من فقد أباه شهيدا. وتوفيت سنة ستين من الهجرة.

زينب بنت جحش

وزوجة الرسول بالمدينة السادسة زينب بنت جحش ابنة عمته: أميمة بنت عبد المطلب، وأَبَى بعض الرواة إلا أن ينسجوا حولها – خطأ – قصة عن تعلق للرسول بها فقالوا إنه مرَّ على دار زوجها زيد بن حارثة ورأى أن يسأل عنه، ولم يكن موجودا فرآها ووقعت فى قلبه، فقال سبحان مقلّب القلوب، ولو كان شخصا عاديا لأمكن أن نصدق هذا القول منه، أما محمد رسول الأمة وفى بيته

زوجات جميلات: عائشة وحفصة وغيرهما، هل يُعقل أن يصدر ذلك عنه بمجرد رؤيته زينب بنت جحش ابنة عمته التى نمت فى صباها وشبَّت تحت بصره؟ وأكثر من ذلك هو الذى خطبها من أخيها عبد الله بن جحش لمتبنِّيه: زيد بن حارثة الذى كان عبدا مسترقًّا وأهدته إليه زوجته خديجة فحرَّره، وعرضه على عبد الله بن جحش زوجا لأخته زينب، فلم يجبه توًّا إذ العرب تستنكف أن يتزوج شخص كان أصله عبدا مسترقا بنتا من بيت شريف كبيت عبد المطلب، وبالمثل عارضت أخته زينب هذا الزواج، وأصرَّ عليه الرسول، وراجع ابن عمته عبد الله بن جحش حتى رضى. وقبل ذلك هدم لزيد فوارق الرق والسيادة إذ كان قد فرض أخوة بين المهاجرين، واختار لزيد أخوة عمه: حمزة بن عبد المطلب. والرسول حين خطب زينب ابنة عمته لزيد كان يعرفها معرفة الأب لابنته أو الأخ الكبير لأخته الصغرى، فخطأ أكبر الخطأ أن يقول راوٍ إن زينب وقعت فى قلب الرسول حين رآها لأول مرة، وهو رآها قبل ذلك عشرات المرات فى مكة وبعد زواجها من زيد، إذ لم يكن الحجاب قد ضُرب على نساء المؤمنين فى هذا التاريخ. ويضيف راوٍ ثان أنه لما فُتح باب دار زيد عبث الهواء بستارة على باب غرفة نومها وكانت ممدَّدة على السرير فى قميصها، فرأى مفاتن جسمها. وهو خبر مكذوب مثل سابقه، ويؤكد كذبه أن الله فرض – فى سورة النور – الاستئذان على كل من يزور أحدا فى بيته قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وكان لا ينزل أمر للمسلمين إلا ويسارع الرسول ﷺ إلى الائتمار به، وخبر دخول الرسول بيت زيد دون إذنه خبر مكذوب على الرسول ولا أساس له. ومنذ تزوجت زينب بنت جحش زيدًا، كانت سيئة العشرة له متعالية عليه، ودائما تذكّره بأنه كان عبدا مسترقا وهى من شريفات قريش، ودائما كانت تقول له إنك لست أهلا لى، وتمنُّ عليه بأنها رضيتْه زوجا لها ولولا أن الرسول اختاره لها ما ارتضته، وكان ذلك يؤذيه إيذاء شديدا، وكان يذهب مرارًا إلى الرسول يطلب منه الموافقة على طلاقها، وكان

يراجعه مرارًا وخاصة أن أخاها عبد الله كان من الشهداء في غزوة أُحُد، وحُبًّا لابن عمته دفنه مع خاله حمزة بن عبد المطلب في قبر واحد، فكان الرسول يفكر فيمن يعول زينب بنت جحش بعد وفاة أخيها عبد الله في أُحُد، وربما أخذ يفكر حينئذ في أن يتزوجها بعد زيد ليعولها، غير أنه كان يخشى أن يقول الناس: طلق زينب من زيد وتزوجها، وحكى ذلك الله في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ وهو زيد أي أنعم الله عليه بالإيمان وأنعمت عليه بالعتق والتبني والمحبة، وكلما أبدى لك رغبته في طلاق زينب يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾ فلا تطلّقها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾، أي أن زيدا لو طلقها وتزوجتها تخشى أن يلغط الناس بأنك قبلت طلاقه لها لتتزوجها، وتخشى أيضا أن يقولوا تزوجت حليلة ابنك المتبنّى، ولذلك رأى الله جلّ شأنه أن يكمل الآية بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي فلما استوفى زيد حاجته منها وطلّقها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ لننزع من النفوس ما تعتقده من أن زوجة الابن المتبنّى مثل زوجة الابن الشرعي الحقيقي يَحْرُم على الأب المدّعي زواجه بها، وزواجه بها صحيح أو كما قال تعالى عزّ شأنه: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ المتبنين ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾. فزواج الرسول زينب بنت جحش إنما كان بأمر إلهي لإقرار حكم شرعي بإبطال ما يزعمه الأبناء الأدعياء من حقوق لهم.

وتلك هي الحقيقة أو الحقائق التاريخية لزواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، ولا شبهة لغرام أو وَلَه يصوره بعض الرواة ولا لشهوة حسية كما يتوهم بعض المستشرقين، فكل ما زعموه باطل ولا أصل له. وانتظر الرسول بعد طلاق زيد لزينب انتهاء العدة المقررة بين الطلاق والزواج، ثم تزوجها في ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة، وقيل بل بعد غزوة الأحزاب في السنة الخامسة، والأول أصح. وظلت زينب تفخر بأنها الوحيدة بين نساء النبي التي زوّجها الله لرسوله. وكانت أسبقهن إلى اللحاق به، إذ توفيت سنة عشرين أو إحدى

وعشرين للهجرة، وقالت عائشة عنها هى التى تساوينى فى المنزلة عند رسول الله ﷺ ، وما رأيت امرأة قط خيرا فى الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة. وقال الرسول عليه السلام لعمر عنها: إنها لأواهة أى لخاشعة متضرعة.

آية الحجاب

واقترن زواج الرسول بزينب بنت جحش بنزول آية الحجاب لنساء المسلمين عامة فى قوله تعالى بسورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ والجلابيب جمع جلباب، وهو الإزار (أى مايشبه الطرحة) تضعه المرأة على رأسها، ويتدلى جانباه على جانبى وجهها وتغطى به ثغرة نحرها وتسدل سائره على كتفها ورأسها. وليس منه تغطية الوجه وإبراز العين اليسرى فالوجه معه سافر مكشوف. ومن المهم أن نعرف أن فكرة الحريم التى انتشرت فى البلاد الإسلامية فكرة تركية ولا ترجع إلى أصل عربى.

جويرية بنت الحارث

وفى شعبان من السنة السادسة للهجرة قيل لرسول الله ﷺ إن بنى المصطلق يجمعون لك يريدون حربك، فأغار عليهم وهم غافلون وكانوا على ماء يسمى المريسيع، فقتل منهم نفرا وسبى الذرارى والنساء واستاق الجيش لهم ألفى بعير وخمسة آلاف شاة ومائتى أهل بيت. وكلّموه فى رد الغنائم، وأمّل فيهم الدخول فى الإسلام وتمنى لو يجد فرصة، وكانت فى السّبى جويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار سيد بنى المصطلق، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس، وفرض عليها ست أواق من الذهب، فذهبت إلى الرسول تستعين فى فدائها فعرض عليها أن يفديها ويتزوجها ورحبت بذلك. وبمجرد أن علم الجيش أن الرسول سيتزوجها ردَّ كل رجل ما بيده من سبى بنى المصطلق رجالا ونساءا وإبلا وغير إبل، ودخلت كل القبيلة فى الإسلام. وكان اسم جويرية برَّة فسمَّاها الرسول جويرية، وتقول السيدة عائشة: ما رأيت امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية. وواضح أن الرسول إنما تزوج جويرية ليرد الجيش غنائم قومها وسبيهم

رجاء دخولهم فى الإسلام، وهو ما حدث ببصيرته النافذة. وتوفيت جويرية بالمدينة سنة ست وخمسين ودُفنت بالبقيع.

وتزوج الرسول بعد جويرية صفيَّة بنت حُيَىّ بن أخطب سيد بنى النَّضير، قُتل مع بنى قريظة، وكانت من سَبْى خيبر تزوجها سلام بن مِشْكم سيد خيبر ثم كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وقُتل فى غزوة خيبر، وطلبت لقاء الرسول فلقيها وأبدت له مودتها فاصطفاها لنفسه وأعتقها وأسلمت وتزوجها فى طريقه إلى وادى القُرى – كما مرَّ بنا – وكانت حسنة الإسلام فاضلة حليمة حصيفة. وجاءت جارية لها إلى عمر بن الخطاب وهو خليفة، فقالت له إن صفية تحب السبت وتصل اليهود، فسألها، فقالت له: أما السبت فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به يوم الجمعة، أما صلتى لليهود فإن لى بهم رحما، وأوصت عند موتها بثلث مالها لابن أختها وكان يهوديا. وتوفيت سنة ست وخمسين للهجرة ودُفنت بالبقيع.

صفية بنت حُيَىّ بن أخطب

ولما رجع الرسول من غزوة خيبر وأخواتها إلى المدينة وجد أم حبيبة بنت أبى سفيان، ويقال إنه كان أرسل إلى النجاشى فعقد له عليها، ويُقال أيضا إنه لما عاد إلى المدينة من خيبر زوَّجه لها عثمان بن عفان، وهو الأرجح، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش وتنصَّر هناك وثبتت على إسلامها، وعادت من الحبشة مع من عاد منها زمن فتح خيبر فى أوائل السنة السابعة للهجرة. وزواج الرسول بها زواج سياسى أراد الرسول به خدمة الإسلام إذ كان أبوها زعيم قريش، وأمَّل الرسول أن يدفعه زواجه بابنته إلى أن يلين للصلح معه، ويفتح الكعبة ومكة له وللمسلمين لأداء الحج والعمرة. وكانت قد ولدت لعبيد الله بن جحش ابنتها حبيبة وبها كانت تُكنى، واسمها رملة. توفيت سنة أربع وأربعين للهجرة.

أم حبيبة

وكان كاتَب المقوقس حاكم مصر للروم يدعوه إلى الإسلام بعد غزوته لليهود وقرى الحجاز، ويبدو أنه كان معجبا به، فتلقى رسله: حاطب بن أبى بلتعة ومن معه لقاء حسنا، ورد عليه بخطاب لطيف، وأهدى إلى الرسول – كما

أسلفنا – هدية نفيسة كان منها عشرون ثوبا من قباطى مصر وألف مثقال عسل وبَغْلة أصيلة وجاريتان قبطيتان جميلتان هما مارية وأختها سيرين، واختار الرسول مارية المصرية القبطية وتزوجها تقربا للمقوقس وللمصريين لما للمصاهرة عند العرب من عقد علاقة وثيقة بين الزوج وأهل الزوجة، ومنح سيرين أختها إلى شاعره حسان بن ثابت. وغضبت زوجات الرسول لزواجه بقبطية مصرية واتحدن ضدها وأصبحت حياتها لا تطاق، فنقلها الرسول من دوره إلى العالية في المدينة، وظلت غيرتهن منها شديدة، وخاصة حين ولدت له ابنه إبراهيم في ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة، وفرح به الرسول غير أنه لم يلبث أن توفى قبل الحَبْوِ وقبل المشى وقد بلغ ستة عشر شهرا فى ربيع الأول. وقيل لم تكن زوجة بل كانت من سراريه، وتوفيت بعده بخمس سنوات.

مارية المصرية القبطية

وآخر زوجاته ميمونة بنت الحارث تزوجها فى عمرة القضاء يريد بزواجه منها – كما أسلفنا – أن تكون شفيعا له عند قريش وهى من شريفاتهم فيحاولون عقد صلح نهائى له معهم، ويأذنون له وللصحابة بأداء العمرة والحج إذا شاءوا، ولكن قريشا لم ترحب بهذا الزواج، واضطر أن يتزوج بها فى سَرِف – كما مرَّ بنا – وكان اسمها برَّة فسماها الرسول ميمونة، تزوجها فى الجاهلية مسعود بن عمرو الثقفى، وفارقها فتزوجها أبو رُهْم بن عبد العُزَّى، وتوفى عنها فتزوجها رسول الله. توفيت فى سنة إحدى وخمسين من الهجرة وأوصت أن تُدفن فى سَرِف موضع زواجها بالرسول، ودُفنت بها.

ميمونة بنت الحارث

هؤلاء هن زوجات الرسول، وهناك من يقولون كيف عدَّد الأزواج لنفسه وحرَّمها على المسلمين إلا أربعا كما فى سورة النساء: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾، والآية نزلت فى السنة الثامنة للهجرة أى أن تحريم ما يزيد عن أربع إنما بدأ فى السنة الثامنة أما قبلها فلم يكن هناك تحديد، وكان الرجل يتزوج كما شاء عشرا أو أكثر من عشر على نحو ما هو معروف عن الجاهليين وعن النبى داود وكثرة نسائه وابنه سليمان الذى استكثر منهن كثرة مفرطة. على أن الرسول ظل مع خديجة وحدها خمسة

الرد على المستشرقين

وعشرين عاما أو ستة وعشرين، ولو كان يفكر فى المتاع الجنسى لتزوج عليها غير واحدة، وإذا استعرضنا زوجاته اللائى تزوج بهن فى العقد السادس من حياته وجدنا أنهن كن جميعا أرامل، ولو كان الغرض من زواجه المتاع لتزوجهن أبكارا جميلات. ونصّ كتّاب السيرة على أنه كان بينهن من لا يتصفن بشئ من الجمال مثل سودة وزينب بنت خزيمة وأم حبيبة بنت أبى سفيان. وكانت له أغراض عليا اجتماعية وسياسية فى زواجه بنسائه، فقد تزوج سودة بنت زمعة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة لأنهن أرامل بعض السابقين إلى الإسلام حتى يعولهن، وحتى لا يُقال إنهن وأبناءهن تُركن دون عائل. وتزوج سياسيًّا بكثيرات، فقد تزوج بعائشة وحفصة حتى يوثق العلاقة بأبى بكر وعمر وزيريه. وتزوّج بأم حبيبة بنت أبى سفيان رجاء الصلح بينه وبين أبيها وأن يفتح الكعبة ومكة له وللمسلمين لأداء العمرة والحج. وتزوج زينب بنت جحش بأمر إلهى لإقرار حكم شرعى. وتزوج جويرية بنت الحارث لتُرَدُّ غنائم جيشه على بنى المصطلق رجاء أن يسلموا وأسلموا فعلا. وتزوج صفية بنت حُيَىّ بن أخطب ليصلح ما بينه وبين اليهود بعد أن استولى على حصونهم، ومرَّ بنا فى خيبر أنه حرَّم على صحابته زواج المتعة من اليهوديات إكراما لهن. وتزوج مارية القبطية المصرية إرضاء لُمهْديها المقوقس والمصريين. وتزوج ميمونة بنت الحارث إحدى شريفات مكة إرضاء لقريش وأملا فى أن تُعْلن فتحها الكعبة ومكة لأداء الرسول والمسلمين العمرة والحج متى شاءوا. وكل ذلك أدلة قاطعة على أن الرسول لم يكثر من الزواج فى المدينة ابتغاء شهوة أو متاع جنسى إنما ابتغاء أغراض عليا ذكرناها خدمة للدين الحنيف. وكما حرم الله على المسلمين الزواج بأكثر من أربع فى السنة الثامنة للهجرة حرَّم على الرسول أن يتزوج بغير من تزوج بهن حتى السنة السابعة للهجرة كما حرَّم عليه أن يطلقهن ويستبدل بهن أزواجا غيرهن، إذ يقول له: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾. ولم يحدث منه زواج بعد هذه الآية الكريمة.

٤

إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص

أخذ هؤلاء الثلاثة من أبطال قريش يفكرون فى أمرها مع الرسول منذ عمرة الحديبية والوعد بأن ينزل مكة فى العام القادم بجيشه لأداء العمرة، ووافى العام وجاء الرسول بجيشه لأداء عمرة القضاء بعد استيلائه على حصون خيبر ووادى القرى، وأخذ يستقر فى نفوس الثلاثة أن دين محمد يعلو وأنه سيُظِلّ مكة يوما وأن من الخير لهم أن يدخلوا فى دينه ويهاجروا إليه، وكانت أعنة خيل قريش فى الجاهلية وفى بدر وأُحُد إلى خالد، وكان عثمان من بنى عبد الدار الذين بأيديهم مفاتيح الكعبة، وكان عمرو بن العاص من ساسة قريش ودُهاتها.

وكان الوليد أخو خالد من السابقين إلى الإسلام والمهاجرين إلى المدينة، ودخل مكة مع الرسول وطلب أخاه خالدا فلم يجده إذ كان قد خرج عن مكة وأبعد فى خروجه، فكتب إليه كتابا فيه: "إنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وأنت ذو عقل راجح ومثل الإسلام لا يجهله أحد. وقد سألنى رسول الله عنك فقال أين خالد؟ فقلت: يأتى الله به. فقال: ما مثله يجهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له وقدمناه على غيره. فاستدرك – يا أخى – ما فاتك من مواطن صالحة. وكان قد نشط للإسلام فزادت رغبته فيه، وسَرَّته مقالة رسول الله ﷺ عنه، ولم يمض على عمرة القضاء نحو شهرين حتى صمَّم على اعتناق الإسلام والهجرة إلى المدينة ولقاء الرسول وإعلانه إسلامه بين يديه. وأخبر صفوانَ بن أمية بنيَّته فأنكرها عليه، فقال خالد فى نفسه إنه رجل موتور قُتل أبوه وأخوه ببدر، وكان عكرمة بن أبى جهل صديقه فأخبره بنيته فأنكرها عليه، وكان أبوه قُتل ببدر. ولقى عثمان بن طلحة وكان صديقه، وكان أبوه طلحة وعمه عثمان وإخوة أربعة له قُتلوا فى بدر، ومع ذلك شجعه على ما نواه، وقال له إنى عازم على ما عزمت عليه. وخرجا بشهر

صفر من السنة الثامنة للهجرة، والتقيا على بعض أميال من مكة ومضيا فى طريقهما ولقيا عمرو بن العاص فسألهما أين وجهتهما فقالا له: المدينة للدخول فى الإسلام، فقال لهما: هى نفس وجهتى، وساروا معا حتى قدموا المدينة.

ودخلوا على رسول الله ﷺ ، وتقدم خالد فسلّم وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال له الرسول: الحمد لله الذى هداك، فقد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير. فقال له خالد: يا رسول الله ادْعُ الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك. فقال له: الإسلام يجبُّ ما كان قبله. وتقدم بعده عثمان بن طلحة، فأعلن دخوله فى الإسلام بنطق الشهادتين ورحَّب به الرسول، وتبعه عمرو بن العاص، ونطق مثلهما بالشهادتين، وفرح بهم الرسول إذ قويت بهم شوكة الإسلام وبدا له أن فتح مكة وتسليمها أصبح قاب قوسين أو أدنى!

الفصل التاسع عشر

من بعوث ومناوشات إلى فتح مكة

١

بعوث ومناوشات

بعث ابن أبى العوجاء إلى بنى سليم

أول بعث أرسل به رسول الله ﷺ بعد عمرة القضاء بعث ابن أبى العوجاء السُلَمى إلى بنى سليم فى ذى الحجة آخر شهر فى السنة السابعة، بعثه إليهم فى خمسين رجلا، وكان بينهم عين أو جاسوس لبنى سليم، فأخبرهم ببعثه وحذّرهم، فأعدّوا له عدتهم. وجاءهم البعث فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا له: لا حاجة لنا إلى ما تدعونا إليه. وترامت الفئتان بالنبل، وجاءت أمداد إلى بنى سليم، فأحدقوا بالبعث من كل ناحية، حتى قتلوهم عن آخرهم، وجُرح ابن أبى العوجاء مع القتلى، فتحامل على نفسه حتى بلغ المدينة ورسول الله فى أول يوم من صفر سنة ثمان من الهجرة.

بعث عبد الله ابن غالب إلى الكديد

ولم يلبث الرسول أن بعث فى صفر عبد الله بن غالب الكنانى الليثى فى بضعة عشر رجلا، وأمرهم أن يشنّوا الغارة على بنى الملوح من بنى ليث بالكديد (موضع بالحجاز) فخرجوا إلى الكديد، فلقوا الحارث بن البرصاء الليثى فأخذوه وشدّوه وثاقا خوفا من أن يكون عينا لبنى الليث، وقال لهم إنما خرجت عن قومى للقاء الرسول، فلم يعبأوا به. وكمن ابن غالب فى ناحية من الوادى، وأرسل الجهنى ربيئة له أو عينا فأتى تَلاًّ مشرفا على القوم فعلاه وانبطح عليه، فخرج رجل من خباء فقال لامرأته: إنى أرى على هذا التلّ سوادا ما رأيته عليه أول

يومي هذا، وقال لها: ناوليني القوس وسهمين ورماه بسهم ثم بالسهم الثاني فما أخطأه، غير أن الجهني لم يتحرك وثبت مكانه، فقال الرجل لامرأته: لو كان شخصا لتحرك، فإذا أصبحنا فانظريهما لا تمضغهما الكلاب. ثم دخل خباءه، وأقبلت الماشية من إبلهم وأغنامهم، فلما احتلبوا واطمأنوا وناموا شنَّ البعث عليهم الغارة، وساق النَّعَم والشاء وانحدروا نحو المدينة، ومعهم ابن البرصاء، وسمعوا صريخ القوم حين أحسوا بالغارة وتبعوهم، غير أن الله فصل بين الفئتين بواد امتلأ ماء، فلم يستطيعوا أن يجتازوه إليهم، فوقفوا ينظرون إلى البعث وما معه من النعم والشاء، ووصل البعث بما معه إلى المدينة.

بعث شجاع ابن وهب إلى السِّيِّ

وفي شهر ربيع الأول بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي في أربعة وعشرين رجلا إلى السِّيِّ (ماء على ثلاث مراحل من مكة وخمس من المدينة في طريق البصرة بنجد) يريد بني عامر وقيل بل يريد جمعا من هوازن، فكان البعث يسير الليل ويكمن النهار حتى أصابهم وهم غافلون فغنموا نعما وشاءً، وقدموا المدينة، وكان سهم كل رجل خمسة عشر بعيرا وجعلوا البعير بعشرة من الغنم. وعاد البعث إلى نجد وغاب خمسة عشر يوما وقدم بسبايا فيهن جارية، وقدم وفدهم مسلّمين على الرسول فرد إليهم السبايا وما غنمه البعث منهم إلا الجارية فإنها اختارت البقاء مع قائد البعث: شجاع بن وهب.

بعث قطبة ابن عامر إلى خثعم

ثم أرسل رسول الله ﷺ بعثا بقيادة قطبة بن عامر بن حديدة في عشرين رجلا إلى حي من خثعم بناحية تبالة باليمن فخرجوا إليه على عشرة أبعرة يعتقبونها (يتناوبونها) وشنُّوا الغارة ليلا فقاتله القوم قتالا شديدا حتى قضى قطبة عليهم، وساق النعم والشاء حتى أتى المدينة، وكان سهم كل رجل أربعة أبعرة، وكان البعير بعشرة من الغنم.

بعث كعب ابن عمير إلى ذات أطلاح

وفي شهر ربيع الأول أرسل الرسول إلى ذات أطلاح شمال وادي القُرى من أرض الشام بعثا يقوده كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلا، فقاتلوهم حتى قُتلوا جميعا إلا رجلا أفلت منهم، وكان جريحا فتحامل على نفسه حتى أتى

المدينة، وأخبر الرسول بما حدث للبعث، فشقّ ذلك عليه. والبعوث السالفة جميعا كانت بعوثا عارضة ولم تكن لها أهمية، وكل هذه البعوث كان الرسول ﷺ يُرسلها إلى القبائل والأحياء وتَعرِض عليها الإسلام فإن أبت قاتلتها، فلم يكونوا يقاتلونهم ابتداء.

٢

غزوتان وبعوث

أ- غزوة مؤتة

مؤتة قرية صغيرة عند الكرك فى جنوبى الأردن، وفيها قُتل الحارث بن عمير الأزدى لما نزلها بكتاب رسول الله إلى حاكم بُصْرى من قِبل هرقل، قتله شُرَحْبيل بن عمرو الغَسّانى، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس لحربه ثأرا للحارث بن عمير، فأسرعوا وتجمع له ثلاثة آلاف، وقال لهم: أميركم زيد ابن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبى طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، وأوصاهم أن لا يغدروا وأن لا يَغُلُّوا (يخونوا) فى الغنيمة وأن لا يتعرضوا لرجال الصوامع الرهبان وأن لا يقتلوا امرأة ولا صبيا ولا كبيرا فانيا، وأن لا يقلعوا شجرا ولا يهدموا بيتا. وأمرهم الرسول أن يسيروا حتى مؤتة، حيث قُتل الحارث ابن عمير . ومضوا إلى غايتهم فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة.

وصايا حضارية فى الحرب

وعلم شُرَحْبيل بن الحارث الغسّانى بخبرهم، فأخذ يجمع لهم جيشا من قبائل الشام: بَلِيّ وقضاعة وبهراء وغيرهم، وبعث أخاه سدوسا فى خمسين رجلا، طليعة له، فلقى الجيش فى وادى القرى فقاتلهم وقتلوه هو ومن معه. وكان الرومان فى بيزنطة يحكمون الشام وتلك البقاع فاستصرخهم شرحبيل ضد هذا الجيش الموجه لغزو أراضى الإمبراطورية المسيحية، وفى أيام قلائل كان تيودور أخو الإمبراطور أو القيصر هرقل على رأس جيش رومانى مكون من مائة ألف يساعدهم شرحبيل الغسانى بمائة ألف أخرى من نصارى القبائل العربية الشمالية، وكانوا مجهزين تجهيزا عسكريا تاما، ولم يكن الجيش العربى يظن أنه سيلقى مثل

هذا الجيش الضخم، إذ كان مبلغ ظنه أنه سيلقى شرحبيل الغسانى ومن جمعهم لهم من نصارى العرب. ورأى بعض قادته حين نزلوا معان بالقرب من مؤتة وتأكدوا من خبر الجيش الرومانى ومن ضخامة الجيش الذى سيقاتلونه أن يكتبوا للرسول ليردهم أو ليزيدهم جندا ورجالا، وعارضهم عبد الله بن رواحة، وقال: والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة العدد ولا بكثرة السلاح ولا بكثرة الخيول إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به. والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فَرَسان ويوم أُحُد ما معنا إلا فرس واحد، وإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعد نبيّنا، وليس لوعده خُلْفٌ، وإما الشهادة فنلحق بإخواننا نرافقهم فى الجنان. فتشجّع الناس ومضوا إلى مؤتة.

أمراء الجيش يستشهدون

وفى مؤتة رأى جيش المسلمين الأعداء من الروم ونصارى العرب ومعهم ما لا يكاد يحصى من عُدَد الحرب والسلاح والخيل. وحَمِيَ وطيس الحرب، وقاتل أمراء جيش المسلمين على أرجلهم، وأخذ زيد بن حارثة اللواء، فقاتل وقاتل الناس معه، والمسلمون ثابتون فى صفوفهم، واستشهد زيد طعنا بالرماح. ثم أخذ اللواء جعفر بن أبى طالب فقاتل حتى استشهد، ويقال وجد بجثمانه اثنتان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح. وأخذ اللواء بعده عبد الله بن رواحة فقاتل حتى استشهد. وسقط اللواء فأخذه ثابت بن أقرم، ودفعه إلى خالد بن الوليد،

إنقاذ خالد للجيش

وكان جاء مع فرسان الجيش، وقال له: أنت أعلم منى بالقتال، فأخذه خالد، وجعل الأعداء يهجمون عليه فثبت ودفعهم عنه، وارتدوا، وحمل معه أصحابه ففضَّ جمعا من جموع الأعداء، ثم هجموا عليه، فعرف كيف ينحاز بالمسلمين وينقذ الجيش ويعود به إلى المدينة. وكل من قُتل منهم فى المعركة اثنا عشر فيهم أمراء الجيش المستبسلون.

وحزن الرسول لاستشهاد أمراء الجيش وقواده الثلاثة، فقد كان زيد صديقه منذ صباه وكان رفيقه فى الدعوة للدين الحنيف، وقاتل فى جميع غزواته، وخرج للرسول فى بعوث كثيرة كان يعود منها دائما مظفرا منتصرا. وكان جعفر بن أبى طالب فى الرابعة والثلاثين من عمره، وكان فارسا مقداما، وكان

من أوائل المسلمين مثل زيد. وكان عبد الله بن رواحة أحد النقباء الاثنى عشر الذين اختارهم الرسول ﷺ لأهل المدينة، وشهد مع الرسول جميع غزواته وكان من شجعان الخزرج وأبطالهم.

ب - غزوة ذات السلاسل

على نحو خروج الرسول فى إثر قريش ليرهبها - بعد غزوة أُحُد ونجاحه فى ذلك حتى كان عملا من أعظم أعماله، رأى أن يرهب القبائل النصرانية فى الشمال التى حاربت مع الروم فى مؤتة مثل بَلِيٍّ وقضاعة وجذام وغيرهما، واختار عمرو بن العاص قائدا لهذه الحملة، لأن أمه كانت بلوية آملا فى أن تنضم إليه سريعا قبيلة بلىّ وتحارب مع جيشه، فعقد له رسول الله لواء فى جمادى الآخرة سنة ثمان، وأرسل معه ثلاثمائة من أصحاب الشرف فى المهاجرين والأنصار وضم إليه ثلاثين فارسا. وسار عمرو عشرة أيام ونزل على ماء بأرض جذام، وعرف أن القبائل التى يريد حربها فى الشمال فى جموع كثيرة فبعث رافع بن مكيث الجهنى إلى الرسول يخبره بجموعهم ويستمدّه، فأرسل إليه مائتين من سراة المهاجرين وكبارهم أمثال أبى بكر وعمر ومعهم عدة من الأنصار، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواءً وأمره أن لا يختلف مع عمرو بن العاص. فلما لحق بعمرو، وأراد أن يؤم الناس فى الصلاة تقدَّم إليه عمرو بن العاص وقال له: إنما قدمت مددا لى، وليس لك أن تؤمّنى، وأنا الأمير على من معى ومن معك، فقال المهاجرون: كلا، بل أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه، فلما لجَّ قال له أبو عبيدة - وكان حسن الخُلُق - انظر يا عمرو، واعلم أن آخر ما عهد إلىّ به رسول الله أن قال: إذا قدمت على صاحبك فلا تختلفا، وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنّك، فكان عمرو بن العاص يصلّى بالناس، وأصبح فى خمسمائة من المهاجرين والأنصار يقودهم. وهذه هى روح المسلمين الديمقراطية التى نشّأهم عليها الرسول، والتى جعلتهم يرتضون أن يتأمّر عليهم ويقودهم شخص أسلم حديثا فى صفر بنفس السنة.

عمرو بن العاص قائد الحملة

طلب المدد

ووطئ عمرو بجموعه بلاد بَلِيّ والقبائل الشمالية في أطراف الشام ودوَّخهم، وظل يبعث سراياه وكتائبه، وكلما سمع بجمع من القبائل ذهب إليهم فتفرّقوا، وما زال يشنُّ عليهم الغارات حتى حدود الشام. ولما تأكد أنه استطاع أن يزيل أثر هزيمة مؤتة من نفوس القبائل النصرانية في الشمال رأى هو ومن معه من كبار الصحابة أن يعودوا إلى المدينة، وعادوا سالمين لم ينازلوا جيشا لعرب الشمال حتى حدود الشام، وبالتالى لم يغنموا غنيمة كبرى يقسِّمها الجيش، إنما كانوا يأتون بالشاة أو البعير، فيذبحونهما ويطعمونهما جميعا.

عودة عمرو بن العاص ومن معه

جـ – بعوث

بعث رسول الله ﷺ فى رجب من السنة الثامنة بعث الخَبَط وهو الورق المتساقط من الطلح، إلى حىّ من جهينة على ساحل البحر الأحمر على بعد خمس ليال من المدينة، وجعل قائده أبا عبيدة بن الجرّاح فى ثلاثمائة. وأصابهم جوع شديد إذ لم يكن معهم ميرة، وكانوا يسيرون على أقدامهم واضطروا إلى أكل الخبط المتناثر من شجر الطلح، واشترى لهم قيس بن سعد بن عبادة خمس جزائر، كل جزور بوسَقين أو حملين من تمر يؤديها حين يرجع، ونحر للقوم كل يوم جزورا لمدة ثلاثة أيام، ورزقهم الله العنبر – وهو حوت كبير – ألقاه البحر إليهم فأكلوا منه اثنتى عشرة ليلة. وأمر أبو عبيدة بضلعٍ من أضلاعه فنُصبت، ومرَّ تحتها بعير يرحله فلم يصبه، ويقال إنه كان يجلس فى مأقِ العين من الحوت (حرف العين منه الذى يلى الأنف) الجماعة من الناس. ولم يلق هذا البعث أحدا من جهينة فعاد أدراجه إلى المدينة.

بعث أبى عبيدة إلى جهينة

وفى شعبان من السنة الثامنة أرسل الرسول بعثا بقيادة أبى قتادة الأنصارى فى خمسة عشر رجلا إلى أرض محاربٍ بنجد وبها عشائر من غطفان، وعرض عليهم أبو قتادة الإسلام فأبوه، وسلَّ أبو قتادة سيفه ومن معه، فظفروا بهم، وحملوا النساء وساقوا إلى المدينة مائتى بعير وألف شاة وسَبْيًا كثيرا فعزلوا الخُمْس للرسول، وكان سهم الرجل اثنى عشر بعيرا وكان البعير يقدَّر بعشرة من الغنم.

بعث أبى قتادة إلى محارب وغطفان

وفى رمضان أرسل الرسول أبا قتادة الأنصارى فى بعث ثان يقود فيه ثمانية رجال إلى بطن إضم على ثلاثة بُرُدٍ من المدينة، ولقيهم عامر بن الأضبط الأشجعى، فسلّم عليهم بتحية الإسلام، فبدر إليه محكّم بن جثامة الليثى فقتله وأخذ بعيره وسلبه، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ولم يلقوا جمعا من غطفان وحاولوا أن يلحقوا برسول الله فى مسيرته إلى مكة.

بعث ثان لأبى قتادة إلى إضم

٣

نقض قريش لمعاهدة الحديبية

أ — أبو بصير وجماعته

انفلت أبو بصير حليف بنى زهرة من قريش عقب عمرة الحديبية وقَدِم على الرسول ﷺ فى المدينة مسلما. وكتب الأخنس بن شَرِيق وأزهر بن عبد عوف إلى الرسول كتابا مع خُنَيْس بن جابر وخرج معه مولى يقال له كوثر. وفى الكتاب ذكرُ معاهدة الحديبية وما فيها من ردٍّ من قَدِم على رسول الله من قريش إليها، وسألا الرسول أن يبعث إليهما بأبى بصير كما تقضى بذلك معاهدة الحديبية. فأمر الرسول أبا بصير أن يرجع معهما ودفعه إليهما، فقال أبو بصير: يا رسول الله تردُّنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى، فقال له: يا أبا بصير: إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ ولا يصح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا، وَدفعه إلى خُنَيْس وصاحبه. وانتهيا به عند صلاة الظهر إلى ذى الحليفة وبه مسجد، فصلّى به أبو بصير ركعتين بصلاة المسافر، وجلسوا للغداء وعلّق خُنَيْس سيفه على الجدار، فسأله أبو بصير أقاطع سيفك هذا، فأجابه: نعم، فقال له: ناولنيه أنظر إليه، فناوله السيف، فعلاه به

وقتله. وفرَّ كوثر نحو المدينة وتبعه أبو بصير، وأخبر كوثر الرسول بما حدث، وأقبل أبو بصير، فقال: يا رسول الله وفَتْ ذمّتك إذ أسلمتنى إلى العدو، وقد امتنعت بدينى من أن أُفتن. فقال عليه السلام: ويل أمِّه مِحَشُّ (موقد) حربٍ لو كان معه رجال! وقال لكوثر: ترجع به إلى أصحابك. فقال كوثر: ليست لى به قوة. فأطلق الرسول أبا بصير، وقال له: اذهب حيث شئت. فخرج إلى العيص (ناحية على ساحل البحر الأحمر فى طريق قوافل قريش التجارية إلى الشام) وألقى إليه البحر بحيتان على ساحله فاقتات بها.

وكتب عمر بن الخطاب بخبره إلى المسلمين الذين حُبسوا بمكة، وقول الرسول له: وَيْل أمِّه مِحَشُّ حربٍ لو كان معه رجال. وأخذوا يتسلّلون إليه حتى بلغوا سبعين مسلما، وضيّقوا على قريش، فلا يمر بهم أحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم قافلة إلا اقتطعوا منها، ومرَّ بهم ركب قرشى ومعهم ثمانون بعيرا، فأخذوها جميعا، وكانوا قد جعلوا أبا بصير أميرا عليهم، فكان يصلّى بهم ويقرئهم القرآن.

وغاظ قريشا صنيع أبى بصير ومن معه وشقّ عليهم، فكتبوا إلى رسول الله يسألونه بأرحامهم أن يدخل أبا بصير ومن معه إلى المدينة فلا حاجة إلى قريش بهم، وبذلك طلبت قريش بنفسها نقض ما شارطت عليه رسول الله فى معاهدة الحديبية من ردِّه على قريش من يقدم عليه من القرشيين وأن يدفعه إليهم. فكتب الرسول إلى أبى بصير أن يقدم عليه بأصحابه، وجاءه الكتاب وهو يحتضر وتوفى وهو فى يده يقرؤه، فدفنوه، وأقبلوا إلى المدينة وهم سبعون، فرحب بهم الرسول والصحابة.

ب – أم كلثوم القرشية المسلمة المهاجرة لا تُردُّ – الكافرة تُردُّ

كانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيْط قد أسلمت بمكة، وكانت تخرج إلى بادية لها بها أهل فتقيم أياما ثم ترجع. حتى عزمت على السير مهاجرة، فخرجت يوما كأنها تريد البادية على عادتها، فوجدت رجلا من خزاعة فأعلمته بإسلامها،

فأركبها بعيره حتى أقدمها المدينة، فدخلت على أم سلمة زوجة الرسول، وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وأنها تتخوّف أن يردها الرسول ﷺ . فلما دخل على أم سلمة أعلمته فرحّب بها، وذكرت له هجرتها وأنها تخاف أن يردّها فنزلت آية سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

وقدم المدينة غداة قدومها أخواها: الوليد وعمارة وقالا للرسول: أوفِ لنا بشرط معاهدة الحديبية. فأبى وقال: إنها لم تذكر شيئا عن المرأة وردّها، ولأن الله أوجب عدم ردها هي وأمثالها. وقبلت قريش حكم رسول الله لأن المعاهدة ليس فيها ذكر للمرأة. ولم يعد صنيعه مع المرأة المتزوجة نقضا للمعاهدة. وجاءت سُبَيْعة الأسلمية مهاجرة هاربة من زوجها صيفى بن الراهب، وجاءت أميمة بنت بشر هاربة من زوجها حسان بن الدحداح. ولم يردّ الرسول إلى قريش واحدة منهن، وتزوجت أم كلثوم زيد بن حارثة وسبيعة وأميمة سهل بن حنيف.

ومن تتمة الآية السالفة: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، فطلق عمر ابن الخطاب زوجتين ظلتا على كفرهما، هما قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة، وتزوجها معاوية، وأم كلثوم الخزاعية وتزوجها أبو جهم بن حذيفة. وطلق عياض ابن غنم أم الحكم بنت أبى سفيان بن حرب وتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفى. وجميعهم يومئذ مشرك.

جـ - قتال بكر بن عبد مناة ومعها قريش لخزاعة نقض للمعاهدة

لما كانت معاهدة الحديبية دخلت بكر بن عبد مناة فى عهد قريش وعقدها، ودخلت خزاعة فى عهد الرسول وعقده: مؤمنها وكافرها. وكان لبَنِى بكر بن عبد مناة عند خزاعة ثأر فى الجاهلية، فلما كانت الهدنة بعد الحديبية وأمّن الناس

بعضهم بعضا اغتنمت عشيرة من بنى بكر الفرصة فى شعبان بالسنة الثانية من صلح الحديبية وطلبت إلى بعض أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح ضد خزاعة، فأمدُّوهم بذلك. وخرج إليهم من أشراف قريش صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العُزَّى وسهيل بن عمرو، وجلبوا معهم أرقاءهم وهجموا على خزاعة ليلا وهم آمنون، فقتلوا منهم ثلاثة وعشرين رجلا على ماء يسمَّى الوتير قرب مكة، وانهزمت خزاعة إلى الحرم، وبنو بكر وأشراف قريش لا يكفون عن قتالهم. ودخلت خزاعة دور مكة مستجيرة، وكان ذلك نقضا واضحا لمعاهدة الحديبية بين الرسول ﷺ وقريش.

وخرج من خزاعة عمرو بن سالم وبديل بن ورقاء فى أربعين من خزاعة معهم، فقدموا على رسول الله ﷺ مستغيثين به مما أصابهم به بنو بكر بن عبد مناة وقريش، فوعدهم الرسول بنصرهم، وقال لهم: لن ينصرنى الله إن لم أنصركم، وبذلك أصبحت حرب الرسول لقريش قاب قوسين أو أدنى.

د- سفارة أبى سفيان لشدِّ عقد الحديبية

وندمت قريش، وأجمع أمرها على أن ترسل أبا سفيان إلى الرسول ليشدَّ عقد الحديبية ويزيد فى مدة الصلح. فقَدِمَ إلى الرسول ﷺ بالمدينة وقال له: يا محمد إنى كنت غائبا فى صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا فى المدة، فقال الرسول ﷺ : ولذلك قدمت يا أبا سفيان؟ قال: نعم. قال الرسول: هل حدث عندكم حدث؟ (وهو يعلم حدث الحرب بين خزاعة وبكر بن عبد مناة ومعها قريش) فقال أبو سفيان: معاذ الله. قال الرسول: فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغيِّر ولا نبدِّل.

أبو سفيان مع ابنته

وقام أبو سفيان فدخل على ابنته أم حبيبة زوجة الرسول، فلما حاول أن يجلس على فراش الرسول طوته دونه، وقالت له: أنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنيَّة لقد أصابك بعدى شر. فقالت: يا أبتِ أنت سيد قريش وكبيرها، كيف

يسقط عنك دخولك فى الإسلام، وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر؟! قال: يا عجباه، وهذا منك أيضا؟! أأترك ما كان يعبده آبائى وأتبع دين محمد؟!.

ثم خرج من عند ابنته، فلقى أبا بكر، فحدَّثه، وقال له: تكلّم محمدا أو تجير أنت بين الناس؟ فقال له: جوارى فى جوار الرسول. ثم لقى عمر فكلّمه بمثل ما كلّم به أبا بكر، فقال له عمر: والله لو وجدتُ الذرَّ يقاتلكم لأعنتها عليكم. فقال له أبو سفيان: جُزيت من ذى رحم شرا. ثم دخل على عثمان فقال له: ليس فى القوم أحد أقرب بى رحما منك، فزد الهدنة وجَدِّد العهد، فإن صاحبك لن يرده عليك أبدا. فقال له: جوارى من جوار رسول الله. فدخل على فاطمة بنت الرسول وكلّمها فى أن تجير بين الناس، فقالت له: إنما أنا امرأة. قال لها: مُرِى أحد ابنيك يجير بين الناس. قالت: إنما هما صبيان، وليس مثلهما يجير. فجاء إلى على بن أبى طالب فقال: يا أبا حسين أَجِرْ بين الناس أو تكلّم محمدا يزيد فى المدة. فقال له: وَيْحك يا أبا سفيان إن رسول الله عزم على أن لا يفعل ولا أحد يستطيع أن يكلمه فى شئ يكرهه. فقال له أبو سفيان: يَسِّرْ لى أمرى فإنه قد ضاق علىّ الرأى. فقال له: أنت سيد كنانة فأَجِرْ بين الناس. فقال له: هل يغنى ذلك عنى شيئا. فقال له: لا أظن، ولكنى لا أجد لك غيره. فقام بين الناس، فقال: إنى قد أجرت بين الناس ولا أظن محمدا يُخْفرنى (يغدر بى). ودخل على الرسول فقال: يا محمد ما أظنّك تردُّ جوارى. فقال له الرسول: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان! وخرج من عنده إلى سعد بن عبادة، وقال له: لقد عرفت ما كان بينى وبينك فقد كنت لك فى قومى جارا وكنت جارا لى فى قومك فأَجِرْ بين الناس وزد فى المدة. فقال له: جوارى فى جوار رسول الله وما يجير أحد على رسول الله.

كبار الصحابة يردّون أبا سفيان

وركب أبو سفيان راحلته وانطلق إلى مكة وقد خابت سفارته، وقالت له قريش: هل جئتنا بكتاب من محمد أو زيادة فى مدة أمانا من أن يغزونا؟ فقال: والله لقد أَبَى علىّ، وكلّمت أصحابه فما قدرت على شئ منهم. وعرفوا منه أن سفارته أخفقت ولم يرجع لهم بطائل.

٤

فتح مكة

رحل أبو سفيان راجعا إلى مكة، وقال الرسول لعائشة: جَهِّزينا وأخفى الأمر، وتوجَّه إلى الله داعيا: "اللهم خُذْ من قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بَغْتَةً". ودخل أبو بكر على عائشة وهى تجهِّز لرسول الله ﷺ، تعمل قمحا سويقا، فقال لها: أهمَّ رسول الله بغزو؟ قالت: ما أدرى. فقال: إن كان همَّ بسفرٍ فأعلمينا نتهيأ له. قالت: ما أدرى، لعله يريد بنى سليم، لعله يريد ثقيفا، لعله يريد هوازن، واستعجمت عليه. فدخل على الرسول وسأله هل أردت سفرا؟ قال: نعم. قال أبو بكر: أفأتجهَّز؟ قال: نعم. قال: فأين تريد يا رسول الله؟ قال: قريشا، وأخْفِ ذلك يا أبا بكر. فقال له: أليس بيننا وبينهم مدة؟ قال: إنهم غدروا ونقضوا العهد (مشيرا إلى حربهم مع بنى بكر بن عبد مناة لخزاعة حليفته) وأنا غازيهم، فاطوِ ما ذكرت لك. وأمر الرسول الصحابة بالجهاز، وطوى عنهم الوجه الذى يريد، فمن قائل إنه يريد الشام ومن قائل إنه يريد ثقيفا أو هوازن.

حاطب بن أبى بلتعة وعفو الرسول عنه

ولما عزم على المسير إلى مكة وعرف ذلك الناس أو بعضهم كتب واحد من الصحابة هو حاطب بن أبى بَلْتَعة إلى قريش يخبرهم بما عزم عليه الرسول، وكان كتابه إلى ثلاثة نفر منهم: صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل، يقول فيه: إن رسول الله قد أذَّن فى الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم وقد أحببت أن يكون لى عندكم يدٌ بكتابى إليكم. وأعطى الكتاب إلى امرأة من مزينة، وقال لها: أخفيه ما استطعت. فحملته فى رأسها وفتلت عليه شعرها. وأتى رسولَ الله الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليًّا والزبير وقال لهما: أدركا هذه المرأة فقد كتب معها حاطب كتابا يحذِّر قريشا. فأدركاها، فاستنزلاها والتمسا الكتاب فى رحلها فلم يجداه، وقالا لها: لتخرجنَّ هذا الكتاب أو لنكشفنك عارية. ولما رأت منهما الجدّ قالت لهما: أعرِضا عنى قليلا. فأعرضا

عنها، فحلّت خصل شعرها واستخرجت منها الكتاب، فجاءا به رسول الله فدعا حاطبا، وأراه الكتاب وقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيَّرت ولا بدّلت، لكنى كنت امرءًا ليس لى فى القوم أهلٌ ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم أهل وولد، فصانعتهم. قال عمر: دَعنى - يا رسول الله - أضرب عنقه فإنه قد نافق. فقال له الرسول: وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع يوم بدر على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وعفا عنه الرسول رحمة لأنه من أهل بدر وإشفاقا، مع عظم ذنبه. ومضت المرأة إلى مكة وكان اسمها سارة، وكانت مغنّية وارتدّت وأخذت تتغنّى بهجاء رسول الله ﷺ.

الرسول يعدّ جيشا ضخما

وأرسل رسول الله إلى أهل البوادى وإلى من حوله من المسلمين يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسلا فى كل ناحية وقدم أهل البوادى عليه، قدمت أسلم وغفار ومُزَيْنَة وجُهينة وأشجع وبنو كعب، ولحقته بنو سليم فى قُدَيْد. وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس، وكان الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس، وكانت مزينة ألفا ومعها مائة فرس ومائة درع، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرسا، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا، وكانت بنو كعب خمسمائة، وكانت بنو سليم ألفا بخيولهم غير طوائف من قيس وأسد وتميم وغيرهم من سائر العرب.

خروج الرسول والجيش

وخرج رسول الله لفتح مكة فى عَشْرٍ خلَوْن من رمضان فى السنة الثامنة للهجرة، وخرج المسلمون وقادوا الخيول وامتطوا الإبل، وكانوا عشرة آلاف، وقيل بل اثنى عشر ألفا، وقدم الرسول الزبير بن العوام أمامه فى مائتين. ولما خرج من المدينة قال: مَنْ أحبَّ أن يصوم فَلْيصم ومن أحب أن يفطر فليفطر،

الرأفة بكلبة وأولادها فى الطريق

ولحقه فى الطريق عُيَيْنة بن حصن سيد فزارة مسلما ومثله الأقرع بن حابس أحد سادة بنى تميم فى عشرة من قومه مسلمين جميعا. ورأى الرسول فى طريقه كلبة تهرُّ على أولادها وتذُبُّ وتدافع، وهن حولها يرضعنها، فأمر جُعيل بن سُراقة أن يقوم حذاءها حتى لا يتعرض أحد من الجيش لها ولأولادها رحمة بها، ورحمته

بالحيوان فيها أحاديث كثيرة. وكان العباس عم الرسول هاجر مسلما فى تلك الأيام، فلقى الرسول بذى الحُلَيْفة (موضع قرب المدينة) فبعث أهله ومتاعه إلى المدينة، وصحب الرسول غازيا، فالعباس - بذلك - من المهاجرين قبل الفتح، وقيل بل لقيه بالجُحفة (قرب مكة) مهاجرا. وذكر الرواة أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة أخا أم سلمة زوجة الرسول خرجا مهاجرين ولقيا الرسول قرب مكة فأعرض عنهما، ولما نزل فى بعض الطريق استأذنا عليه فلم يأذن لهما فكلّمته أم سلمة فيهما، وقالت: لا يكون ابن عمك وأخى أشقى الناس بك، فأذن لهما واقبلْ منهما إسلامهما. ولما بلغ قُدَيدا فى منازل خزاعة لحق به بنو سليم: نحو ألف على الخيول جميعا ومع كل رجل رمحه وسلاحه، فجعلهم مقدمته مع خالد بن الوليد.

العباس يسلم ويهاجر قبل الفتح

إسلام أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية

واجتمع الجيش بمرِّ الظهران (موضع على بعد خمسة أو ستة أميال من مكة) وقريش لا تعلم شيئا عن مسيره، فأمر الرسول المسلمين أن يوقدوا النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار. وبعثت قريش أبا سفيان يتعرف الأخبار، وخرج معه حكيم بن حزام ابن أخت خديجة وبديل بن ورقاء الخزاعى، فرأوا بمرّ الظهران العسكر والنيران وسمعوا صهيل الخيل ورُغاء الإبل وأفزعهم ذلك فزعا شديدا. وكان العبّاس عم الرسول أهمّه أمر قريش، فركب دُلْدل بغلة رسول الله ﷺ آملا أن يلقى رسولا إلى قريش يخبرهم أن الرسول داخل مكة فى عشرة آلاف، فسمع صوت أبى سفيان فناداه ورحّب كل منهما بصاحبه، وقال العباس: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله فى الناس ويا لصباح قريش فقال له: ما الحيلة؟ قال العباس: اركبْ خلفى إلى رسول الله، ورجع حكيم وبديل، وأخذ طريقه إلى العسكر مخترقا صفوفه، والجند لا يتعرضون له لأنه راكب بغلة رسول الله، ومرّا على نار عمر فنظر إلى أبى سفيان فميّزه، فقال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد. فقال له العباس: إننى أجرته. وانطلق به وعمر فى أثره، وقال عمر: يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد، فأذَنْ لى أضرب عنقه. فقال العباس: مهلا يا عمر فقد

لقاء العباس وأبى سفيان

أجرته. وأمر الرسول العباس أن يحمله إلى رَحْله ويأتيه به صباحا، وأتى به النبى فى الصباح، فقال له: ألم يأن (يَحِنْ) لك بأن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال أبو سفيان: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وما أكرمك وما أوصلك لقد كان يقع فى نفسى أن لو كان مع الله إله لكان يغنى عنى شيئا. فقال له: أما آن (حان) لك أن تعلم أنى رسول الله؟ فقال أبو سفيان: أما هذه فإن فى النفس منها شيئا بعد. فقال له العباس: ويحك قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تُقتل. فنطق بالشهادتين وأسلم، فقال العباس للرسول: إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا. فقال: "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن". وكان ذلك أمانا لكل من لم يقاتل من أهل مكة.

إسلام أبى سفيان ومن دخل داره فهو آمن

واختلف علماء السلف فى فتح مكة هل فُتحت مؤمَّنةً، والأمان مثل الصلح أو فتحت عَنْوة وقهرا. وممن قال بالرأى الأول الإمامان: الشافعى وابن حنبل، وقال بالرأى الثانى الأئمة: الأوزاعى ومالك وأبو حنيفة؛ فقد قالوا إنها فتحت عنوة لأنها أُخذَتْ غلبةً بالخيل والرِّكاب. ويحتج أصحاب الرأى الأول بأنه لم يَجْر فيها قَسْمُ غنيمة ولا سُبِىَ أحد من أهلها، وظلوا مالكين لدورهم، ومن حقهم كراؤها وبيعها وشراؤها لأن من يؤَمَّنْ يحرَّم ماله ودمه. وردَّ أصحاب الرأى الثانى بأن مكة خُصَّت بذلك لما عظَّم الله من حرمتها، وأشار الرسول ﷺ إلى ذلك فى خطبته غداة فتحها قائلا: "مكة حرام لم تحلّ لأحد قبلى ولا تحلُّ لأحد بعدى، وإنما أُحِلَّت لى ساعة من نهار، ثم هى حرام إلى يوم القيامة". واتفق العلماء على أنه لا يجوز القتال فى مكة وما يتبعها من الحرم. ولحرمتها قال الرسول إن شجرها لا يقطع وبالمثل شوكها، وحُرِّمت الغنيمة، وحُرِّم الصيد فيها، فإن وقع فى يد أحد صيد فيها أرسله إلا ما يؤذى مثل العقرب والحية والسباع.

فتح مكة قهرا

حرمة مكة

وأمر الرسول عمه العباس أن يقف بأبى سفيان فى مضيق الوادى ليبصر بعينه جنود الله فى هذا الجيش الضخم، وأخذت كتائب القبائل فى الجيش تمرّ

بألويتها وراياتها والعباس يُعرِّفه بكل كتيبة أو قبيلة، فيقول له هذه قبيلة سليم ويذكر له عددها، وهذه غفار وهذه مزينة وهذه جهينة إلى غير ذلك من عشرات القبائل، وكل حامل لواء لقبيلته إذا حاذى أبا سفيان كبَّر بمن معه ثلاثا ومضوا. وأخيرا أقبلت كتيبة رسول الله الخضراء وهو على ناقته القصواء ومعه المهاجرون والأنصار ومعهم الرايات والألوية وهم فى الحديد لا يُرَى منهم إلا الحدق، وعمر ابن الخطاب يسوِّى الصفوف ويمنعها من التفرق وله صوت عالٍ كأنه الرَّعد. وكان فى الكتيبة ألف دارع، وسعد بن عُبادة الأنصارى يحمل راية رسول الله أمام الكتيبة، فلما مرَّ بأبى سفيان، وهو واقف مع العباس نادى: اليومُ يومُ الملحمة (الحرب الشديدة) اليوم تُستَحلّ الحرمة، اليوم أذلَّ الله قريشا، فلما حاذى أبا سفيان الرسول ناداه: أيا رسول الله هل أُمِرتَ بقتل قومك؟ وذكر له ما قاله سعد بن عبادة، وإنى أنشدُك الله فى قومك، فأنت أبرُّ الناس وأرحم الناس وأوصل الناس، فقال الرسول: يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله فيه قريشا، وأرسل إلى سعد فعزَله، وجعل اللواء لابنه قيس حتى يرضيه.

وأسرع أبو سفيان فتقدم الناس مخافة أن تقتتل قريش مع جيوش المسلمين، وصاح فى القرشيين إنه لا قِبَلَ لهم بلقاء الجيوش الضخمة المقبلة. وصاح فيهم ثانيا: من دخل داره وأغلقها فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن. وكان العباس بن عبد المطلب يشترك معه فى هذا النداء. وأمر الرسول ﷺ قواده أن لا يدخلوا مكة مجتمعين، بل يدخلوها متفرقين من طرق ومداخل مختلفة، حتى يفتّ ذلك فى عضد قريش فلا تستطيع جماعاتها أن تقاتلهم فى جميع مداخل مكة، وتضعف بالتالى مقاومتهم. وأمر الزبير بن العوام وكان على ميسرته أن يدخل مكة من أعلاها وأن ينصب رايته بالحَجون، وتم له ذلك دون أن يعترضه أحد. وأمر خالد بن الوليد وكان على ميمنته أن يدخل بمن معه مكة من أسفلها، وكان أمر القواد بقتال من قاتلهم. ولم يكد خالد يصل بجموعه إلى أسفل مكة حتى وجد جمعا غفيرا من قريش عليه السلاح، ويقودهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو، حلفوا بالله جميعا أن لا

قتال خالد

يدخل محمد مكة عَنْوة أبدا، وأبوا إلا قتال خالد فناوشهم أصحاب خالد القتال، واستشهد من المسلمين ثلاثة، وقُتل من المشركين ثلاثة وعشرون ومعهم أربعة من هذيل وانهزم جمعهم ومعهم صفوان وعكرمة وسُهَيل. ولهذا القتال يقول أكثر العلماء إن مكة فُتحت عنوة، ومع ذلك خُصَّت لمكانتها الدينية كما أسلفنا بأنه لا يكون فيها غنيمة ولا سَبْى.

دخول الرسول مكة

ودخل رسول الله ﷺ إلى «أذاخر»، ونظر إلى بارقة، فقال: ما هذه البارقة؟ ألم أَنْهَ عن القتال؟ فقالوا له: خالد بن الوليد قوتل، فقاتل، فقال: قضاء الله خير. وكان أبو رافع ضرب للرسول بالحجون قُبَّة (خيمة) من أدم، وكان يأتي المسجد من الحجون لكل صلاة، وكانت ابنة عمه أم هانئ بنت أبى طالب قد أجارت قريبين لزوجها: هبيرة بن أبى وهب المخزومى هما عبد الله بن أبى ربيعة المخزومي والحارث بن هشام المخزومي، فدخل عليها أخوها على بن أبى طالب يريد قتلهما، فقالت له: إنى أجرتهما. فقال لها: تجيرين مشركَيْن؟ فحالت دونهما وخرج، فذهبت إلى خيمة الرسول، فقال لها: مرحبا أم هانئ. فحكت له إجارتها شخصين وأن أخاها عليًا حاول قتلهما، فقال لها: ما كان ذلك له، قد أمَّنا من أمَّنت وأجرنا من أجرت. وكان الوقت ضُحًى فصلَّى ثمان ركعات ولبس السلاح وركب ناقته القصواء حتى انتهى إلى الكعبة، فتقدم على راحلته، فاستلم الركن بمِحْجَنِه (عصا معوجة الرأس) وكبَّر، فكبَّر المسلمون لتكبيره وارتجَّتْ مكة تكبيرا ثم طاف.

هدم الأصنام

وكان على الكعبة وحولها ثلاثمائة وستون صنما مثبَّتة بالرصاص وهُبل على باب الكعبة وإساف ونائلة. وجعل كلما مرَّ بصنم أشار بقضيب في يده قائلا: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ فيقع الصنم لوجهه. وانتهى إلى المقام فصلَّى ركعتين، وانصرف إلى زمزم وقُدِّم له منها دلو ماء فشرب منه وجلس بالمسجد فى ناحية منه وحوله الناس. وجاءته قريش فأسلموا طوعا وكرها، وقالوا: يا رسول الله اصنع لنا شيئا، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء (جمع طليق، وهو الأسير المحرَّر)، وفى هذا القول ما يشهد للقائلين بأن

إسلام قريش ومبايعتها

مكة فُتحت قهرا وكان سؤاله لهم ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال لهم بلطف: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾. ثم اجتمعوا لمبايعته، فجلس على الصفا، وجلس عمر أسفل مجلسه يأخذ على الناس البيعة على السمع والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا. ثم جاء النساء فأخذن البيعة على عمر والرسول على الصفا. والإسلام دائما يسوِّى بين المرأة والرجل فى جميع المسئوليات والواجبات الدينية.

وأرسل الرسول ﷺ بلالا إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بمفتاح الكعبة إذ كانت لأسرته حجابتها أى سدانتها ومعها مفتاح الكعبة فمنعته أمه، فجاء أبو بكر وعمر فأعطته إليه، فأتى به رسول الله فلما تناوله قال العباس: يا رسول الله اجمعْ لنا (أى لبنى هاشم) السقاية (سقاية الحجاج وكانت معه) والحجابة. فأباها عليه، وبعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب مع عثمان بن طلحة ليفتح الكعبة ولا يدع صورة إلا محاها سوى صورة إبراهيم الخليل فمحاها الرسول. ودخل الرسول الكعبة ومعه بلال وأسامة بن زيد فمكث فيها فترة وصلّى بها ركعتين، ثم خرج والمفتاح فى يده وردَّه إلى عثمان بن طلحة، وأبقى له حِجابة البيت وقال له ولأسرته من بنى عبد الدار: خذوها (أى الحجابة) خالدة تالدة إلى يوم القيامة. وخطب رسول الله ﷺ خطبة مشهورة ألغى فيها مآثر الجاهلية إلا سِقاية الحاج وحِجابة البيت. وحانت صلاة الظهر فأمر الرسول بلالا أن يؤذّن فوق ظهر الكعبة، وكان ذلك إيذانا صريحا بانتهاء عهد الجاهلية المظلم فى مكة والكعبة وانبثاق نور الإسلام فيهما إلى يوم الدين.

الحجابة لبنى عبد الدار حتى يوم القيامة

وكان الرسول ﷺ حين دخل مكة أمَّن الناس إلا ستة رجال وامرأتين استثناهم، أولهم عبد الله بن خطل وكان أسلم وبعثه الرسول مصدقا جامعا للزكاة من إحدى القبائل ومعه مسلم فقتله وارتد ولحق بالمشركين، فقُتل يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة، وثانيهم الحويرث بن نقيذ وكان دائم الإيذاء للرسول وهو فى مكة وقتله على بن أبى طالب يوم الفتح، وثالثهم مقيس بن صُبابة كان أتى الرسول مسلما ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ولحق بمكة

المستثنون من الأمان

مرتدا. وثلاثة آخرون استؤمن لهم فأمنهم وأسلموا وهم هبّار بن الأسود الأسدى وعبد الله بن سعد بن أبى سرح استأمن له عثمان بن عفان فأُمِّن وأسلم وحسن إسلامه، وولاه عثمان مصر وغزا تونس وافتتحها لأول مرة، وعكرمة بن أبى جهل استأمنت له الرسول ﷺ زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فأمنه ورحّب به، وأسلم وحسن إسلامه وكان من فضلاء الصحابة واستشهد فى موقعة اليرموك. وكان الرسول ﷺ أهدر دم قينتى ابن خطل فقُتلت إحداهما واستؤمن للأخرى وأسلمت. وكان سهيل بن عمرو أغلق بابه عليه وأرسل ابنه عبد الله إلى الرسول يستأمنه له فأمنه وأسلم بالجعرانة (موضع بين مكة والطائف) وحضر موقعة حنين واستأمن عمير بن وهب لصفوان بن أمية وكان فَرَّ متجها إلى اليمن فأمنه الرسول ورجع وأكرمه الرسول، وأسلم بالجعرانة.

البعوث إلى حدود مكة

وبعث الرسول البعوث حول مكة تدعو الناس إلى الإسلام ولم يأمرهم بقتال، وخرج خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة من كنانة، فقالوا له: نحن مسلمون. ولم يقبل إقرارهم بالإسلام وقتل منهم وسبا، فبعث الرسول بمال كثير مع على بن أبى طالب، فدفع لهم دياتهم وبقى معه مال فأعطاه لهم قائلا إنه هدية لهم من رسول الله. وبعث خالد بن الوليد إلى بيت العُزّى بنخلة (بين الطائف ومكة) فهدمه. وبعث الطفيل الدوسى إلى صنم قبيلته، فحرّقه بالنار. وبعث سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة فهدمها. وبعث عمرو بن العاص إلى صنم هذيل «سواع» فهدمه. وأقام الرسول ﷺ بمكة – على ما فى صحيح البخارى – خمس عشرة ليلة، وقيل بل أكثر، وقيل بل أقل.

هدم العُزّى ومَناة وغيرهما

الفصل العشرون

من غزوة حُنَيْن إلى تبوك

١

غزوة حنين

أقام المسلمون فى مكة بعد فتحها نحو أسبوعين مبتهجين بما أفاء الله عليهم وعلى رسوله من فتحها دون قتال إلا بعض مناوشات ضئيلة، ومن دخول أهلها فى الإسلام إلا قلة معدودة. ودوّى هذا الفتح فى الجزيرة العربية وخاصة بما اقترن به من تحطيم الأصنام بالكعبة. وأصبحت الجزيرة العربية على وشك أن يعمَّ فيها الإسلام إلا بعض جيوب محدودة، وكان أهمها جيب ثقيف بالطائف وقبائل هوازن من حولها. وما إن علمت هوازن بفتح مكة حتى ثارت ثائرتها خشية أن يغزوها الرسول وتدور عليها الدوائر، وجمّع قبائلها سيدها مالك بن عوف النصرى وأجابه منها قومه بنو نصر وبنو جشم ومعهم سيدهم دريد بن الصمة، وبنو سعد الذين تربّى الرسول ﷺ فيهم صبيا وطائفة من بنى هلال بن عامر، ولم يجبه أحد من كعب ولا كلاب من هوازن، وأجابته ثقيف مع سيِّدَيْها قارب بن عبد الله وذى الخمار سُبَيع بن الحارث. وأمرهم مالك أن يأتوا جميعا بأموالهم من الإبل وبنسائهم وأبنائهم لحرب الرسول ونزلوا بوادى أوطاس فى ديار هوازن، فقال دريد بن الصمة لقومه جُشَم: مالى أسمع رُغاء البعير ونهاق الحمير وثُغاء الشاء! فقالوا له: ساق مالك مع الناس أموالهم وعيالهم، فقال: راعى ضَأْنٍ والله وهل يرد المنهزم شئ؟.

مالك بن عوف يقود هوازن وثقيفا ويأمرهم باصطحاب أُسَرِهم

وكان الرسول ﷺ لا يزال يذكر أيامه فى صباه ببنى سعد من هوازن كما يذكر رحلته إلى الطائف قبل الهجرة بسنتين داعيا لهم إلى الإسلام ولم يجبه إليه أحد، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأسلحتها فأعارها له. وخرج لحرب هوازن فى السادس من شوال، وولّى على مكة عتاب بن أُسَيد وعمره نحو عشرين سنة وجعل معه معاذ بن جبل الخزرجى الأنصارى يعلمهم السُّنن والفقه، وخرج معه لحرب هذيل اثنا عشر ألف رجل، عشرة آلاف جاءوا معه من المدينة لفتح مكة وألفان من أهل مكة الذين سماهم الرسول باسم «الطلقاء».

خروج الرسول إلى فتح هوازن

ومضى الرسول بجيشه الضخم لست من شوال سنة ثمان يريد أن يهاجم به هوازن، غير أنه كان على من يهاجمها أن يمر بواد ضيق يسمى وادى حُنَيْن، وكان يفضى إلى ما وراءه من وديان هوازن وسهولها، وعرف مالك بن عوف أن جيش المسلمين لابد أن يخترق هذا المضيق الذى تحفّ به الجبال، والذى لا يعطى الفرصة لجيش ضخم يمر به، بل لابد أن يمر به فى جماعات صغيرة. فلما دخلت مقدمة الجيش من بنى سليم بقيادة خالد المضيق وكان مالك بن عوف قد جعل لها فى جانبى المضيق كمينا يقذفهم بالنبال والسهام وكان مرورهم فى سحر اليوم العاشر من شوال، فاضطربت المقدمة، وكانوا يخرجون على رجالها بالسيوف من الكهوف، فتراجع رجال المقدمة منهزمين لا يلوون، وتراجعت وراءهم القبائل البدوية لا يلوى أحد على أحد، والرسول يهتف بالناس أن يثبتوا فى مواجهة العدو ولا أحد يجيبه.

مضيق وكمين

وثبت معه أبو بكر وعمر وجماعة من أهل بيته وعشيرته والرسول على بغلته: دلدل، وعمه العباس آخذ بمحيط لجامها المستدير فى فم البغلة وابن عمه أبو سفيان بن الحارث آخذ بمؤخرة السَّرْج، والرسول يهتف فى الفارين المنهزمين: أيها الناس إلى أين؟ أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله. وأمر عمَّه العباس – وكان جهير الصوت – أن ينادى فى الأنصار والمهاجرين الذين وقفوا معه فى حروبه ودافعوا لا يخشون الموت فى خيبر وغيرها من الحروب، وقال للعباس: اهتف: "يا معشر الأنصار، يا معشر المهاجرين" فلما سمعوا صوت العباس

ثبات الرسول

أجابوا: لبَّيك، لبَّيك. حتى إذا اجتمع حول الرسول نحو مائة استداروا ليواجهوا المضيق واستحالت الهزيمة إلى نصر. واشتدت الحرب، وقال الرسول : الآن حَمِيَ الوَطيس (نار الحرب) من أتونها، وقذف الله – عزَّ نصره – فى قلوب هوازن ومن جمعتهم معها الرُّعب. وممن أبلى فى هذا اليوم بلاء عظيما أبو طلحة الأنصارى وزوجته أم سليم، وانهزمت هوازن وهلك منها العيال والأموال، واستحرَّ القتل فى ثقيف، وقُتل منهم سبعون رجلا ورئيسان هما ذو الخمار وأخوه عثمان، وكان قارب بن الأسود فرَّ بقومه حين اشتد القتال، واستحرَّ القتل فى بنى نصر أصحاب مالك بن عوف وقُتل دريد بن الصمة، وفرَّت هوازن إلى الطائف وإلى نخلة، وعسكرت جماعة منها فى أوطاس.

هزيمة هوازن

وبعث الرسول ﷺ إلى من عسكروا من هوازن فى أوطاس أبا عامر الأشعرى فى طائفة من المسلمين فيهم أبو موسى الأشعرى ابن أخيه فشدَّ على أبى عامر أحد أبناء دريد بن الصمة المُسمَّى سلمة، فقتله، وحمل أبو موسى الأشعرى الراية من عمه، وشدَّ على سلمة بن دريد فقتله. وتفرق جمع هوازن بأوطاس، واستشهد من المسلمين أربعة رجال لا غير. وذكر الله – جلَّ شأنه – فى سورة التوبة كيف كانوا فرحين بكثرتهم وهُزموا ونصرهم الله قائلاً : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فانتصروا انتصارا عظيما.

٢

الطائف – قسمة غنائم حُنَيْن – عمرة الرسول

أ– الطائف

اتجه الرسول بجيشه بعد غزوة حنين إلى الطائف وقومها من ثقيف وأرسل بغنائم حنين إلى الجِعِرانة (بين مكة والطائف) لتقسَّم هناك، ووجد فى طريقه إلى

إرسال الغنائم إلى الجعرانة

الطائف حصنا لمالك بن عوف فهدمه، وتقدم إلى الطائف، وكانت أمنع حصن، ودخل عندهم مالك بن عوف وكثيرون من هوازن ممن انهزموا معه. وعسكر الرسول بجيشه قريبا من حصن الطائف، فرُمى الجيش بنبل كثير أُصيب به جماعة منه، فحوّل الرسول أصحابه إلى موضع المسجد المعروف بعد ذلك. وأقام الرسول على حصار الطائف بضع عشرة ليلة، وكان فى إقامته تلك يصلى ركعتين بين قُبّتين بنيتا لزوجتين كانتا معه: زينب وأم سلمة، فلما أسلمت ثقيف بُنى مسجد على مصلاّه. ونصب الرسول على حصن الطائف المنجنيق يُقال عمله بيده سلمان الفارسى، ويقال بل قدم به وبدبابتين بعض الصحابة واستطاعت ثقيف أن تحرق الدبابتين، وتقتل من المسلمين جماعة. ورأى الرسول أن ينتقم منهم بقطع أعنابهم، وأخذ الصحابة يقطعونها فناداه سفيان بن عبد الله الثقفى: يا محمد لِمَ تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن انتصرت علينا، وإما أن تدعها لله وللرحم كما زعمت. فقال الرسول: إنى أدعها لله وللرحم. وكفّ الصحابة عنها، ونادى منادى الرسول عبيدَ ثقيف: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرّ. فخرج إليه بضعة عشر رجلا، منهم أبو بَكَرَة نقيع تدلّى من الحصن ببكرة إلى الرسول فسُمِّى أبا بَكَرة، فأعتقهم جميعا حين جاءوه، ودفع كل شخص منهم إلى رجل من المسلمين يموّنه ويحمله، وأمرهم أن يقرئوهم القرآن ويعلّموهم السنن. وكان بُجَيْر بن زهير بن أبى سلمى الشاعر ابن الشاعر شهد غزوتى حنين والطائف.

حصار الطائف

ولما طال الحصار على الطائف، وكانت عند أهله مئونة كبيرة واستشهد فى حصارهم بضع عشرة من المسلمين رأى الرسول ﷺ من الأفضل رفع الحصار عن الطائف، فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل. وشق على المسلمين رحيلهم بغير فتح، فأمرهم أن يقولوا: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. ولما استعدوا للمسير قال لهم: قولوا: آيبون إن شاء الله تائبون عابدون لربنا حامدون. وقيل له عند الرحيل: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف. فقال: اللهم اهْدِ ثقيفًا إلى الإسلام.

رفع الحصار

دعاء الرسول الرحيم

ب- قسمة غنائم حنين

ترك الرسول ﷺ حصار الطائف ومضى إلى الجعرّانة بالقرب من حنين لخمسٍ خلون من ذى القعدة والغنائم بها محبوسة وبالمثل السبى وكان ستة آلاف، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير وناقة، وكانت الغنم أربعين ألفا. وأمر الرسول بُسْر بن سفيان الخزاعى أن يقدم مكة فيشترى للسَّبْى ثيابا يكسوهم وكساهم جميعا. واستأنى الرسول بالسبى لا يقسّمه متربِّصا أن يقْدِم وفدهم، وبدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم أول الناس، وأعطى غيرهم. وجاءه وفد هوازن مسلمين راغبين فى العطف، فقال لهم: قد كنت استأنيت فى قسمة السبى فلم تحضروا، وأنا أسألكم: أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم؟ فقالوا له: خيَّرتنا بين أحسابنا وأموالنا وما كنا نعدل بالأحساب شيئا فردوا علينا أبناءنا ونساءنا. فقال لهم: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب وبنى هاشم فهو لكم، وأسأل لكم الناس، فإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله على المسلمين وبالمسلمين على رسول الله. فقال عليه السلام: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب وبنى هاشم فهو لكم، وقال المهاجرون والأنصار: أما ما كان لنا فهو لرسول الله. وامتنع الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى مع قومهما أن يردوا عليهم شيئا مما وقع لهم، وامتنع العباس بن مرداس مثلهما أن يرد شيئا من السبى، غير أن قومه من بنى سليم قالوا: ما كان لنا فهو لرسول الله. وجارتهم القبائل البدوية فى ذلك، فقال الرسول ﷺ: من ضنّ منكم بما فى يديه من السَّبْى نعوِّضه منه. فردّ عليهم الرسول ﷺ نساءهم وأبناءهم، وعوَّض من لم تطب نفسه بترك نصيبه من السبى أعواضًا رضوا بها؛ وهى مأثرة إنسانية عظيمة له، وكان يصطنعها دائما فى غزوه كما مرّ بنا فى غزوة بنى المصطلق، إذ كان دائما يكرم النساء العربيات أن يصبحن سبيات.

مجئ وفد هوازن

مأثرة إنسانية

الشيماء

وكان بين أسيرات هوازن امرأة متقدمة فى السن طلبت لقاء الرسول، ولما رأته قالت له: يا محمد أنا الشيماء أختك فى الرضاعة من أمى حليمة فى بنى سعد. فقربها منه وبسط لها رداءه فجلست معه عليه كما كانت تجلس بجواره حين كانا

صبيين، وأعلنت له إسلامها وأعطاها ثلاثة أعبد وجارية ومالا، ورجعت إلى قبيلتها مسرورة بلقاء الرسول أخيها فى الرضاعة وبدينها وبهداياه لها.

أعطيات المؤلفة قلوبهم

ورأى الرسول أن يتألف قلوب أشراف قريش والعرب بأعطيات من الإبل الكثيرة التى غنمها فى حنين، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وبالمثل لابنيه يزيد ومعاوية ولحكيم بن حزام والحارث بن هشام وعكرمة بن أبى جهل وسهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العُزّى وصفوان بن أمية والعلاء بن جارية، وبالمثل أعطى عيينة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس التميمى ومالك بن عوف النصرى الذى جمع له هوازن وثقيفا وغيرهم. وقال لوفد هوازن إن جاءنى مسلما رددت إليه أهله وماله، وبلغ ذلك مالكا فى ثقيف ففرَّ منها ليلا وقدم على الرسول فى الجعِرَّانة، فرد عليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل، واستعمله على قومه وعقد له لواء، فأغار على المشركين وثقيف وغنم وحسن إسلامه. هؤلاء أصحاب المئين، وأعطى الرسول رجالا من قريش والعرب دون المائة، منهم عباس ابن مرداس السُّلمى وتسخّط شعرا أن لم يأخذ مائة، فقال الرسول: كفُّوا لسانه عنى، فأعطوه حتى رضى. وكل ما أعطاه الرسول إنما كان من خمس الغنيمة الذى أجازته له سورة الأنفال. وعند إعطاء الرسول ﷺ هذه العطيات قيل إنه تعرض له رجل يسمَّى ذا الخُوَيْصِرة التميمى قائلا: قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم يا محمد، فقال له الرسول ﷺ كيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت. فغضب الرسول ﷺ وقال له: ويحك إن لم يكن العدل منى فعند من يكون؟ فقال عمر للرسول: دَعْنى أضرب عنقه يا رسول الله. فقال: لا، دعوه فسيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميَّة.

موقف بعض الأنصار

ودخل سعد بن عبادة على الرسول ﷺ فقال له: يا رسول الله إن هذا الحيّ من الأنصار وجدوا عليك فى أنفسهم بما صنعت فى هذا الفيئ الذى أصبت، قسمت فى قومك وأعطيت قوما من العرب عطايا عظاما ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار منها شئ. فقال له: اجمع لى قومك. فجمع سعد له الأنصار فأتاهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتنى عنكم

موجدة وجدتموها فى أنفسكم، أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا (فقيرا) فواسيناك، أوجدتكم – يا معشر الأنصار – فى أنفسكم فى لُعاعة (بقية ضئيلة) من الدنيا تألفت بها قوما ليُسلموا ووكلتكم إلى إيمانكم، ألا ترضون – يا معشر الأنصار – أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ والذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلك الأنصار شِعْبا لسلكت شِعْب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا. وانصرفوا راضين.

توزيع الغنائم

وأمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ووزَّعها على الناس، وكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة، وإن كان فارسا أخذ اثنتى عشرة من الإبل أو مائة وعشرين شاة.

جـ- عمرة الرسول من الجِعرَّانة

بعد أُعطيات المؤلفة قلوبهم خرج الرسول ﷺ من الجعرانة إلى مكة لاثنتى عشرة ليلة من ذى القعدة، وأحرم للعمرة ولَبَّى حتى استلم الركن، وطاف فرمل فى الأشواط الثلاثة مهرولا. ولما أكمل طوافه سعى بين الصفا والمروة على راحلته ثم حلق رأسه عند المروة ولم يَسُقْ هَدْيا. وكان قد استعمل على مكة عتاب بن أُسَيد، وخلَّف معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى يعلِّمان الناس القرآن والتفقُّه فى الدين، وقال لعتاب: استعملتك على أهل الله وبلِّغ عنى أربعا: لا يصلح شرطان فى بيع، ولا بيعٌ وسلف، ولا بيعُ ما لم يُضْمَن، ولا يأكل أحد ربح ما ليس عنده.

عتاب بن أسيد وال على مكة

بعث عمرو بن العاص إلى ابنى الجلندى

وفى هذه السنة: سنة ثمان بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جَيْفَر وعمرو ابنى الجُلُنْدَى بعُمان مصدِّقا، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردَّها على

فقرائهم، وأمره أن يأخذ الجزية من مجوس عُمان، وبذلك عامل المجوس معاملة أهل الكتاب. وفى هذه السنة أقام عتّاب بن أسيد الحج للناس، وحج الناس على ما كانت عادة العرب فى الحج، وحجَّ ناس من المشركين على عادتهم. وكان عتّاب خيرا فاضلا.

أخذ الجزية من مجوس عمان

ودخل الرسول ﷺ المدينة لستٍّ بقين من ذى القعدة، وكانت غيبته عنها منذ خرج إلى مكة فى اليوم العاشر من رمضان ففتحها ودخلت راضية فى الإسلام، وأعانه منها ألفان فى معركة هوازن وفى حصار الطائف مدة شهرين وستة عشر يوما. ولما قفل الرسول ﷺ عائدا قال لأصحابه: قولوا : آيبون، تائبون، عائدون، لربنا حامدون. وقال له بعض الصحابة: يا رسول الله ادع الله على ثقيف، فقال: اللهم اهْدِ ثقيفا وأت بهم. وفعلا أتاه بهم .

عودة الرسول إلى المدينة

٣

مولد إبراهيم – اتفاق زوجات الرسول ﷺ عليه

أ– مولد إبراهيم

فى السنة التى فُتحت فيها مكة، وهى السنة الثامنة للهجرة توفيت ابنة الرسول زينب كبرى بناته، وكان يعزُّها. وتزوجت – كما مرَّ بنا – ابن خالتها أبا العاص بن الربيع، وكانا متحابين. ولم تكد تنتهى هذه السنة حتى بُشِّر الرسول فى شهر ذى الحجة بميلاد جاريته مارية القبطية بابنه إبراهيم. ولم تكن تنزل بجوار المسجد مثل زوجات الرسول، إذ أنزلها الرسول فى العالية أو العوالى من ضواحى المدينة، وكان الذى بشَّره بميلاد ابنه أبو رافع زوج سلمى قابلتها فوهب له عبدا، وذبح لابنه فى يوم سابعه كبشا احتفالا به، وحلق أبو هند رأسه، فتصدق الرسول بوزن شعره فضة فرَّقها على المساكين، وسماه إبراهيم تيمنا باسم إبراهيم الخليل جد الأنبياء.

بشرى الرسول بابنه إبراهيم

وأخذ الرسول ﷺ يكثر من زيارة مارية والمكث عندها للمتاع برؤية ابنه. ومنذ ولدته مارية دبَّت غيرة شديدة بين زوجات الرسول من تلك الجارية القبطية التى ولدت للرسول طفله. وحتى عائشة العاقلة الذكية لم تكن تخفى ذلك، فقد حمله الرسول إليها فرحا به، وقال لها إنه يشبهني، فقالت له: إنه لا يحمل أى شبه بك.

غيرة زوجاته

وحدث أن مارية جارية الرسول جاءته، وكانت حفصة ذهبت فى زيارة إلى والدها، فاختلا بها فى منزلها، وصادف ذلك عودة حفصة، فثارت ثورة شديدة على الرسول، وقالت له: إنك أدخلت مارية بيتى لم صنعت هذا بى من بين نسائك؟ إنك ما صنعته إلا من هوانى عليك، فهدَّأها وقال إرضاء لها إنها حرام إن قربت منها، فقالت له: كيف تحرم عليك وهى جاريتك ومملوكتك؟ فحلف لها أنه لن يقربها، ثم قال لها: لا تذكرى شيئا من ذلك لعائشة. وكانتا متصادقتين متوادتين.

لقاء الرسول بمارية فى بيت حفصة

ولم تلبث حفصة أن ذكرت الحادثة لعائشة، إذ جعلتها الغيرة من مارية لا تطيق كتمانها، وذكرتها عائشة للرسول فعرف أن حفصة لم تصن سرَّه. وأشاعت حفصة وعائشة الحادثة بين زوجات الرسول وما عزم عليه من عدم رؤيته مارية ولقائها، وغضب غضبا شديدا، فأنزل الله عليه سورة التحريم مفتتحا لها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ معاتبا للرسول ﷺ، وأعقب الله ذلك بأنه شرع كفارة اليمين قائلا: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ ولم تكن مارية زوجة له، إنما كانت أَمَة له مملوكة. والله - جل شأنه - يعاتب الرسول على تحريمه مارية على نفسه بيمين، ويأمره أن يكفِّر عنه، ويشير الله إلى قصة حفصة وإذاعتها السر الذى سألها الرسول كتمانه، ثم يتجه إلى حفصة وعائشة قائلا: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ومالت إلى الخير ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أى وإن تعاونتما ضد الرسول ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

آيات سورة التحريم

توبة حفصة وعائشة

وقد تابت حفصة وعائشة من هذه الغيرة الشديدة من أم إبراهيم التى دفعتهما إلى إغراء عامة زوجات الرسول بالغيرة عليه من مارية، يقول عمر بن الخطاب - كما فى البخارى رواية عن أنس: اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه، فنزل قوله تعالى عقب ذكره الحادثة السالفة ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾. ويصف الله لزوجات الرسول أنه إن طلقهنّ يبدّله الله خيرا منهن مسلمات مؤمنات قانتات أى مطيعات لله ورسوله، تائبات أى مقلعات عما يرتكبن من الذنوب، وكأن الله يذكر أنهن تائبات تحريضا لحفصة وغيرها من زوجات الرسول على التوبة من غيرتهن الشديدة، عابدات مقبلات على عبادة الله سائحات أى مهاجرات مثل حفصة وعائشة وقيل بل صوّامات، ثيّبات مثل حفصة وصواحبها من زوجات الرسول وأبكارا مثل عائشة.

غيرة من زينب بنت جحش

وذهب بعض المفسرين إلى أن سبب نزول آيات سورة التحريم ليس ما قدمناه من خلوة الرسول فى بيت حفصة بمارية أم إبراهيم، وإنما سببه أنه دخل على زوجته زينب بنت جحش، وكانت امرأة أهدت إليها زقًّا من عسل النحل، ودخل عليها الرسول ﷺ، فسقته منه، ومكث عندها فترة، وعرفت عائشة ذلك، فقالت لحفصة: أما والله لنحتالن له. وكان من عادته إذا صلّى العصر أن يدنو من إحدى زوجاته، فقالت لحفصة: إذا دنا منك فقولى له: أكلت مغافير (صمغ شجر العرفط) وسيقول: لا. فقولى له: ما هذه الرائحة التى أجدها منك؟ فسيقول لك: سقتنى زينب عسلا. فقولى له: جرست (رعتْ) نَحْلُه شجر العرفط. وسأقول له ذلك، وأعلمت بما دبرت سودة وصفية. وكان الرسول ﷺ كلما دنا من إحداهن قالت له: يا رسول الله أكلت مغافير. فيقول: لا. فتقول: ما هذه الرائحة التى أجدها منك؟ فيقول: سقتنى زينب عسلا. فتقول له: جرست نحله العرفط. فنزلت آيات سورة التحريم. ويبعد أن تكون هذه الحادثة إن صحت سبب نزولها، والأصح ما ذكرناه أولا. والحادثة تدل على أن زوجاته كن دائما يستشعرن الغيرة إذا بدا إيثاره لإحداهن حتى بإطالة جلسة مع

إحداهن. ومن المؤكد أن الغيرة ازدادت بهن من مارية القبطية حين ولدت للرسول إبراهيم، ولعل غيرة أزواجه الشديدة من مارية وابنها هى التى جعلت الرسول ﷺ يسارع إلى إبعاد إبراهيم عنهن فى البوادى عند مرضعته خولة بنت المنذر فى بنى مازن، وعندها توفى بربيع الأول سنة عشرة من الهجرة وغسلته وحملته إلى أبيه على سرير صغير، فصلّى عليه وكبّر أربعا ودفنه بالبقيع ورشّ عليه الماء.

ب - اتفاق زوجات الرسول ﷺ عليه

بدأ الرسول حياته فى مكة على شئ من الثراء، إذ كانت أسرته من أشراف قريش، وكان قد وُلِد يتيما وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب. وكان طبيعيا حين شبَّ أن يسعى فى الحياة ليكسب عيشه، واستخدمته خديجة فى تجارتها، وكانت أرملة وثرية ثراء طائلا، وأُعجبت بأمانته وخلقه الكريم وتزوجته، وأخلصت له منتهى الإخلاص وعاش معها هانئا. غير أن تغيرا روحيا أصابه، فأخذ يعتزل مكة والناس، واختار غار حِراء فى جبل بجوار مكة ليقيم فيه مفكرا فى أمر الكون وخالقه، وانصرف عن المتاع الدنيوى وجاءته الرسالة، فاتسع فى هذا الانصراف، وأقبل على الزهد فى نعيم الحياة. حتى إذا هاجر إلى المدينة أخذ يعيش هو وزوجاته فيها على التقشف فى الحياة، وهو تقشف كان يُرى فى مسجده الذى خلا من كل زخرف وزينة، وبالمثل فى دور زوجاته التى ألحقها بمسجده، وفى كل ما اتخذه لهن فيها من أثاث، وكان ينام مثلهن على حصير، وكان يعيش مثل زوجاته على الثريد والتمر واللبن، وكانت ثيابه وثيابهن بسيطة، وكان متواضعا إلى أقصى حد، وكان يشترك مع زوجاته فى بعض الأعمال بدورهن، فكان يخيط ملابسه ويخصف نعله ويحلب شاته، وكان يكره لنفسه ولزوجاته ارتداء الثياب الفاخرة. وهذه المعيشة القانعة التى تكتفى بالكفاف فى المسكن والملبس والمطعم كانت زوجات الرسول ﷺ تقبلها برضا فى سنوات الهجرة الأولى، إذ لم يكن عند الرسول ﷺ مال يستطيع أن يتسع به

انصراف الرسول عن المتاع الدنيوى

إقبال الرسول على الشظف والزهد

فى الإنفاق على زوجاته. غير أنه مع الزمن أخذ ورود المال للرسول يكثر منذ أصبحت أرض بنى النضير فى المدينة فيئا أو مغنما خالصا له وللمهاجرين فى السنة الثالثة للهجرة، وفى السنة الخامسة صار له الخمس من أرض بنى قريظة ومغانمها، وكثر الخمس من مغانم البعوث ومغانم خيبر فى أوائل السنة السابعة للهجرة، وهذا المال كان يقفه على حروبه وصدقاته.

وقد ظل الرسول لا يأخذ من أموال أرض بنى النضير وما جاءه بعد ذلك من خمس الغنائم من قريظة وخيبر لنفقته ونفقة زوجاته إلا ما يقتضيه قوام حياته وحياتهم القائمة على الشظف والكفاف، وكان الباقى الكثير يُرْصَدُ شطر منه على السلاح والخيل والإبل عُدَّةً وأُهْبَةً للحرب، وشطر يُنفق على الفقراء والمساكين والأرامل واليتامى والمحتاجين. ويبدو أن كثرة الغنائم جعلت بعض المهاجرين والأنصار ينفق على زوجاته وأهله عن سعة، وظلت نساء الرسول طويلا ينتظرن منه السعة فى النفقة عليهن، وهو مشغول عن متاع الدنيا زاهد فيه، ومن حين إلى آخر كن يومئن إليه ولا يلتفت، وبعد لأيٍ ومطاولة امتدت سنوات، رأتْ زوجاته جميعا مصارحته وأنهن جميعا يُرِدْن شيئا من الترف فى المسكن والملبس والمطعم، وألححن عليه فى ذلك، وأخذ يضيق بهن ضيقا شديدا، وصمم على أن يعتزلهن جميعا شهرا فلا يقرب فيه واحدة منهن أدبا لما أفرطن فيه من طلب الترف الدنيوى، واختار غرفة منعزلة فوق الدور ينام فيها ويقضى أوقات فراغه، وظل معتزلا زوجاته فيها شهرا.

رغبة زوجات الرسول فى شئ من الترف وزينة الحياة

وفى هذا الشهر تصادف أن عمر بن الخطاب غضب يوما على امرأته فإذا هى تراجعه، فأنكر أن تراجعه، فقالت له: أتنكر أن أراجعك، ووالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال عمر: فانطلقت، فدخلت على حفصة، فقلت لها أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت له: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله؟ ثم قال لها: لا تراجعى رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئا وسلينى من مالى ما بدا لك.

مراجعة عمر لحفصة

وإنما سقنا هذا الخبر لما جاء فيه من قول عمر لابنته حفصة زوجة الرسول: "لا تسأليه شيئا وسليني من مالي ما بدا لك"، مما يدل - بوضوح - على أن زوجات الرسول - حفصة وزميلاتها - كن يطلبن من الرسول ﷺ مالاً يتيح لهن شيئا من نعيم الحياة في الملبس وغير الملبس. ويقول عمر: إن رجلا أبلغه ذات مساء أن رسول الله طلّق زوجاته جميعا، فلما صلّى الصبح لبس ثيابه ونزل فدخل على حفصة، وسألها: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدرى، إنه معتزل في هذه المشربة أو الغرفة. وأشارت إليها، فأتى غلاما له أسود على باب الغرفة. فقال له: استأذن لي الرسول. فدخل الغلام وخرج وقال: إنه صمت ولم يأذن. ويقول عمر: فذهبت إلى المسجد فإذا بعض الصحابة مجتمعون عند المنبر، ويقولون: إن الرسول طلق زوجاته. فرجع إلى الرسول وقال للغلام قل: عمر يستأذن. فدخل الغلام على الوسول، واستأذن، فصمت الرسول هنيهة ثم أذن له، فدخل، فوجده متكئا على حصير أثر في جسده، فقال له: أطلّقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليه وقال: لا. فقلت: الله أكبر. ثم قال له: لو رأيتنا - يا رسول الله - وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبتُ على امرأتي يوما، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: تنكر أن أراجعك ووالله إن أزواج الرسول ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل؟ فذهبت إلى حفصة، وسألتها عن ذلك فقالت: نعم. فقلت: أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسّم رسول الله ﷺ فقال عمر: أستأنس. قال: نعم. فجلس وأخذ ينظر في الغرفة المتواضعة فلم ير فيها شيئا يردّ البصر إلا ثلاثة جلود، فقال لرسول الله ﷺ: ادعُ الله - يا رسول الله - أن يوسّع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالسا، وقال: أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا. ولم يلبث أن نزل عليه قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً. وَإِن

عمر وإشاعة طلاق الرسول لنسائه

استئذان عمر على الرسول وتكذيب الإشاعة

كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. والله – جلّ وعزّ – يأمر رسوله أن يخيِّر أزواجه بين أن يفارقنه ويتزوجن غيره ممن يحصلن عنده على الحياة الدنيا وزينتها وترفها وبين أن يصبرن عنده على ضيق الحياة وشظف المعيشة وكفافها إرضاء لله ورسوله وانتظارا لما أُعدّ لهن فى الآخرة من النعيم المقيم. وخيَّرهُنَّ الرسول ﷺ بين الفراق ورضا الله ورسوله والدار الآخرة، فجميعهن رفضن الفراق وآثَرْن رضا الله ورسوله الذى آثر لنفسه ولهن الزهد فى متاع الحياة وزينتها. والتمتُّع فى الآية إعطاء الزوج زوجته حين يطلقها عطية جبرا لخاطرها، والسراح الجميل: الطلاق الجميل الذى لا يُصْحب بغضب ولا كراهية ولا إيذاء. وقد روى البخارى عن عائشة أن الرسول حين جاءه الأمر بتخيير أزواجه بدأ بى، فقال: إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تتعجّلى حتى تستأمرى أبويك – وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه – ثم قال إن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففى أى هذين أستأمر أبوىّ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. وخيَّر الرسول ﷺ جميع أزواجه، فقلن مثل ما قالت عائشة، وكن يومئذ تسعا: ستّا من قريش: عائشة وحفصة وسودة وأم سلمة وأم حبيبة وزينب بنت جحش الأسدية، وثلاثا غير قرشيات: ميمونة بنت الحارث الهلالية وجُوَيْرية بنت الحارث المُصْطلقية وصفية بنت حُيَىّ النضيرية.

تخيير الرسول لزوجاته بين الطلاق والرضا بمعيشته

وفى الجزء السابق من تحزُّب زوجات الرسول ﷺ عليه وأنهن كن يراجعنه بينما لم يكن يسمح رجال مكة لزوجاتهم بمراجعتهم ما يشير إلى اختلاف الإسلام عن الجاهلية فى معاملة المرأة، ومعروف أنه سوَّى بين الرجل والمرأة فى الفروض والحقوق الدينية من صلاة وزكاة وصيام وحج ونعيم فى الجنة، وورّثها ولم يكن أهل الجاهلية يورثونها، وأشركها مع الرجل فى المسئولية الاجتماعية والسياسية، وفرض لها حريتها فى التصرف بأموالها، وأوصى الرسول الأزواج مرارًا بحسن معاملتهم لأزواجهم، ومن قوله فى ذلك "استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خُلقت من ضلع أعوج، وإنَّ أعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبْتَ تُقيمه

كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء" وهو يشير بأعلى الضلع إلى لسانها وما قد يندّ عنها من ألفاظ نابية ينبغى أن يغفرها لهن الأزواج حتى تستمر العشرة ولا يحدث الفراق.

المعاشرة الكريمة لزوجاته

والرسول ﷺ كان مثلا أعلى فى حسن معاملته لزوجاته فكان يعاشرهن معاشرة كريمة فيرفق بهن ويجد عندهن المودة الصافية والسكينة والراحة والطمأنينة، وكن يبادلنه المحبة والإخلاص، وقد سمّاهن أمهات المؤمنين رفعا لمعنوياتهن ومكانتهن بين المسلمين. وقد حرم عليهن الزواج بعده حتى لا يُكَوِّنَّ أُسَرا وعشائر تتخاصم على الحكم، وحين اتفقن على التحزب ضده من أجل زيادة النفقة عليهن لم يدخل معهن أو مع إحداهن فى جدال أو مغاضبة وشقاق، بل احتجب عنهن شهرا، حتى نزل الحكم الإلهى بتخييرهن السالف. وليس فى هذا التخيير وهجر الرسول لزوجاته شهرا ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن هذا الهجر كان بسبب حادث مارية وحفصة السالف كما يزعم بعض المستشرقين أو بسبب غيرة زوجاته عليه، إنما كان بسبب تحزبهن عليه وطلبهن منه أن يتمتّعن بالترف وزينة الحياة، وعُدْن إلى طاعة الله ورسوله، راضيات بما أراد لهن من الزهد والعيش الكفاف المقيم للحياة.

٤

جباة فريضة الزكاة وبعوثها – تبوك

أ– جباة فريضة الزكاة

أخذت كثرة القبائل العربية تعتنق الإسلام قبيل فتح مكة، وكان فتحها مؤذنا بأن ينتشر الإسلام فى أقاصى الجزيرة العربية، وقد أسلمت هوازن، ولم يبق خارجا على الإسلام سوى ثقيف، وكل شئ يؤكد أنها لابد أن تستجيب قريبا لدعوة الدين الحنيف. فكان طبيعيا أن يهنأ الرسول ﷺ بانتشار الإسلام فى الجزيرة العربية، إذ بلغت أضواؤه كل مكان فيها وكل ركن. ورأى الرسول فى

أوائل السنة التاسعة أن يرسل الجُباة والبعوث إلى القبائل ليأتوه بضريبة الزكاة التى تعدُّ ركنا أساسيا مفروضا على المسلمين. ومضى جباته ومن كانوا يرافقونهم إلى القبائل ولقيتهم بالترحاب، وأدت إليهم ما يجب عليها من الزكاة إلا ما كان من بعض القبائل والعشائر أبت أن تؤديها، فكان الرسول ﷺ يرسل إليهم بعض البعوث فيذعنون لأدائها بعد مناوشات وقتال. نذكر منهم عشيرة بنى العنبر التميمية، فإنها نهبت زكاة بنى خزاعة وبعث إليها الرسول عُيَيْنة بن حِصْن الفزارى فى خمسين فارسا، فخرج فى آثارهم ولحقهم وأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا وجلبهم إلى المدينة. وقدم على الرسول ﷺ وفد من تميم كان يتكون من عشرة من أشرافهم ورؤسائهم، وقام خطيبهم عطارد بن حاجب مفاخرا وردَّ عليه ثابت بن قيس فأفحمه، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فألقى قصيدة مفاخرا فرد عليه حسَّان بن ثابت وأفحمه، وأعلنوا إسلامهم فأعتق النبى أسرى تميم وردَّهم إليهم.

بعث عيينة إلى بنى العنبر

وأرسل قطبة بن عامر إلى خثعم فقاتلوه هو ومن معه وانتصر عليهم وساق النّعم والشّاء والنساء إلى المدينة. وأرسل الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب وقاتلهم وهزمهم. وقدم على الرسول وفد بَلِيّ، وأرسل إلى رعية السحيمى كتابا فى جلد فرقّع به دلوه، فأرسل إليه بعثا لتأديبه، فساق أهله إلى المدينة وأسلم فردَّ الرسول عليه أهله. وأرسل علقمة بن مجزِّز إلى أهل الشعيبة، ثم أرسل على بن أبى طالب إلى صنم طيىء، فهدمه وفى أثناء ذلك حاربوه فهزمهم وساق النعم والشاء والسَّبْى إلى المدينة وكانت فيه سفَّانة بنت حاتم الطائى، فأكرمها الرسول وكان أخوها عدىّ نصرانيا ولحق بالشام فحسنت له الإسلام، فقدم على الرسول وأكرمه وأسلم وحسن إسلامه.

خروج قطبة إلى خثعم

بعث على بن أبى طالب إلى صنم طيىء

ب – تبوك

جاءت الرسول ﷺ الأنباء بأن الروم يهيئون جيشا فى البلقاء (بالأردن) لغزو حدود العرب الشمالية، وانضمت إليه قبائل لخم وجذام وغسَّان وعاملة

الموالية لهم فصمَّم على مبادرة هذا الجيش. ولم يكن من عادته أن يعلن عن وجهته في الحرب إلا في هذه الغزوة، فإنه أعلنها لبعد المسافة ولحاجة المجاهد فيها إلى المال للنفقة، ولما كانت الغزوة تحتاج إلى مال كثير للنفقة عليها رغَّب رسول الله ﷺ أهل الغنى في الخير، وبادر المسلمون إلى ذلك حتى إن الرجل كان يأتي بالبعير إلى رجل أو رجلين ويقول لهما: هذا البعير بينكما تعتقبانه. ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة جهَّز بها جماعة من المُعْسرين في تلك الغزوة، ورُوِى أنه أنفق فيها ألف دينار. وأتت النساء بكل ما قدرن عليه من المعاضد والخلاخل والأقرطة والخواتم. واجتمع نفر من المنافقين في بيت سويلم اليهودى عند بئر جاسوم وأخذوا يثبِّطون الناس عن الغزو، فبعث إليهم رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله في جماعة وأمرهم أن يحرِّقوا عليهم البيت، وفرّوا. وأتى رسول الله في هذه الغزوة البكاءون وهم سبعة طلبوا إليه ما يحملهم فيها من الإبل، ولم يجدوا عنده ما يحملهم عليه فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما يُحْملون عليه فسُمُّوا البكائين.

صدقات المسلمين للإنفاق منها على الجيش

وخرج رسول الله ﷺ إلى الغزوة في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، وكانت الغزوة في أول الخريف والطقس حار حرارة شديدة، والعام مجدب وطاب حينئذ أول الثمر. وتخلف عن الغزوة عبد الله بن أُبَىّ في نيف وثمانين رجلا من المنافقين وأهل الريب. وسار مع الجيش رهط من المنافقين رجاء الغنيمة. وتخلَّف من صالحى المسلمين ثلاثة: كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وعزَّ ذلك على الرسول، لأنه كان يعرف إيمانهم وفضلهم.

خروج الرسول في الجيش

وكان الجيش ثلاثين ألفا يتقدمهم عشرة آلاف فارس، وقطعَ الطريق الشاق في الحر الشديد حتى انتهى إلى الحِجْر من ديار ثمود قوم صالح، فأمر الرسول ﷺ أن لا يتوضئوا من بئرها ولا يعجنوا خبزا بمائها ولا يستعملوا شيئا منه، فقيل له: إن قوما عجنوا منه، فأمر بالعجين فطُرح. وعطش الجيش عطشا شديدا، فدعا الرسول ﷺ ربه فأرسل عليهم سحابةً ارتووا منها هم ودوابهم وإبلهم وأخذوا حاجتهم من الماء.

ومضى الجيش إلى تبوك وعرف الروم أمره فآثروا الانسحاب من البلقاء في الأردن، وعرف الرسول ﷺ انسحابهم فلم يـر تعقُّبهم في أرضهم وحصونها، وظل الجيش مرابطا في تبوك نحو عشرين يوما، وكاتب الرسول ﷺ الأمراء المقيمين على الحدود ليذعنوا له أو يغزوهم، وجاءه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة في أعلى خليج سيناء وكان مسيحيا، وقدَّم إلى الرسول الهدايا والطاعة، فصالحه على الجزية وأن تؤدى أيلة إلى الرسول ثلاثمائة دينار سنويا، وجاءه أهل جَرْباء وأَذْرُح من أرض البلقاء وصالحوه على الجزية مثل أيلة. وفكر الرسول ﷺ في أمر أكيدر صاحب دومة الجندل القريبة في شمال نجد إلى حدود الشام، وكان نصرانيا مواليا للروم، فبعث إليه الرسول خالد بن الوليد في خمسمائة فارس بليلة مقمرة، وتصادف أن كان خرج منها مع أخيه حسان لصيد البقر فقُتل حسَّان وأُسر أكيدر، وساق خالد من مدينته ألفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة حمل بعير من بُرٍّ وأربعمائة درع، ولحق بالرسول - ومعه أكيدر - في المدينة، فعرض الرسول الإسلام على أكيدر، فأسلم وقيل بل ظل نصرانيا وصالحه على الجزية، وأصبح له حليفا مثل يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة.

يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة

أهل جرباء وأذرح

خالد وصاحب دومة الجندل

وكان نفر من المنافقين بنوا مسجدا بالقرب من مسجد قُباء لغرض الإضرار بجماعة المسلمين ومحاولة التفريق بينهم، وطلبت هذه الجماعة من الرسول أن يفتتحه قبل خروجه إلى تبوك فاستمهلهم حتى يعود من الغزوة، وبمجرد عودته ومعرفته لمقصدهم منه أمر بإحراقه حتى يقضى على مكيدتهم وما يريدون من الطعن على الرسول والصحابة. وما كاد ينقضى شهران حتى توفى عبد الله بن أُبَىّ رأسهم.

عودة الرسول إلى المدينة

وجاء عامة من تخلفوا عن تبوك من المنافقين واعتذروا إليه، وقبل عذرهم، أما الصلحاء الثلاثة من المسلمين فاعترفوا للرسول بذنبهم في التخلف، وهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وكلهم من الأنصار تخلّفوا بدون عذر، فقال لهم: إني أترككم حتى يقضى الله فيكم. ونهى الرسول الصحابة عن كلامهم وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، وعفا الله عنهم بعد خمسين

كعب بن مالك ومرارة وهلال

ليلة، إذ يقول عنهم جل شأنه فى سورة التوبة ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أى عن القضاء فى شأنهم فلم يعذرهم رسول الله ولا أيأسهم من التوبة، فمعنى التخليف فى الآية الإرجاء، وبذلك فسّر كعب بن مالك أحد الثلاثة معنى ﴿خُلِّفُوا﴾ فى الآية، فقال فى حديث مروى عنه فى الصحيح: ليس الذى ذكر الله مما خلّفنا عن الغزو وإنما تخليفه إيانا إرجاؤه أمرنا، وتمام الآية ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أى غفر لهم، بعد إرجاء الحكم فيهم وشعورهم بالحزن والهم والكرب لهذا الإرجاء ﴿لِيَتُوبُوا﴾ من الذنب ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تذييل يفيد الامتنان عليهم جميعا. وغزوة تبوك هى آخر غزوات الرسول ﷺ فلم يقم بعدها بغزوة، إذ دخلت الجزيرة العربية جميعها فى الدين الحنيف.

الفصل الحادى والعشرون

من إسلام ثقيف إلى وفود بقية القبائل وموت إبراهيم

١

إسلام ثقيف – إسلام كعب بن زهير

أ– إسلام ثقيف

عاد الرسول ﷺ من تبوك إلى المدينة ممتلئا بِشرًا وثقةً، فإن الروم تراجعوا فى البلقاء، ولم يفكروا فى لقائه. وبادرت جيوب نصرانية على الحدود فى الشمال بينه وبين الروم مثل جرباء وأذرح فصالحته على أداء الجزية، ومثلها صاحب أيلة فى أعلى خليج سيناء وصاحب دومة الجندل فى شمالى نجد، وقيل إن صاحبها آثر اعتناق الإسلام .

عروة بن مسعود الثقفى

وكان الرسول واثقا من أن ثقيفا ستدخل فى دين الله قريبا، إذ أسلمت القبائل من حولها، وخاصة قبائل هوازن المحيطة بها. وكان عروة بن مسعود الثقفى أحد سادة ثقيف غائبا عن الحصن فى أثناء غزوة الرسول فى حنين وحصاره للطائف، ورجع عقب فكه للحصار، وهداه الله لاعتناق الإسلام، فلحق بالرسول ﷺ قبل دخول المدينة، فأعلن إليه إسلامه، واستأذن الرسول ﷺ فى أن يرجع إلى قومه ثقيف فيدعوهم إلى الإسلام، فقال: إنهم إذن قاتلوك، فقال له: لأنا أحَبُّ إليهم من أبكار أولادهم ثم استأذن ثانية وثالثة، فقال له: إن شئت

فاخرج. ووثق بمكانه منهم، فانصرف إليهم، ودخل الطائف عشاء، ودخل منزله، ولم يأت ربَّتهم: اللات، وكانت صخرة تعبدها ثقيف بالطائف، جعلوا لها بيتا سموه بيت الربَّة، يضاهون به الكعبة: بيت الله في مكة. ودعا قومه إلى الإسلام، فانصرفوا عنه، حتى إذا طلع الفجر أذَّن بالصلاة فرموه بالسهام، وأصابه سهم فقتله، ولحق ابنه أبو مُلَيْح وابن أخيه قارب بن الأسود برسول الله ﷺ فأسلما، ونزلا على المغيرة بن شعبة. وأوصى عروةُ أن يُدفن مع شهداء المسلمين في حصار الطائف، فدُفن معهم.

ولم يلبث قوم ثقيف أن رأوا العرب في الجزيرة جميعا دخلوا في دين الله وأن لا طاقة لهم بمحاربتهم وتضييقهم عليهم، فاتفقوا على أن يرسلوا رسولا إلى النبي من سادتهم وشيوخهم، واجتمع رأيهم على إرسال عبد ياليل بن عمرو، فخاف أن يُصنع به ما صُنع بعروة بن مسعود، فأبى، ثم رضي واشترط أن يرسلوا معه رجالا، فأرسلوا معه خمسة من رجالاتهم في شهر رمضان سنة تسع من الهجرة. ولما اقتربوا من المدينة رآهم المغيرة بن شعبة الثقفي، فعرفهم، وأسرع إلى الرسول يخبره بهم، ولقِيَ أبا بكر، فعرف منه الخبر، وبشَّر أبو بكر به الرسول، وأتوه، فرحب بهم ونزلوا في دار المغيرة. وضرب لهم الرسول خيمات بناحية من المسجد، وكانوا لا يزالون على دينهم الوثني، فكانوا يستمعون إلى قراءة القرآن فيه ليلا وتهجد الصحابة، وينظرون إليهم وهم يصلون الصلوات المفروضة نهارا، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم الطعام من عنده في خيامهم أو في دار المغيرة، وكان الذي يمشي بينهم وبين الرسول خالد بن سعيد بن العاص. ومكثوا أياما يغدون على الرسول ويخلّفون أصغرهم عثمان بن أبي العاص على رحالهم، وكانوا إذا رجعوا وناموا بالهاجرة ذهب إلى الرسول ﷺ وسأله عن الدين فأقرأه القرآن ، وأسلم سرًّا وهم لا يعلمون.

وفد ثقيف

وظلوا يختلفون إلى الرسول وهو يدعوهم إلى الإسلام، وقال له عبد ياليل هل ستكتب بيننا وبينك كتاب صلح حتى نرجع إلى قومنا، فقال له: إن أنتم أقررتم بالإسلام كتبت بيني وبينكم كتاب صلح وإلا فلا صلح بيني وبينكم.

وقال له عبد ياليل: إنا قوم نتجر ونبعد عن نسائنا، ولا صبر لنا على العزوبة، فهل نسلم وتأذن لنا فى الزنا ومضاجعة النساء، فقال له: بل هو مما حرَّم الله، قال عبد ياليل: فما الرأى فى الرِّبا، فقال له الرسول ﷺ: الربا حرام، فقال له عبد ياليل: إن أموالنا كلها ربًا، قال الرسول له: لكم رءوس أموالكم، قال عبد ياليل: وما الرأى فى الخمر فإنها عصير أعنابنا ولابد لنا منها؟ قال الرسول: إن الله حرَّمها. وخلا بعضهم إلى بعض، وقال لهم عبد ياليل: أنرجع إلى قومنا بهذه الخصال، لا تصبر ثقيف عن الخمر ولا عن الزنا أبدا.

إسلام الوفد

ومشى خالد بن سعيد بن العاص بينهم وبين رسول الله، ولانوا للإسلام وسألوا الرسول أن يترك لهم صنم اللات ولا يهدمها ثلاث سنوات فأبى رسول الله إلا هدمها، وسألوه أن لا يهدموا أوثانهم ولا يحطموها بأيديهم وقالوا إنما أردنا أن نسلم بتركها لسفهائنا ونسائنا، ونخاف أن نروِّع قومنا بهدمها إلى أن يدخلوا فى الإسلام، وكانوا سألوه مع ترك عبادة اللات أن يعفيهم من الصلاة، فقال لهم: لا خير فى دين بدون صلاة.

تأمير عثمان ابن أبى العاص عليهم

وأسلموا وكتب لهم الرسول ﷺ كتاب الصلح - كتبه خالد بن سعيد بن العاص - وتعلموا فرائض الإسلام، وصاموا بقية شهر رمضان، وأمَّر عليهم الرسول عثمان بن أبى العاص الذى أسلم قبلهم سرًّا، وقال له: اتخذْ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا، ومضوا إلى الطائف. وأرسل الرسول معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفى لهدم اللات، وكانت لأبى سفيان مصاهرة فى ثقيف، وكان له فيها أرض، فأقام فى أرضه وقال للمغيرة: ادخل أنت على قومك فلن يأخذوا على يدك. وأخذ المغيرة فى هدم اللات، وحماه قومه. وخرج نساء ثقيف يبكين اللات مكشوفات الرءوس يَنُحْنَ عليها. وهدمها المغيرة وأخذ ما كان عندها من مال وحُلِىّ ومضى بهما مع أبى سفيان إلى الرسول. وكان أبو مليح بن عروة بن مسعود وابن عمه قارب أسلما كما أسلفنا فطلبا من الرسول أن يأمر المغيرة وأبا سفيان أن يقضيا دين أبويهما من مال اللات، فأمرهما بذلك. ودخل أهل الطائف جميعا فى الإسلام، وعمَّ جميع الجزيرة العربية.

هدم المغيرة اللات

ب- إسلام كعب بن زهير

تلقن كعب الشعر عن أبيه زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى المشهور وكان هو وأخوه بُجَيْر يرعيان الغنم، وسمعا بالرسول ورسالته، ولم يجد كعب رغبة عنده فى الإسلام ولا فى لقاء الرسول، أما بجير فإن الله ألهمه أن يلحق بالرسول ويعتنق الدين الحنيف، بينما ظل كعب وثنيا مشركا بالله، وكان أخوه بجير يرسل إليه بأشعار يحثُّه فيها على الإسلام، فكان يرد عليه بأشعار آذى بعضها رسول الله فتوعده.

وظل كعب على وثنيته بعد فتح الرسول ﷺ لمكة، وكتب إليه أخوه بجير يذكر أن الرسول قتل كل من يؤذيه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ونصحه أن يبادر إلى لقاء الرسول وإعلان إسلامه، ولم يجبه سريعا. ويقال إنه لما أسلمت ثقيف - ويقال بل قبل إسلامها - شرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة، واتخذ أبا بكر شفيعا له عند الرسول، فلما سلم الرسول ﷺ من صلاة الصبح جاء به أبو بكر وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله هذا رجل يبايعك على الإسلام، فبايعه وحسر كعب اللثام عن وجهه، وقال للرسول: أنا كعب بن زهير، وهذا مقام العائذ بك. فأمَّنه، وألقى كعب بين يديه قصيدة لامية رائعة فى مديحه، وفيها يقول:

أُنْبِئتُ أن رسولَ اللهِ أوعدنى   والعفوُ عند رسول الله مأمولُ

وعفا عنه الرسول ﷺ وكساه بُرْدَةً كانت عليه، فسُمِّيت القصيدة باسم البردة وعارضها الشعراء بعده مرارًا وتكرارًا.

٢

نهاية ابن أُبَىّ - حج أبى بكر بالناس

أ- نهاية ابن أُبَىّ

مرّ بنا أن أهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا على وشك أن يتوّجوا ابن أُبَىّ عليهم، وهاجر الرسول ﷺ إليهم فلم يتم هذا التتويج، مما جعله يحمل

للرسول شيئا من الموجدة، غير أنه وجد الخزرج والأوس جميعا يدخلون في الإسلام، فدخل مثلهم في دين الله ظاهرا، وظل يبطن الحسد والحقد على الرسول ﷺ واجتمع معه على شاكلته نفر قليل من قومه وجماعة من اليهود، وبذلك كان رأس المنافقين في المدينة الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكيد له ولرسوله. ومرَّت بنا مواقف له ذميمة من الإسلام، فقد خرج مع جماعته من المنافقين للاشتراك مع المسلمين في غزوة أُحُد ثم انصرف مع جماعته قبل نشوب الحرب بين قريش والمسلمين، ومرَّ بنا أيضا أنه نزلت فيه سورة المنافقون بغزوة بني المصطلق حين اختصم مولى له مع مولى لعمر بن الخطاب، وبلغه اختصامهما فقال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها (يريد نفسه وأمثاله من المنافقين) الأذلَّ (من المسلمين). وردَّ الله عزَّ وجلَّ عليه بقوله في سورة المنافقون: ﴿وَ للهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وكان دائما يعتذر للرسول ويقبل اعتذاره كرما منه ولطفا.

تسامح الرسول مع ابن أُبَيّ

ومرض ابن أُبَيّ في شهر شوال بالسنة التاسعة للهجرة وظل مريضا عشرين يوما ومات في شهر ذي القعدة، وكان الرسول ﷺ يعوده في مرضه آخذا في ذلك بالعفو عن أخطائه معه ومع المسلمين كما أمره الله في قوله له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي الصفح عن ذنب المذنب واجعله صفة لك تلازمك؛ ومعروف أنه عفا عن كل من أسلم من المشركين مهما كانت إساءته إليه وإلى الإسلام. ودخل على ابن أُبَيّ وهو يجود بنفسه، فسأله إن مات أن يحضر غسله، وطلب من الرسول ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفَّن فيه، فخلع قميصه الأعلى - وكان عليه قميصان - وحاول أن يناوله إياه، فقال: بل الذى يلي جلدك، فنزع قميصه الذى يلي جلده، فأعطاه له. ثم قال ابن أُبَيّ: صَلِّ عليَّ واستغفر لي.

وحضر الرسول ﷺ غُسْله وكفنه. ثم حُمل ابن أُبَيّ إلى موضع الجنائز، فقام الرسول ﷺ ليصلّي عليه، فوثب إليه عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله أتُصلّي على ابن أُبَيّ؟ وأخذ يعدِّد مواقفه وأقواله من الرسول والإسلام، فقال له: تأخر عني يا عمر، فإن الله خيَّرني فاخترت - يشير إلى قوله تعالى للرسول:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ – ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين غُفر له زدت عليها. وصلّى عليه الرسول وأطال عليه الوقوف.

ويتجلّى فى ذلك كله مدى تسامح الرسول مع أعدائه وبرّه بهم، فهذا ابن أُبَىّ كبير المنافقين الذى انسحب من الحرب فى غزوة أُحُد مع كتيبة من المنافقين. والذى قال فى غزوة المريسيع: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ (يريد نفسه) منها الأذلّ (يريد الرسول والمهاجرين) مع مواقف أخرى لا تقل سوءا عن هذين الموقفين، ويغفر الرسول ﷺ لابن أُبَىّ كل ذلك حتى إذا طلب منه قميصه الذى على جلده أهداه إليه، وطلب منه حضور غسله عند الموت، فحضره وصلّى عليه غافرا له كل إساءاته؛ إنه مثال التسامح والرحمة حتى لأعدائه.

تسامح الرسول مع أعدائه

ب– حج أبى بكر بالناس

أخذت وفود القبائل من أنحاء الجزيرة العربية تتوالى بعد فتح مكة ودخول ثقيف فى الإسلام على المدينة لإعلان إسلامها للرسول ﷺ . وأخذت أشهر السنة التاسعة للهجرة تتعاقب حتى اقترب موعد الحج، وفكر الرسول ﷺ هل يحج بالناس هذا العام أو يؤجل حجه إلى العام القادم؟ وخاصة أن الكفار من قريش والجزيرة العربية سيحجون مع المسلمين على الصورة الوثنية التى كانوا يحجون بها فى الجاهلية، وكان رجال منهم يطوفون بالكعبة عراة ليس على أحد منهم ثوب، يعظمون بذلك حرمتها قائلين نطوف بالبيت كما ولدتنا أمهاتنا وليس علينا ثوب أو شىء من الدنيا خالطه ظلم. فكره الرسول أن يحج فى ذلك العام، وقرر البقاء فى المدينة، حتى يتم الله نعمة الإسلام على من لا يزال كافرا، وعهد إلى أبى بكر أن يحج بالناس فى هذا العام فخرج إليه فى ثلاثمائة مسلم، وبعث معه عشرين ناقة قربانا للنّحْر بمكة، وساق أبو بكر معها خمس بدنات، وحجّ معه صديقه عبدالرحمن بن عَوْف من كبار الصحابة، وأهدى بدوره بدنات للنحر بمكة.

كراهية الرسول الحج فى السنة التاسعة

وأخذ الرسول ﷺ بعد خروج أبى بكر للحج يفكر فى حج المشركين مع المسلمين، وقد تعهد أن لا يصد أحدا عن الكعبة، وأيضا فإن بينه وبين بعض القبائل عهودًا إلى آجال مسمَّاة، وإذن فسيظل المشركون يحجون إلى الكعبة، مع أن الأصنام التى كانت فيها والتى كانوا يحجون إليها حُطِمت عن آخرها حطما، أفليس هذا الحطم داعيا لمنعهم من الحج إلى الكعبة التى طُهِّرت من الأصنام والشرك بالله؟ وبينما كان يطيل التفكير فى ذلك نزل عليه صدر سورة براءة: نحو ثلاثين آية ينقضن ما بين الرسول والمشركين من عهود إلا العهود التى عُقدت لآجال مسماة فإنها تبقى حتى تستوفى آجالها. وبعث الرسول ﷺ على بن أبى طالب بصدر سورة براءة ليقرأها على الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنًى، وينادى فيهم: يا أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته.

إعلان على بن أبى طالب صدر سورة براءة

ويبدأ صدر سورة براءة بقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾. وأول الآية يبلغ المشركين بفسخ العهود بينهم وبين رسول الله وسقوط تبعاتها حتى يكونوا على بصيرة، وكأن المراد ذوى العهود المطلقة غير المؤقتة، وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تأجيل لنقض العهود وفسخها، حتى يرجع كل قوم إلى مأمنهم. والأشهر الأربعة تبتدئ من عاشر ذى الحجة يوم النحر إلى عاشر ربيع الآخر، حتى إذا انقضت تلك الأشهر أُذن للمسلمين بقتال المشركين حتى يدخلوا فى دين الله، ويستثنى الله من فسخ العهود للمشركين العهود المسماة الآجال قائلا: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾. فأصحاب العهود من المشركين الذين لم ينقصوهم شيئا مما عاهدوهم عليه ولم يظاهروا أو يعينوا عليهم عدوا، فهؤلاء لا تنقضوا عهودهم بل تمتد إلى المدة التى عاهدتموهم عليها. ويحرِّم الله فى الآيات تحريما باتًّا دخول

المشركين المسجد الحرام فى العام القابل قائلا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾. والله يقول إنه لا يحق للمشركين أن يعمروا مساجد الله أى أن يتعبدوا فيها لآلهتهم الوثنية معترفين بأنهم كفار. والمراد فى الآية بمساجد الله المسجد الحرام وما يلحق به من المسعى وعرفة والمشعر الحرام (المزدلفة) ومنى والجمرات. ويعود الله فى صدر سورة براءة إلى تحريم دخول المشركين المسجد الحرام قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. ونجاسة المشركين تعود إلى شركهم بالله، فهى نجاسة معنوية توجب على الكفار أن يتطهروا منها، ولذلك أوجب الإسلام على المشرك حين يدخل فيه الغسلَ تطهرا من نجاسة الشرك وقذارته. والمراد بمنع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام منعهم من حضور موسم الحج بعد هذا العام. ولم يلبث كل من كانوا لا يزالون مشركين فى الجزيرة ومكة أن اعتنقوا الدين الحنيف، وأصبحت الجزيرة العربية دارا كبيرة للإسلام، وفُرضت الجزية على كل من لم يسلم من أهل الكتاب.

تحريم دخول المشركين المسجد الحرام

وبعد أن تعقبنا صدر سورة براءة الذى نودى به فى منى بحجاج السنة التاسعة للهجرة بقصد جمع العرب فى الحج بالعام القابل على دين الإسلام، نتعقب حجة أبى بكر فى العام التاسع من الهجرة وقد أقام للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، وقد عهد إليه الرسول أن يخالف مشركى مكة فلا يقف بمزدلفة مثل قريش بل يقف مثل العرب بعرفة، ولا يدفع الناس منها حتى تغرب الشمس، ويدفع الناس من المزدلفة قبل طلوع الشمس. ورحل - بعد هذه الوصية - حتى أتى مكة، وهو مفرد بالحج (أى دون العمرة) فخطب قبل التروية (يوم التروية: اليوم الثامن من ذى الحجة) بيوم بعد الظهر. وطاف يوم التروية - حين زاغت الشمس - بالبيت سبعا، ثم ركب راحلته. وصلّى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمنى. ولم يركب حتى طلعت الشمس على جبل ثبير. وانتهى إلى نَمِرة فى عرفة، فنزل فى قُبّة (خيمة) من

إقامة أبى بكر الحج للناس

شعر، فأمضى فيها وقت القيلولة .. ولما زاغت الشمس ركب راحلته، فخطب ببطن عُرْنة وصلّى الظهر والعصر بأذانٍ وإقامتين. وركب راحلته ووقف بالهضاب من عرفة. ولما أفطر الصائم سار سريعاً حتى نزل بجمع (المزدلفة) قريبا من النار التى على قُزَح وهو الموضع الذى كانت قريش توقد فيه - فى الجاهلية - النيران. ولما طلع الفجر صلاّه، ودفع الناس قبل طلوع الشمس، وسار سريعا حتى انتهى إلى وادى محسّر فأسرع براحلته، ولما جازها خفف سرعته، حتى رمى الجمار راكبا، ثم رجع إلى المنحر، فنحر بدناته ثم حلق شعره. وخطب يوم النحر بعد الظهر راكبا على راحلته، وقام يرمى الجمار راكبا وقيل ماشيا، ولما رمى الجمار فى اليوم الرابع صلّى بالأبطح الظهر والعصر، وصلى بمكة المغرب والعشاء. وسار من ليلته قافلا إلى المدينة.

٣

وفود القبائل

لما فتح رسول الله ﷺ مكة ونصره الله يوم حنين وأسلمت ثقيف وانصرف من تبوك أقبلت إليه وفود العرب من كل مكان، وأخذت شكل سيول متلاحقة. ولم يحاول كتّاب السيرة النبوية التأريخ الدقيق لها، وقالوا إن العامين التاسع والعاشر للهجرة عاما الوفود، وكان الرسول يستقبلهم استقبالا كريما ويعلنون إليه إسلامهم ويجيزهم.

وربما كان أول وفد لقبيلة وفَد على الرسول فى سنة تسع وفد تميم، وذلك أن المصدِّق أو جابى الصدقات والزكاة لرسول الله ﷺ ذهب إلى خزاعة ليأخذ منهم الصدقة، وكانت تنزل عندهم عشيرة من تميم، وجاءوه بالصدقة من كل ناحية، فاستكثرت ذلك العشيرة التميمية، فمنعوا المصدق من أخذها وشهروا سيوفهم ففر إلى الرسول بالمدينة، وأخبره بما فعلت العشيرة التميمية، وكانت خزاعة ردتها إلى ديارها فى شرقى الجزيرة، فندب الرسول لهم عُيَيْنة بن حصن

في خمسين فارسا في المحرم من سنة تسع – كما مرَّ بنا – فوجدهم يؤمُّون أرض بني سليم، فأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا وجلبهم إلى المدينة.

وفد تميم

وعلمت تميم بأمرهم فقدم وفد من رؤسائها وسادتها، فيهم قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم وعطارد بن حاجب خطيبهم والزبرقان بن بدر شاعرهم ليفكوا الأسرى ويأخذوا السبي، ولما لم يجدوا الرسول بالمسجد اتجهوا إلى بيته وحجراته، وأخذوا ينادونه في غلظة، وخرج إليهم فرفعوا أصواتهم فوق صوته رفعا متجاوزا المعتاد في جهر الأصوات. وفيهم نزلت آيات سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. والآيات تجمل ما ينبغي على بني تميم والمسلمين من الآداب في خطاب الرسول ﷺ، وأول أدب أدَّب الله به المسلمين في حضرة رسول الله أن لا يرفعوا أصواتهم بين يديه فوق صوته ولا يشتدوا في جهرهم له بأصواتهم كجهر بعضهم لبعض، حتى لا تبطل أعمالهم الصالحة أو الطيبة دون أن يشعروا. وأدب ثان في خطاب الرسول ﷺ أن يغض المخاطب له صوته ويخفضه، والأدبان مطلوبان من المسلم في خطاب كل الناس تلطفا محبوبا. وأدب ثالث هو التلطف في النداء على شخص في داره، ويقال إن وفد بني تميم نادى جميعه على الرسول من وراء الحجرات: يا محمد اخْرُج إلينا، فإن مَدْحَنا زين، وذمَّنا شَيْن، نحن أكرم العرب، وأرشد الله إلى الأدب مع الرسول في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكان مع وفد بنى تميم الأقرع بن حابس التميمى وعُيَيْنة بن حصن الفزارى، وكانا قدما على الرسول قبل فتح مكة وأسلما، وشهدا معه فتح مكة وحنينًا وحصار الطائف. وأقام بلال الصلاة، وصلّى الرسول بالصحابة الظهر، ثم جلس لوفد بنى تميم فقدّموا عطارد بن حاجب خطيبهم، فتحدث فى خطبته عن مفاخر تميم، ثم قال الرسول لثابت بن قيس: قم فأجب خطيبهم، فقام وخطب خطبة رفيعة بدأها بالحمد لله خالق السموات والأرض الذى اصطفى للناس من خلقه رسولا، ويشيد به وبالمهاجرين والأنصار وجهادهم ونصرتهم للدين الحنيف. ثم وقف شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد قصيدة يفتخر فيها ببنى تميم ومكارمهم ورد عليه حسان بقصيدة رائعة يفاخرهم فيها بالرسول والمهاجرين من قريش فخرا بديعا. وتقدم الوفد إلى الرسول وكل منهم يعلن إليه إسلامه، وأكرمهم الرسول إكراما عظيما، وردَّ عليهم أسرى عُيَيْنة بن حصن والسبى جميعا، وأجازهم وكان يجيز جميع الوفود حين تقدم عليه، وكانت جوائزهم على يد بلال، لكل رجل اثنتا عشرة أوقية ونصف من الفضة، وكان معهم غلام، فأعطاه خمس أواقٍ.

خطيب الوفد

شاعر الوفد

وكان الرسول ﷺ أرسل فى سنة ثمان من الهجرة إلى عمان على الخليج العربى وسيديها جيْفَر وعمرو ابنى الجُلُندى عمرو بن العاص – كما مرّ بنا – ليأخذ الزكاة فأخذها من أغنيائهم وردَّها على فقرائهم، وأخذ الجزية من المجوس، إذ عاملهم الرسول – كما أسلفنا – معاملة أهل الكتاب، واقتداء بصنيعه معهم صنع عمر بن الخطاب مع إيران فى خلافته – وأرسل قبل فتح مكة العلاء بن الحَضْرَمىّ إلى المنذر بن ساوَى العبدى (من عبد القيس) أمير البحرين فأسلم وحسن إسلامه، وظل العلاء عنده أميرا لرسول الله ﷺ على البحرين، وكانت قبيلة عبد القيس تنزل على الخليج أمام البحرين وكان وفدا منها وَفِد على الرسول قبل فتح مكة وأسلم ويظن ظنا أن العلاء بن الحضرمى عمل على نشر الإسلام فيها وكان لا يزال فيها نفر من المجوس والنصارى. ونرى سيدا منها هو الجارود العبدىّ يَفِد على الرسول ﷺ فى طائفة منها غير مسلمة فى السنة

إسلام المنذر بن ساوى ووفد عبد القيس

إسلام الجارود ووفد عبد القيس

التاسعة للهجرة، وكان الجارود نصرانيا فأسلم هو ومن معه، وكان فاضلا صلبا في ذات الله، وحسن إسلام عبد القيس جميعا.

وفد بنى حنيفة

وقدم على رسول الله ﷺ من اليمامة وفد بنى حنيفة ومعهم مُسَيْلمة الكذاب، وخلفوه في رحالهم، ودخلوا على رسول الله، وقيل بل دخل معهم، وأعلنوا إسلامهم، وأجازهم الرسول فلما انتهوا إلى اليمامة موطنهم ارتد مسيلمة وتنبَّأ، وقال إني قد أُشركت في الأمر مع محمد وأحلَّ لهم الخمر والفحشاء ووضع عنهم الصلاة، وكتب إلى الرسول ﷺ: "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإني قد أُشْرِكت معك في الأمر، وإن لنا نصفَ الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون". فكتب إليه الرسول بعد البسملة: "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذَّاب. أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى. وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده". وظل مسيلمة في غيِّه وضلاله، حتى قُتل بحروب الردة في موقعة مع خالد بن الوليد.

وفد طيئ

وقدم وفد طيئ على رسول الله ﷺ يقوده إليه زيد الخيل فارسهم وسيدهم، فكلمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا جميعا وحسن إسلامهم، وقال الرسول في زيد الخيل: ما ذُكر لي رجل من العرب بصفة ثم جاءني إلا رأيته دون ما وُصف به إلا زيد الخيل فإن وصفه لم يبلغ كل ما فيه وسماه زيد الخير وكان أسر في الجاهلية عامر بن الطفيل فارس بني عامر وجزَّ ناصيته.

المعاملة الطيبة لسفانة بنت حاتم

وكان علي بن أبي طالب حين ذهب في بعث للرسول لهدم صنم طيئ كما مرَّ بنا ساق سفَّانة بنت حاتم الطائي في السَّبي، وكان أخوها عديّ نصرانيا، فحين جاءه الخبر بخيل ابن أبي طالب حمل أسرته وفرَّ بها إلى الشام. ومرَّ الرسول ﷺ بسفانة وهي أسيرة، فتعرَّضتْ له قائلة: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الرافد، فامنُن عليَّ منَّ الله عليك، فسألها من رافدها؟ فقالت: عديّ بن حاتم. فقال لها: الفارُّ من الله ورسوله؟ وأكرمها الرسول وقال لها: لا تعجلي حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى ديارك واستأذنيني. وأقامت

حتى وجدت ركبا من قبيلة بَلِيّ أو قضاعة المجاورتين للشام، فقالت للرسول : وجدت رهطا من قومى فيهم ثقة وبلاغ. فكساها رسول الله ﷺ وحملها على بعير وأعطاها نفقة. وقدمت على أخيها عدىّ بالشام ، فأقنعته بوفوده على الرسول فوفد عليه فى طائفة من قومه وهو لا يدرى أملكٌ هو أو نبىٌّ، ولما دخل عليه وعرفه رحَّب به واصطحبه إلى بيته. قال عدىّ: ولقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلا تكلّمه فى حاجتها، وقلت فى نفسى والله ما هذا بملك، ومضينا، حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم (جلد) محشوة ليفا، فقذفها إلىّ فقال اجلس على هذه. فقلت: بل أنت فاجلس عليها. قال: بل أنت. فجلست عليها وجلس بالأرض. فقلت فى نفسى: ما هذا بملك، ثم قال لى : إيه يا عدىّ بن حاتم ألم تكن ركوسيًّا؟ (فرقه تخلط بين الدينين المسيحى والصابئى) قلت: بلى. قال : أوَلم تكن تسير فى قومك بالمرباع؟ (أى تأخذ منهم ربُع الغنيمة) قلت: بلى. قال: إن ذلك لم يكن يحلُّ لك فى دينك. قال عدىّ : قلت أجل. وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يُجْهل. ثم قال الرسول لعدىّ: لعلك يا عدىّ إنما يمنعك من الدخول فى الإسلام ما ترى من حاجة المسلمين، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله لتوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور الكعبة لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فى الإسلام أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم، فوالله لتوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت لهم. قال عدىّ: فأسلمت.

المعاملة الكريمة لأخيها عدىّ

وكل ما وعد به الرسول المسلمين فى هذا الحوار تحقق فقد أثرى المسلمون ثراء واسعا، وأُمِّن الطريق من الشام إلى مكة، وصارت لهم القصور البيض من أرض فارس، بل صارت لهم فارس جميعها. ولم أرو خبر سفَّانة بنت حاتم وأخيها عدى بطوله إلا ليرى قارئ السيرة النبوية صورة من مروءة الرسول فى المعاملة

الطيبة للمرأة حتى الأسيرة، وعجب عدى منه حين رآه فى طريقهما إلى بيته تستوقفه امرأة عجوز ضعيفة طويلا، ويقف لها - ومعه ضيف - غير برم ولا ضجر لطفا وأدبا ليس بعده أدب، وبحق يقول: أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى. ودخل مع عدى بيته، فقدم له وسادة ليجلس عليها وجلس هو على الأرض. وليس ذلك إكراما للضيف فحسب، بل هو أيضا تواضع حميد ليس يماثله تواضع، وكان يعمِّمه فى تعامله مع أصحابه جميعا، فأحبُّوه حبًّا مَلَك عليهم شغاف قلوبهم كما ملك شغاف أتباعه إلى اليوم. وبهر الرسول عديًّا بسلوكه، وعرض عليه الإسلام كما عرض عليه دينه من النصرانية وما حدث فيها من الشرك بالله، وأسلم عدىّ وحسن إسلامه، وتبعه قومه وحسن إسلامهم جميعا.

وكان الرسول إذا قدم الوفود لَبِسَ أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك. وكانت الوفود تنزل فى ضيافته، وكان يجيزها حين تهم بمبارحة المدينة. وكانت تتعلم القرآن والفرائض، وكثيرا ما أعطى الوفود كتابا بما يجب عليهم من الزكاة أو الصدقة وكيف أنها فى الزروع بماء السماء العشر وبالدلو والآلات نصف العشر، ويعرِّفهم بما يجب عليهم من الزكاة فى الإبل والبقر والغنم.

وفود كثيرة

ووفود كثيرة للقبائل وفدت عليه فأعلنت إسلامها وأكرمها وأجازها من ذلك وفد عبس، وفزارة، وبنى سعد هذيم من قضاعة، وثعلبة وسعد بن بكر، وبهراء، وبَلىّ.

وفد بنى عامر

ووفد على الرسول ﷺ وفد بنى عامر، وفيهم من سادتهم وفرسانهم عامر ابن الطفيل وأربد بن قيس أخو لبيد الشاعر لأمه، وكانا عدوين لله ورسوله، وجاءا مع وفد قومهما، وهما يضمران الشّر للرسول والغدر، وكان عامر قد قال لأربد: إنى شاغل محمدا عنك بالكلام، فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُه بالسيف، وجعل يسأل الرسول سؤال الأحمق، ورسول الله ﷺ صابر، ويقول من حين لآخر: لا أجيبك على شئ مما سألت عنه حتى تؤمن بالله ورسوله. وأنزل الله على أربد الرعب فلم يرفع يدا. ولما يئس منه عامر قال للرسول مهددا: يا محمد

والله لأملأنّها عليك خيلا ورجالا. فلما انصرفا قال الرسول: اللهم اكْفِنى عامر ابن الطفيل وأربد بن قيس. وقال عامر لأربد: ما منعك أن تفعل ما تعاقدنا عليه؟ فقال له: لا تعجل عليَّ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبينه حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف؟ وارتحلا راجعين إلى ديارهم، حتى إذا كانا ببعض الطريق أصاب عامر بن الطفيل طاعونا فى عنقه، فأدخله أربد بيت امرأة من بنى سلول فجعل يصيح أغُدَّة كغدَّة البعير (سمى خراج الطاعون غُدَّة) وموتًا فى بيت سلولية (يريد أنه لا يموت فى ميدان البطولة والحرب) وواراه أربد التراب. ووصل إلى دياره، فلم يلبث إلا يوما أو يومين حتى ركب بعيرا فى حاجة، فنزلت عليه صاعقة من السماء أحرقته هو وبعيره.

عامل الروم على فلسطين يسلم

وأرسل فروة بن عمرو عامل الروم على فلسطين وما حولها ومن يليها من العرب وفدا إلى الرسول، وكان موضعه بمُعان من أرض فلسطين وكتب مع الوفد إلى الرسول بإسلامه، وأهدى إليه بغلة بيضاء، وعلم الروم فأصابوا منه غِرَّة مكنتهم من القبض عليه فأخذوه وألقوا به فى سجن ثم قتلوه.

وفود اليمن

وأخذت وفود كثيرة تَفِد على الرسول ﷺ من الجنوب واليمن، من ذلك وفد الأزد وسيدهم صُرَد بن عبد الله الأزدى فأمَّره على من أسلم من قومه وحَرْبِ من لا يزالون على الشرك، فحصر خثعم فى جُرَش وقاتلها وأسلمت وذهب منها وفد إلى الرسول يعلن إليه إسلامها. وقدم على الرسول وفد قبيلة مراد مع فروة بن مُسَيْك، واستعمله الرسول على قومه مراد وقبيلتى زُبيد ومِذْحج وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الزكاة. وجاء الرسول وفد زُبَيد ومعه فارسها عمرو بن معد يكرب الزبيدى. وقدم على الرسول وفد كندة مع الأشعث بن قيس فى ستين راكبا معلنين جميعا إسلامهم. وقدم عليه وفد قبيلة تجيب سائقين إليه حق الله من الزكاة فى أموالهم، فقال لهم ردوها على فقرائكم، فقالوا له: ما قدمنا إلا بما فضل عن فقرائنا، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد بهم سرورا وأكرمهم.

وقدم على الرسول ﷺ كتاب ملوك حمير بطاعتهم لله ورسوله وإسلامهم مع رسولين هما الحارث بن عبد كلال والنعمان قَيْلَ ذى رُعَيْن ومعافر وهمدان، فردَّ عليهم بكتاب وجَّهه إلى الرسولين ذكر فيه فريضة الزكاة على المسلمين ومقدارها، وعلى أهل الكتاب الجزية. ويذكر مقدار الزكاة فى الكتاب لأن كثيرين يخطئون فيها، يقول:

كتاب ملوك حمير

"على المؤمنين من الصدقة عن العقار عُشْر الحصيد مما سقته السماء من العَيْن (الحقل) وما سقاه الغَرْب (الدلو ومثله الآلات) نصف العشر، وأن فى الإبل الأربعين ابنة لبون (بنت ناقة داخلة فى السنة الثالثة) وفى الثلاثين ابن لبون (ولد ناقة داخل فى السنة الثالثة) وفى كل خمس من الإبل شاة، وفى كل عشر من الإبل شاتان، وفى كل أربعين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع (ولد البقرة فى سنته الأولى) جَذِع (صغير أو تبيعة جذعة)، وفى كل أربعين من الغنم راعية شاة. وإنها فريضة الله التى فرضها على المؤمنين فى الصدقة (الزكاة)".

مقدار فريضة الزكاة

٤

بقية الوفود فى سنة عشر – وفاة إبراهيم

أ – بقية الوفود فى سنة عشر

قَدِم على الرسول ﷺ فى شعبان لسنة عشر من الهجرة وفد قبيلة خَوْلان اليمنية، وكانوا عشرة وقالوا للرسول: نحن على من وراءنا، ونحن مؤمنون بالله عزَّ وجلَّ مصدِّقون برسوله، قدمنا زائرين لك، وسألهم الرسول عن صنمهم المسمى «عم أنس» الذى كانوا يعبدونه فى الجاهلية، فقالوا: بدَّلنا الله ما جئت به، ولا يزال بعض كبار السن من الرجال والنساء يتمسكون به، وسنهدمه حين نعود. وسألوه عن فرائض الإسلام فعرَّفهم بها، وأمرهم بالوفاء بالعهد وأداء

وفد خولان

الأمانة وحسن الجوار وأن لا يظلموا أحدا، وقال: إن الظلم ظُلُمات يوم القيامة. وأضافهم أياما وأجازهم وودَّعوه، وبمجرد أن عادوا إلى ديارهم هدموا صنمهم.

وفد بني محارب

وجاء الرسول وفد بنى محارب بنجد، وكانوا ردوه ردا قبيحا حين عرض عليهم نفسه ورسالته فى بعض مواسم الحج، وكانوا أغلظ العرب، فجاء منهم عشرة فى السنة العاشرة من الهجرة تائبين عمن وراءهم، فعرفهم وأضافهم، وقعد معهم يوما من الظهر إلى العصر يحدِّثهم عن فرائض الإسلام وما يجب عليهم من الزكاة، وأطال النظر إلى رجل منهم كان أساء إليه حين عرض نفسه عليهم فى سوق عكاظ، فقال للرسول ﷺ : كأنك يا رسول الله رأيتنى حينذاك. فقال له الرسول: نعم. فقال الرجل: لقد رأيتنى وكلمتنى وكلمتك بأقبح الكلام ورددت عليك بأقبح الرد، فالحمد لله الذى أبقانى حتى صَدَّقت بك. ثم قال: يا رسول الله استغفر لى من مراجعتى لك. فقال له الرسول: الإسلام يجبُّ ما كان قبله. وأضافهم أياما وأجازهم وعادوا إلى قومهم.

وفد غامد

ووفد على الرسول ﷺ فى شهر رمضان لهذه السنة من اليمن وفد غامد: حيّ من أحيائها أصحاب زرع وضرع، فعرَّفهم فرائض الإسلام وبعض أوامر الشريعة، وأكرمهم وأجازهم وعادوا إلى ديارهم. وقدم على الرسول ﷺ أيضا فى شهر رمضان سنة عشر وفد من الشمال من غسَّان، وكانوا ثلاثة نفر أسلموا، وقالوا للرسول: لا ندرى أيتبعنا قومنا أَوْ لا. وعلَّمهم فرائض الإسلام وشيئا من القرآن الكريم، وأجازهم وعادوا إلى قومهم وعرضوا عليهم الإسلام فلم يستجيبوا لهم. وأسلمت غسان فيما بعد وحسن إسلامها.

وفد سلامان

ووفد على الرسول عليه السلام فى شوال سنة عشر وفد من سلامان (عشيرة من قضاعة) وكان الوفد سبعة نفر فيهم حبيب بن عمرو السلامى، فأعلنوا إليه إسلامهم، وسأله حبيب: ما أفضل الأعمال؟ فقال : الصلاة فى وقتها. وصلوا معه الظهر والعصر، وشكوا له جدب بلادهم، فدعا الله لهم أن يسقيهم الغيث فى ديارهم، وأقاموا فى ضيافته ثلاثة أيام علَّمهم فيها فرائض

الإسلام، وأمر لهم بجوائز، فأعطى بلال كلا منهم خمس أواق. وعادوا إلى ديارهم فوجدوها مُطرت مطرا غزيرا.

إسلام نجران النصرانية

وكان الرسول ﷺ أرسل خالد بن الوليد فى ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا، فإن أجابوا أقام فيهم وعلّمهم شرائع الإسلام، وإن أبوا قاتلهم، فخرج خالد إليهم، ودعاهم فأجابوا وأسلموا، وأقام فيهم، وكتب إلى رسول الله يُعلمه إسلامهم. ثم عاد إلى الرسول مع وفد منهم فيه قيس بن الحُصَيْن. وعادوا إلى نجران فى بقية شوال أو فى ذى القعدة، وأمَّر عليهم الرسول قيس بن الحُصَيْن. وبعث إليهم الرسول عمرو بن حزم يفقّهُهُم فى الدين ويعلّمهم شرائع الإسلام ويأخذ صدقاتهم وكتب له كتابا ليحملهم عليه، بيَّن لهم فيه الأحكام والزكاة ومقادير الديات، وتوفى الرسول وعمرو بن حزم على نجران.

وفد النخع

وكان آخر وفد قَدِم على الرسول ﷺ وفد قبيلة النُّخْع اليمنية ويقال إن قدومهم عليه كان فى منتصف شهر المحرم سنة إحدى عشرة للهجرة، وكانوا مائتى رجل فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسول الله مقرِّين بالإسلام، إذ كانوا بايعوا فى اليمن عامله هناك معاذ بن جبل، وأكرمهم رسول الله، وعادوا إلى ديارهم.

ب- وفاة إبراهيم

كان مولد إبراهيم بن رسول الله ﷺ من مارية جاريته القبطية فى ذى الحجة من سنة ثمان من الهجرة ، وقد فرح به الرسول وكان قرة عين له، إذ كان له ولدان من خديجة: القاسم وعبد الله توفيا طفلين صغيرين فى حجر أمهما خديجة، وفجعه الموت فى أخواتهما - ما عدا فاطمة - بعد أن أصبحن زوجات وأمهات. وكان يزوره بعد فراغه من استقباله الوفود وقيامه برسالته وأدائه لحقوق المسلمين وحقوق أسرته، حتى إذا وجد عنده بعض الفراغ ذهب إلى

إبراهيم تدفعه إليه عاطفة الأبوة، وأخذ يحمله ويتملّى برؤيته، وإبراهيم ينمو، وينمو معه حبه له. واتخذ له منذ مولده حاضنة هي أم سيف، وكانت ترضعه وتسقيه من لبن ماعز أهداه الرسول إليها. وبلغ نحو ستة عشر شهرا، ومرض، فنقلته حاضنته إلى نخل بجوار مسكن أمه، وأخذت مع أختها سيرين تمرّضه. ولم يطل به المرض، وعلم الرسول أنه يحتضر في حجر أمه، فجاء إليه مسرعا فرآه يجود بنفسه، فوضعه في حجره وتماسك رغم حزنه الشديد وقال: "يا إبراهيم إنا لا نغني عنك من الله شيئا" وانطفأت الحياة في ابراهيم فأكبَّ عليه وعيناه تذرفان الدموع ثم قال: "تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب". ونظر إلى أمه وأختها وهما تبكيان أحرَّ البكاء، فقال لهما: إن له لمرضعا في الجنة إذ لم يكن أكمل رضاعته. وغَسَّلته حاضنته وحُمل على سرير صغير، وصلّى عليه، وكبَّر أربعا وشيَّعه، ومعه جماعة من الصحابة، إلى قبره في البقيع ودفنه فيه وسوَّى عليه التراب، ورشَّ عليه الماء قائلا: "الحق بسلفنا الصالح".

أم سيف حاضنة إبراهيم

وفاة إبراهيم

وصادف موت إبراهيم كسوف الشمس، فقال بعض الصحابة: إن هذه معجزة وإن الشمس انكسفت لموته، وذُكر ذلك للرسول ولم يتعزَّ بمثل هذا القول بل خطب فيمن حوله قائلا: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة". وذلك هدى الرسول لا يؤمن بخرافة ولا بشعوذة وكهانة.

رفض الرسول كون كسوف الشمس معجزة لوفاته

الفصل الثانى والعشرون

من حجة الوداع إلى وفاة الرسول

١

حجة الوداع

دخل العرب طوال السنتين التاسعة والعاشرة فى دين الله أفواجا، ولم تبق فى الجزيرة العربية قبيلة إلا جاء وفد منها يعلن إسلامه للرسول ﷺ ويتلقى عنه تعاليم الدين الحنيف. وكان يرسل إلى القبائل معلّمين يأخذونهم بتعاليم الإسلام. وممن أرسلهم معاذ بن جبل؛ أرسله إلى اليمن، وسأله: بم تحكم بين الناس؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسوله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيى لا آلو (أقصر). ووجد من بعض اليمنيين نفورا فكتب إلى رسول الله ﷺ ، فبعث إليه بعلى بن أبى طالب، ولم يجد النافرون مفرًا فاستسلموا. ودخلت اليمن جميعها فى الدين الحنيف راضية مرضية، وبلغ من رضاها وإقبالها عليه أن اعتنقه نصارى نجران حين نزل فيهم خالد بن الوليد، وقدم منهم وفد إلى الرسول معلنا دخولهم فى الإسلام. وبذلك أصبح العرب فى الجزيرة العربية شمالا وجنوبا وشرقا وغربا أمة إسلامية واحدة يظلها دين واحد، وتستظل بلواء حاكم واحد هو رسول الله ﷺ ، وتتّجه بجميع القارّات فى صلواتها الخمس يوميا إلى قبلة واحدة هى الكعبة.

وكان الرسول ﷺ فكر فى السنة التاسعة أن يحج بالناس ثم عدل لأنه كره أن يحج وفى الجزيرة ومكة نفر لا يزالون وثنيين فخشى أن يحج منهم أحد فى

السنة التاسعة يتضرع إلى آلهته أو يحج وهو عريان كما كانوا يصنعون فى الجاهلية. وأرسل على بن أبى طالب - وراء أبى بكر - كما مرّ بنا - بصدر سورة براءة، ينادى فيهم: لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وصدق حَدْسه فإن مشركى مكة والجزيرة جميعا دخلوا فى دين الله سريعا. وقرّت عيناه بإسلام من كان ظل وثنيا من أهل مكة عقب حجة أبى بكر تَوًّا، وبالمثل من كان ظل على إشراكه فى الجزيرة أعلن إسلامه، فعمَّها الدين الحنيف.

وأذّن رسول الله ﷺ فى الناس بأنه يحجُّ فى هذا العام العاشر، فقدم المدينة عرب كثيرون يريدون أن يقتدوا به فى الحج ويعملوا مثل عمله فيه ولم يكن حجَّ من المدينة إلى مكة طوال السنوات التسع الماضية، فهى حجته الأولى منها، وأيضا الأخيرة، ولذلك تسمى حجة الوداع، وكأنه ودَّع فيها أصحابَه. وسار من المدينة فى اليوم الخامس والعشرين من ذى القعدة متدهنا (متطيِّبا) مترجِّلا (مسرِّحا شعره مطيِّبه) لابسا ثوبين: إزارا ورداء بعد أن صلَّى الظهر بالمدينة، وقيل بل صلاّها بذى الحُلَيفة (على بعد ستة أميال من المدينة) ومعه أزواجه على الهوادج وأهل بيته وعامة المهاجرين والأنصار وعامة الحجاج من العرب وهم جميعا يلبسون أردية الإحرام البيضاء التى تسوِّى بين الأغنياء والفقراء فى أخوة الإسلام العظيمة وما دعا إليه من المساواة بين المسلمين. وصلَّى العصر من ذلك اليوم بذى الحليفة، وبات بها الليلة التالية ليلة الجمعة، وصلى بها الصبح ثم طيبته عائشة أم المؤمنين بيدها بطيب فيه مسك، ثم طلب الهَدْى وكان أهدى إلى الكعبة أكثر من ستين ناقة، وأشعر النوق فى جانبها الأيمن بما يدل على أنها هَدْى موجَّه إلى الكعبة. وقال للناس: من أراد منكم أن يهلَّ بحج وعمرة معا فليفعل، ومن أراد أن يهلَّ بعمرة فليفعل، ومن أراد أن يهل بحج فليفعل. وأمر من كان معه هَدْى أن يقرن العمرة بالحج مثله. وأحرم وركب راحلته القصواء، وسار وبين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله أمم لا يحصون كثرةً، يقال كان معه فى مسيرته تسعون ألفا، وقيل بل مائة وأربعة عشر ألفا. ويقال: بل أكثر من ذلك.

خروج الرسول وإحرامه

وكان يأمر المشاة أن يركبوا بُدْنه أو هديه – وأخذ منذ ركب ناقته، وسار يُهلّ بالتوحيد: "لبَّيْك الَّلهُمّ لبَّيْك، لبَّيْك لا شريك لك، لبَّيْك إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك" وهى تلبية يردِّدها المسلم طوال الحج إيذانا بأنه انفصل عن عالم الدنيا الى عالم ربه الروحى. وملابس الإحرام من أكبر مظاهر المساواة وأن لا فرق بين غنى وفقير وبالمثل صلاة الجماعة والجمعة. وكان يصلّى طوال الرحلة من المدينة إلى مكة قصرا ركعتين بدلا من أربع. وأمره ربُّ العزة أن يأمر الآلاف من أصحابه جميعا أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فكانت تتجاوب بهذا التوحيد فى النداء به الأودية والبوادى. ومرّ بامرأة فى محفّتها ومعها ابن صغير، فسألته: يا رسول الله ألهذا (وأشارت إلى ابنها) حجٌّ؟ قال: نعم ولك أجر. ولما وصل إلى سَرِف (على بعد عشرة أميال من مكة) قالت له أم المؤمنين عائشة إن العادة الشهرية جاءتنى وكانت قد أهلت بعمرة فقط، فأمرها أن تغتسل ولا تحل من عمرتها بل تدخل على نية الحج، وتعمل جميع أعماله ما عدا الطواف بالكعبة، فمتى تطهّرت طافت. وقال الرسول ﷺ للناس: من لم يكن منكم معه هدى وأراد أن يجعلها عمرة فليفعل ومن كان معه هدى لا يحلّ. وسار الرسول ﷺ حتى نزل وادى ذى طُوًى (بينه وبين مكة نحو ميل واحد)، فبات به ليلة الأحد لأربع من ذى الحجة فصلّى الصبح به.

ملابس الإحرام والتلبية من مظاهر المساواة

ودخل الرسول ﷺ مكة نهارا من الثَّنِيَّة العليا (كَداء) صبيحة يوم الأحد المذكور ونزل بالأبطح. ولما رأى البيت (الكعبة) رفع يديه قائلا: "اللهم زِدْ هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة، وزِدْ من عظّمهُ ممن حجّه واعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبِرًّا". ولما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة. وطاف بالكعبة سبعا راكبا على راحلته، مدخلا رداء الطواف تحت إبطه الأيمن مغطيا به إبطه الأيسر، وهو لبسُ المحرم بالحج كما هو معروف. ورمل (أسرع فى المشى) فى ثلاث من طوافه ومشى أربعا، وفى كل طوافه كان يستلم (يمسح ويقبّل) الركن اليمانى والحجر الأسود وكان يقول: بسم الله، والله أكبر. وكان يأمر من يستلمون الركن اليمانى والحجر الأسود أن يقولوا: بسم الله، والله

طواف الرسول

أكبر، إيمانا بالله وتصديقا بما جاء به محمد ﷺ . وقال فيما بين الركن اليماني والحجر الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وانتهى من طوافه خلف مقام إبراهيم أبي الأنبياء وصلّى عنده ركعتين قرأ في كل منهما سورة الفاتحة وسورتي: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ورجع إلى الحجر الأسود فاستلمه. ثم خرج إلى الصفا قائلا: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾. وقال وهو على الصفا: أبدأ بما يدأبه الله. وكان شاكيا ولذلك سعى على راحلته، ولما صعد الصفا استقبل البيت وكبّر سبع تكبيرات، وقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شئ قدير، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده". ودعا وصنع مثل ذلك على المروة. ولما نزل من الصفا إلى المروة هرول في بعض الطريق أثناء السعي وكان يقول في أثنائه "ربِّ اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم". والسعي بين الصفا والمروة ذكرى لهرولة هاجر بينهما باحثة عن ماء لطفلها إسماعيل. ومن ليس معه هدى يصوم ثلاثة أيام. ولما أكمل الطواف والسعي أمر كل من لا هدى معه بالإحلال (أى من إحرامه والتحوُّل إلى المتعة) لمن كان قارنا العمرة بالحج أو كان أحرم بالعمرة وحدها وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية الثامن من ذى الحجة، وهو يوم منى إذ يهلّون حينئذ بالحج، ويحرمون عند سيرهم إلى منى. وأمر من معه الهدى بالبقاء على إحرامه قارنا مثله، فلا يحل حتى ينحر الهدى، وكان أبو بكر وعمر وطلحة والزبير قد ساقوا الهدى فلم يحلوا. ولم تسق أمهات المؤمنين هديا وكن قارناتٍ حجا وعمرة فأحللن، ومثلهن فاطمة بنت الرسول وأسماء بنت أبى بكر ولم تحل أم المؤمنين عائشة من أجل العادة الشهرية كما أسلفنا. ورجع حينئذ على بن أبى طالب من اليمن، فوجد فاطمة بنت الرسول زوجته قد أحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت له: أمرنى بذلك أبى. فسأله، فقال له: صدقت. وكان قد ساق هديا معه، فأتمّ نوق الرسول مائة، وسأله الرسول: بم أهللت؟ قال: سقت الهدى، وقرنت العمرة بالحج. فقال له: إذن لا تحلّ مثلى. وسأل الرسولَ سراقةُ بن مالك عن هذه المتعة

السعى

الإحلال

أى الإحلال من العمرة ثم الحج بعد أيام منها هل هى لهذا العام وحده أم للأبد؟ فقال: إنها لأبد الأبد. وأقام الرسول ﷺ بمكة محرما أربعة أيام من يوم الأحد إلى صباح الخميس، لأنه لم يكن أحلَّ بسبب مرافقة الهدى له. وأمر كل من كان أحلَّ بالإهلال بالحج فى هذا اليوم يوم الخميس يوم التروية الثامن من ذى القعدة، وهو يوم التوجه إلى منًى.

وركب الرسول ﷺ فى هذا اليوم يوم التروية إلى منى وصلّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصبح يوم الجمعة ولم يركب من منًى حتى طلعت الشمس فركب إلى عرفة، وكان قد أمر بقُبَّة من شعر تضرب له بنمرة فى عُرْنة فاتجه إليها، ونام نومة الظهيرة فى ظل صخرة، وأزواجه فى قباب خزٍّ. ولما زالت الشمس أمر بالقصواء راحلته فرُحِّلَتْ له (فوضع عليها رحلها استعدادا لركوبه)، ولما ركبها قال: اللهم حجَّةً لا رياءَ فيها ولا سُمْعة. وأتى بطن عُرْنة على ناقته، وخطب الناس، فلما انتهى إلى آخر خطبته أذّن بلال، ولما فرغ من أذانه أناخ راحلته، وأقام بلال الصلاة، فصلّى عليه الصلاة والسلام الظهرَ قصرا: ركعتين، ثم أقام بلال الصلاة ثانية، فصلّى العصر قصرا: ركعتين جَمَعَ بين الظهر والعصر بأذانٍ وإقامتين فى وقت الظهر. ثم ركب حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته إلى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة وسط أرض عرفات، وجعل تل مجتمع المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، ولم يزل واقفا حتى غربت الشمس، ونزلت عليه حينئذ آية سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بعقيدته وشريعته وأعماله ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بأدائكم الحج ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ إلى الأبد. وكان أهل مكة يقفون فى الجاهلية بالمزدلفة والعرب يقفون بعرفة، فجعل الرسول الوقوف بعرفة للناس جميعا من أهل مكة وغيرهم، وكان عرب الجاهلية يسيرون من عرفة والشمس على رءوس الجبال كهيئة العمائم، فأقر الرسول السير من عرفة حين غربت الشمس.

خطبته فى عرفة

إكمال الدين

وسار الرسول ﷺ من عرفة عشيةً على راحلته إلى المزدلفة وأبو سفيان عن يمينه والحارث بن هشام عن يساره، ويزيد ومعاوية ابنا أبى سفيان على فرسين

أمامه، وكان يسير مسرعا قليلا، فإذا وجد فُسْحة بين الناس أسرع، وكان يأمر الناس بالتؤدة والسكينة. وصلّى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد لهما وبإقامتين، لكل صلاة منهما إقامة، ولم يسبّح بينهما شيئا ثم اضطجع رسول الله حتى قرب طلوع الفجر، واستيقظ فى الفجر، وأَذِن للضعفاء من الذرية والنساء فى التقدم من المزدلفة قبل الفجر أو قبل زحمة الناس، ورمى الذين تقدموا الجمرة مع الفجر. وصلّى الصبح فى المزدلفة بأذان وإقامة، وكانوا فى الجاهلية لا يسيرون من المزدلفة قبل طلوع الشمس. وركب راحلته قبل طلوعها ودعا الله وكبّره وهلّله ووحّده، وسار منها إلى المزدلفة، وحمل منها حصا العقبة، وأسرع فى وادى محسّر بالمزدلفة (وهو موضع بينها وبين منى)، ودفع إلى منى ولم يقطع التلبية حتى رمى جمرة العقبة وهو على راحلته سبع حصياتٍ، وهى الجمرة الكبرى، وكان يكبّر مع كل حصاة، وهو حَصًا صغير يُرْمى بأطراف الأصابع، رماه إلى الجمرة من بطن الوادى. وخطب الناس فى هذا اليوم، وهو يوم السبت يوم النحر خطبة جامعة مثل خطبة عرفة لأوامره ونواهيه التشريعية. وسار إلى المنحر بمنى ذكرى لأضحية إبراهيم حين قدم ابنه إسماعيل لربه وفداه بكبش عظيم، فنحر بيده ثلاثا وستين بدنة (ناقة) ثم أمر عليًّا أن ينحر بقية ما كان معهما إلى المائة، وضحى عن نسائه ببقر، ورمين الحصا ليلا يوم النحر، وقال إن منى كلها منحر، ومثلها فجاج مكة، وحلق شعره وحلق مثله بعض الصحابة، وقصّر بعضهم. ثم أمر أن يؤخذ من كل بدنة قطعة لحم، فجعلت فى قدر وطُبخت، فأكل هو وعلى من اللحم وشربا من المرق، وأمر عليًّا بقسمة لحومها وجلودها وأن لا يعطى الجازر منها شيئا وأعطاه أجرته، وطيبته عائشة بطيب فيه مسك.

النحر فى منى ذكرى أضحية إسماعيل

ثم نهض عليه السلام راكبا إلى مكة فى هذا اليوم يوم السبت، فطاف طواف الإفاضة قبل الظهر، وشرب من ماء زمزم بالدلو ومن نبيذ السقاية وهو ماء به زبيب، وصلّى الظهر فى ذلك اليوم بمكة. وكانت عائشة أم المؤمنين قد طهرت من العادة الشهرية بعد الوقوف بعرفة، فطافت فى ذلك اليوم. ثم رجع عليه السلام إلى منى فسُئل عما تقدم بعضه على بعض من الرمى والحلْق

تقديم بعض الأعمال على بعض

والإفاضة والنحر، وقال في كل ذلك: لا حرج. وكذلك قال في تقديم السعى بين الصفا والمروة على الطواف. وظل بمنى طوال أيام التشريق من باقي يوم السبت إلى مغرب يوم الثلاثاء. وكان في الأيام الثلاثة أيام الأحد والاثنين والثلاثاء يرمى الجمار في الأيام الثلاثة: سبع حصيات لكل جمرة مع التكبير، وأمر في آخر أيام التشريق وهو اليوم الثالث عشر من ذى الحجة أن تضرب له قبة أو خيمة بالأبطح في مكة وزار في مقامه بمكة قبر خديجة وقبر عمه أبي طالب.

الطواف قبل الرحيل

وأمر الناس أن لا ينصرفوا عن مكة حتى يكون أخر عهدهم بها الطواف بالكعبة، ورخص في ترك ذلك لمن عليهن العادة من النساء. ودخل مكة في الليل سحرا قبل صلاة الصبح من يوم الأربعاء، وصلى الصبح ثم رجع إلى منى، وأمر بالرحيل. وكانت مدة إقامته بمكة منذ دخلها إلى أن خرج منها عشرة أيام.

عودته إلى المدينة

ولما عاد ورأى المدينة كبّر ثلاث مرات، وقال: "لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده". ثم دخل المدينة.

٢

أوامرٌ ونواهٍ في حجة الوداع

لا أقصد الأوامر والنواهي في أداء فريضة الحج، فقد بيّنها الرسول عليه السلام قولا وعملا في حجة الوداع، وعُنيت في الصفحات السابقة أن أنقل بدقة أداءه لها وكل ما اقترن به من أقواله وأوامره ونواهيه المتصلة بفريضة الحج. والأوامر والنواهي التى أريد الوقوف عندها قليلا هى نواهيه وأوامره في خطبتى يوم عرفة ويوم النحر بمنى، فقد اشتملتا على كثير من التشريعات الإسلامية، ونراه يدعو بالرحمة لمن يسمع مقالته فيعيها ويؤديها ويقول: رب حامل فقه ليس

لديه ما يفهم به الفقه، ورب حامل فقه لمن يفوقه فى فهمه. وتتوالى أوامره ونواهيه.

حرمة الدماء والأموال والأعراض

وأول ما ذكر منها فى الخطبتين حرمة الدماء والأموال والأعراض، وبذلك حرَّم الإسلام إلى الأبد غارات القبائل بعضها على بعض كما كان يصنع العرب فى الجاهلية وما كان يتصل بها من سفك الدماء ونهب الأموال، وهى حرمة تجعل المسلمين ينتهون عن القتل ثأرا وتصون أموالهم فلا يظلمهم فيها أحد بربا وغير ربا ولا ينهبها، وتصون الأعراض فلا يذكرهم أحد بسوء، ولا يغتابهم، ويشبِّه الله فى سورة الحجرات من ينتهك أعراض الناس ويغتابهم بما يسيئهم بمن يأكل لحم أخيه الميت تقبيحا لهذا الخلق الذميم، فضلا عما يحمله من إثم عظيم.

أداء الأمانة

ويوجب الرسول ﷺ على المسلمين أن من كانت عنده أمانة ائتمنه عليها أحد وطلبها منه صاحبها أن يؤديها إليه، وأوجب الله ذلك على المسلمين فى القرآن الكريم بمثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، فعلى المسلم أن يؤدى الأمانة إلى صاحبها الذى ائتمنه عليها فى موعدها المضروب، أما إن جحدها وقال لصاحبها: "ليس لك عندى شئ" فإنه يكون قد خانها، وخيانة الأمانة من أعظم الذنوب والآثام.

تحريم الربا

ويحرِّم الرسول على المسلمين الرِّبا، وهو كل قرض يؤخذ به أكثر منه، لأنه يقتضى أخذ مال المقترض بغير عوض يؤديه له صاحب المال، وهو ابتزاز واضح من الأغنياء فى الأمة لأموال المحتاجين وأخذها دون أى مقابل. وتوعد الله صاحبه فى سورة آل عمران بالعذاب الشديد، إذ بدلا من أن يواسى الغنىُّ المحتاجَ فى الأمة يستغله أسوأ استغلال، وكانوا فى الجاهلية، وخاصة فى مكة يتعاملون بالربا فى التجارة تعاملا واسعا، ولذلك قال الرسول: ألا إن ربا الجاهلية موضوع أى باطل، وأول ربا أبدأ ببطلانه ربا العباس بن عبد المطلب.

تحريم طلب الثأر

وأوجب الرسول ﷺ على المسلمين أن ينبذوا كل الضغائن بينهم وطلب الثأر نبذًا نهائيا، لأنه يؤدى إلى تسلسل القتل فى عشيرتى المقتول والقاتل، إذ

كانت العشيرة حين يُقتل أحد منها تأخذ بثأره، فتقتل شخصا أيًا كان من عشيرة القاتل، وترد عشيرته بقتل أحد أبناء عشيرة القتيل، وكان ذلك يتسلسل فى العشيرتين، وهو أحد الأسباب المهمة التى كثرت من أجلها الحروب فى الجاهلية، فأبطل الإسلام قتل الثأر، وأقام مقامه القصاص، ورد حقّه للدولة فهى التى تحقق فى القتل لتعيين القاتل وقتله بصاحبه قصاصا عادلا، ولذلك يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، إذ أبطل قتل الثأر المتسلسل مما جعل الرسول يقول تأكيدا لذلك فى حجة الوداع: "وإن دماء الجاهلية موضوعة" أى باطلة إذ تقوم على قانون الثأر وقد أبطله الإسلام، ويقول: وإن أول دم أبدأ ببطلان الثأر فيه دم إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب. وكان صبيا مسترضعا فى بنى سعد، فأصابه حجر أو سهم من هذيل فقتله.

مكرمتا السدانة والسقاية

ويقول إن المكارم المتوارثة عن الجاهلية باطلة إلا ما أقرّه الإسلام، مثل مكرمة السِّدانة وهى خدمة الكعبة وكانت لبنى عبد الدار القرشيين، وجعلها الرسول لهم وحدهم فى الإسلام إلى الأبد، ومكرمة السقاية وهى ما كان يُسقاه الحجاج من الماء المطروح فيه الزبيب، وكانت لبنى هاشم، وكان يتقلدها فى عهد الرسول عمه العباس بن عبدالمطلب.

حكم القتل

وذكر الرسول حكم القتل، فقال إن كان عمدا أو متعمدا فحكمه القَوَدَ أى القصاص، وهو قتل الدولة للقاتل بالقتيل، وإن كان شبه عمد أى حدث بدون قصد كالقتل بعصا أو بحجر أصاب شخصا عفوا ففيه مائة بعير تُهْدَى إلى أهل المقتول.

تحريم تأجيل بعض الأشهر الحرم

ثم قال: أيها الناس وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ والنسيء: التأجيل والتأخير. وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا يؤجلون ويؤخرون فى الأشهر الحرم حسب حاجتهم من الغزو والقتال، فلم يلتزموها فى الأشهر الثلاثة المتوالية: ذى القعدة وذى الحجة والمحرم

وهى التى يحرم فيها القتال بجعل ثالثها المحرم، وكانوا يجعلونه صفرا، وأيضا كانوا يجعلون الحج عامين فى كل شهر، فيحجون فى المحرم عامين وفى صفر عامين إلى أن وافت حجة أبى بكر فى ذى القعدة قبل حجة الرسول وكانت فى ذى الحجة كما مرَّ بنا. والله ينعى عليهم هذا الصنيع. ويلزمهم الرسول بأن يكون الحج دائما فى ذى الحجة بقوله: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" أى أن الحج أصبح وقته فى ذى الحجة كما أراد الله دون أى تأجيل له أو تقديم، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ ا للهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة منها متواليات هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد هو رجب الذى بين جمادى وشعبان، وكانوا يعتمرون فيه.

التوصية بالنساء

وأوصى الرسول بالنساء خيرا وبالرفق بهن غاية الرفق، وقال إن للرجال عليهن حقا، ولهن حق على الرجال. فأما حق الرجال فهو أن لا يؤتين أحدا إلى فُرُشهم وأن لا يدخلن أحدا يكرهونه إلا بإذنهم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فقد أذن الله للرجال أن يمنعوهن من الخروج وأن يهجروا الزوجات فى المضاجع، وأن يضربوهنَّ ضربا غير مبرِّح (خفيفا)، ويقول: فإن انتهين عن عصيانهم وأطعنهم، فلهن حق عليهم رزقهن وكسْوتهن بالمعروف، وهو حق دائم فى الإسلام، إذ على الرجل لزوجته أن ينفق عليها مهما كانت ثرية. ثم يقول: وإنما النساء عندكم عوانٍ (بمنزلة أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتموهن بكلمة الله (وليت المأذونين الذين يقومون على عقد الزواج يذكرون ذلك حين العقد، فإن فى ذلك توثيقا عظيما للعقد). يقول الرسول ﷺ : فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا.

الأخوة الدينية

ويوصى الرسول المسلمين بالحفاظ على الأخوة الدينية تاليا قوله تعالى فى سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وهى أخوَّة تجعل على المسلم لإخوانه المسلمين حقوقا وواجبات هى نفس واجبات الأخوَّة الحقيقية أخوَّة النسب. فهو يمد إليهم يده بالعون إذا احتاجوه. وهى أخوَّة يرعاها الله ويتعهدها

كما جاء فى الحديث النبوى، وما أروع تصوير الرسول عليه السلام لها فى قوله: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى". ويقول الرسول: "لا يحلُّ لأمرئٍ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفسٍ منه".

ويوصى المسلمين بقوله: لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله وسنتى. وهو ينهى المسلمين عن الشقاق شقاقا يستل فيه بعضهم السيوف لبعض، ويقطع فيه بعضهم رقاب بعض، وكأنما غابت عن الصحابة هذه الوصية سريعا، فإذا فتنةٌ عمياء صماء تنشب فى خلافة عثمان الخليفة الثالث ويسفك فيها دمه، وينقسم المسلمون ويكفّر بعضهم بعضا ويحملون السيوف ويشهرونها ويضرب بعضهم رقاب بعض كما حدث فى خلافة على وحروب الجمل وصِفّين.

النهى عن الشقاق

ويقول الرسول: أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. وهو بذلك يحض على المساواة المطلقة بين أفراد النوع الإنسانى فى جميع البقاع والأقطار والشعوب والأمم، إذ جميع الناس شرقا وغربا وشمالا وجنوبا متساوون فى أبوة واحدة وأصل واحد. وهذا المبدأ الإسلامى القويم هو التفسير الصحيح لقيام الإمبراطورية الإسلامية الضخمة سريعا من الهند شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا، إذ جعل الإسلام المواطنين فى كل تلك الأنحاء يشعرون بمساواة حقيقية بينهم وبين جميع الناس. ويكمل الرسول هذا المبدأ بقوله: "وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى، ولا فضل لأحمر (أبيض) على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى". وبذلك سوّى بين العرب والعجم من المسلمين، ورد التفاضل بينهم إلى التقوى. وبالمثل سوّى بين البيض والسود، وهو بذلك أقام بين المسلمين قانون المساواة الخالد فى الإسلام، فجميع الناس عربا وغير عرب وبيضا وسودا متساوون، ولا يتفاضلون إلا بتقوى الله. وبالتالى ألغى نهائيا العصبية القبلية بين القبائل، فلا مضرية ولا يمنية، وألغى العنصرية بين الأمم والشعوب، فلا أبيض ولا أسود، إذ الناس متساوون، وقد ألغيت صور التفاضل

المساواة ولا عصبية ولا طبقية ولا عنصرية

بينهم ماعدا التفاضل بفضيلة الإسلام، وهى تقوى الله حق تقواه. والإسلام – بذلك – عمل بقوة على تثبيت مبدأ المساواة بين أفراد المسلمين وبينهم وبين الأمم والشعوب منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، بينما لا تزال بعض الحكومات تتعثر فى تطبيق هذا المبدأ الإنسانى إلى اليوم بين أفراد شعبها من البيض والسود.

العنصرية فى القرن العشرين

٣

إكمال الدين

فى يوم عرفة نزل على الرسول ﷺ الوحى بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ والمراد بالدين فى الآية الشريعة الإسلامية وما تضمنته من العقيدة وقواعد الإسلام وآخرها الحج وشرائع المعاملات والعقود مثل عقد الزواج، ويقول تعالى لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بحيث اتضحت الشريعة الإسلامية اتضاحا تاما بالقرآن والسنة فى العبادات والمعاملات والفروض فى جميع أزمنتها الحاضرة والمستقبلة، بحيث أصبح دين الإسلام كاملا يؤدى لكل عصر فى آجل الأيام حاجاته التشريعية. وهذا – فى رأينا – معنى إكمال الدين أو الإسلام فى الآية الكريمة.

القرآن والسنة أوضحا الشريعة

وليس فيها ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن الدين كان ناقصا. وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بإكمال الدين فى الآية إكمال انتصاره، إذ دخلت الجزيرة العربية جميعها فى دين الله، ولم يعد بها وثنى يحج إلى البيت كما حدث فى حجة أبى بكر بالسنة التاسعة للهجرة، فقد آمن بالإسلام عقب حجته من كانوا قد ظلوا وثنيين من أهل مكة والجزيرة العربية، وهو تفسير بعيد. وقال مفسرون آخرون إن المراد بإكمال الدين إكمال تشريعات الحلال والحرام، وهو أيضا تفسير بعيد، لأن الحلال والحرام كان مقررا ومعروفا فى الشريعة قبل يوم عرفة. وأوضح من ذلك أن يقال إن المراد بإكمال الدين إكماله بفريضة الحج

التى تعد قاعدة أساسية فيه والتى نزلت على الرسول فى أدائه الآية الكريمة. واقتضت حكمته أن تنزل تشريعات الإسلام متدرجة ليتمكن رسوخها فى نفوس المسلمين. ومما لا خلاف فيه أن تشريعات الإسلام تكاملت حينئذ، ويقول ابن عباس إنه لم ينزل بعد هذه الآية تحليل ولا تحريم ولا فرض، فقد تمت الشريعة الإسلامية، والله لذلك إنما يحكى واقعا. وحقًّا القرآن الكريم لا يحمل الوقائع الجزئية التى ستحدث للناس فى المستقبل إنما يحمل قواعد كلية، وبالمثل لا يحمل العقود والمعاملات اليومية بين الناس، إنما حملت بعض ذلك السنة كما فى قوله جلّ شأنه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾. فالدين قد بيَّنه القرآن الكريم والسنة النبوية بيانا تاما كاملا.

المذهب الظاهرى ينكر الإجماع والقياس

واستدل أصحاب المذهب الظاهرى بهذه الآية على صحة مذهبهم لأن الله يقول إنه أكمل الدين بالقرآن وبما أمر فيه من الأخذ بسنة رسول الله، فهما كافيان فى التشريع، يؤخذ منهما، ولا داعى لأن نضيف إليهما فى الأخذ بأصول الدين ما أخذت به الجماعة من الإجماع والقياس. غير أن الجماعة (من أصحاب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل) اعتدّت بالإجماع والقياس فى أصول الدين، لأن الرسول أخذ بهما فهما داخلان فيما أوجب الله على المسلمين أن يأخذوا به من سنة الرسول. أما الإجماع فلما جاء فيه من قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾؛ فإذا أجمعت الأمة على رأى واحد فى حكم وجب الأخذ به، ويقول الرسول ﷺ : "لا تجتمع أمتى على ضلالة"، ويقول: "من فارق الجماعة قيد (قدر) شبر فقد خلع رِبْقة (عهد) الإسلام". ومن أجل النص على الإجماع فى القرآن والحديث جعلته جماعة المسلمين الأصل الثالث فى أصول الدين بعد الكتاب والسنة. وأما الاجتهاد وما يداخله من القياس فقد نص الله عليه بقوله لرسوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، أى أن الله أنزله بالأحكام الكلية

الجماعة تأخذ بهما فى أصول الدين

التي تندرج فيها الأحكام الجزئية. واستدل بذلك الإمام الشافعي وفقهاء الأمة على وجوب الاجتهاد في الشريعة على مالم يأت فيه نصٌّ في الكتاب والسنة. وفي الحديث أن الرسول حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لتعليم الناس أمور الدين قال له وهو يودعه: بم تقضي؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله. قال له: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو (أقصِّر). قال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسوله. فالاجتهاد وما يطوى فيه من القياس نصٌّ عليهما القرآن والسنة كما نصَّا على الإجماع، وبذلك عُدَّ القياس الأصل الرابع من أصول الدين.

الاجتهاد في الشريعة

وذهبت المعتزلة إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هو إكمال بيِّنات الدين وإظهار شرائعه، والآية واضحة ولا تحتاج إلى هذا التأويل. ويقول تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. ويجوز أن يكون المراد بالنعمة إكمال الدين، فتكون الصيغة مؤكدة لما قبلها، ويجوز أن يكون المراد بالنعمة الدين أي الإسلام، ويجوز أن يكون المراد بإتمام النعمة انتهاء ما كانوا يلقونه من الخوف فأصبحوا آمنين. ويقول الله للمسلمين: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ أي أنه هو الدين المرضى عند الله بشهادة قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

المعتزلة

٤

مرض الرسول ووفاته – استخلاف أبي بكر

أ– مرض الرسول ووفاته

عاد الرسول ﷺ من حجة الوداع قرير العين، فقد دخلت الجزيرة العربية في دين الله، ولم يحج إلى الكعبة بيت الله في مكة مشرك. وظل في بقية ذي الحجة والمحرم وصفر هانئا بما أكرمه الله به من انتشار الإسلام في الجزيرة العربية جنوبا وشمالا وشرقا وغربا. وجاءته الأنباء بأن ثلاثة كذابين ادَّعوا النبوة في

قومهم، وهم الأسود العَنْسى بصنعاء فى اليمن وطليحة بن خويلد فى بنى أسد ومسيلمة بن حبيب فى اليمامة وخطب فى أولهم وآخرهم فقال: أيها الناس إنى رأيت ليلة القدر وأُنْسيتها ورأيت فى ذراعىّ سوارين من ذهب فكرهتهما، ونفختهما فطارا وأوّلتهما هذين الكذابين: صاحب اليمن الأسود العنسى وصاحب اليمامة مسيلمة، فأما الأسود فقتلته امرأة له كان قتل زوجها الأول، وأما مسيلمة فقتله خالد بن الوليد فى حروب الردة واستراح قومهما منهما، وأما طليحة فكان جمع جموعا من قومه - بعد غزوة أُحُد - لحرب الرسول، وعلم الرسول بصنيعه، فأرسل إليه أبا سلمة عبد الأسد فى مائة وخمسين رجلا، ووصل بمن معه إلى مائهم فوجدهم علموا بمقدمه وتفرقوا فى كل وجه ولم يلق أحدا فرجع إلى المدينة، وانضم طليحة بعد ذلك إلى قريش فى غزوة الأحزاب. ودخل بنو أسد بعد ذلك فى الإسلام، وكان وفدها من الوفود التى قدمت على رسول الله معلنا دخول قومه فى دين الله، وظل طليحة نافرا من الإسلام، وأعلن فى بنى أسد نبوته بعد وفاة الرسول ﷺ وتبعه بعض قومه وقضى خالد بن الوليد فى حروب الردة على ثورته، وعاد إلى الإسلام وحسن إسلامه.

ثلاثة متنبّئون

وكان الرسول ﷺ يطيل التفكير فى غزوة مؤته التى حدثت بين العرب والروم فى جمادى الآخرة من السنة الثامنة للهجرة، واستشهد فيها زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة قادة الجيش بهذا الترتيب، وفكر فى غزوة تبوك أن يوجهها إلى الروم وأن يأخذ لهم بثأرهم جميعا، ثم رأى العودة ولم يتم فيها قتال. حتى إذا عاد من حجة الوداع، وانضوت الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام أخذ يفكر فى غزو ديار الروم جنوبى فلسطين ردا على غزوة مؤته وهزيمة المسلمين فيها. وفى اليوم الرابع من آخر صفر أمر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم فلما كان الغد دعا أسامة بن زيد - وكان شابا فى نحو العشرين من عمره - وقال له: سِرْ إلى موضع مقتل أبيك زيد بن حارثة أول قائد لحملة مؤتة، فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتك على الجيش الذاهب إلى غزو الروم، فأَغِرْ صباحا على أهل أُبْنَى (بالقرب من مؤتة) فى البلقاء (جنوبى فلسطين) فإن ظفّرك

تولية أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم

(نصرك) الله فأقْلِل اللّبث (الإقامة) فيهم وخذ معك الأدلاّء، وقدِّم العيون والطلائع معك.

مرض الرسول

وبعد يومين بدأ مرض رسول الله فى يوم الأربعاء الثامن والعشرين من صفر، إذ حُمَّ – وقيل إنها كانت حمة الملاريا – وفى صبيحه اليوم التالى عقد لأسامة لواء بيده، ثم قال له: اغْزُ باسم الله وفى سبيل الله. ولم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتُدب فى الاشتراك بتلك الغزوة، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن أبى وقاص. وتكلم نفر وقالوا كيف يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب رسول الله ﷺ من هذا القول غضبا شديدا، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر، وحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس ما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة، ولئن طعنتم فى إمارتى له فلقد طعنتم فى إمارتى أباه زيدا من قبله وايمُ الله إن كان زيد لخليقا بالإماره وإن ابنه من بعده لخليق بها، فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم. وذكر المعترضون السن، ولم يذكروا أن أباه كان عبدا وحرره الرسول، ولعل ذلك كان فى نفوسهم. والرسول لم يكن يهمه فى تعيين قواده السن ولا المكانة الاجتماعية، وبذلك غرس فى أتباعه روح المساواة التى سيحملونها إلى العالم. وتعيين أسامة قائدا لهذا الجيش أحد خطوطها المهمة. وتم لأسامة إعداد جيش، غير أنه لم يسرع به انتظارا لما يحدث بالرسول إذ كانت الحمى تشتد عليه يوما بعد يوم، فعسكر بجيشه فى الجرف على بعد فرسخ من المدينة.

لا يراعى السن ولا المكانة الاجتماعية فى تولية القيادة

توقع الرسول اقتراب وفاته

وكان الرسول ﷺ يظن أن السنة العاشرة آخر سنوات حياته، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، وكان جبريل يعرض عليه القرآن مرة واحدة كل سنة، فلما كانت السنة العاشرة عرض عليه القرآن مرتين، فقال : ما أظن أجلى إلا قد حضر، فاعتكف فى رمضان العشر الأواسط والعشر الأواخر وكأنما كان ذلك نذيرا بوفاته. ولعل ذلك ما جعله يقول فى خطبته بحجة الوداع: "أيها الناس اسمعونى أبيِّن لكم، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا". وكانت آخر سورة نزلت على رسول الله سورة النَّصْر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ

ا الله وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ قال ابن عباس: أَعْلَم الله رسوله بهذه السورة باقتراب أجله.

أول شكواه الصداع

وكان أول ما شكا منه الرسول ﷺ فى مرضه الصداع، واشتد به المرض وهو فى بيت زوجته ميمونة وقيل بل فى بيت زوجته زينب، فاستأذنها واستأذن نساءه جميعا أن يمرَّض فى بيت عائشة، فأذِنَّ له، وكانت تنتابه فى مرضه حمى شديدة وآلام معوية قاسية. وكان يقول لها فى مرضه: ما زلت أجد ألم الطعام الذى أكلته بخيبر، وما زالت تلك الآلام تعاودنى وجعلها بعض أصحابه السبب فى مرض الرسول. ولعل السبب الحقيقى هو ما بذله من جهود شاقة أشد المشقة فى رسالته ودعوته أهل مكة إليها ثلاث عشرة سنة، وكل يوم فيها يحمل إليه عنتا شديدا من قريش وعدوانا عليه، وظل طوال سنوات هجرته يجاهد العرب جهادا شاقا عنيفا لم يهدأ إلا فى السنتين الأخيرتين، ومع ذلك ظل يشغل بنشر الإسلام فى الجزيرة وخارجها، وكأنه لم يجد راحة أبدا، مع ما قاساه فى مكة هو وأصحابه من الاضطهاد الشديد. كل ذلك أثر فى جسده، وجعله لا يتحمل الحمى والصداع اللذين ألما به نحو أسبوعين.

استئذان الرسول زوجاته أن يمرَّض ببيت عائشة

خروج الرسول إلى البقيع لتوديع الشهداء

وأمر الرسول ﷺ بالخروج إلى البقيع ليستغفر لشهدائه ويصلى عليهم، ويكون ذلك توديعا للأموات قبل الأحياء، فوثب من مضجعه فى جوف الليل - كما تقول عائشة - فقالت له: إلى أين؟ فقال لها: أُمرت أن أستغفر لأهل البقيع. وكان إذا خفَّ عنه ما يجد خرج فصلّى بالناس. واشتد به وجعه فأمر بسبع قرب من الماء تراق عليه وأريقت، وقال حين عجز عن الخروج إلى المسجد: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس؛ وكأنما رشحه بذلك لخلافته. وكان أبو بكر يصلى بالناس الصبح ذات يوم فخرج الرسول إلى المسجد متوكئا على العباس وعليٍّ ليصلى وراءه وشعر به أبو بكر فحاول أن يتأخر ليؤم الرسول الناس فمنعه، وصلى وراءه ركعة ثم أتم الركعة الثانية. وهى إشارة كريمة منه ثانية لخلافته له.

صلاة أبى بكر بالناس

وخرج فى يوم السبت العاشر من ربيع الأول فى السنة الحادية عشرة من الهجرة عاصبا رأسه فخطب فى أصحابه، وكأنه أراد أن يودعهم، وبدأها بالاستغفار لشهداء يوم أُحُد ثم قال: إن عبدا من عباد الله خُيِّر بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله. فبكى أبو بكر وقال: بأبى وأمى أنت، نفديك بآبائنا وأمهاتنا، وبأنفسنا وأموالنا. فقال: على رِسْلك يا أبا بكر. ثم قال: سُدّوا هذه الأبواب الشوارع إلى المسجد إلا باب أبى بكر، فإن أمنَّ الناس علىَّ فى صحبته وبماله أبو بكر فلو كنت متخذا فى الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا. وكان هذا ترشيحا واضحا لخلافة أبى بكر له، وكان بابه غرب المسجد. ثم ذكر أسامة ابن زيد فقال: أنفذوا بعث أسامة. وكرَّرها ثلاثا، وقال: لئن قلتم فى إمارته فلقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله، وإنه – والله – لخليق بالإمارة، وأبوه من قبله، وكان أبوه من أحب الناس إلىّ. ومما أوصاهم به حينئذ أن يجيزوا الوفود القادمة إلى المدينة من الجزيرة بما كان يجيزها به، وأن يحسنوا إلى الأرقاء فى معاملتهم، وأن لا يجتمع فى الجزيرة العربية دينان، وكان من دان بالمجوسية على الخليج العربى اعتنق الإسلام فى حياة الرسول، وبالمثل اعتنقه نصارى نجران على يد خالد بن الوليد فى حياته، فلم يبق فى الجزيرة مجوسى ولا نصرانى، وبقى بعض اليهود فى خيبر وغيرها من مدن الحجاز، وخرجوا منها فى خلافة عمر بن الخطاب. وقال الرسول: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

الخطبة الأخيرة

ترشيح أبى بكر للخلافة

واشتد الألم والوجع بالرسول يوم الأحد، وكان طوال مرضه لا يشكو ولا يتوجع ولا يتأوه، ودعا بقدح ماء كان يضع فيه يده ويمسح بها على وجهه، وكان يبتسم لعائشة، وهى تحاول تخفيف الحرارة عن وجهه بخرقة مبللة. وكان يغيب عن وعيه فى لحظات من مرضه، وظلت عائشة تعطف عليه وتقوم بواجبها فى تمريضه مما جعله يستعيد قواه أحيانا فيخطب الناس أو يصلى معهم. واستعاد بعض قوته فى صبيحة آخر أيامه فى دنياه يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول، فخرج ﷺ فصلّى بهم، وكأنه خرج ليودِّعهم الوداع الأخير، واستبشر الصحابة بخروجه وصلاته بهم، وظنوا أن المرض سيزايله، وعاد إلى فراشه عند

يوم وفاة الرسول

عائشة، واشتدت به الحمى والألم، وأخذ يقول: اللهم أعنى على كُرَبِ الموت وسكراته. وجعل يكرِّر: إلى الرفيق الأعلى، مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. حتى إذا كان وقت الضحى الذى دخل فيه المدينة مهاجرا وبنفس اليوم شخصت عيناه ولم تطرفا، وسقط رأسه فى حجر عائشة، فعرفت أنه لبَّى نداء ربه، فوضعت رأسه فى رفق على وسادة، وأغلقت عينيه وقبَّلت جبين زوجها الذى شغفت به، رسول الأمة، وغطت جسده ببردة، والدموع تسيل على خدَّيها، وتماسكت، وانطلقت إلى فناء كانت نساء الرسول ينتظرن فيه الأخبار فى قلق، وأبلغتهن النبأ المروِّع. وعلا الصياح والعويل فى دور نساء الرسول وسرعان ما ذهب عمر إلى المسجد حيث اجتماع الصحابة، وكانوا قد رأوا الرسول فى الصباح، فلم يصدق كثير منهم الخبر، حتى عمر لم يصدق موته! وظنها وعكة وستزول، وخطب فى الناس قائلا: "إن المنافقين يقولون إن رسول الله ﷺ تُوُفِّى، والله ما مات رسول الله ﷺ ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم، والله ليرجعنَّ رسول الله كما رجع موسى فليقطَّعنَّ أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات". وفى أثناء ذلك جاء أبو بكر فسار إلى بيت ابنته عائشة ووجدها بجوار الرسول باكية، فكشف البردة عن وجهه، وقبَّل جبينه، وقال: ما أطيبك حيًّا وما أطيبك ميتا، ثم ذهب إلى المسجد وسمع مقالة عمر وهو يرددها فى الناس، فقال له: اجلس يا عمر، فأبى، فتنحَّى عنه، وقام خطيبا فانصرف الناس إليه، فقال أبو بكر خطبته المشهورة: "أيها الناس! من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت". ثم تلا الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾. قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلا الآية حتى دهشت ولم تحملنى رجلاى فوقعت على الأرض، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات وعرف ذلك الصحابة.

صدمة عمر

ب – استخلاف أبى بكر

ولما أيقن الناس أن الرسول ﷺ قد توفى تفرّقوا، وانحاز فريق من الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة، وانحاز المهاجرون ومعهم أبو بكر وأُسَيْد ابن حُضَير إلى بنى عبد الأشهل، وكان الرسول فى بيت عائشة لم يُفْرَغْ من أمره، قد أغلق أهله الباب من دونه.

وأتى شخص إلى أبى بكر وعمر فأنبأهما نبأ الأنصار وأنهم انحازوا إلى سعد ابن عبادة، وقال لهما أدركوا الناس قبل أن يتفاقم الأمر، فقال عمر لأبى بكر: انطلق بنا إلى هؤلاء الأنصار حتى ننظر ما هم عليه. وفى طريقهم لقيهم من الأنصار رجلان، فذكرا للمهاجرين أن الأنصار قد اتفق رأيهم على سعد بن عبادة فأسْرِعوا واقضوا بأمركم، فقال عمر: والله لنأتينهم. وأتوهم، وقام خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم – يا معشر المهاجرين – رهط منا وقد تجمع نفرٌ من قومكم، وإذا هم يريدون أن ينحُّونا عن أصلنا، ويغصبون منا الأمر. وأراد عمر أن يتكلم، فقال له أبو بكر: على رِسْلك (تمهل) يا عمر ثم قال أبو بكر موجها خطابه للأنصار: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل. نحن المهاجرون أول الناس إسلاما، وأمسهم رحما برسول الله وقُدِّمنا عليكم فى القرآن، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾. فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء – وكان جالسا بين عمر وأبى عبيدة – وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبى عبيدة بن الجراح. وكثر اللغط وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف، فنادى عمر على أبى بكر: ابسط يدك يا أبا بكر، فبايعه عمر بخلافة الرسول، وهو يقول: إنك أحبنا إلى رسول الله، وقد ولاّك الصلاة بالناس مكانه فأنت خليفته، ونحن نبايعك، وقام المهاجرون فبايعوه فى سقيفة بنى ساعدة، ثم بايعه الأنصار.

وفي اليوم التالي اجتمع الناس فجلس أبو بكر على المنبر، وتكلم عمر قائلا للناس: إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة عامة على ملأ منهم ورضا بعد بيعة السقيفة. وتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

خطبة أبي بكر عقب توليه الخلافة

"أيها الناس أما بعد فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيِّركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة والضعيفُ فيكم قويّ عندي حتى أُريح (أردَّ) عليه حقَّه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

وبعد بيعة أبي بكر الصديق البيعة العامة أقبل الناس على جهاز رسول الله ودَفْن جثمانه الطاهر، ولم يحضر غسله وتكفينه إلا أهل بيته، غسله علي بن أبي طالب وكان الفضل ابن عمه العباس وشقران مولاه يصبان عليه الماء والعباس عمه يساعدهم، وقيل كان معهم أسامة بن زيد. ولما فُرغ من غسله كُفِّن في ثلاثة أثواب: ثوبين يمانيين وبُرْد حِبَرَة أُدرج فيه إدراجا. واختلفوا أين يُدْفن، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قُبض نبيٌّ إلا دُفن حيث يُقْبَضُ، فرُفع الفراش الذي توفي فوقه، وحُفر له تحته. ثم دخل الناس يصلون عليه جماعات وهو مسجًّى: دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أُدْخِلَ النساء، وبعدهن أُدخلَ الصبيان. ودُفن في وسط الليل ليلة الأربعاء؛ ونزل قبره علي بن أبي طالب والفضل بن العباس وأخوه قُثم وشقران مولاه.

ولما تُوفِّي أبو بكر بعد خلافته دُفن بجواره ﷺ ، ثم دفن عمر بجوار أبي بكر، وظلت عائشة تعيش سعيدة في حجرتها بجوارهم. ورأت حين حضرتها

الوفاة أن تُدفن بالبقيع: مقبرة أهل المدينة. وطلبت فاطمة ابنة الرسول من أبى بكر أن يعطيها من تركة الرسول من أرض خيبر وفدك فأجابها بقول الرسول: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة". وهكذا خرج الرسول ﷺ من الدنيا لا يملك شيئا صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين.

تم . والحمد لله رب العالمين

الفهارس

فهرس الأعلام

ب

ح

خ

غ

ف

ق

ن

هـ

فهرس القبائل والطوائف والأمم

فهرس البلدان والمواضع

ص

ط

ظ

ع

غ

فهرس الغزوات والمسيرات والبعوث

أولا: غزوات الرسول:

ثانيا: مسيرات الرسول إلى:

ثالثا: بعوث الرسول :

المحتويات

الفصل الثالث: محمد من الميلاد إلى الزواج من خديجة

الفصل الرابع: من صفة محمد وخديجة إلى المبعث

الفصل الخامس: من المبعث إلى إيذاء الرسول وأصحابه

الفصل السادس: من الهجرة إلى الحبشة إلى حصار الرسول والمسلمين فى الشِّعْب

الفصل السابع: مواقف قريش وأحداث مختلفة

الفصل التاسع: من الهجرة إلى الإخاء والمساواة فى تكوين الأمة الإسلامية

الفصل العاشر: من الزكاة وزواج الرسول بعائشة إلى وفد نصارى نجران

الفصل الثانى عشر: غزوة بدر الكبرى

الفصل الثالث عشر: من آثار بدر إلى مباحث قرآنية

الفصل الرابع عشر: من غزوة أُحُد إلى إجلاء بنى النَّضير والزواج بأم سَلَمة وزينب

الفصل الخامس عشر: من غزوة الأحزاب وحصار بنى قريظة إلى بعوث ومسيرتين للرسول

الفصل السادس عشر: من غزوة بنى المصطلق إلى عمرة الحُدَيْبِية

الفصل السابع عشر: من غزوة خيبر إلى دعوة ملوك الدول الأجنبية والمقوقس إلى الإسلام

الفصل الثامن عشر: من بعوث متعددة إلى إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص

الفصل التاسع عشر: من بعوث ومناوشات إلى فتح مكة

الفصل العشرون: من غزوة حنين إلى تبوك

الفصل الحادى والعشرون: من إسلام ثقيف إلى وفود بقية القبائل وموت إبراهيم

الفصل الثاني والعشرون: من حجة الوداع إلى وفاة الرسول

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

فى الدراسات الإسلامية

- الوجيز فى تفسير القرآن الكريم

الطبعة الأولى، ١٠٥٢ صفحة

- سورة الرحمن وسور قصار "عرض ودراسة"

الطبعة الرابعة، ٤٠٤ صفحة

- محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى، ٤٧٦ صفحة

- عالمية الإسلام

الطبعة الأولى، ١١٩ صفحة

- الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة

الطبعة الأولى، ٣٣١ صفحة

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى

الطبعة الحادية والعشرون، ٤٣٦ صفحة

- العصر الإسلامى

الطبعة السابعة عشرة، ٤٦١ صفحة

- العصر العباسى الأول

الطبعة الخامسة عشرة، ٥٧٦ صفحة

- العصر العباسى الثانى

الطبعة التاسعة، ٦٥٧ صفحة

- عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية -العراق-إيران)

الطبعة الثالثة، ٦٨٨ صفحة

- عصر الدول والإمارات (الشام)

الطبعة الثالثة، ٣٥٦ صفحة

- عصر الدول والإمارات (مصر)

الطبعة الثالثة، ٥٠٠ صفحة

- عصر الدول والإمارات(الأندلس)

الطبعة الثالثة، ٥٥٢ صفحة

- عصر الدول والإمارات (ليبيا – تونس – صقلية)

الطبعة الأولى، ٤٤٦ صفحة

- عصر الدول والإمارات(الجزائر-المغرب الأقصى-موريتانيا-السودان)

الطبعة الأولى، ٧٠٦ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة الثالثة عشرة، ٥٢٤ صفحة

- الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة الثانية عشرة، ٤٠٠ صفحة

- التطور والتجديد في الشعر الأموي

الطبعة العاشرة، ٣٤٠ صفحة

- دراسات في الشعر العربي المعاصر

الطبعة التاسعة، ٢٩٢ صفحة

- شوقي شاعر العصر الحديث

الطبعة الثالثة عشرة، ٢٨٦ صفحة

- الأدب العربي المعاصر في مصر

الطبعة الحادية عشرة، ٣٠٨ صفحة

- البارودي رائد الشعر الحديث

الطبعة الخامسة، ٣٠٨ صفحة

- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية

الطبعة الخامسة، ٣٣٦ صفحة

- البحث الأدبي (طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره)

الطبعة السابعة، ٢٧٨ صفحة

- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور

الطبعة الثانية، ٢٥٦ صفحة

- في التراث والشعر واللغة

الطبعة الأولى، ٢٧٦ صفحة

- في الشعر والفكاهة في مصر

الطبعة الأولى، ١٢٨ صفحة

في الدراسات النقدية

- في النقد الأدبي

الطبعة الثامنة، ٢٥٠ صفحة

- فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة، ٣٦٨ صفحة

- في الأدب والنقد

الطبعة الأولى، ١٥٢ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

❁ البلاغة: تطور وتاريخ

الطبعة العاشرة ، ٣٨٠ صفحة

❁ المدارس النحوية

الطبعة الثامنة، ٣٧٦ صفحة

❁ تجديد النحو

الطبعة الرابعة، ٢٨٢ صفحة

❁ تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا مع نهج تجديده

الطبعة الثانية، ٢٠٨ صفحة

❁ تيسيرات لغوية

الطبعة الأولى، ٢٠٠ صفحة

❁ تحريفات العامية للفصحى

الطبعة الأولى، ٢٠٣ صفحة

في مجموعة نوابغ الفكر العربى

❁ ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة، ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربى

❁ الرثاء

الطبعة الرابعة، ١١٢ صفحة

❁ المقامة

الطبعة الخامسة، ١٠٨ صفحة

❁ النقد

الطبعة الخامسة، ١١٢ صفحة

❁ الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة

❁ الرحلات

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة

في التراث المحقق

❁ المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (الجزء الأول)

الطبعة الرابعة، ٤٦٨ صفحة

❁ المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (الجزء الثانى)

الطبعة الرابعة، ٥٧٢ صفحة

❁ كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة، ٧٨٨ صفحة

❁ كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة، ١٥٢ صفحة

❁ الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثالثة، ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة "اقرأ"

❁ العقاد

الطبعة الخامسة

❁ البطولة فى الشعر العربى

الطبعة الثانية

❁ الفكاهة فى مصر

الطبعة الثانية

❁ معى (١)

الطبعة الثانية

❁ معى (٢)

الطبعة الأولى

صدر حديثا
للدكتور شوقى ضيف

- الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة
- عالميـــــة الإســـــلام
- فى الشـــعر والفكاهـــة فى مصر
- فى النقـــــــد والأدب

دار المعارف

و

الدكتور شوقي ضيف

رحلة عمر معًا

وأكثر من خمسين كتابًا



رقم الإيداع	٢٠٠٠/٢٤٤٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5963-2

١/٩٩/١٠٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذا كتاب عن سيرة خاتم المرسلين محمد الذى أرسله الله نورًا وهدى ورحمة للبشر جميعًا ، كى ينقذهم من الضلال ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، من الإيمان بوحدانية ربهم وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، مع استشعار المساواة بين الناس ، وتحقيق السعادة الكاملة لهم فى الدنيا والآخرة .



دار المعارف

٠٣١٧٧٩/٠١

